

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية

في ثلاثة اجزاء تبحث عن حياة العرب السياسية
والاجتماعيــة في العصر الجاهــلي الى ظهور
سيد قريش « محمد صلى الله عليه وسلم »

تأليف
معروف الارناؤوط
عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الثالث

رايات ذي قار

الطبعة الثــانية

مطبعة فتى العرب بدمشق عام ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

الفصل الاول

قريش

تحدق بمكة جبال عارية جرداء ، لا يروق مشهدها المتأمل ، ولا يستهوي شحوبها من يحب العزلة ويطمئن اليها ، وتشق هذه الجبال التي يزحم بعضها بعضاً والتي تبين لرائيها في ساعة الطفل حمراء بلون الدهان ، اودية كأباء مغدرة ، ماتت فيها الألوان والصور الزاهية ، وتتخللها طرق ضيقة ملتوية ، تعصف بها اعراف الرياح السافيات ووراء هذه الجبال الوردية صحراء دائمة الترديد والتسجيع ، تغشاها كمدة الموت ، تحت سماء سدفاء اشبهت في سكونها وصمتها وذهولها جثة محنطة

يطل السائح على هذه الجبال ، فلا يلبث ان يعزف عنها شاعراً بحاجته الى افق جديد يطمئن فيه الى الظل ، ولكنه لا يكاد يجفو هذا الفضاء العريان حتى يطل على فضاء آخر تغشاه الوان كابية لا تحمل الى نفسه هذا العزاء الذي يشتاقه في الظلال الرطبة الندية ، وكلما خيل اليه انه جد قريب من الانتقال الى مشهد خالب ، بدت له سماوات فيحاء لا انقطاع لها ، على انها سماوات كامدة خابية يمشي الموت في مداها الفريغ ، ثم ينحدر السائح عن هذه الجبال فتصافح عيناه بحراً عجاجا من الرمال القائظة ، تقوم على اواذيه المغتلمة تحت عصف الشمأل العاتية صخور رمادية دائمة الأظلام ، ثم هو يمشي متوغلا في الأبعاد الشاسعة رجاة ان يلمح ورداً او نسرينا ، فتقع عيناه على غيوم تائهة في الفضاء الواسع ، ثم يتراءى له ظل هائم في مدى الرمال ، فتعاف روحه التحديق الى الغيوم والى الظل ، ثم يتوغل في سيره ، ثم يغرق في ايغاله حتى تطلع عليه خيام منصوبة في قلب الصحراء كأنها اشرعة الفلك التي تنقلها ريح المساء الساجية الى الشاطيء فيأنس بمشهد هذه الخيام ، وترتاح نفسه الى ارتيادها ، فيسرع اليها مسرفاً في ركضه ، وهو آمل في

بلوغها فتتراخى عنه منكمشة في عزلتهـــا البعيدة فلا يلبث ان يحس عجزاً في بلوغ نواحيهـــا .

ولقد يبدو الفجر مصحياً جميلا ، فيروقه ان ينظر الى الشمس وهي تصعـد في الأفق ولـكن هذا المشهد الدائم الذي لايتبدل في عينيه يطفيء في نفسه ذلك الذكاء الذي يبدع الوف الألوان اذ لايجد في السفوح وفي الذروات وفي الصحراء النائمة وراء الجبال غير العقم ، وغير الموت ،.

تظل الألوان مائتة في عيني السائح خلال النهار حتى اذا اغسق رجا ان يجد في سكون الليل تبدلا في هذه المشاهد ولـكن جبـال مكة في الغسق الداجي لاتلبث ان تحمل اليه رطوبة قاسية ممزوجة بحبات من البرد اللاذع ثم تتراءى له تلك الذروات والمرتفعات شاحبة ناصلة لايحلق فيها طائر . ولا يهزهـــا صوت الحداء ! واكثر ما يشجي المسافر في الليل العبوس القمطرير هذه الجبال التي لم يستبح حرمهـا منـذ اقدم العصور فاتح اجنبي فهي لاتزال في عزلتها القاسية متمردة ثائرة تحمل في اعماقها همس العصور المستبقة التي مرت بها كحلم في رؤياه

تقوم مكة على سفوح هذه الجبال الوسنانة . وتبدو منازلها وقصورها وآطامها المتناثرة كالكواكب حول بناء الكعبة المستدير ، ولـكن مكة التي بناهـا القرشيون قبل التوراة بعصور مديدة لم تقبس من المدن الوارفة الظل شيئاً من بهائها ورونقها فلبثت كجبالها عريانة من الزهر والعشب والماء .

ولعل اكثر ما يشجي النفس في مكة ، هذا الغرق العميق الذي يحفها في لياليهـا المعتدلات التي يتطاغى فيها سيل الحر ، ففي عشية من هذه العشيات صعد ورقة بن نوفل حكيم العرب الأشهر في الطريق القصيرة الممتـــدة من دار الندوة الى الكعبة متسدراً بثوبه الأبيض الفضفاض سائراً بين رجلين تخيرهما من بين عبيد خديجة بنت خويلد الاسدية ، فلما اطل على المكان الفضاء بين دار الندوة والكعبة ، ومقام ابراهيم خيل اليه انه يسمع ارعاداً شديداً فترســـل في مشيته وانصت الى الضجيج

وعيناه المغمضتان لاتبصران غير الصور الربداء التي الف التحديق اليها منذ احتوى عينيه ذلك الليل السرمد الذي منعه ان يطل على الماء والسماء والكلاء .

وكانت الأصوات الهامسة في جوار دار الندوة تصل الى سمعه كجرجرة السيل فلم يفته وهو يصغي اليها غرض اصحابها فهز رأسه وهمس قائلا : لقد ضلت قريش طريقها

قال هذا ، وواصل سيره حتي مر بمقام ابراهيم فوقف حياله مطرقاً خاشعاً ، يغشاه صمت عميق كصمت هذه الصحراء النائمة .

ولم يطل وقوفه حيال مقام ابراهيم ، فعزف عنه شاخصاً الى الكعبة ، فلما صافحت يده بابها راح سابحاً في زواخر تأملاته . ومثل له وهمه صورة بشعة لأحلام مضنية حملتها اليه تلك الأصوات التي خرقت سمعه قبل لحظات والتي اخذت تتجدد زاخرة موارة حتى كادتصفها يترع هذه الجبال العريانة فهم برجعة الى الناحية التي صدرت تلك الأصوات عنها لينصح اصحابها بالرفق والتؤدة ولكنه لم يفعل فقد خشي ان يسمعه هؤلاء الصاخبون المتمردون كلمات لا يحبها فحنى هامته ودخل الكعبة من بابها الصغير .

وفي تلك الاثناء انتشر الهمس بين مقام ابراهيم والكعبة ، واخذ الناس يتقاطرون من كل فج عميق الى الساحة المقدسة التي اعتادوا ان يمروا بها خلال طوافهم بالأصنام ، وانضم الى هؤلاء بعض الخارجين من دار الندوة ، فاذا الساحة تضيق بجموعهم المتدافعة .

وفي خفة البرق المومض تعارفت الوجوه واختلط الهمس بالهمس ، ثم راحت العيون تحدق في الجبل العالي المطل على الوادي ، فصافحت نظراتها حصناً قديماً تبين شرفاته وابراجه على ذروة مرتفعة ثم عادت الاصوات تهمس وتصخب !

وصاح صائح في تلك الفينة ؟

— لقد تباطأ في المجيء الى دار الندوة ، وقال احدهم :

لقد حملته كبرياؤه على ان لايحفل بنا . .

وقال آخر : لعله رفض دعوتنا ؟

وقال آخر : لنذهب اليه . .

وقال احدهم : لعله استعذى الخلوة في هذا المساء بين جدر هـذا الحصن ففضل ان لاينصت الى اصواتنا ونحن معه على موعد .

وفتح باب الكعبة في تلك الاثناء فشخصت الجماهير اليه ، وقد هزتها خفقته وراح الهمس منتشراً في الصفوف فقال قائل .

— انظروا الى القادم ، فلعله الرجل الذي ننتظر . .

وظهر ورقة بن نوفل على باب الكعبة وهو لايبرح مستنداً الى عكازه بين عبيد خديجة بنت خويلد فصاح الجميع :

— هذا هو ورقة . .

فقال ورقة :

— انصح لكم ايها السادة ان لا تطرقوا باب ابي طالب في هذا المساء . نعم دعوا الرجل في عزلته فهو لايأنس بهذا الضجيج الذي يرتفع الى الفضاء !

فهزت نبرات صوته قلوب الجماهير . وراحت اللحاظ ترنو اليه من جديد وقد تبين الغضب فيها . واستتلى ورقة قائلا :

ماذا ؟ ايشجيكم ايها السادة ان تنعم جزيرة العرب بعافية وهي العانية الرزحى المفتقرة الى شباب يتجدد ، المحتاجة الى حياة تنمو وتبسم . الراغبة في سلم طويل تستقبل مفارحه ولذاته بعد معارك لاهبة في يوم داحس ويوم الفجار؟ فتعالى ضحك الجماهير حتى غص الفضاء بعصفها . وتقدم احد السادة من ورقة وامسك بثوبه ثم رمى الجماهير بنظرات حمراء وقال ساخراً :

— اما كان خليقاً بهذا الاعمى ان يظل عازبا عن الناس في صومعته فلا يطلع عليهم بهذه السحنة الكامدة الربداء ؟ .

ورفع صوته كأنه يتعمل استنفار ورقة الى الغضب وقال مخاطباً الشيخ :

الا تعود ايها السيد الى منزلك ، انه غير بعيد من هنا وفي وسع رجالي ان يبلغوا بك نواحيه قبل ان يشتد غسق الليل ، ثق ايها السيد بتوجعي لخطبك . . بل ثق ان مشهدك البائس ليس مما يروق في هذه الليلة .

وكان ورقة لايبرح مستنداً الى عكازه فاثارت هذه الكلمات الموجعات حميته وحماسته فرمى عكازه الى الأرض وراح ممسكا الرجل بيديه ثم شخص بعينيه المطفأتين الى الجماهير واردف قائلا :

— لتصدقني قريش الحديث ! اليس محدثي في هذه الليلة عمرو بن هشام ؟

فصاح الجميع وقد ارعدوا من الخوف :

— بلى .

فسكن روع ورقة ، وزالت حدته ، واشرق وجهه بضياء غريب ، وراح صائحاً

— لتسمع قريش في هذه الليلة لعنتي الحمراء ، بلى لتسمع قريش التي اعماها البغض ومنعها الحسد ان تنظر الى بهاء الحقائق صوتي العاصف المرنان ولتشهد وهي حيال هذا البيت المقدس الذي لايجوس خلاله اللصوص الارداء صراعاً بين الفضيلة المنبثقة من ضمير الله وبين الرذيلة المنبثقة من ضمير الشيطان . . .

لقد اهانني عمرو بن هشام ، ولكن لعنتي لن تفارقه بعد هذا اليوم ، انها ستصحبه في مسائه وصباحه ، في غدوه ورواحه ، في هجعته وفي يقظته ؛ في صعوده الجبل ، وفي انحداره الى الوادي .

فصاح الجميع :

— هذا كثير . . .

فتابع ورقة صياحه قائلا :

— بلى هذا كثير ، ولكن عمراً قد الحق بي اهانة لاتغسل ، وربما خيل الى احدكم ان عيني الهامدتين لا تنظران الى هذه الدودة الصفراء التي تقرض نفوسكم. نعم ربما خيل الى احدكم ان ورقة بن نوفل الرجل الذي حرمته السماء نعمة

الضياء يجهل هذه الأغراض البشعة التي جرفتكم الى هذه النواحي كما تجرف السيول العارمة الحجارة الصغيرة . . اذا كنتم تعتقدون ذلك ، وكنتم تصرون على الخطأ الذي دفع بكم في هذه الليلة الطامسة النجم الى هـــذه الحوالي فاني باعث فيكم صوتا يهزكم الى الحقيقة ؟

اي قريش ! لقد كان اجتماعكم في هذه الليلة الى هذا المكان المقدس للتآمر عـــلى الفضيلة ، انكم تطلبون الى ابي طالب ان يتخلى عن حمايته لأبن اخيه ، بل لقد غلوتم في النكاية حتى اردتم ابا طالب على تسليم ابن اخيه اليكم .

فصاح احد القرشيين قائلا :

ــ ولكن محمدا عبث بآلهتنا . .

ــ لقد عرفتك ايها الرجل . . الست عتبة بن ربيعة ؟

ــ نعم انا من اسميت !

ــ الخير لك ولأخيك شيبة ، ولأبي سفيـان بن امية بن عبد شمس ، ثم للوليد ابن المغيرة المخزومي ثم لجميع من يحتويهم هذا المكان من سادة قريش وصناديدها، ان تستلوا من قلوبكم الواجدة هذا الحيوان الأخرس الذي يسمونه البغض . .

فصاح الوليد بن المغيرة :

ــ لقد جئنا ابا طالب في المرة الاولى فقلنا له ان ابن اخيك قد عاب في ديننـا وسفه احلامنا وضلل اباءنا فانهه عنا وخل بيننا وبينه فلم يفعل (١)

فقال ورقة :

ــ انه لن يفعل . .

فصاح ابو لهب ،

ــ وفي هذه المرة اعتزمنا ان نقول له ، ان لم تنهه ايها الرجل نازلناك واياه حتى يهلك احد الفريقين (٢)

---

(١) و (٢) تاريخ ابي الفداء ج ١ ص ١١٩

فصاح ورقة قائلا :

انه لن يفعل . . . انه لن يفعل . . .

فوثب ابو جهل الى ورقة وهز يده قائلا :

ـــ من قال لك انه لن يفعل ؟ . . اسمعت حديثه : قل ، اجب ؟

ـــ اخلق بك ايها السيد ان تعتزل الناس في رؤوس الجبال حتى لا يحفزك حقدك الاعمى الى جريمة يتداعى لها سقف بيتك فأن من هدرت دمه في هذا المســاء لم يزل يخلع على بيت ابيك الحياة والضياء والمجد . .

ـــ اذن فقد استهواك حديث هذا الرجل ؟

ـــ ولـكنه رسول الله . . .

فصاح ابو لهب بن عبد المطلب قائلا :

ـــ اتريد دليلا على استهتاره بنا ؟ . . لقد دعا محمد اعمامه الى طعام في بيته ، فلما فرغنا من الاكل عرض علينا دينه ، فجفوناه فلم يثنه اخفاقه في سعيه الاول عن دعوتنا الى بيته كرة اخرى ، فجئنا اليه فلما اكلنا وشربنا التفت الينا قائلا « ما اعلم انسانا في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد امرني ربي ان ادعوكم اليه فايكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ فصدفنا عن استماع قوله ، وكدنا نهم برجـــوع ولـكن علياً ابن اخي وهو صبي لم يكتمـل نضجه بعد نهض قائلا : انا يارسول الله اكون وزيرك عليهم فاخذ محمد برقبة هذا الغلام وقال ان هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا (١) فاحفظنا ان يترك امرنا لصبي ، واحنقنا ان ينزع محمد الى العبث بدين ورثناه عن ابائنا ، ورأينا عليه اجدادنا . .

فقال ورقة :

ـــ ولـكن هذا الرجل الذي تجفونه وتتنكرون له كان الى الامس احب الناس

---

(١) تاريخ ابي الفداء ج ١ ص ١١٩

الى نفوسكم ، الا تذكر ايها السيد يوم نهدت قريش الى تجديد بناء الكعبة ، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود عصفت ريح الخلاف بالقبائل وراح الناس يقتتلون على رفعه الى موضعه ثم اتفقوا على ان يحكموا اول داخل من باب الحرم فكان محمد اول داخل ، فلم يأبوا ان يكون ذلك الحكم فارادكم على ان تضعوا الحجر في ثوب وان تمسك كل قبيلة بطرف من اطرافه وان ترفعه الى موضعه ففعلتم ذلك واخذ محمد الحجر عند وصوله الى موضعه فوضعه بيده ورضيت قريش بحكمه (١) ومضت تدعوه بالصادق الأمين ثم عاد محمد الى بيته محفوفاً با كبار قريش وحبها وجلالها

فصاح ابو لهب :

ـ انك تدافع عن زوج ابنة عمك . .

ـ ولكنه ابن اخيك ايها السيد وهو اقرب الناس اليك . واجدرهم بدفاعك ..

وادرك ورقة ان لعنته اثرت في الجماهير فراقه ان يسكت، وان لا يمكث طويلا بين هذه الجموع الصاخبة النافرة فعزف عنها متوغلا في طريق يدفع الى منزله وقد استفاضت شعوره البيضاء على كتفيه فاخذ نسيم الليل يلاعبها ويحركها ، فطفقت الجماهير تنظر اليه وهو يمشي مستنداً الى عكازه بين عبيد خديجة ، ولم يستطع واحد ان يستوقفه بل لم يفكر واحد من هؤلاء القرشيين الذين طبعتهم الكبرياء بطابعها في منعه الذهاب فقد ظلت تلك اللعنة الحمراء التي رمى بها ابا جهل مثاراً لمخاوفهم وشجونهم فطفقوا ينصتون الى خفق اقدامه على الحصى حتى توارى شبحه في ظلمات الغسق .

فتنهد عمرو بن هشام ومضى قائلا :

ـ لقد لعنني هذا الشيخ . . .

ثم ضحك ضحكة جشاء مرهوبة وانثنى قائلا :

ـ انطلقوا ايها السادة الى منزل ابي طالب ، قال ذلك وراح يتقدم الجموع

---

(١) تاريخ ابي الفداء ج ١ ص ١١٦

الغفيرة الى ناحية الجبل فلحق به رفاقه تحت ظلال الليل .

وكان منزل ابي طالب قائماً على ذروة رفيعة في الجبل القريب ، فتسلق القرشيون الصخور كالسوائم ، وساروا في شعاب ضيقة حجبتهم عن الأنظار ، فلما بلغوا نصف الطريق عرض لهم شبح ينحدر عن الذروة . فروعهم مشهده ، فوقفوا حائرين مشدوهين وخيل اليهم ان الأرض التي يطئونها عادت تحمل اليهم في هذه الليلة اشباحاً تهلع لها نفوسهم فهموا برجعة ولكن ذلك الشبح الذي اخافهم وروعهم ظل على انحداره اليهم حتى كاد يخالطهم فحدقوا اليه لعل خياله تهديهم الى حقيقته ولكنهم لم يتبينوا شيئاً من صورته فقد كان هـذا الشبح متلفعاً برداء فاحم يغطي رأسه ويحجب وجهه فتطاغى خوفهم وانكمشت نفوسهم فجعلوا يتهامسون ويتسارون

وظل الشبح دائباً على انحداره اليهم حتى صاقبهم وفي تلك الأثناء انصاح الأفق وبرز القمر في سماء صحو ، فتراءى لهم الوادي الذي خلفـوه من ورائهم ولاحت ابراج البيت القرشي المنفرد فزال الخوف الذي اعتصرهم فوضعوا ايديهم عـلى سيوفهم واطمأنوا الى قدرتهم على الصمود لهذا الشبح المباغت .

ولكن ذلك الشبح الذي ركب متون هذه الليلة الخرساء ظل منحدرا اليهم حتى خالطهم فاحاطوا به وتبينوا ملامحه على ضـوء القمر فاذا هو آدمي يتكلم ويبصر كما يتكلمون ويبصرون فدلف اليه ابو جهل بن هشام وسأله قائلا :

ـ من القادم ؟

ـ امرأة من كندة !

فصاح الجميع :

ـ امرأة من كندة ؟ وفي مثل هذه الليلة الليلاء ؟

فقالت المرأة :

ـ نعم . وهل في طواف امرأة بهذه الجبال العارية ما يريبكم وانتم كثرة ؟

ـ اين كنت في ليلتك هذه ؟

— ايعنيك كثيراً ان تعرف اين كنت في هذه الليلة ؟

— نعم فمن اي النواحي اتيت ؟

— من هذه الناحية ، قالت هذا واشارت بيدها الى الجبل ثم استتلت قائلة :

— ولكن اي حافز حفزك الى الاهتمام بأمري ؟

— اتعرفين هذا الذي تخاطبين ؟

— لا يعنيني ذلك ولكن يعنيني كثيراً ان اتابع سيري في الطريق التي اخترتها .

فصاح ابو لهب قائلا :

— ولكن محدثك الذي تسألين عنه ؟ .

— من هو ياسيدي ؟

— عمرو بن هشام ؟ . . .

فضحكت المرأة حتى غص الفضاء بضحكها وقالت مردفة :

— ان من ذكرت لطائر صغير مهيض الجناح وهو الى ذلك لا يستطيع التحليق في الأفق الذي حلق فيه « سيد قريش »

فاحنقت كلماتها عمراً فتقدم اليها واجفاً راجفاً وقال لها :

— ولكن « سيد قريش » قد مات .

— ما اردت عبد المطلب بن هاشم في حديثي ايها السيد .

— اذن فمن الرجل الذي تعنين يا امرأة ؟

فقالت ابو لهب :

— يخيل الي انها تريد ابا طالب ؟

فقالت . كلا ما اردت هذا ولا ذاك ! . .

— من هو سيد قريش الذي تعنين ؟

— اتريدون ان ادلكم على هذا السيد ؟ ناشدتكم المروءة ان تفسحوا امامي الطريق فاني اخشى ان يحتويني الليل وانا بعد بعيدة عن بيتي .

ـــ ولكنك لم تذكري لنا اسم رجلك الذي تعتزين به ، فمن يكون هذا الذي لا يستطيع احد ان يحلق معه في الأفق ؟

ـــ اتسألون عنه وليس فيكم من لا يعرفه..

فالتمعت عيونهم ببروق مخوفة ، وراحت قلوبهم تخفق وقد كادوا يلمسون مغزى حديث المرأة فقال لها عمرو بن هشام :

ـــ احترسي ان يكون محمد من تتحدثين عنه ؟

فسكتت وزال ذلك الخوف الذي علق بنواحي نفسها ثم تقدمت من عمرو قائلة

ـــ دعني اواصل سيري ايها السيد اذا كان لا يروقك ان اذكر محمداً امامك ·

فصاح عمرو قائلا :

ـــ اتؤمنين بهذا الرجل الذي اخذ يوغل في الطعن على آلهتنا ؟

فرفعت عينيها الى عمرو وحدجته بنظرات يبين فيها كبر شديد واستتلت قائلة:

ـــ نعم ياسيدي . نعم لقد آمنت بهذا النبي الذي ارسله الله الى العالم بشيراً ونذيراً قلت لكم افتحوا لي الطريق ؛ فاني احب ان ابلغ بيتي قبل ان تحتويني سدفة الليل ·

ـــ اذن فقد كنت في بيت ابي طالب ؟ يالك من بائســـة ، لقد تركت دين ابائك حتى رحت تتحدثين عنه بمثل هذه اللهجة المتكبرة · ·

فصاح رفاقه .

ـــ قل كلمتك ايها السيد فنقتلها . .

فضحكت المرأة ضحكة متشنجة وقالت مردفة :

ـــ مرحى . مرحى ايها الابطال المساعير الذين فاتهم مجـــد المعركة الحمراء في حرب الفجار فارادوا البحث عنه في قتل امرأة ضعيفة لم تشأ ان تشاطرهم هذه العبادة الجافة التي تغرقهم في دجناتها، مرحى مرحى لهذه النفوس التي لم يبل ظمأهـا رحيق الشرف في يوم داحس ، فجاءت تستسيغ دمي · اي عمرو بن هشام ، وانتم يافتية قريش وصناديدها افتحوا عيونكم والقوا باذانكم للسمع فاني ملقيـــة عليكم

نصيحة احب ان تعملوا بها ، لأنها قد تحملكم الى الينابيع الثرة الدافقة التي تقتل عطش نفوسكم. انّ في العراق اليوم صراعاً بين الفرس والعرب ، صراعاً دامياً بين اخوة لكم يدافعون عن كرامتهم وبين عظيم الفرس الذي ارادهم على الخضوع لقواده واجناده فرفضوا ان يسايروه في هذا الذي اراده اليهم ، نعم نعم ايها السادة اذهبوا الى العراق ، فأن الدماء التي تراق في بطحائه كفيلة بارواء هذه النفوس العطشى ، دعوني اذهب ، دعوني انطلق في سبيلي . . خلوا بيني وبين هذه المرتفعات قبل ان اصيح في العرب صيحة تميد لها هذه الجبال وهذه الأودية . . .

وكان القوم قد احدقوا بها من كل جانب فعسر عليها ان تجد طريقاً تطل منه على منافذ البطحاء فطفقت تصيح حتى انتشر صياحها في جميع النواحي فاوجس القرشيون خيفة من تماديها في الصياح فدلف ابو لهب اليها حتى صاقبها وقال لها :

— لقد سمعتك تقولين انك من كندة ، فمن اي فروعها انت ؟

فصاحت المرأة وقد استيقنت من ركود الغضب في لهجة محدثها ؟

— نعم انا من كندة ايها السيد ، بل انا من اشرف فروعها بيتاً والمعها مناراً ، انا من كندة الملوك .

— ولكن كندة قد خسرت ملوكها وضيعت مجدها ؟

— الأمر كما قلت ولكن كندة لم تخسر الشرف ايها السيد ، انا من بيت امريء القيس ابن حجر فهل تهزك ذكرى هذا الملك السيء الحظ الى كارثتي ؟ .

— ما اسمك ؟ . .

— ليلى بنت الحارث بن عمرو آكل المرار .

— اذن فانت عمة ذلك الملك الذي قتله قيصر الرومان ؟

— نعم ، نعم انا عمته التي رافقته في رحلته الى بيزنطيه والتي شهدت موته الفجيع في جبال يحوطها الثلج والضريب .

— كيف تركت دينك ولحقت بدين جديد لم يعرفه اباؤنا من قبل ؟

— لقد سمعت رهبان بصرى يتحدثون عن هذا النبي في كنائسهم وبيعهم ، وذلك قبل ثلاثين عاماً فاستهوتني احاديثهم ، واستجاشت في نفسي احساساً جديداً لم اعرفه من قبل ، فجئت الى مكة ابحث عن هذا النبي ، حتى عثرت عليه بعد انتظار طويل الامد ، فلما بدا لي صدقه وعرفت اوصافه التي ذكرها رهبان بصرى زهدت في دين ابائي ، ولحقت بدينه ، دعوني انطلق ايها السادة ، دعوني انطلق .

فقال لها بعض الفتيان :

— اتعتقدين صدق هذا الذي تتحدثين عنه ؟

وكانت ليلى في خلال ذلك تجيل نظراتها في الفرسان الذين احدقوا بها ، كأنها تنزع الى الاستيثاق من تأثير حديثها في نفوسهم فلاح لها من حدجاتهم الراعشة ان اقاصيصها بدأت تهز قلوبهم المغلقة وخيل اليها ان حماسة مثل حماستها اخذت تطفو في بعض الصدور ؛ فتابعت حديثها قائلة :

لقد عشنا ايها السادة وعاش اباؤنا من قبل عيشاً حالياً بالمخاوف والهواجس المرة وظلت رياح العبودية ماضية بنا الى اودية سحيقة ، منعتنا النظر الى بهاء الأفق فلم نستطع ان نرفع رؤوسنا الى الشمس التي تخلع الحياة على الناس فاخذنا نفكر في الانتقال من هذا العيش الماحل ، الى عيش يسوده الخصب ولكن تفكيرنا لم ينبت ذلك الحب الذي نشتهيه ، فظلت الشعوب الكبيرة تفرض علينا شرائعها واحكامها في الشام وفي العراق .

— ثم ماذا ، ثم ماذا ؟

— وبينما نحن في هذا الغرق المضني اذا يد محسنة ترتفع الى الغرقى ، واذا هذه اليد الكريمة تبلغ بنا الشاطيء ، ثم اذا صاحبها يقول « لقد جاءدورنا الآن،فلنفرض على العالم شرائعنا السائغة الحلوة بعد ان مل العالم الشرائع القاسية القائمة على الصلف والكبرياء .

— ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ــ افلا يلذكم ايها السادة ان ترتفع هذه اليد المحسنة من بين الوف الايدى ؟

واحتبس منطقها فاخذت تنظر الى وجوه القرشيين تحت ضياء القمر وهي مطمئنة الى ان احاديثها اثرت في الجموع ولكن ابا لهب لم يفته شيء من اغراضها فاعتزم ان يضع حداً لحماستها فالتفت اليها قائلا :

ــ الى اين تذهبين في هذه الليلة ؟

فقالت :

ــ الى الكعبة .

ــ لقد كان في وسعنا ان نخنق صوتك في برد هــذا الجبل فلم نفعل حتى لايقال في مكة ان سادة قريش قد ضرجوا ايديهم بدمـاء امرأة . . . انطلقي ، ثم التفت الى رفاقه قائلا :

ــ ارأيتم اي حمـاسة اثارتها اقوال محمد في روحها ؟ انهـا تتكلم وهي في ذهلة عميقة كأنها تحلم ، وكأنها تستمد حماستها من الحلم ، دعوها تنطلق في سبيلها .

افسح ابو لهب الطريق امام ليلى فانسلت من بين غمار الجماهير الى الفضـاء وطفقت تثب من صخرة الى صخرة حتى انحدرت الى الوادي فغمرهـا المسـاء في سدفته ، وعيون القرشيين تحدجها بنظرات مضطربة قلقه .

ولما غاب شبحها في طريق مكة صعد عمرو بن هشام زفراته وهمس قائلا :

ــ ان بيانها لساحر . .

وقال ابو لهب :

ــ كدت استخذي لحلاوة حديثها ، والآن ايها السادة لم يعد في هذا الجبل ما نخافه ففي قدرتنا ان نطرق باب ابي طالب في هذا الليل . ؟

الفصل الثاني

في الليل

رابط القرشيون حيال بيت ابي طالب فاختبأ بعضهم وراء المرتفعات ، وزحف بعضهم الى المنزل يتقدمهم ابو لهب بن عبد المطلب وعمرو بن هشام وكان الليل ساكناً ساجياً . فدنا شيبة بن ربيعة من باب الحصن القرشي وخفقه خفقاً شديداً ؛ ثم شخص الى رفاقه وارادهم على الصمت فصمتوا ووضعوا ايديهم على قلوبهم حتى لايتعالى وجيبها ثم خفق الباب كرة اخرى وهمس في اذن ابي لهب قائلا :

ـــ سل اخاك ان ينحدر الينا ؟ . . .

فقال ابو لهب :

سافعل . . .

ـــ وخفق شيبة بن ربيعة الباب كرة اخرى فاذا صوت يرتفع من الحصن

ـــ من الطارق ؟

فصاح ابو لهب :

ـــ انزل الينا نحن هنا اخوتك وابناء عمك .

ـــ افي مثل هذه الليلة الطخياء تجتمع قريش حول بيتي ؟ . هل صارت قريش تميل الى ارتياد الاماكن الصعبة في الليالي الداجيات وقد كانت تأنس بالأنوار والاضواء

واطل ابو طالب من شرفة الحصن على الجموع واستتلى قائلا :

ـــ من انتم ايها السادة ؟

فصاح احدهم قائلا :

ـــ انزل الينا نحن هنا عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد مناف وابو سفيان بن امية وابو البحتري بن هشام والأسود بن المطلب وابو جهل عمرو بن هشام والوليد بن

المغيرة المخزومي وابو لهب بن عبد المطلب .

ـ اخوتي وابناء عمي ، فماذا تريدون ؟

ـ ان بيننا وبينك هوات بعيدة المدى فانزل الينا حتى نتحدث اليك عن كثب !

ـ ولكن قر هذه اللليلة شديد ، ورياحها تهب صاردة فليس في وسعي ان اهجر دفئي هنا ، تكلموا فاني شديد الأصغاء الى اصواتكم .

ـ يا ابن ابي ، جئناك في المرة الأولى فاردناك على نصح ابن اخيك لعله يكف عن شتم ابائنا وتسفيه احلامنا . فما فعلت شيئاً من هـذا الذي اردناك عليه ، ولا يزال ابن اخيك يستجيش الناس الى دعوته ، حتى آمن بها اسياد معروفون في قريش منهم عبد الله بن ابي قحافه وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله (١)

فقال ابو طالب :

ـ اعرف هذا كله فاي جديد حفزكم الى بيتي في هذه الليلة ؟

فقال ابو لهب :

ـ لقد بلغني امس ان كثيرين من القرشيين قدمواعلى ابن اخيك فعرضوا عليه اسلامهم ، عرفت منهم ابا عبيدة بن الجراح وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى (٢)

وقال شيبة بن ربيعة :

ـ حتى النساء المستضعفات طفقن يلحقن به .

فقال ابو طالب :

ـ ولكني اعلم هذا كله ؟

فقال ابو جهل :

ـ والفقراء والمساكين يفدون اليه من كل فج عميق .

---

(١) و (٢) ابو الفداء ج ١ ص ١١٨

ـــ اعلم هذا كله ؟

ـــ ولكنك تجهل ان ابا بكر عبد الله بن ابي قحافة اخذ يغري الناس باللحاق به

ـــ اعلم هذا كله ، واعلم ان محمداً صادق في دعوته .

ـــ ولكن اذكر ان من يقول هذا القول هو عمه

ـــ اذكر ذلك جيداً ، واذكر كذلك انني كفلته يتيما وسهرت عليه ضعيفاً ثم تبين لي وهو في ميعة عمره انه اصدق القرشيين حديثاً واصفاهم نفساً واكثرهم اعتزازاً بحبه للصغار وعطفه على الايتام وبره بالضعفاء ، بل هو اشد قريش مضاء في الدفاع عن الحق .

ـــ ولكن اذكر ان وفودنا اليك في مثل هذا الليل الضرير لم يكن من اجل الأصغاء الى كلماتك !

ـــ اذن فاي حافز حملكم الي ؟

فقال ابو لهب :

ـــ ان لك سناً وشرفاً ومنزله فينا وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم ابائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين (١)

فقال ابو طالب :

ـــ ولكنكم تعتزمون امرا لم يفكر فيه شيوخكم الذين لم تنقصهم الحكمة والروية وقد رأيتم كيف تبارى هؤلاء الشيوخ في تبجيل هذا الفتى الذي تطلبون الي ان اتخلى لكم عنه ، افلا يوجد في جموعكم من شهد ذلك اليوم الذي توافت فيه قريش الى تجديد صروح الكعبة ؟

فصاح الجميع : لقد كان اباؤنا من شهود ذلك اليوم !

فقال ابو طالب :

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٤

في ذلك اليوم جمعت قريش الحجارة لبناء الكعبة ، فطفقت كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتي تحاوروا وتحالفوا وتهيأوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ومضوا يغمسون ايديهم في الجفنة المملوءة دماً ، فمكثت قريش على ذلك اربع ليال ثم اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا وتناصفوا . وعادوا يتحدثون عن حرب الفجار التي ملأت صدورهم جراحاً وقتلت من بنيهم الكرماء الأمناء فروعتهم ذكريات الملاحم ونهض من بينهم ابو امية بن المغيرة وهو يومئذ اسن قريش كلها فقال يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه اول من يدخل من باب الكعبة يقضي بينكم فيه ففعلوا فكان اول داخل هذا الذي تطلبون الي ان اسلمه اليكم . فلما رأوا محمداً راحوا وادعين هانئين وقالوا هذا هو الأمين رضينا ، هذا محمد فلما انتهى اليهم واخبروه الخبر قال : هلم الي ثوبا فاتى به فاخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بني عليه (١) فمضوا يشكرون له عمله لأنه انقذ قريشاً من حرب لاتحمل غير الكوارث ...

ابعد هذا الذي فعله الامين تطلبون الي ان اسلمه اليكم ؟ افلا يخجل فتيانكم على الأقل من بر شيوخكم بهذا الفتى الذي جاء يفتح امامكم مغالق الأرض ؟

فقال ابو لهب .

ـ ما جئنا اليك لتسمعنا كلاماً لانستسيغ مذاقه ، بل جئنا لنسمعك اصواتنا فان ابن اخيك الذي تحب قد اغرى الشعراء بالطعن علينا فنفروا الى اثارتنا وطفقوا يسبون قديمنا ايثاراً لهذا الجديد الذي عاد يبهرهم بهراً حتى لقد تغالى هؤلاء الشعراء في عبثهم بقديمنا فصاروا يمرون باحيائنا ويطوفون ببيوتنا ، يقولون الشعر اللاذع

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٧

على مسمع من شيوخ قريش وفتيانها ثم يعودون الى صاحبهم فرحين مرحين فهل يسرك وقد كان ابوك شيخ قريش وفارسها في الحومة ان يشق الشعراء غمار البادية حاملين الى الخيام صورة مسيخة لاربابنا وآلهتنا ، وهل يروقك ان يقوم في الناس من يفكر في الضحك على شيوخنا ؟

فقال ابو طالب :

— ولكن ابا سفيان بن الحارث وابن العاصي وعبد الله بن الزبعرى يهجون ابن اخي (١) ولا يصدفون عن مقارعته بالقول المملول ..

— اذن فانت لاتريد خذلان ابن اخيك ؟

— امنعوا شعراءكم عن سبه وهجوه فيمتنع شعراؤه عن سبكم وهجوكم ،

— سمعنا هذا القول من اصحاب ابن اخيك .

— وستسمعونه مني كلما عصفت بنفوسكم اعصار الحمية العمياء .

لم يرق حديث ابي طالب القرشيين الذين حاموا حول حصنه فاستوثقوا من تعلقه بمحمد فدار الهمس بينهم وقال احدهم :

— انه شيخ هرم وقد وجد في شباب ابن اخيه رجاء وعزاء ، فليس من السهل انتزاعه من قلبه !

فقال شيبة بن ربيعة ، لعلهاذا قدمنا اليه بدلا من ابن اخيه لايترددفيالأصغاءالينا

فصاح الجميع — وكيف ؟

فخرق شيبة صفوف القرشيين حتى اقترب من فتى قد تلفع بردائه فصاح به ،

— اقترب مني ايها الفتى الحلاحل !

فتدلف الفتى اليه حتى قاربه فامسك شيبة برقبته ومشى به الى ناحية الحصن ورفع عينيه الى ابي طالب صائحاً :

— اسامعي انت ياعماه ؛

(١) الاغاني ج ٤ ص ٣

فقال ابو طالب :

تكلم !

فقال شيبة ويده ممسكة برقبة الفتى القرشي :

« هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة ، انهد فـتى في قريش ، بل اجمل صبي ولدته « امرأة نخذه لك ، فلك عقله واتخذه ولداً واسلم الينا ابن اخيك ، هذا الذي خالف «دينك ودين ابائك،وفرق جماعة قومك،وسفه احلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل (١)

فصاح ابو طالب صيحة اليمة تردد صداها في كل ناحية من نواحي هذا الفضاء المغدر، الذي يغطي جبال مكة وشعابها، حتى لقد خيل الى القرشيين انهم يسمعـون نشيج صدره.فمضوا ينظرون اليه ، وهو مشرف عليهم من الحصن، ثم مالبث خياله ان توارى ، وبعد قليل اذا هو يطالع عليهم من باب الحصن ، فاجفلوا وراحوا يتهامسون فتدلف ابو طالب اليهم حتى خالط صفوفهم . فلاح لهم مسفوعاً شـاحباً فلم ينبسوا ولـكن ابا طالب ظل متوغلا في صفوفهم، كأنما هو يبحث عن ضالته في هذه الصفوف ، فلما عرض له شيبة بن ربيعة ، وكان لايبرح ممسكا برقبة الغـلام القرشي هز يده هزة عنيفة وقال له :

— اتريد رجلا برجل ! قل تكلم !

فقال شيبة :

— انظر الى وجه هذا الفتى ، انه يطفح جمالا وشرفا وكبرياء . .

— ولـكن فتاي ليس كفتاكم هذا . .

— ان والد هذا الفتى هو الوليد بن المغيرة

— اعرف اباه ذلك الرجـــل الذي تراخت همته في الدفاع عن الـكعبة يوم احدق الاحباش بسورها ، بينما ظل والد الفتى الذي رغبتم في قتله ينافح عن اطفالكم ونسائكم وشيوخكم .

— ولـكن جده ليس بالرجل الخامل الوضيع .

— ولكن جد ابني من تعلمون ايها السادة ، انه عبد المطلب بن هاشم .

« والله لبئس مـا تسومونني ، اتعطوني ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابني تقتلونه !

« هذا والله مالا يكون ابداً (١)

فقال له المطعم بن عدي (٢) والله ياابا طالب لقد انصفك قومك وجهدوا على التخاص مما تكرهه فما اراك تريد ان تقبل منهم شيئاً (٣)

فقال ابو طالب :

« والله ما انصفوني ولكنك قد اجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدالك » (٤)

فقال المطعم مردفا :

— كلا لم نرد خذلانك . ولكن قريشا احبت ان لا تنغمس في فتنة لاتدري مدى لياليها فجاءت تستنغرك الى جمع شتاتها بعد ان عصفت بها رياح ابن اخيك !

— ان اغانيكم في هذه الليلة ليست مما يروق وسيأتي يوم تنزعون فيه من نفوسكم هذا البغض الذي يهزكم الى غناء بارد لا يحمل الى النفوس شيئاً من العزاء الذي تشتاقه فان ابن اخي هذا الذي اردتموني على قتله قد كفل لكم ولابنائكم من بعدكم حياة رافهة راغدة لم يطمئن اباؤكم من قبل الى مثلها وقد احب ان يدنيكم من الله الذي يعبد . ومن حياة ثرة دافقة كذلك هو يريد ان يمشي بكم الى ماوراء هـذا الأفق الضيق الذي تسبحون في قيظه . انه يريد ان يطل بكم على افاق واسعـة ، بينما انتم تفضلون هذا النوع الجاف من حياة خاملة بليدة

فصـاحوا :

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٧

(٢) هو المطعم بن عدي نوفل بن عبد مناف من سادة قريش

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٥

لقد زهدك ابن اخيك في دين ابائك ! !

فصاح قائلا :

ــ كلا انه لم يزهدني في دين ابائي ولكني رأيت هذه الحياة التي تحيونها خلاء من الحقيقة والحب والعطف والموادعة فعافتها نفسي ونظرت الى ابن اخي فرأيته يحمل اليكم انتم الذين تباهون بالحسد والترويع والتقتيل حياة مقدسة من شأنها ان تثير في قلوبكم خفقة حب لم تكونوا تحسونها حيال اولادكم وشيوخكم ونسائكم وبناتكم انكم لتبالغون في وأد البنات وهو يريدكم على استبقاء هذه الرياحين حتى تتأرج نفوسكم بعطر لم يخالطها من قبل . وتبالغون في احترام الدمى والتصاوير، وهو يريدكم من ناحية على احترام من اودع الشمس الحرارة والقمر الضياء والأرض الحياة والخصب

فقال ابو لهب :

ــ ارأيتم ايها الرفاق كيف اثرت كلماته في نفس هذا الشيخ ؟

ثم التفت الى ابي طالب قائلا :

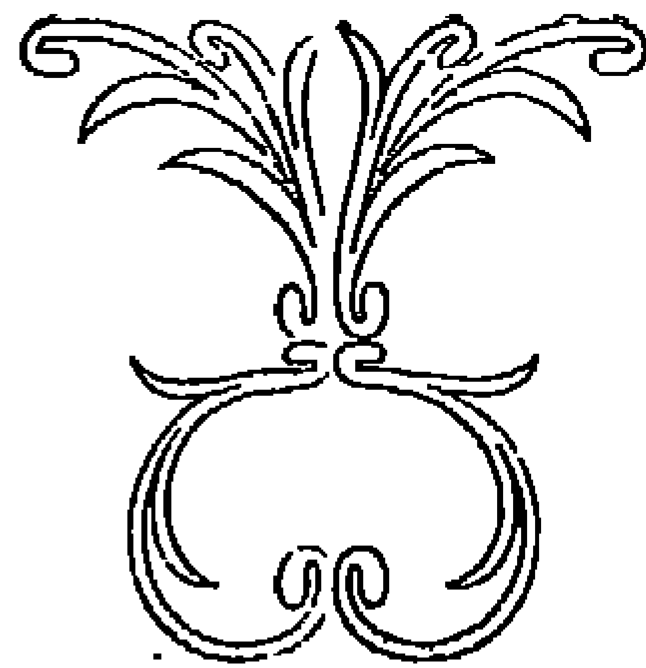
ــ حينما تتوارى اشعة الشمس وراء هذه الجبال ، حينما تفزع المرأة الدجرى من حياة مليئة بالألم والطوى والدمع الى خيمتها وعلى صدرها طفل اذبله البؤس ، حينما نفيء كلنا الى مساكننا لنستريح من يقظة النهار ، بعد ان حملنا في نفوسنا نزوات لم تستكمل نضجها يخيل الينا ان شعورنا الذي احسسناه عاد يحمل الينا ونحن في ليل نمتريه صوراً كآباء ترعش ملذاتنا حتى في اويقات الحلم ، وبينما تصبو جوارحنا الى غرق عميق في المتع الشهية ، اذا ذكريات اعمالنا الرديئة تهاجمنا كأنها تمنعنا تلك المتع الشهية ، هذا هو عيشنا البائس الذي ما برح يطالعنا منذ صدفت عقولنا عن فهم الافكار الفاضلة التي عادت غذاء حقيقياً للانسان ومنذ عذبت افهامنا عن استمراء العبادة التي جاءت تفسح في مدى رغباتنا وآمالنا .

قال ابو طالب هذا كله ، ثم ادار لقريش ظهره ومشى الى ناحية الحصن ، لا يلتفت الى ورائه ، فجعل القرشيون يطيلون التحديق اليه حتى رأوه يدخل الحصن

وحتى اطل من جديد على الشرفة .

وطفق ابو طالب يحدج الأفق بنظرات حادة : كأن خيالا حافزاً مثل لعينيه في تلك الفينة ، ثم اخذ يبكي فارتاع الفرشيون لبكائه وروعهم وقوفه في هذه الليلة المدجان على شرفة الحصن كدمية من الدمى ولكنهم ظلوا سادرين في مثل احلامه الموجعة ولبثوا صامتين وهم ينظرون الى وجهه الشاحب وقد عرض لهم تحت ضياء القمر وكانت الرياح المعصرات التي تحملها الصحراء الى هذه الجبال ، الصدى النغذ الذي يقاق هذا السكون الشامل .

ولم يطل وقوفهم على الجبل فانحدروا عن ذروانه ومرتفعاته وعيونهم لا تفارق حصن آل هاشم المنيع وظل شبح ابي طالب يطالعهم حتى لاحت لهم مكة وبدت معابدها واصنامها فزرفوا اليها وشقوا احياءها راعشين جافلين . ؟



الفصل الثالث

ذكريات الماضي

سرت الى الجبال رعشة مخوفة من برد اليم ثم ما لبثت ان غمرت الأفق الطافح بلألاء القمر ولكن ابا طالب الذي لبث غارقا في تأملاته لم يحس هذا البرد اللاذع بل لبث في ذهلته والقر الشديد يتسرب الى الأبراج والى الشرفات ثم الى الدهاليز والأروقة ، وكان السكون في تلك الفينة يبعث السأم والخوف ويثير في النفوس ذكريات الىمة ، وقد ماثل الحصن في عزلته في وسط الجبال اطلالا قديمة يطوف بها خيال عصور مهدمة غيبها البلى في زمهريره الراعب .

يالها من وحدة جافة ! بل يالها من سكينة جافلة قلقة يحف بها من كل النواحي كفن الصحراء الغاتم

الجبال مائتة ، والسماء مائتة ، والارض مائتة ، والليل في سكونه وصمته في غشية مضنية تنم عن احتضاره ونزعه ' ولكن شيخ قريش الذي لم يبرح الشرفة ظل عازفا عن هذا الموت الذي يغشى الطبيعة فلم يتخلج ولم ينتفض وبقيت عيناه تنظران الى تلك السحب الباردة غير دجران منها ولا حافل بها .

لقد كان في وحدته روحا تتضاغى من الألم لأن المشاهد اللذة التي يستريح اليها رواد الوحدة ظلت مائتة في الجبال وفي الأفق وماذا يستطيع مثله ان يقبس من هذه الطبيعة العابسة الصاخبة غير الصور التي تموت في روعتها الأحلام وتفنى في بشاعتها الامال

واخذت عيناه تنتقلان من الفضاء الى الجبل ومن الجبل الى الأودية ومن الأودية الى السفوح فخيل اليه ان اشباح الفرسان الذين طرقوا باب الحصن عادت تطوف بهذه النواحي ' بل خيل اليه انه عاد يسمع في كل ناحية منها اصوات هؤلاء الذين نهدوا من كل فج عميق لأثارة احزانه ومخاوفه وكانت اعراف الرياح

ترتمي على الصخور ولها رنين عاصف فاجفل واستفاق قليلا من ذهلته ومضى هامساً
— لقد عادوا !...

كلا ! انهم لم يعودوا وقد ابصرهم قبل لحظات يتوارون وراء البيت المقدس واستمع الى خفق اقدامهم على الحصى ثم ابصرهم يتوغلون في الطرقات الملتوية حتى حجبتهم ظلال الليلة الغبشاء .

اذن فمن اين تسرب اليه هذا الخوف ؟

لم يكن ابو طالب رعديداً ولا هلوعاً وكانت شجاعته مضرب الأمثال في هذا البلد الذي احب فيه مروءته وعنفوانه وكبرياءه ، ولكن هذا الشيخ الجليل الذي شهد الوف المعارك مع ابطال قومه والذي ترامت شهرته الى جميع النواحي وساح في الامصار البعيدة النائية وشهد الغروب الضحيان في اودية الشام وسهول العراق كان يحمل في صدره قلباً رقيقاً ، قلباً ينبض ويخفق كلما عرضت له صورة ذلك الطفل الذي كفله يتيما بعد موت ابويه !

وقد عاش هذا اليتيم في كنفه راغداً هانئاً حتى اتسقت ايامه وابتسمت اعوامه وحتى انبثقت في روحه طمحات نبيلة سامية فاشتد حبه له واصبح لايطيق صدوفاً عنه

ولكن هذا اليتيم الذي حام حول مهده مفراحاً طروبا والذي انصت لاصوات طفولته العذبة الصافية واخذه بين ذراعيه لينظر الى جماله المائع ويعبث بشعره المستفيض كاجنحة الليل لم يلبث ان انقلب الى شاب يروح في صدره عالم كبير من المعاني السامية التي لم يفهمها قومه الجفاة الغلاظ فكان حقا عليه ان لايجفوه شاباً وقد احتضنه طفلا وكان حقاً عليه كذلك ان يمنع عنه ارغاء قومه وازبادهم .

لقد بهرته طفولة هذا اليتيم ، فراح قلبه يخفق لذلك الماضي الهاجع في قرارة نفسه ، وخيل اليه ان عمره الذاهب ، قد حلق به في فضاء شبابه الأول . وانه عاد قريباً من تلك الايام التي سلخها في السياحة والأسفار قبل ثلاثين عاماً فاستعاد ذكرى طوافه بارض الشام بين وادي الأردن ، وبصرى ، ثم بين بصرى وغوطة دمشق

فلاحت له في هذا الهاجس اللذيذ جبال شجراء تبتديء في الحقول الفينانة ، ثم تضيع في الصحراء العريانة .

وعرضت لعينيه في قلب هذه الجبال ضفاف البحر الميت تلتف بهـــا من كل النواحي ذروات حمراء بلون الشفق ووراء هذه الذرى جبـــال جزيرة العرب التائهة في الأفق البعيد .

ثم تراءت له وهو سادر في هاجسه آثار المدن العافية الدارسة ثم امتد امـامه الأفق فانتقل من وحدة ضيقة الى وحدة يضيع في مداها الطرف الحـائر . فاشجته ذكرى هذه السياحة فاستلذ الغرق في حلمه واستعاد في ذهنه صـــورة طوافه بدير بحيرا الراهب ، فاخذت المشاهد البارعة ترتفع الى عينيه والى قلبه حـــتى غمرت شعوره واحساسه وحتى انسته وقفته البائسة على الشرفة .

ولقد اثرت في نفسه بساطة ذلك المشهد الذي عرض له في دير بحيرا فاستعاده كله وراح يتمثل الراهب وهو يطيل تأملاته في جبين اليتيم العظيم الذي رافقه في تلك السياحة ، بل لقد خيل اليه ان كلمات بحيرا عادت جديدة في اذنيه فجعل يرددها وهو شاعر بلذتها . لقد قال له بحيرا « سيكون لأبن اخيك هذا شأن عظيم » ثم اقبل الراهب على الطفل يحدق اليه ، ثم لم يلبث ان عاد الى ابي طالب قائلا : « عد بابن اخيك هذا الى بلدك فانه النبي الذي يبعث وهو سيد العالم »

ولما قال له بحيرا هذا القول تهافت على ابن اخيه يشبعه ضما وعناقا وهو يطيل القبلة مستأنيا بها ، لايود ان تفوته لذاتها ومتعها .

بلى لقد عرضت هذه الصور الرائعة لابي طالب وهو على الشرفة لايبـالي ببرد الليلة اللاذع ولا يحفل بهذه الظلال العاتمة فاخذ يستزيد منها ، حتى حملته تصوراته وهواجسه الى ذلك اليوم الذي فارق فيه ارض الشـام ، فذكر مروره بالاراضي المعشوشبة بين شجر الرمان وشجر الصفصاف واغراس الورد وكانت السهول في ذلك اليوم البعيد في بهاء لايماثله بهاء سليمان في ملكه وسلطانه فجعلت قوافله تمر بالمدن

والقرى الزاهية الزاهرة واخذ الناس يطلعون عليها من الاماكن النائية البعيدة للاستمتاع بجمال اليتيم الكبير

ولما توارت اشباح المدن المتحضرة وراء الرمال وتوغلت القوافل في صحراء العرب ظلت عيناه ناظرتين الى الافق فرأى في مشاهد الطبيعه دعة وسكونا لم يعرفهما من قبل فادرك ان صحراء وطنه الدجرى بدأت تنتعش وان روحا علويا مقدسا اخذ يترع نواحيها ! بل لقد ادرك ان هذه الصحراء التي عاشت منعزلة عن العالم في وسط هجيرها اللافح اخذت تقبس حياة ومرحا ونشاطا منذ وطئها هذا اليتيم العظيم

كذلك مرت بذاكرته طفولة ابن اخيه فمضى يتمثله في ربيعه الخامس عشر وقد صدف عن الاصنام والانصاب وجفا اماكنها فلم يخالطها بينما شيوخ قومه وشبانهم يتسابقون الى عبادتها ويتبارون في احترامها فاستجاشت هذه الذكرى الحلوة الرقيقة شعوره واحساسه فهمس قائلا

« لقد رأيته بعيني هاتين يجفو هذه الاشباح الضاوية الهزيلة فلا يقرب منها ثم
« رأيته يبحث عن الحقيقه في اعماق ضميره حتى اذا تراءت له تطامن اليها ورأى
« في حلاوتها سلام نفسه وسلام العالم

« وهكذا سلمت طفولته من مخابث الجاهلية فظلت على صفائها ، كأن الله قد ارادها على الصفاء الى اليوم الذي تستكمل فيه نضجها ونموها بل الى اليوم الذي تخرج فيه هذه النفس الكبيرة من عزلتها الى العالم لتحمل اليه ديانة صحيحة مهذبة ؟

واحتشد الماضي بحوادثه وروائعه في صدر ابي طالب فراح يتمثل حرب الفجار وصروفها ومآسيها وقد كانت هذه الحرب التي افنى القرشيون فيها شيبهم وشبانهم ، والتي ظلت محتدمة خلال تسع سنوات اول حرب شهدها اليتيم المظم ؟

في سنة تسع وثمانين وخمسمائة نزل البراض بن قيس بن رافع (١) ارض بني

---

(١) هو البراض بن قيس بن رافع احد بني ضمرة بن بكر بن مناة بن كنانة

الديل وكان سكيراً فاسقاً خلعه قومه ، فشرب في بني الديل فخلعوه فاتى مكة واتى قريشاً فنزل على حرب بن اميه فحالفه فاحسن حرب جواره وشرب بمكة حتى هم حرب ان يخلعه فقال لحرب انه لم يبق احد ممن يعرفني الا سواك وانك ان خلعتني لم ينظر احد الي بعدك فدعني على حلفك وانا خارج عنك فتركه وخرج فلحق بالنعمان ابن المنذر ملك العراق وكان النعمان يبعث الى سوق عكاظ في وقتها بلطيمة يجيزها له سيد مضر فتباع وتشترى له بثمنها الأدم والحرير والبرود والوشي وكانت سوق عكاظ في اول ذي القعدة فلا تزال قائمة يباع فيها ويشترى الى حضور الحج وكان قيامها فيما بين النخلة والطائف عشرة اميال وبها نخل واموال لثقيف فجهز النعمان لطيمة له وقال من يجيزها فقال البراض انا اجيزها على بني كنانة فقال النعمان انما اريد رجلا يجيزها على اهل نجد فقال عروة الرحال (١) وهو يومئذ رجل هوازن انا اجيزها ابيت اللعن فقال له البراض اتجيزها ياعروة ؟ قال نعم وعلى الناس جميعاً افكلب خليع يجيزها ؟ ثم شخص بها وشخص البراض وعروة يرى مكانه لا يخشاه على ماصنع حتى اذا كان بين ظهري غطفان الى جانب فدك بارض يقال لها اواره قريب من وادي تيماء نام عروة في ظل شجرة ووجد البراض غفلته فقتله وهرب باللطيمة

ولقي البراض بشر بن حازم فقال له هذه القلائص لك على ان تأتي حرب بن امية وعبد الله بن جدعان وهشاماً والوليد ابني المغيرة فتخبرهم ان البراض قتل عروة فاني اخاف ان يسبق الخبر الى قيس ان يكتموه حتى يقتلوا من قومك رجلا عظيما فقال له وما يؤمنك ان تكون انت ذلك القتيل قال ان هوازن لا ترضى ان تقتل بسيدها رجلا خليعاً طريداً من بني ضمرة ، ومر بهما الحليس بن يزيد احد بني الحرث بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد الاحابيش فاخبراه الخبر ثم ارتحلوا وكتموا النبأ على اتفاق منهم وكانت العرب اذا قدمت سوق عكاظ دفعت اسلحتها الى ابن جدعان حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ثم يردها عليهم اذا ظعنوا وكان

---

(١) عرة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب

سيداً حكيما مثريا من المال فجاءه القوم فاخبروه خبر البراض وقتله عروة واخبروا حرب بن امية وهشاماً والوليد ابني المغيرة فجاء حرب الى عبد الله بن جدعان فقال له احتبس قبلك سلاح هوازن فقال له عبد الله بن جدعان أبالغدر تأمرني ياحرب ؟ والله لو اعلم انه لايبقى منها سيف الا ضربت به ولا رمح الا طعنت به ما امسكت منها شيئاً ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف في مالي تستعينون بها ثم صاح ابن جدعان في الناس من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه فاخذ الناس اسلحتهم وبعث ابن جدعان وحرب بن امية وهشام والوليد الى ابي براء انه قد كانت بعد خروجنا حرب وقد خفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا وساروا راجعين الى مكة فلما كان اخر النهار بلغ ابا براء قتل البراض عروة فقال خدعني حرب وابن جدعان وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في اثر القوم فادركوهم بنخلة فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وجن عليهم الليل فكفوا ونادى الادرم بن شعيب احد بني عامر بن صعصعة يامعشر قريش ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل وكان يومئذ رؤساء قريش حرب بن امية في القلب وابن جدعان في احدى المجنبتين وهشام بن المغيرة في الآخرى وكان رؤساء قيس عامر بن مالك ملاعب الأسنة على بني عامر وكدام بين عمير على فهم وعدوان ومسعود بن سهم على ثقيف وسبيع بن ربيعة النصري على بني النصر بن معاوية والصمة بن الحرث وهو ابو دريد ابن الصمة على بني جشم وكانت الراية مع حرب بن امية وهي راية قصي بن كلاب التي يقال لها العقاب .

ثم كان اليوم الثاني من حرب الفجار وهو يوم سمطة فتجمعت كنانة وقريش باسرها وبنو عبد مناة والاحابيش واعطت قريش رؤوس القبائل اسلحة تامة واداة وجمعت هوازن وخرجت فلم تخرج معهم كلاب ولا كعب ولا شهد هذان البطنان من ايام الفجار الا يوم نخلة مع ابي براء وعامر بن مالك وكان القوم جميعاً متساندين على كل قبيلة سيدهم فكان على بني هاشم وعبد المطلب ولفهم الزبير بن عبد المطلب

وابو طالب وعبد يزيد بن هشام ومعهم محمد بن عبد الله وهو ابن سبع عشرة سنة وكان على عبد شمس حرب بن امية ومعه اخواه ابو سفين وسفيان ومعهم بنو نوفل ابن عبد مناف وكان على بني تيم بن مرة عبد الله بن جدعان .

وسبقت هوازن قريشاً فنزلت سمطة من عكاظ وظنوا ان كنانة لم توافهم واقبلت قريش فنزلت من دون المسيل وكانت الدائرة في اول النهار لكنانة فلما كان آخر النهار تداعت هوازن وصبروا فاستحر القتل في قريش فلما رأى ذلك بنو الحرث ابن كنانة وهم في بطن الوادي مالوا الى قريش وتركوا مكانهم فلما استحر القتل فيهم قال ابو مساحق بلعاء بن قيس لقومه الحقوا برخم وهو جبل ففعلوا وانهزم الناس وكان محمد بن عبد الله لايصير في فئة الا هزم من يحاذيها فقال حرب بن امية وعبد الله بن جدعان الا تروا الى هذا الغلام ما يحمل على فئة الا انهزمت (١)

ثم كان اليوم الثالث من ايام الفجار وهو يوم العبلاء فجمع القوم بعضهم لبعض والتقوا على قرن الحول بالعبلاء وهو موضع قريب من عكاظ ورؤساؤهم يومئذ على ما كانوا عليه يوم سمطة فاقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت كنانة .

ثم كان اليوم الرابع من ايامهم يوم عكاظ فالتقوا في هذه المواضع على رأس الحول وخشيت، قريش ان يجري عليها ماجرى يوم العبلاء فقيد حرب وسفيان وابو سفين من بني امية بن عبد شمس انفسهم وقالوا لانبرح حتى نموت مكاننا فسمى هؤلاء الثلاثة يومئذ بالعنابس فاقتتل الناس قتالا شديداً وثبت الفريقان حتى همت بنو بكر بن عبد عبد مناة وسائر بطون كنانة بالهرب .

وحملت قريش وكنانة على قيس كل من وجه فانهزمت قيس كلها وكان عليها سبيع بن ابي ربيعة احد بني دهمان فعقل نفسه ونادى يا آل هوازن يا آل هوازن يا آل نصر فلم يعرج عليه احد واجفلوا منهزمين ، فكر بنو امية فقاتلوا فلم يغنوا شيئاً فانهزموا وكان مسعود بن معتب الثقفي قد ضرب على امرأته سبيعة بنت عبد شمس

---

(١) الاغاني ج ١٩ ص ٨٧

ابن عبد مناف خباء فرآها تبكي حين تدانى الناس فقال لها ما يبكيك فقالت لما يصاب غدا من قومي فقال لها من دخل خباءك من قريش فهو آمن فجعلت توصل في خبائها ليتسع فقال لها لايتجاوزني خباؤك فاني لا احمي الا من احاط به الخباء فاحفظها فقالت اما والله اني لا اظن انك ستود ان زدت في توسعته فلما انهزمت قيس دخلوا خباءها مستجيرين بها فاجاز لها حرب بن امية جيرانها وقال لها يا عمة من تمسك باطناب خبائك او دار حوله فهو آمن فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا جدا فلم يبق احد لانجاة عنده الا دار بخبائها ،

ثم كان اليوم الخامس وهو يوم الحريرة والرؤساء بحالهم الا بلعاء بن قيس فانه قد مات فصار اخوه مكانه على عشيرته فاقتتلوا فانهزمت كنانة وقتل يومئذ ابو سفيان ابن اميه وثمانية رهط من بني كنانة وكان الرجل منهم بعد ذلك يلقى الرجل والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً ثم تداعوا الى الصلح فابى ذلك وهب ابن معتب فعادوا الى القتال فكان من قتل في حروب الفجار من قريش العوام ابن خويلد وحزام بن خويلد ومعمر بن حبيب وجرح حرب بن اميه وقتل من قيس الصمة ابو دريد بن الصمة ثم تراضوا بان يعدوا القتلى وتعاقدوا ان لايعرض بعضهم لبعض فرهن حرب بن اميه ابنه ابا سفيان بن حرب ورهن الحارث ابن كلدة العبدى ابنه النضر وتقدم عتبة بن ربيعة يومئذ وقال يامعشر قريش هلموا الى صلة الارحام والصلح فقالوا وما صلحكم هنا فانا موتورون فقال على ان ندي قتلاكم فنتصدق عليكم بقتلانا فرضوا بذلك ؛ ولما رأت هوازن رهائن قريش بايديهم رغبوا في العفو فاطلقوهم ولم يشهد حرب الفجار من بني هاشم غير ابي طالب والزبير وحمزة والعباس ابني عبد المطلب وشهده الرسول الا يوم نخلة وكان يناول عمه واهله النبل وسئل الرسول عن مشهده يومئذ فقال ماسرني اني لم اشهده ، انهم تعدوا على قومي ، عرضوا عليهم ان يدفعوا اليهم البراض صاحبهم فابوا (١)

---

(١) الاغاني ج ١٩ ص ٧٣ — ٨٢

مرت هذه الذكريات الاليمة بذهن ابي طالب وهو على الشرفة فامضته واشجته فوارى عينيه بكفه حتى لايستعيد خيالاتها الذاهبة وخيل اليه ان عاصفة شديدة ستهب على قريش فتمزقها كما مزقتها حرب الفجار ثم تذهب باتحادها وتآزرها فماذا يستطيع ان يفعل لأخماد هذه العاصفة قبل هبوبها ؟

لقد حمل ابوه قريشاً الى النصر يوم اجتاحت جيوش الحبشة ارض الوطن ، فسادت قريش جميع العرب واحبطت باتحادها تدابير الرومان الرامية الى اجتياح الحجاز ، وجعله ايالة رومانية .

بلى لقد إشجته هذه الذكريات الأليمة التي استفاقت في صدره وهو واقف على شرفة الحصن فذرف دمعه ذرفانا اليماً وارسل الى صميم الليل نفثات صدره الحرا ثم همس همساً ضعيفاً اودعه صلاة نفسه الضارعة المحطمة ورجا في هذه الصلاة ان تتعرف قريش الى الحق ، فلا تمنعها كبرياؤها الاستشراق بهذا النور الذي اخذ يغمر اكناف حياتها المظلمة وحاول اكثر من مرة ان يهدهد هذه الالآم التي استفاقت في صدره وان يحملها على رقدة طويلة فما استطاع الى ذلك سبيلا لأنه وجد في الالآم لذة لم يعرف لها مدى ، لذة استساغتها النفوس العظيمة حتى وجدت هناءها في استعادة ذكرياتها .

وعرض له الماضي كله فرأى على نوره الشاحب اياماً شداداً ، عاناها وصمد لها فقد كان يكافح الفقر والعسر ، ومن حوله صبية لم يطمئن الى رغد عيشهم ولم يسترح الى نصيبهم الضيق من الحياة ، وابن اخيه اليتيم يومئذ في حجره لجاء اليه غسقا وجعل يحدجه بنظرات حادبة شفيقة ثم جلس اليه لايكلمه ليله ولا يبادله حديثاً ولكنه آثر ان يطيل التحديق الى وجهه آسيا ملتاعاً ، ثم ما عتمت مخاوفه ان هدأت فمشى الى ابن اخيه وراح يقص عليه حديث هذا البؤس الذي اخذ ينشر ظلاله العابسة على منزله فاثرت قصته في نفس اليتيم ، ورأى ابو طالب مساً من دهشة قد خطف على وجهه الجميل فادرك اي اثر احدثه في هذه النفس العالية ثم

دلف اليه يريد ان يحتبسه بين ذراعيه فثناه عن ذلك صوت حنون راعش انفجر من شفتيَ اليتيم ، ثم اذا ذلك الطفل الذي لم ينعم بقبلة من والد ، وضمة من والدة ، يفتح ذراعيه لعمه ، ثم اذا هو يقول له ماخطبك ياعماه ؟ وكان الحياء الطاهر بعض آيات هذا الشيخ الجليل لحبس دمعه الدافق ، وفضل الصمت وقد استيقن ان حديثه لابد ان يستثير في ابن اخيه بعض الألم .

وماذا يستطيع الشيخ ان يفعل وهذا الحب العميق الذي يحمله في جانحتيه لفتى قريش يمنعه ان يقذف بالحقيقة المحزنة من فمه .

لقد كان منذ ايام ينظر الى ليل الحياة المعتم فلا يبصر في نواحيه قبساً من رجاء حلو وكان ابا لأطفال صغار لايستطيع ان يحمل اليهم هذه الحياة المائعة الوادعة التي يتذوق جناها اللذ بعض القرشيين وكانت الانوار التي لا تخمد في قصور آل عبد شمس وفي قصور عبد الله بن جدعان تجفو بيته ولا تخالطه فاعتزم ان يحسر امام ابن اخيه الذي عاد شابا مفراحاً طروبا عن هذه الالآم التي تقرض نفسه ، بل لقد اعتزم ان يقول له « اصبح في قدرتك ، وقد غدوت شابا ان تفكر في غدك وان تعمل من اجل حياتك لانني لا استطيع بعد هذا اليوم ان اكفل لك رغد الحياة وانا رب اسرة لاتنعم بثراء

فطن اليتيم الى هذه الحسرات الهاجعة في صدر عمه الشيخ فمضى يسأله قائلا :

— ماخطبك ياعم ؟

ورأى الشيخ ان لامعدى له عن مصارحته بالحقيقة التي حجبها عنه ، فتكلم واستفاض اله حتى اثر حديثه في سيد قريش فمضى يلثم شعوره البيضاء لثمات حملت الى نفسه رجاء حلواً وعزاء سائغاً ؟ !

وتتالت الأيام على هذه اللقاءة الشجية والشيخ من دهره في شكاة وبث حتى حمل اليه يتيم قريش ابتسامة مقدسة بددت ليل حياته العبوس ففي ذات عشية جاء سيد قريش الى عمه وهو منقطع الى بيته ، بين احزانه الصارخة وتنهداته الدائمة

فقال له لا يعتصرك الغم ياعماه فقد جئت اليك بعطر الحياة العابق .

فراح الشيخ مبهوتا حائراً وحاول ان يسأله معنى حديثه ، فعصاه دمعه الهتون الزاخر فتهافت اليتيم عليه يمسح دمعه ويهدهد الآمه حتى استطاع ان يمضي متجلداً الى استماع الحديث فصارحه يتيم قريش بعزمه على مشاطرته بعض اعباء الحياة وقد قبل ان يخرج من بيته وان ينشر حمايته ورعايته على اصغر اولاد ابي طالب ، فوقع اختياره على علي وهو غلام لايبرح في ربيعه السادس (١)

ظلت صور الماضي تعرض لأبي طالب وهو مطل من شرفة الحصن على الجبال وعلى الأودية حتى اصبح لايطيق صدوفا عن النظر اليها ، وكان اشجى ما عرض له في هذه الصور الحافلة بالروائع تلك السياحة الهانئة الراغدة التي قام بها يتيم قريش الى الشام مع قوافل خديجة بنت خويلد الأسدية فتطامن الى تفاصيلها ، واستخذت كل جارحة من جوارحه لحلاوتها فطفق يستعرض ذكرياتها وصورها ناظراً الى الأفق الذي تتراكض فيه غيوم الليل .

لقد كانت خديجة بنت خويلد ، امرأة نابهة حباها الله ما ارادت من شرف وجمال ومال وكانت تصطنع الرجال في مالها وتضاربهم اياه ، وقريش — كما علمت — قوم تجار يجدون لبانات العيش وغاياته في ارتياد الأنحاء البعيدة حاملين اليها تجارتهم فلما بلغ هذه المرأة الفاضلة ما بلغها من صدق محمد وعظم امانته وكرم اخلاقه وعراقته في النبل بعثت اليه . فعرضت عليه ان يخرج تاجراً الى الشام مع غلامها ميسرة على ان تعطيه افضل ما كانت تعطي غيره فقبل اليتيم من خديجة ماعطته اياه وخرج في مالها مع ميسرة فلما اتى الشام نزل في ظل شجرة عن كثب من منسك لراهب نصراني ، فخرج الراهب الى ميسرة فقال له « من يكون هذا الرجل الذى نزل تحت الشجرة فقال له ميسرة « هذا رجل من قريش اهل الحرم فقال الراهب

---

(١) روى هذه الحادثة كثير من مؤرخي المسلمين كابن اسحق ، وابن هشام وصاحب السيرة الحلبية .

ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي ثم باع اليتيم العظيم سلعته التي خرج بهـــا واشترى ما اراد ان يشتري . ثم اقبـــل قافلا الى مكة (١) فجعل ميسرة يحدث خديجة عن هذا الذي سمعه من الراهب فاقبلت المرأة الفاضلة على ابن عمها ورقة بن نوفل وافضت اليه بحديث ميسرة عن اليتيم وكان ورقة نصرانياً قد تتبع الكتب فقال لها لئن كان هذا حقاً ياخديجة فان محمداً لنبي هذه الامة وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه (٢)

وراح ورقة يفكر ملياً في هذا الذي قصته عليه خديجة ، وطفقت خديجة من ناحية اخرى تفكر في اقوال هذا العالم الجليل ، ولكن اطراق ورقة لم يطل ، فمضت عيناه تنظران الى رؤوس الجبال المحدقة بمكة كأنما قد رفع له في القمم البعيدة طيف ينتظر معاده اليه ثم التفت الى خديجة وهز يدها قائلا :

في هذا الجبل الذي ترين طريق مجهولة تغطي مدخله ذروات محمرة الاديم بلون الشفق ووراء هذا الطريق مغارة شهدت في الماضي البعيد لوعة ابينا ابراهيم واصغت الى صلاته ، افترين الى هذه المغارة التي لم تفارق عزلتها منذ اقدم العصور؟

عما قريب سيخرج من هذه المغارة صوت مجلجل لا تلبث هذه الجبال الحمراء ان تحمل صداه الى بيت المقدس ، والى الشام ، بل الى البحار والجبال والأعشاب والسهول والأودية . . .

من هذه البقعة الصغيرة التي لم يزين هامتها العشب والنوار ستخرج فكرة الله التي اثارت في القديم مهد موسى وظللت مهد عيسى ثم لاتلبث هذه ان تطفو في كل ناحية حاملة الى القلوب الضارعة المحطمة حياة لايعلق بنواحيها غيم ممض ! . .

وهمعت عيناه تهماعاً اليها فقالت له خديجه

— لقد هزتني كلماتك واستهواني وصفك هذه الفكرة المقدسة التي ستخرج من هذا الجبل ، فقال لها :

---

(١) و (٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٠

ـ ان نبيا عربيا سينحدر من هذه الصخرة العارية ليذهب عما قريب الى الارض التي تطفح بالينابيع في فصل الربيع العابق ، وسيجد هذا النبي عندقدميه ينبوعا ثراً دافقاً ثم يعود الى بيته في فصل حافل بالزوابع والعواصف فيرى قومه عطاشا فلا يلبث ان يحمل اليهم هذا الماء الذي يبلل نفوسهم !

وفي المساء اجتمع ميسرة الى خديجة بنت خويلد والى ورقة فسأل ورقة الغلام عن تفاصيل سياحته مع اليتيم الى الشام فجعل ميسرة يصف هذه السياحة وصفا بديعاً حلواً اهتزت له نفس خديجة ، لقد قال ميسرة :

كانت الصحراء التي تركناها من ورائنا قد بعثت في النفوس سأماً شديدا فاثرت رمالها الوردية وشراهتها الدائمة القطرب في رجال القوافل فمضوا يسألون عن الافياء والظلال

وكان من حق هؤلاء البواسل ان يسألوا عن الافياء . فلقد سلخوا اربعين يوما وهم لايشاهدون غير اودية عارية تلتف بها حجارة كابية او صخور صفراء كالورس ؛

ثم تركنا الصحراء فاذا القوافل تمر بمدن عافية ، ورسوم باليه ، فعزفنا عنها ولكن اشباحها الصامتة ظلت تلوح لنا عن بعد ، وكان الموت في هذه الاطلال الهاجعة حصاد كل شيء ، فهو منتشر في كل ربض ، بل في كل ناحية !

رأى الرفاق ان ينعموا بمراح وهم يطوفون بهذه الدوارس فطفقوا يغنون ويهزجون حتى هزت اصواتهم هذا العالم النائم ثم تناوحت اصداء هامسة في هذا العدم الراجس فكان لعصفها اثر بالغ في النفوس .

ورأينا الزروع التي تغشى هذه الأماكن تفوح فوحانا ذكياً برغم الموت الذي صوح الوانها واذبل رواءها ، وكانت خضرتها الشاحبة شبيهة بكمدة هذه الحجارة الدكناء التي كنا نمر بها ثم رأينا اسرابا من الغزلان تطفر من كل ناحية تحملها اقدام ناعمة لطيفة ، ثم احذت هذه الأسراب تهيم في الرمال وفي الذروات تحت بياض الفجر الساكن الوادع .

وسلخنا النهار كله في الطواف بالمدن العافية فلما اغدف الليل ومضت الكواكب متناثرة في كل ناحية من نواحي الأفق ظلت الرمال تحوطنا بلهب لافح اصهب، فوطئتها الجمال واخذ الاعراب يدخلون الاطلال للاصطلاء ثم عكفوا على الحداء فاذا هم يرددون انشودة قديمة، لاعمر لها. توارثها اعراب اليوم عن اعراب الأمس

وفي الصباح عدنا الى الطواف حتى بدت لنا ارض الشام، فنزلنا في السفوح المزهرة المعشوشبة واحسسنا لذة الربيع وروعته، وبدت لنا في الجنات اشجار الزيتون الرمادية، واشجار اللوز البيضاء واغراس الورد والنسرين والأعناب الرخية الظل!

وماتت في نفوسنا تلك الهواجس المرة التي حملتها الينا مشاهد الاطلال النائمة في ظل العفاء ورأينا في بلاد الرياحين حياة لم تطالعنا في الصحراء.

وفي تلك الأثناء رأيت محمداً ينزع الى الاستظلال بشجرة فنواء وقد انحدر اليها عن بعيره فاخذت انظر اليه، فرأيت ملكين يظلانه من الشمس (١) فرحت راعشاً قلقاً لا ادري كيف احسر عن غامض هذا الحادث!؟

وفي صباح اليوم التالي اقبلت على دير قديم مجاور للشجرة الظليلة فاذا راهب نصراني يدلف الي مسرعاً وقد تلفع بردائه الأسود وكان محمد لايبرح تلك الشجرة الباسقة، فجعل الراهب يحدق الى صورته تحديقاً غريباً اثار في نفسي رغباتها فرحت اسأله عن معنى نظراته الى القرشي فقال لي (٢) «من هذا الرجل؟ فقلت له من قريش اهل الحرم فقال الراهب وهو لايرفع عينيه عن محمد اتدري ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي؟»

وعدت الى نفسي فذكرت ذلك المشهد الفاتن الذي عرض لي امس وقد جاء الملكان يظلانه من الشمس.

وشد ما كانت ذهلتي حينما رأيت الراهب ينزع الى الصلاة وهو يهمس قائلا:

---

(١) و (٢) الطبقات لأن سعد ج ١ ص ٧٣

« هذا هو سيد العالم ، بل هذا هو سيد العالم »

وفي المساء اناخت القوافل مطاياها في هذه الأماكن الخالبة . ونصبت خيامها حيال الأعشاب والينابيع ، وكانت المناسك والأديرة تلوح لنا في شواهق الجبال وقد احاط بها الدردار والصفصاف فاستهواني الطواف بهذه الأماكن فخرجت من الخيمة وصحبي النيام لايحسون من امري شيئاً ثم تسلقت تلك الشوامخ فنعمت نفسي باصوات عذبة اخذت تخرج من الأديرة ثم راحت تطفو على الجبال والأودية وانوار القمر تريق شيئاً كثيراً من سحرها وبهاءها على هذه المشاهد .

وكانت كلمات الراهب لاتزال تفعم نفسي بكثير من الخوف فلما بلغت قمة الجبل وتراءت لي البيع اخذت اردد حديث الراهب « هذا هو سيـــد العالم بل هذا هو سيـــد العالم »

واخذ اريج الأزهار الرطبة العذبة ينبثق من ظلال الليل المعتمة ، ثم اذا هو يعطر الفضاء الساجي فواصلت سيري تحت تأثير هذا الشذا الى ناحية البيع حتى رأيتني قريباً من ينبوع يصب امواهه في تلك الأماكن . فمضيت الى شجرة منفردة واستندت اليها لا اصطحب فكراً ولا املك رغبة ، ولكني فتحت صدري لهـــذه الأعراف المستحبة وتنشقتها فاذا لها متعة عميقة فلم امنع نفسي وهي تحت تأثيرها من الشعور بالانتقال من حاضري الى عالم مجهول فقد خيل الي ان شيئاً لذيذاً لا استطيع ان اسميه قد حلق بي في هذه السماء الفيحاء واني عدت روحاً لاصلة له برماد هذا العالم واني لسابح في متع هذا الحلم اذا الراهب الذي رأيته في صبـــاح الأمس قد برح مصلاه دالفاً الى ناحية السفوح فلما ابصرني مضى ذاعراً وقال لي لماذا جئت الى هذه الأماكن ؟ لخير لك ان تنطلق بسيد العالم الى بلده قبل ان يعلم الرومان بامره !

فروعني هذا الذي سمعته منه فسألته ان يحسر لي عن الخوف الذي يحسه فقال لي : ان العالم الذي تراه امامك صار يستمريء الغرق في اللذات والأهـــواء فهو

لا يرى في الفضيلة التي يحملها سيد العالم غير موجة عاصفة تقوض صروح كبريائه

ولا يبرح هذا العالم السادر الحائر عزوفا عن الأنبياء فهو قد استعاض عن الدين بالشعر ووجد في الهياكل والأصنام عبادات تطامن اليها ·

ولكن الشعر على الرغم من صفائه وسموه لم يستطع ان يمشي بالحياة الى الكمال فظلت الشعوب تحس حاجتها الى كلمة الله اكثر من شعورها بالحاجة الى الفرح والى اللذة

ما ابشع هذه الحياة التي تغمر العالم بامواجها المتدافعة ، انك لاتجد في نواحيها ما تستطيبه وتستلذه فهي يوم لاغد له وديمة باردة تنقصها حرارة الشمس ·

ولم يزد الراهب على حديثه شيئاً فجعل ينظر الى السفوح فبدت له الخيام البيضاء تحت ظلال الليل كزبد البحر وبعد لحظات استطالت فيها تأملاته وهواجسه قال لي

« انطلق بسيد العالم الى صحراء العرب فان للرومان في هذه الحوالي حصونا تجيش « بالجند فاذا عرف هؤلاء ان في هذه الخيام نبياً كريماً ورسولا عظيما ، نزعوا الى « ترويعه ، قل لي امنطلق انت ؟ فقلت له : نعم فقال أفي قدرتك ان تفارق هذه « الاماكن في هذا الليل ؟ فقلت له : نعم في هذا الليل · ·

ولما انحدرت الى السفوح جعل الهواء ينقل الى سمعي صدى صلاة ذلك الراهب فبلغت الخيام ورجعت ببصري في الجبل فاذا خيال الراهب لايزال على الشواهق، وقد نشر يديه في الفضاء كأنما قد توخى ان يستفزني الى فراق لارجوع بعده الى هذه الاماكن الطافحة بالرومان·

ولما نصف الليل تركنا السفوح وودعنا تلك المراعي التي تضحك للآس والعرار ثم كان معادنا الى مكة ·

وسكت ميسرة ولم يتكلم ورقة وظلت خديجة تحدق تارة في جبين غلامها واحيانا في جبين ابن عمها حتى تبرمت بسكوتهما الطويل فصاحت :

— الا تتكلم يا ابن عم ؟

فهز ورقة رأسه وانثنى قائلا :

ـــ ان محمداً نبي هذه الامة ! . .

وبعد ايام ارسلت خديجة بنت خويلد جاريتها نفيسة بنت علية الى يتيم قريش فقالت له يا محمد ما يمنعك ان تتزوج فقال لها ما بيدي ما اتزوج به قالت فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاية الا تجيب ؟ قال فمن هي قالت : خديجة، قال وكيف لي بذلك ؟ قالت : علي وانا افعل!

وعادت نفيسة الى خديجة سيدة القرشيين واخبرتها فغامت عيناها من الفرح وارسلت، الى سيد قريش ان ائت ساعة كذا وكذا، ثم ارسلت الى عمها عمرو بن اسد ليزوجها فحضر وبعثت الى اليتيم العظيم فاتى ومعه عمه حمزة بن عبد المطلب وابو طالب ورؤساء مضر فاكلوا ثم خطب ابو طالب فقال الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعلنا حضنة بيته وشوكة حرمه وجعل لنا بيتا محفوظاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم ان ابن اخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل الا رجح وان كان في المال قل فالمال ظل زائل وامر حائل ومحمد ممن عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا ولما اتم ابو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها وانتم اهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد احد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علي معاشر قريش باني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على اربعمائة دينار

وشهد على ذلك صناديد قريش (١)

احتشدت ذكريات الماضي في نفس ابي طالب في هذه الليلة المقمرة فجعل يطوف بها مستروحاً الى تعاقب صورها امـــام عينيه، ثم مضى يذكر سفره مع اليتيم الى الشام فتراءت لعينيه صورة بحيرا الراهب وهو يحدب على الطفل ويحدق الى جبينه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص — ١٨٦ — و٧٧٧ — و١٧٨ — و١٧٩

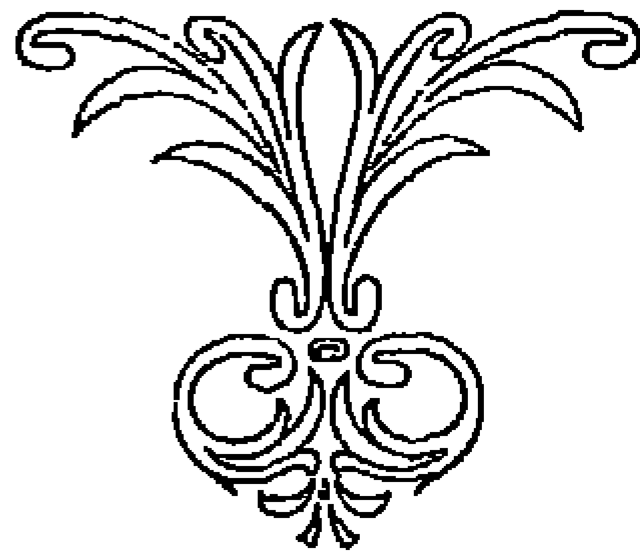
فهزته هذه الذكرى واستجاشت خواطره فهمس قائلا :

« رحم الله هذا الراهب، فلقد كان صادقاً في حديثه عن ابن اخي »

ولبث يفكر في حديث بحيرا حتى هزته اعراف الليل الباردة فنظر الى الجبال المحدقة بالحصن القرشي وقد توامضت عليها الوان معتمة اعادته الى حاضره الأليم فذكر قريشاً وخروجها اليه قبل لحظات ثم ذكر تلك الكلمات الموجعات التيارسلها الرؤساء في جوف الليل الى هذه الجبال فلم يفته مغزاها فادرك انقريشاً قد اعتزمت ان تفصل بينه وبين ابن اخيه فشق عليه كثيراً ان يقف في ناحية وان تقف قريش في ناحية اخرى !

ولما اراد رجوعا الى غرفته لينقطع الى احزانه وشجونه خذله اليأس فظل على الشرفة وظلت الألوان الكامدة التي تترقرق على الجبال تطفو على احساسه .

ثم تحيفه تعب وجيع فاغمض عينيه بينما كانتيداه ممسكتين بالشرفة التي يتهافت عليها البرد . . ؟



الفصل الرابع
حنان الشيخ

حمل الفجر في اليوم التالي الى ابي طالب نسماته اللينة الرطبة ففتح عينيه على بهاء الشمس الدافئة وراح ينظر الى تلك الجبال التي ارعشته في الليل فرأها تطفح بالالوان الزاهية المتوردة ثم نظر الى السفوح فاذا مكة غارقة في مثل بهاء الجبال واذا الطرق المؤدية الى الكعبة تعج بروادها ففطن شيخ قريش الى سبحه الشديد ولم يفته قليل او كثير من مآسي الليلة الماضية فهم برجوع الى حجرته ولكن صوتا حلوا خرق اذنيه في تلك الفينة فمنعه المضي الى الحجرة فالتفت الى ناحية الصوت فاذا هو حيال سيد قريش محمد بن عبد الله الرسول الامي فصاح :

ـ اهذا انت ؟

ثم وثب الى اليتيم العظيم يغمره بقبلاته وقد استفاض حزنه وتفجر دمعه !

كان الرسول ابيض مشرباً بحمرة ضخم الرأس ازج الحاجبين عظيم العينين شثن الكفين والقدمين اذا مشى تكفـاء كأنما ينحط من صبب ويمشي في صعد ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن ، لا يضحك الا مبتسما في رأسه شعرات بيض لاتكاد تبين (١) فلما احتبسه عمه بين ذراعيه ناشجا شاجنا رق له وسأله عن باعث هذا الالم الذي يحسه فظل صامتا فالحف عليه في الافضاء بحديث قلبه فتكلم وقص عليه قصة الليلة الماضية والرسول شديد الاصغاء الى حديثه :

ثم نظر ابو طالب الى ابن اخيه نظرة رحيمة وقال :

ـ ان قومك قد جاؤني وارادوني على تسليمك اليهم ، فابق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الامر مالا اطيق (٢)

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه اديب الاندلس الكبير ج ٣ ص ٥٨و٤٨

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٤ و ٢٣٥

وكان ابو طالب يتكلم وهو ذاهل ، وعيناه مخضلتان بدمع فخيل الى الرسول ان عمه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه (١) فتهافت عليه ملتاعاً ومسح بيده دموعه ثم قال له :

— ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته (٢) ثم استعبر فبكي ومضى الى ناحية الباب يريد ذهابا فلحق به عمه الرفيق الشفيق وقال له

— الى اين تمضي ؟

فلم ينبس فوضع ابو طالب يده على كتف الرسول وعيناه تنظران الى جبينه والالآم تزخر في صدره ، ثم ما لبث ان امر يده الثانية على شعر الرسول يتباهى به ويلمسه لمساً رقيقاً وهو يهمس :

« لقد كان ابي عبد المطلب يفعل فعاتي هذه . . . ومضى الشيخ الى ذلك الماضي البعيد فذكر اياب ابيه المجيد من الميادين بعد رجعة الاحباش عن حدود الوطن وكان الرسول طفلا فحام عبد المطلب حول مهده واخذ يمسح شعره بيديه الراعشتين وهو يقول لأبنائه الذين تجمعوا من حوله « ان لهذا اليتيم لشأنا »

ثم حمل الطفل بين ذراعيه وجاء به شيوخ القرشيين الذين اشتركوا في ذلك النصر الباهر واردف قائلا :

« ان ابني هذا سيرث العالم القديم والعالم الجديد »

اثارت هذه الذكريات البعيدة حماسة ابي طالب فتهافت على الرسول يمطره لثماو عناقا ثم قال له

— لاقدر الله يابني ان اكون خاذلك ، اذهب ، اذهب وقل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيء ابداً (٣)

ولما برح الرسول بيت ابي طالب قفل الشيخ الى حجرته وهو اشد ما يكون مرحا وتوثباً ونشاطاً وكان يقول في كل خطوة يخطوها .

« سأمضي في الدفاع عنه الى النهاية . . . »

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٤ و ٢٣٥

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٤ و ٢٤٥

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥

الفصل الخامس

رجل غار حراء

في سنة ثلاث عشرة وستمائة اي قبل وفود القرشيين على منزل ابي طالب بثلاث سنوات تذوق يتيم قريش لذة الاسرة فوجد في خديجة بنت خويلد الأسدية تلك المرأة الفاضلة النابهة التي جمعت الى جمال الخلق ادب النفس واشراق الذهن وشرف العمل ووجدت خديجة من ناحية في اليتيم اشرف الأزواج شعوراً واصدقهم عملا واجملهم خلقاً ، واشدهم لصوقاً بالفضيلة ، بل وجدت في اليتيم الكبير ابا شفيقاً وصديقا رفيقا وزوجا مواسيا .

لقد تتالت الأيام والأعوام على هذا الزواج الراغد فاذا حصاده اطفال كاللؤلؤ المنثور فلم يلبث الزوجان ان تعهدا هذه الرياحين النضرة الفواحة بالحب والعطف والرعاية حتى استوثقا من بقاء عطرها وحتى اطمئنا الى قدرتها على مغالبة رياح الحياة العاصفة . وانقطعت خديجة الى العناية بتربية هذه الازهار في حقل بيتها ، وزهد اليتيم في التجارة فعذب عنها وقد كان في الماضي يستعذي السياحة في اليمن مع عمه الزبير بن عبد المطلب .

وكانت ثروة خديجة التي نمت وازدهرت في التجارة من اكبر العوامل التي جعلت اليتيم زاهداً في سياحات طويلة متعبة اعتاد ان يقوم بها في انحاء بلاد العرب وفي مشارف الشام فاصبح لايستسيغ غير احاطة صغاره بحبه نازعاً في هذا الحب الى مشاطرة خديجة بعض واجبها في السهر على البنين زينة الحياة الدنيا .

ولكن حبه لبنيه لم يمنعه ان يطل على هذا العالم الذي اخذ يجيش في نواحي نفسه فلقد استفاق في ذات عشية وفتح عينيه فاذا هذا العالم يدفع به الى الوحدة والى التأملات فما عتم ان وجد في العزلة مرح نفسه وسكونها فجعل يطوف بالجبال

البعيدة طول نهاره ماضياً الى النهاية في تأملاته العظيمة مستروحا الى ابتعاده عن هذا العالم الكاذب الذي يحمل في جانحتيه صورة بشعة لعبادات غامضة لا يأنس اليها

وكان يحفو منزله الى قمم جبل حراء العارية الشاحبة فيقف على تلك الشواهق متأملا في مكة القائمة على السفوح ثم هو يستعرض هذا الغرق الأليم الذي يتحيف قومه فيمضي ذاعراً هلوعاً ثم يتولاه حزن بليغ ، فيود لو انه يستطيع انقاذ قومه من هذا الغرق

وكان الرعاة في اوبتهم الى مساكنهم عند المساء يمرون به وهو مستأنس الى عزلته فينظرون اليه نظرات مليئة بالأحترام ثم يواصلون انحدارهم الى السفوح واعراف المساء اللينة تطفو على تلك الجبال الناصلة الشاحبة ٠

ولم يكن هذا المشهد يفارقه في الصباح ، فلقد كان الرعاة يمرون به سحراً وهو منتبذ ناحية قصية في الجبل فيستعذون عزلته وعبادته ويرتاحون الى هذا الصمت الذي يغشاه من كل ناحية ٠

لقد كان ينظر الى الجبل والى الوادي ثم الى السماء وقد غصت بالكواكب فيعود الى نفسه فيراها قد امتلأت سكونا ثم هو ينصت الى صوت شعوره فيشجيه هذا الصوت الرقيق الذي يحمله على التفكير في الخالق الذي ابدع في تصوير هذه المشاهد العظيمة وحينما يسأل نفسه الراعشة من يكون هذا المبدع الذي رصع حواشي السماء بالألوان المتوردة وخلع على الجبال جميع هذه المفاتن التي يضيع العقل في روائها يعود الى ذلك الصوت الرقيق الذي يختلط بحسه وشعوره فيصغي اليه فلا يلبث الصوت ان يدله على الله الذي اودع بهاءه هذه المشاهد الفخمة الجليلة

وكان يعاف ان يقصر عمله في الوحدة على التحديق في الجبال وفي السماوات وفي الطبيعة ولا يكتفي بالنظر الى مشاهدها التي تتبدل في الصباح والمساء بل كان يفتح عينيه لينظر الى ماوراء هذه المشاهد رجاة ان يتصل اتصالا حقيقياً بذلك المبدع الخالق فكان جسمه في الأرض بينما تصوراته ومشاعره تطوف نواحي الأفق .

بلى لقد كان يتيم قريش يفتش في الجبـال عن الحقيقة التي ثعب قومه في البحث عنها وهم منتشرون في السفوح وكان يجد في السماء ذات البروج ذلك الحـل الذي استعصى على سواه ؟

لقد كان لا يحب عزوفا عن الحقيقة ، ولا يستطيع عيشاً الا في بهائهـا وكان ينظر الى ما حوله فلا يرى لهذه الحتمية التي تطامنت نفسه اليهـا خيالا ولا شبحاً ، وكانت قريش التي احبها تعيش في عزلة جافة عن الحقيقة التي قرب منهـا وتعرف اليها فاشجاه سبحها في وثنية لاتحمل اليها غير برد الموت وقره ، وامضه ان تعزف عن الجمال ولا تحسه ، وماذا وراء هذه الوثنية الجافة البليدة غير الأفق الضيق المحدود الذي تتضائل فيه الوان الحياة الجميلة ؟ ماذا وراء هذا الأفق الضيق غير حياة يائسة مكدودة تشعر بحاجتها الى الفرح والى الامل ثم يمنعها هذا الافق الذي يغرقها في حدوده الضيقة ان تطل على فضاء يزخر بالفرح والامل

لم تجد قريش في الشعر هذا الحل الذي تحتاج اليه حياتها الناصلة الخامدة لان الشعر قد حدد الوان الحياة فليس في قدرته ان يصدف عن هذه الالوان ، بل ليس في قدرته ان يأتي بالمعجزات الباهرات فيخلع على الحياة الناصلة الكامدة لونا خالبا جديدا

ان ديانة الشاعر لسائل مرتج كهذه السحب التي تبين في الافق ، فهى لا تستطيع ثباتا وصمودا امام اشعة الشمس وهى لا تستطيع ان تمشي بالفكر الراعش الى السكون الذي يحبه ويتطامن اليه

اذن فقد كان الحل الذي تتطلبه مسائل الحياة ومعمياتها في الديانة لأن الديانة وحدها تستطيع ان تسرح الفكر سراحا جميلا ولأنها تصقل الاحساسات والاعمال وتغذيها بالنور وهي فوق هذا كله قائمة على بداية ونهاية وفي قدرتها ان تخلع الالوان المستحبة على الحياة وتمنحها الدفء والبرد والحركة والنشاط

الشعر حلم ينقل النفس الى عالم يعج بالصور الفتانة ولكن هذه الصور الفتانة

لا تبرح اطارها المصنوع من ائتلاق الشمس،وسحر الغروب،وللشعر يقظة راعبة تحمل الى النفس رماداً مقرورا لا تعيش فيه الاحلام الزاهية المتوردة

وللديانة يقظة سارة تنقل النفس الى عالم يعج بالصور الفتانة الخالبة، ولكن هذه الصور الفتانة لا تبرح اطارها المصنوع من الحقيقة،ومن الخلود، فللنفس ان تفتش عن عزائها ورجائها في الحقيقة وفي الخلود لا في الخيالات الراكضة التي يحملها الشعر

لقد كان في حياة العرب كثير من الشعر، ولكن الديانة القائمة على الحقيقة وعلى الخلود لم تخالط هذه الحياة الجافة العاكفة على اذكاء عواطفها في برودة الاصنام الخامدة الذاهلة وهذه الحياة الناصلة الخابية لم ترق سيد قريش الذي اخذ يفتش في الوحدة عن الحقيقة وعن الخلود

كان سيد قريش يجاور في حراء من كل سنة شهرا وكان يتزود لبعض ليالي الشهر فاذا نفد ذلك الزاد رجع الى خديجة يتزود ثم هو يمضي الى وحدته في حراء (١) ثم يعود الى بيته فيطوف في طريقه اليه حيال الكعبة سبعا (٢) ثم يفد على المساكين والبؤساء وهم مخلدون الى بيوتهم فيطعمهم ويحمل الى نفوسهم الضارعة العزاء والرجاء (٣)

وكان اذا مر بالكعبة انتحى ناحية قصية حتى لا يقرب من الاصنام التي عكفت قريش على تكريمها وايثارها ثم هو يمضي الى بيته ليستمتع ولو قليلا بمشهد بنيه

لقد كانت خديجة بنت خويلد تقلق لابطائه في رجعته الى البيت فكانت تسأله فيم هذا الابطاء فيفضل الصمت ولا يحدثها بحديث عزلته

وفي ذات مساء صدف سيد قريش عن مخالطة العالم فوجد في جبل حراء ذلك الفرح الذي صبت نفسه الى خيالته فلبث في هذه العزلة المستحبة اسابيع

---

١ — سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥

٢ — سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥

٣ — سيرة ابن اسحق

كثيرة استعذى خلالها سكون العبادة ، وجعل يمضي الليالي والنهارات راكعا على قدميه في وسط الظلمة ، او تحت ظلال الشمس حتى اذا انتهى من صلاته فزع الى الطواف بالتلال والاودية والشعاب فيلتفت حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى الا الشجر والحجارة (١) .

وفي صباح يوم رائق اضطجع سيد قريش على قمة الجبل تحت اشعة الشمس المنحنية وعيناه تصافحان الافق وتتأملان في مداه الفريغ فكان سهلا جداً على الذين يمرون به ويرونه راقداً هذه الرقدة الوادعة ان يخالوه احد الرعاة الذين اعتادوا ان يتنقلوا بين الجبال والسفوح فقد كان كل ماحوله هادئا ساكنا والجبال الشواهق تكاد تنحني على الاودية لتغطيها وتحجبها .

ولكن سيد قريش الذي ساق الماشية في طفولته الى بادية بني سعد والذي ناطت به العناية وهو في الاربعين من حياته قيادة الشعوب لم يحمل الى جبل حراء في هذا الصباح الناعش ما يحمله الرعاة الى الاودية والى الحدور بل حمل الى الجبل عبق نفسه الكبيرة وتأملاتها السامية

لقد لبث يحدق في الافق وهو مضطجع على ظهره رجاة ان يتعرف الى صورة الله التي اخذت تطفو على الجبال وعلى الاودية من فوق غيوم الصباح حتى اشبه في تأملاته موسى النبي الذي انصت الى صوت الله في ذرى الجبل

وكان الصمت منتشراً في كل ناحية من هذه النواحي التي عرتها الطبيعة من شجر الزيتون الباسق في اراضي الاردن وحرمتها الينابيع الجائشة الموارة في سهول الشام وليس في الافق غير السحب الصاردة التي تغطي الذروات والهضاب في سلسلتي جبال تلتقيان من نواحي الشرق والغرب والجنوب

من فوق هذه القنن التي مرت بها العصور والقرون وهي منعزلة عن ضجيج التاريخ وصخبه كان سيد قريش ينظر الى جميع المشاهد في الشمال جبل

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٤

الفلج ثم جبل قيقعان وجبل لعاع . ثم جبل كداء وفي الجنوب من ناحية الغرب جبل ابي حديدة.ثم جبل كدى ، ثم جبل ابي قبيس من ناحية الشرق ، ثم جبل خندمة

وكانت بيوت مكة ومنازلها وقصورها وآطامها تتراءى في سفوح هذه الجبال من ناحية الحرم مما يلي جبل ابي قبيس ثم تمتد هذه القصور الشاهقة الى الوادي ، وفي الشرق الشمالي للحرم دار ابي سفيان بن حرب سيد بني امية بينما كانت بيوت الهاشميين من آل عبد المطلب في نواحي الشرق .

لم تلبث غيوم الصباح ان توارت فبدا الافق مصحيا فتانا تغشاه شمس دافئة تحمل الى النفس المرح والنشاط فجعل سيد قريش ينظر الى بيوت مكة البيضاء والى الكعبة وهو يفكر في هذه الوثنية الربداء التي اجتاحتها وروعتها واقصتها عن السعادة الحقيقية التي تطمئن النفس اليها في حلاوة عبادة صافية مهذبة .

ولعل اروع ما اشجى السيد العظيم في عزلته ، هذا الغرق الأليم الذي يحتوي قومه، والذي منع الأب ان يحس حدبا ، وحباً فعكف على وأد ابنته الطفلة حتى لا يعلق به عار حياتها بل لعل اروع ما اشجى السيد العظيم في هذه العزلة المقدسة هـذا الموت البارد المقرور ، الذي اطفأ ومضات الرحمة والحنو والرفق ؛ في قلوب السادة العاكفين على اثارة المنافسات والعصبيات والملاحم الحمراء حتى جاء حصاد كبريائهم في بلد يحتاج الى الموادعة والى خصب الذهن وتسخير هذا الخصب في العمل المثمر هذا القلق الدائم الذي يغشى الحياة في كل ناحية من نواحيها .

. لبث سيد قريش عاكفاً على تفكيره وتأملاته في الجبل حتى احس ضنى بليغاً ، فهم برجعة الى مكة فثناه عن رجعته صوت بعيد ماعتم صداه ان تردد في جوانب الصحراء النائمة وراء الجبال فما عاد يفكر في الضنى البليغ الذي احسه وطفق يجيل نظراته في تلك الشواهق الماثلة ثم في السماء الزرقاء .

وتعالى الصوت فالتفت الى يمينه والى شماله كأنما هو ينزع الى الناحية التي صدر عنها الصوت العظيم فاذا عيناه اللتان زاحتا تنظران الى ما حوله تحدجان

طيفاً نورانياً ينحدر من السماء الى الأرض فمضى راعشاً لهذا المشهد واخضل جبينه بعرق دافق ثم احتبس منطقه فما عاد يطيق همساً ! ؟

وكان الطيف لايبرح على انحداره ، فلاح لسيد قريش في صورة رجل لم تقع العيون على اجمل منه ، ثم اذا الطيف يقول يامحمد انت رسول الله وانا جبرائيل (١) فطفق ينظر اليه وهو لا يستطيع تقدماً وتأخراً (٢) وجعل يصرف وجهه عنه في آفاق السماء لاينظر اليه في ناحية منها الا رأه في ناحية اخرى (٣)

وما زال واقفاً لايتقدم ، ولا يرجع الى ورائه حتى توارى الطيف في الأفق .

ولما غسا الليل استبطأت خديجة بنت خويلد سيد قريش فبعثت رسلها يبحثون عنه فبلغوا اعلى مكة فرأوه محدقاً في الأفق دائم الحزن والتفكير فلم يخاطبوه ومضوا الى خديجة يعتصرهم يأس شديد !

وعاد سيد قريش الى بيته فاستقبلته خديجة ملتاعة واجفة وقالت له وهي تنظر الى ارتعاده ياابا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا اعلى مكة ثم عادوا الي (٤)

فقص عليها حديث الطيف السماوي وهو راعش راجف، وقال لها : والله ما ابغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ، واني لاخشى ان اكون كاهناً ، بل اخشى ان يكون في جنن (٥)

فقالت له ان الله لايفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ثم جعلت تنظر اليه نظرة يتبين فيها الحب والعطف ومضت تفكر في الأحاديث القديمة التي طرقت سمعها يوم عاد ميسرة من الشام !

---

(١) و (٢) و (٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦ وقد نقل ابن هشام هذه الحادثة بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٥) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٣٠

ثم وضعت يدها على صدرها، فاذا ذلك الماضي البعيد الذي وارته في اعماقه يخفق خفقانا شديداً فاصغت الى همسه وترجيعه فاذا هو يحسر لها عن تلك السياحة المجيدة التي قام بها سيد قريش الى الشام للتجارة ثم عاد الى مكة والاحاديث عن رسالته المهذبة تملاء نواحي بلاد العرب .

اذن فليس من شك ان هذا الانسان الكامل الذي اراده الله زوجاً وصديقاً لخديجة لم يعد بعيداً من ذلك اليوم الذي يصبح فيه سيد العالم وقائده الى حياة جديدة تمور بالفضيلة والاحسان الى العقل .

واذن فليس من شك ان ذلك الطيف الذي تراءى للسيد في زرقة السماء قد بدأ رسالته بين الله وبين رسوله .

وكانت خديجة مثال المرأة الفاضلة في برها بزوجها وحدبها عليه ، ونزوعها الى مشاطرته مفارحه ومناكده، وقد حبتها السماء احساساً رقيقاً وشعوراً عالياً وحديثاً عذبا تسكن اليه النفوس المتألمة . بل لقد حبتها السماء كل ما تحتاج اليه المرأة المهذبة من السلائق العالية الصافية فتهافتت على السيد العظيم ، تعزيه وتواسيه ، بكلمات عذاب حملت في الماضي الى بيوت الفقراء والملتاعين فجر السعادة الدائم الابتسام ، فاثرت كلماتها في نفسه فاطمأن فقالت له :

— اي ابن عم اتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك ؟ (١)

فقال لها :

— نعم ، (٢)

وتراءى له جبريل في تلك اللحظة فقال لزوجه ياخديجة هذا جبريل قد جاءني قالت قم يا ابن عمي فاجلس هنا عن كثب مني فقام السيد فجلس قبالتها قالت هل تراه (٣) قال نعم قالت فتحول فاجلس الى يميني (٤) ففعل فقالت له هل تراه قال نعم قالت فاجلس في حجري ، فجلس في حجرها ، قالت هل تراه قال نعم .

(١) و(٢) و(٣) و(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٨

فتحسرت خديجة والقت خمارها وسيد قريش عن كثب منها ثم قالت له :

— هل تراه ؟

قـــال :

لا ! لقد مضى ..

فقالت : يا ابن عم اثبت وابشر فوالله انه لملك وما هذا بشيطان (١)

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت الى ورقة بن نوفل فاخبرته بما سمعته من السيد فصاح ورقة :

— والله ان ابن عمك لصادق وان هذا لبدء نبوة وانه ليأتيه الناموس الأكبر فمريه ان لا يجعل في نفسه الا خيراً (٢)

فرجعت خديجة الى بيتها فاخبرت السيد بقول ورقة ، وفي الصباح اليوم الثـاني خرج سيد قريش الى الكعبة فطاف بها سبعاً فلقيه ورقة بن نوفل فقـــال له يا ابن اخي اخبرني بما رأيت وسمعت (٣) فاخبره فقال له الشيخ :

— والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى (٤) ثم قبل رأسه ومضى قافلا الى منزله ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٨

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٣٩

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٣٠

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٧

الفصل السادس

اقرأ ! . . .

في اليوم الثالث عشر من شهر مايس سنة احـــدى عشرة وستمائة خرج سيد قريش الى عزلته في غار حراء وذكريات الماضي لاتفارق صدره وقد ضاعفت الوحدة في شجونه فوجد امنا وسلاما في العكوف على العبادة ، وتمثل فكرة الله في الذروات وفي الاودية وفي بهاء الشمس ، وفي عطور الصباح .

وكان صوت الله لا يبرح يستجيشه ويستفزه فاصغى اليه وتذوق حلاوته وجناه واخذت الجبال والرمال تلوح له عن بعد ، وفي السماء غيوم فاعتزم ان يمضي في هذه العزلة المقدسة الى النهاية حتى يلوح له ذلك الطيف الذي اصغى الى جرسه العذب قبل ايام.

وجعل يطفر من صخرة الى صخرة متغلغلا في الشعاب وفي الكهوف باحثا عن ذلك الزائر السماوي فلما لم يجده حزن حزنا شديدا فهم برجعة الى جبل ثبير يريد ان يلقي نفسه منه ولكنه تجلد وعاد الى المثوى المنعزل في غار حراء ووقف على بابه لا يفكر في الدخول اليه وظلت عيناه تبحثان عن ذلك الضياء الذي تفجر في نواحي نفسه ويده على صدره كأنما هو ينزع الى لمس ذلك الصوت الذي استفاض في اذنيه حلوا سائغا

ولم يكن هذا الصوت غريباً عنه بل كانت له به صلة قديمة ترجع الى طفولته الطاهرة البريئة فاستعرض ماضيات ايامه وخطر له طوافه بارض الشام وهو في ربيعه العاشر ثم تمثل ذلك الصوت الالهي الذي كان يصغي اليه في ضجيج الطبيعة وفي سكون غاباتها واحراجها وصمت جبالها ، وفي وسوسة جداولها وانهارها

لم يتبدل الماضي في عينيه وذلك الصوت العذب الذي حن الى صفائه عاد بعد ثلاثين عاما الى نفسه يستجيشها الى العمل الرائع المجيد

ظلت هذه الذكريات تتزاحم على خاطره وهو على باب الغار حتى ابصر اشعة

الطفل تطفو على ذرى الجبال فراح يبحث في اعماق الغار عن رقدة تنسيه طوافه الناصب ولما اشتملت عليه سدفة الغار جعل من ردائه فراشا ثم اغمض عينيه وانه لفي هذه الاغفاءة الوادعة اذا ذلك الزائر المقدس يهبط عليه من السماء وقدجاءه بنمط من ديباج فيه كتاب فقال له :

ـــ اقرأ :

وكان امياً لا يعرف القراءة والكتابة فانثنى قائلا :

ـــ ما انا بقاريء

فتهافت جبريل عليه ، وضمه ضمة شديدة فخيل الى السيد انه مقبل على موت وقال الملك :

ـــ اقرأ

فصاح :

ـــ ما ادري شيئا اقرأه ، فقال الملك :

ـــ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم (١)

فجعل السيد يردد هذه الكلمات التي انارت عقله وحواسه والتي حسرت امامه عن عالم الحقيقة فما عتم ان ادرك ان الله خلق الانسان وكشف له الحقائق التي لم تدركها المعيته وذكاؤه .

وفي خفـــة البرق الومض توارى الزائر السماوي فاستفاق « سيد قريش » من

---

(١) سيرة ابن هشام ج.١ ص ٢٢٦ ، قال رسول الله جاءني جبريل واناانائم بنمط من ديباج فيه كتاب ؛ فقال اقرأ قلت ما اقرأ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ قلت ما اقرأ فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم قال لي اقرأ فقلت ما انا بقاريء فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق الى نهاية السورة ؛ رواه اسحق والطبري وابن الاثير

رقدته وهو يشعر بحلاوة ذلك الصوت الذي تسرب الى اعماق نفسه وخيل اليه أنه عاد الى العالم شيئا جديدا وان كتابا مقدسا نقش على صدره في تلك اللحظات القليلة ولكن ذهلة عميقة ظلت تدازعه فمضى يرتاد الشعاب والكهوف وهو لا يدري معاده حتى اجتاز الطرق الواعرة وحتى اطل على ذرى الجبل وهو يعثر في مشيه

وفي تلك الفينة عرض له جبريل في الافق فارتفعت عيناه اليه فاذا الملك يناديه السلام عليك يارسول الله فظل يحدق اليه مبهوتا راعشا (١) وجبريل يلوح له في هالة من نور، فوارى سيد العالم عينيه بكفه. ثم اذا هو يطفر في تلك الاماكن البعيدة النائية من ذروة الى ذروة وكانت الحجارة التي يصطدم بها تنهار تحت قدميه ، كأنما انهيارها جاء نذيرا بانهيار العالم القديم الذي سبح قومه في دجناته .

ولما وقف على عتبة منزله ،كانت اطلال الماضي قد تداعت كلها تحت قدميه وفي هذه اللحظة السامية التي جاءت خاتمة رائعة للماضي الغامض انبثق في صدر سيد قريش فجر بداية عظيمة لزحف مجيد ان ينتهي في صنعاء والشام والعراق، بل سيمتد كثيرا حتى يستريح على ضفاف الكانج في الهند وحيال قمم جبال الاطلس في افريقية الرومانية.

لقد اخذت سيد قريش رعدة عنيفة وهو امام عتبة منزله فخفق الباب خفقا شديداً ففتح له ثم دخل حجرته فاستقبلته خديجة بنت خويلد راعشة قلقة فارتمى على صدرها صائحاً

— دثروني ، دثروني ؟ . . .

فحملت اليه زوجه البارة الشفيقة رداء من الصوف فتزمل به حتى ذهب عنه الروع ثم ارتمى على فراشه فتلفت خديجة اليه تسأله عن هذا الذي يعانيه فسكت. فشق عليها سكوته ورأت في عينيه الغائمتين شيئاً كثيراً من الروع والفزع ، فطفقت تتحدث اليه بلغة معسولة عذبة ، هي لغة الامهات اللواتي يطفن في المساء حيال اطفالهن حانيات ، حادبات ، مواسيات فسكنت نفسه الى جرسها وطفق ينثر عليها حديث الملك الذي تراءى له في الغار فابتسمت وقالت له : هدىء روعك فان الله لايخزيك

(١) طبقات ابن سعد

ابداً ،انك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم،وتقر الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ولا مراء ان الله قد اختارك لهداية قومك (١)

ولتتأكد خديجة مما ظنته ارادت ان تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين (٢) فرأت ان لامعدى لها عن المضي الى ورقة بن نوفل فانطلقت بسيد قريش اليه فقالت ياعم اسمع من ابن اخيك ، فالتفت ورقة الى السيد فرآه دائم الحزن فقال له يا ابن اخي كيف يأتيك الوحي؟ فقال اذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يامحمد يامحمد فانطلق هاربا في الارض وكان احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فاعي مايقول(٣) فاعاد عليه ورقة ماذكره له يوم لقيه يطوف بالكعبة وزاد على ذلك قائلا

لئن ادركت ذلك اليوم لا نصرن الله نصراً يعلمه اذ يخرجك قومك من بلادك لمعاداتهم اياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا اباءهم عليها

فاطرق السيد ومضى يفكر وقد احزنه حديث الشيخ وكان يحب قومه ويحب وطنه بل لقد كان يعلم حب قريش له فرفع عينيه الى ورقه وسأله قائلا :

— أو مخرجي هم ؟ (٤)

فقال ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي (٥)

ولما عادت خديجة الى بيتها آوى سيد قريش الى فراشه يلتمس اغفاءة هادئة فلم تشأ زوجه البارة الرحيمة ان تفارق حجرته ففضلت ان تظل عن كثب منه تتسمع الى لحامه ونشيجه ووقفت تصب تأملاتها في وجهه الغارق في اللألاء وتنظر اليه نظرات استطال فيها خفق قلبها وارتعاشاته حتى جن الليل جنانا مخوفا فاحست تعباً فمضت الى حجرتها تتوخى سكونا لنفسها.

---

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٣
(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٦٩
(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٢٢
(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣١٩
(٥) سيرة ابن هشام ج ١

الفصل السابع

ياايها المدثر قم فانذر

وانها لفي طريقها الى حجرتها اذا سيد قريش ينهض من رقدته . وقد اخذ يناديها فعادت اليه فاذا نفسه قد جشأت من حزن جشؤ اليماً واخذ العرق ينـدي جبينه ، فخفت اليه تسأله عن معنى احزانه المتجددة ويدها على رأسه الذي ثقب فيه الشيب فقص عليها حديث جبريل وقد غشيه وهو نائم ، ودعاه الى حمل الناس على عبادة الله وانزل عليه كلام ربه وقال له :

يا ايها المدثر ، قم فانذر ، وربك فـكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر ،

فاغيمت عينا خديجة من الفرح ورأت في كلام الله لذة لم تحسها من قبل فتهافتت على السيد تقول له : لقد صدقتك وآمنت برسالتك الا انهض وادع النـاس الى هذا السنا الباهر واعلم ان الله قد ارادك على العمل الجليل الخالب .

وكانت خديجة اول من تذوق جنى الديانة الجديدة في اليوم الثالث عشر من شهر مايس سنة احدى عشرة وستمائة فجاء اسلامها طليعة زحف الدين الجديد الى نواحي الأرض البعيدة وامسى سيد قريش في تلك الليلة سيد العرب ، بل سيد العالم

وفي ذات صباح دخل علي بن ابي طالب الى حجرة الرسول فالفى سيد العالم وخديجة يصليان سراً وكان علي من اجمل فتيان قريش على الأطلاق فلم يلحظ الرسول مجيئه فظل دائباً على تلاوة الآيات وفتى قريش على عتبة الباب يستمع الى كلمات الله العذاب ،

ولم يطل وقوف فتى قريش على عتبة الباب فتقدم من الرسول مستأنساً بهـذه الصلاة الحلوة وسأله قائلا ماهذا ؟ فقال له دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فادعوك الى الله وحده لاشريك له والى عبادته والى الـكفر باللات والعزى (١)

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٥٨

فقال علي، هذا امر لم اسمع به قبل اليوم.فلست بقاض امراً حتى احدث ابا طالب فكره السيد ان يفشي عليه سره قبل ان يستعلن امره فقال لفتى قريش ياعلي اذا لم تسلم فاكتم هذا

وكان علي نبيغاً شريفاً شديد الحدب على مربيه الأول فعاذ بالصمت وفي اليوم التالي خف الى السيد وصارحه باسلامه فضمه الى صدره ودعا له دعاء جميلا .

واصبح علي منذ هذا الصباح اشد الناس لصوقاً بالرسول حتى جفا فراقه وحتى اكثر من الخروج معه الى شعاب مكة للصلاة مستخفياً من ابيه ابي طالب ومن جميع اعمامه وكانا يصليان معاً فيها فاذا امسيا رجعاً الى مكة (١)

وفي ذات عشية عثر عليهما ابو طالب وهما منتبذان ناحية قصية في الشعاب فرآهما يصليان وقد اغبط عليهما المطر المدرار فلم يحفلا به ولم يكترثا لتلك الريح الجفول التي كانت تعصف باماكن عزلتهما فقال ابو طالب للرسول « يا ابن اخي ماهـــذا الدين الذي اراك تدين به ؟ (٢)

فصاح السيد : اي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين ابينــــا ابراهيم بعثني الله به رسولا الى العباد وانت ياعماه احق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى بل انت احق من اجابني اليه واعانني عليه (٣)

فخفض ابو طالب رأسه الى الأرض ، وراح يفكر في معنى هذه الكلمات الــتي خرقت سمعه ثم رفع عينيه الى سيد العالم الذي طفق ينظر اليه نظرات الحب والعطف وقال له

— اي ابن اخي . اني لا استطيع ان افارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص فيك شيء تكرهه مابقيت (٤) ثم التفت الى علي كأنه يريده عــلى الكلام فقال له فتى قريش :

— يا ابت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه .

فقبله ابوه في جبينه وقال مردفا :

---

(١) و(٢) و(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٤

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٥ .

هذا حسن ، ولكن لا افعله ابداً (١) ثم همس في نفسه قائلا :

« اني لا علم ان ما يقوله ابن اخي لحق ولولا اني اخاف ان تعيرني نساء قريش لا تبعته » (٢)

ولم يشأ ان يبرح مكان عزلة ابن اخيه قبل ان يلثم جبينه ثم تغشى بردائه مخافة هذا البرد الذي يرتمي على الجبال وعلى الأودية فلما احتوته حجرته اجهم وجهه وتجيشت نفسه وبدت عليه طلعة الرجل المحزان الذي لم يتعرف الى المفارح والمغابط ثم اخذ يفكر في امر الرسول فاستوثق من روعته وعلم ان قريشاً الماضية الى الاستعلاء بقديمها لن تستسيغ جديده وفي هذه اللحظة التي تخيرها لتفكيره طرقت ذاكرته الراعشة خيالة الماضي ، ومرت به بصرى واديرتها ورهبانها ، فمضى يستعيد كلمات بحيرا الراهب الذي دعاه الى الدفاع عن يتيم قريش فهزته هذه الذكرى فقال هامساً:

لقد عاد ابن اخي نبياً ورسولا فما اجدرني بالدفاع عنه .

وفي مثل خفقة البرق المومض تمثل قريشاً وقد احمسها دين ابن اخيه فنهدت من مكامنها تفتش عنه . فهالته هذه الهواجس فلم يطق في حجرته مكثاً طويلا فبرحها ومشي مجتمعاً الى الكعبة يسأل عابري السبيل عن ابن اخيه الذي يحبه وانه لكذلك اذا عيناه تلحظان ورقة بن نوفل وهو خارج من الكعبة متلفعاً بثوبه فاراده على الوقوف ففعل فتقدم منه حتى صاقبه فقال له :

ـــ انك لتذكر شيئاً من طفولة ابن اخي ؟

فسأله الشيخ الأعمى قائلا :

ـــ اتريد محمداً ؟

قال : نعم فهل في قدرتك ان تقص علي اروع احاديث طفولته ؟

وكان صوت ابي طالب يرعش من الخوف فلم يفت ذلك ورقة فقال له

كان لابيك عبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه احد من اهل بيته ولا احد من اشراف قريش اجلالا له فجاء محمد وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على

---

(١) و(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٣٥

الفراش لجذبه رجل فبكى،فقال عبد المطلب وذلك بعد ان كف بصره ما لابني يبكي، قالوا له اراد ان يجلس على الفراش فمنعوه، فقال دعوا ابني يجلس عليه فانه يتيقن في نفسه شرفا وارجو ان يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربي قبله ولا بعده ثم اخذ الشيخ يمسح ظهر الطفل ومنذ ذلك اليوم اصبح الناس لايردون محمداً عن الفراش حضر ابوك او غاب (١)

فقال ابو طالب

ـ امدرك انت ان ابن اخي هذا قد ادرك شرفه وانه جاء بدين جديد ؟

فقال ورقة

ـ لقد علمت هذا وسمعت من ابن اخيك اقوالا تـنم عن ارتقائه الى الذروة العالية التي حدثنا ابوك عنها ؟

ـ اتعلم انني شديد الخوف على ابن اخي الذي كفلته يتيما ؟

ـ اعلم ذلك ، واعلم ان قريشا لن تدرك سؤلها من رسول الله ونبيه !

ـ ممن انت أمن انصاره ام من خاذليه ؟

ـ بل انا من انصاره ايها السيد !

ـ ايلذك ان نمضي معا الى النهاية في الدفاع عنه ؟

ـ لقد جاءني يتيمك قبل ليال فحدثني بامره فقلت له امام خديجة « لئن ادرك يومك لانصرن الله نصرا يعلمه»

ـ اذن فاقسم بهذا البيت على نصرته

ـ لقد اقسمت في غير هذه المرة فلست في حاجة الي قسم جديد ، قل لي ، الى اين انت ذاهب في مثل هذه الساعة ؟

ـ خفت على ابن اخي اذى قريش فرحت افتش عنه

ـ عد الى بيتك فان محمدا قد مر بهذه النواحي في طريقه الى بيت خديجه فتنفس ابو طالب الصعداء ومسح عبرات الدمع الماثلة في عينيه ، ثم شد على يدي ورقـة وعاد الي منزله وواصل ورقة بن نوفل طوافه بالكعبة ؟

(١) طبقات ابن سعد

الفصل الثامن

حديث ليلي

في مساء اليوم العشرين من شهر ايلول سنة احدى عشرة وستمائة دخل زيد بن حارثة على سيد العالم فالفاه منتحيا ناحية منعزلة في حجرته وقد اخذ يصلي ويتلو بعض آيات الكتاب ، فجعل زيد ينظر اليه نظرات حائرة مشتتة وهو لا يدري كيف يفسر هذا الجديد العذب الذي جاء اليوم يخرق سمعه والذي ظل غريبا عنه الى الامس

وكاد يهم برجوع فمنعته حلاوة الصلاة ان يترك مكانه فظل مصغيا الى صوت السيد لا يستطيع ان يمنع عينيه البكاء وقلبه الوجيب !

فمن اين جاء السيد بهذا البيان ؟

لقد كان زيد بن حارثة مولى الرسول من هؤلاء الفتيان المساريح الذين يجدون متع الحياة ومسراتها في احلام الشعراء واوهامهم وكان يرى في ارتياده سوق عكاظ وفي استماعه الى شعرائها النابهين اجمل اماني شبابه واعذب احلامه ، وفي الماضي الذي نمت ذكرياته في نفسه كان رفاقه الفتيان لا يمتنعون من الرجوع الى رأيه في الشعر والشعراء ، فكانت احكامه تفتح امام هؤلاء الفتيان عالما يطلون منه على حقيقة الكلام البارع وفي الغالب كانت هذه الاحكام المنبثقة من شعور حقيقي بالجمال ترفع من اقدار الشعراء وتحيط حياتهم بهالة من ضياء وكبرياء ولكن زيدا الذي استمع في سوق عكاظ الى شعراء اليمن ونجد والشام والعراق والذي هزته بلاغة قس بن ساعدة واستهواه بيان النابغة الذبياني وجد في صلاة الرسول شيئا اسمى من النثر واعذب من الشعر ؛ فطفق يسأل نفسه من اين جاء السيد بهذا الكلام البارع الذي لم تتعرف سوق عكاظ اليه في اخصب مواسمها

ولما التفت السيد الى باب حجرته ورأى زيدا في ذهلته مضى يحدق اليه فخفض

زيد عينيه وتقدم من السيد يريد ان يسأله عن هـذا الجديد ولـكنه لم يتـكلم فظل صامتا فاراده الرسول على الاقتراب منه ففعل فطفق يعيد على سمعه كلام الله وعيناه تنظران الى ارتعاشة خفية تطفو على سائره

وجعل زيد يبكي وهو يردد الآيات التي يلقيها الرسول عـلى سمعه ، ثم نهض وليس في قلبه الذي فتحه في الماضي للشعر غير حلاوة الايمان بدين الله

ثم خرج الى اهله يحدثهم بحديث سيد العالم ، ودخل الرسول حجرة خديجة يعلمها مبادىء الدين الجديد .

فمن هو زيد هذا ؟

في ذات عشية ودع زيد بن حارثة بيت ابيه الى الابد وكان في ربيعةالعاشر فخرج الى الشام في ابل لابي طالب فمر بارض قومه فعرفه عمه فقام اليه وقال له من انت ياغلام ؟ قال غلام من اهل مكة ، قال من انفسهم ؟ قال لا قال فحر انت ام مملوك ؟ قال مملوك قال عربي انت ام اعجمي ؟ قال بل عربي قال ممن اهلك ؟ قال من كلب قال من اي كلب ؟ قال من بني عبدود قال ويحك ابن من انت ؟ قال ابن حارثة ابن شر حبيل قال واين اصبت قال في اخوالي قال ومن اخوالك قال طي قال ما اسم امك قال سعدى فالتزمه ودعا اباه فلما نظر اليه عرفه واراد اليه اللحاق به فلم يفعل (١) ومضى الى الشام ، فرآه سيد قريش وكان قد خرج بتجارة لخديجـه مع غلامها ميسرة فعاد به الى مكة واشترته خديجة بستمائة درهم فقال لها سيد قريش « انه لو كان لي لاعتقته قالت هو لك فاعتقه »

وحدث ان اناسا من قومه حجوا فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم فانطلقوا واعلموا اباه ووصفوا له مكانه فجـاء ابوه وعمه الى بيت سيد قريش فقالوا له ياابن عبد المطلب ياابن هاشم ياابن سيد قومه انـتم اهل حرم الله وجيرانه تفكون الاسير العاني وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا واحسن في فدائه فانا سندفع

---

(١) السيرة النبويه والعقد الفريد

لكفقال ادعوه ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وان اختارني فوالله ما انا بالذي اختار على الذي اختارني فدا ، ثم دعاه فقال من هذان ؟ فقال هـــذا ابي حارثة بن شرحبيل ، وهذا كعب بن شرحبيل عمي . قال سيد قريش انا من علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخـــترني او اخترهما فقال زيد ماانا بالذي اختار عليك احداً ، انت مني مكان الاب والعم . فقالا ويحك يازيد تختار العبودية على الحرية وعلى ابيك وعمك واهل بيتك ؟ فقال نعم ما انا بالذي اختار عليه احدا فلما رأى سيد قريش منه ما رأى اخرجه الى دار الندوةوقال لقريش ان زيدا ابني ارثه ويرثني فطابت نفس الاب والعم وانصرفا (١)

لما انطلق زيد بن حارثة الى ذويه لم يجد معدى عن المرور بناحية الكعبة رجاة ان يجتمع الى بعض اصدقائه فيحدثهم بحديث الدين الجديد الذي اصبح من اصدق حماته واخلص انصاره وكان لا يبالي وهو في طريقه الى الكعبة بالجموع التي اخذت تفد من كل النواحي الى الدار المقدسة وقد تحيفها القلق ولبد اذهانها الارتباك

وكان من الذ امانيه ان يحمل الىقريش عبق الديانة الجديدة وان يستثيرحماستها فلا تتردد في اهمال العبادة الجافة التي لبثت سابحة في دياجرها العصور الطوال

ولكن ايغاله في السير لم يمنعه ان يصطدم بالجموع المنحدرة الى الكعبة ، فكاد يقع على الارض لولا تماسكه ولولا رباطة جأشه ولما اوشك ان يطل على الكعبة ادار عينيه في الجماهير فلمح في الوجوه غبرة حزن عميق فترسل في مشيته ووقف يتساءل عن معنى تزاحم الناس في هذا المساء ، وقد روعته هذه الصيحات الجافلة التي تخرج من القلوب والصدور ، فخيل اليه لاول وهلة ان كارثة جديدة مشت بالناس الى الاجفال والروع فاقبل يتفحص الوجوه رجاة ان يتعرف الى اصحابها، فيسألهم حقيقة النبأ الحافز الذي تراكضوا على صداه الى هذه النواحي وقد وثق ان لا شأن للعبادة في خروجهم من منازلهم في المساء

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٢ و ٢٦٣

ثم تزاحم الناس فالفى نفسه غريقا في لجة ثائرة ، فحاول افلاتا من تدافعها واغتلامها فما استطاع الى ذلك سبيلا حتى شقت هذه الصفوف الزاخرة امرأة تلبس السودا قد ضرجت وجهها بالدم ، فافسح الناس لها الطريق فاستطاع زيد ان يفتح طريقا الى الكعبة في غير عناء وانضم الى بعض القرشيين الذين كانوا يحدقون بالابواب .

وبغتة وقفت المرأة ذات الملابس السوداء في الناس وطفقت تخطبهم وعيناها تلمعان ، وفي وجهها حمرة الغضب ؛ والناس يصغون اليها ، ولا يترددون في رفع ايديهم الى الفضاء كلما آنسوا في خطبتها استثارة لالآمهم واوجاعهم

وصفت المرأة في كلمات بارعة خالبة غارة الفرس على الشام واستيلاءهم على دمشق واحراقهم دورها ومساكنها وقصورها وبيعها ، وزحفهم الى اراضي غسان وايغالهم في قتل امرائها وملوكها ؛ ثم وصفت فرارهرقل قيصر الروم امام جيوش كسرى ولياذه بانطاكية ، ثم مطاردة الفرس جيوشه على ابواب انطاكيه نفسها ولحاقهم بقيصر الى ابواب القسطنطينية .

ثم انتقلت من وصف هذه الكارثة التي هزت بلاد الشام الى وصف كارثة العراق ؛ فعرضت امام الجماهير صورة بشعة لاستيلاء الفرس على الحيرة ومطاردتهم الملك النعمان بن المنذر الذي خرج من قصره ليلا ملتحقا بالبادية بعد ان ترك الاهل والاحبة والوطن تحت رحمة الغزاة الذين لم يتورعوا عن اذكاء النار في القصور والبيع والكنائس .

وكانت تتكلم بلهجة مؤثرة فاستجاشت ملابسها السوداء وطلعتها النبيلة الكئيبة عواطف الجماهير فراحت نواظرهم محدقة اليها ثم حملوها على الاكتاف الى الكعبة وارادوا القرشيين المجتمعين على الاصغاء الى احاديثها ولما انحدرت عن اكتاف حامليها التف بها بعض القرشيين وفي طليعتهم ذلك الشيخ الجليل ورقة بن نوفل فاعادت امامهم وصف الكارثتين الشامية والعراقية فسألها ورقة :

— ممن انت ؟ فقالت :

من كندة ؟

— ما اسمك ؟

— ليلى

— اين كنت تعيشين قبل وفودك الى الحجاز

— كنت اعيش في قصور آل جفنة المساعير .

— من اين جئت بهذه الاخبار المروعة ؟

— كنت من شهودها . فلقد رأيت بعيني جنود كسرى يجتازون ضاحية سكاء عند الفجر وقد تركوا وراءهم آثار الحريق والتدمير وكان الرومان والغساسنة لايجدون ثباتا امامهم ؛ فمضوا يتأ كلهم الذعر الى الغياض والبساتين يحتمون بهـا ، ولكن الفرس الذين يقودهم رجل غابش ظالم لحقوا بهم حتى ادركوهم في غيضة باسقة فحملوا على هؤلاء الشهداء العزل من السلاح وذبحوهم على بكرة ابيهم ثم رموا اجسادهم الى مياه النهر الدافق الهادر فاصطبغت شطئانه بدمائهم البريئة

وكنت خلال هذه المجزرة في قصر عمرو بن الحارث عن كثب من هند بنت امريء القيس بن حجر زوج هـذا الامير المنكود الحظ ، وهند يومئذ في غرق شديد ، وقد خرق سمعها صياح الفرس وحام بعلها الشريف حولها يريدها عـلى السكون ، وقد احاط بالقصر فرسان من غسان يقودهم جبلة بن الايهم (١) وامرؤ القيس بن الملك الغساني .

ولكن عمراً لم يستطع رغم شجاعته وثباته ان يعيد السكون والهدوء الى هذه التعسة فسألني البقاء الى جانبها وخرج متقلدا سلاحه الى دير سكاء القديم فاتخـذه حصنا للذياد عن الضاحية ولحق به الاعشى الشاعر ضيف جبلة بن الايهم وكان وفد

---

(١) هو جبلة الخامس جد جبلة بن الايهم السادس صاحب عمر بن الخطاب وحسان بن ثابت . راجع اسماء ملوك غسان في الصفحة الاخيرة من الجزء الاول

على الشام من العراق

وبينما عمرو يجتاز الطريق المفضي الى ديرمارية في سكاء دخل قائد الفرس هرمز بن بهرام من ناحية اخرى الى الضاحية فاحاط بالقصر وضيق الحصار على الفرسان الذين يحمونه

وفي نفس الوقت لحقت كتيبة فارسية بعمرو بن الحارث فادركته في منتصف الطريق واقسرته على قبول المعركة فقاتل كما يقاتل اباؤه، وفرسانه يمنعونه ويحرسونه حتى قتل جميع هؤلاء وحتى جرح الاعشى الشاعر

واغدر الليل فاذا عتمته تغطي ضاحية سكاء واذا تلك الارض الخضراء التي اترعها الغساسنه حباً ونباتاً ووردا ونسريناً تستحيل الى قفر بارد تغشاه غاشية من عذاب ومـــوت !

رأى عمرو بن الحارث في تلك اللحظة ان يتخير الموت الذي تخيره اباؤه من قبل فتعرى للامر الكريه ومضى يصوب سلاحه الى صدر قائد الفرس ، فراحت الطعنة في الهواء ، فثارت ثائرة الفرس وجرؤوا على البطل جرة بشعة والتفوا به من كل ناحية فصمد لهم حتى تحطم سلاحه فرمى به الى الارض وعيناه تطالعان القصر الذي آوت اليه زوجه واطفاله .

لها الله من كارثة وجيعة ، لقد ذبح الفرس هذا البطل بعد ان ابوا عليه قليلا من امواه الوطن ، وبعد ان منعوه ان يحتضن صغاره وزوجه .

وفي تلك الأثناء اخترق هرمز بن بهرام القصر تحت مجـــاويح الغيث ، فاحس جبلة بن الأيهم وهناً وضعفاً فاسلم نفسه اليه فذبحه على مرأى من هند الأسوانة الملتاعة بل ذبحه على مرأى من شيوخ غسان الذين دافعوا عن القصر دفاع السادة الغطاريف

وكنت ارى هذه الصور المعتمة وانا على الشرفة عن كثب من هند ، فحملتها وحملت اطفالها الثلاثة الى ناحية منعزلة تحت ارض القصر ولحق بنا شيخان من شيوخ غسان افلتا من الذبح وقد اغسانا الليل في غبشته فلم يرنا الغزاة الذين دخلوا

القصر يفتشون عن كنوزه ودراريه ، وبعد لحظات تطامنت نفوسنا خلالهـا الى السكون رأينا النار التي اضرمها الفرس في جوانب القصر تلتهم الجـــدر وتقوض العمد وتجتاح السلالم وكان للهيب العاصف صدى محزن مجلجل في نفوسنا فادركنا ان الموت الذي فاتنا في القصر لايفوتنا في الأرض التي احتوتنا ظلماتهـا ، بل لقد ادركنا ان جدر القصر التي اكلتها النيران ستنهار على رؤوسنا فلا يكتب لنـا حظ في النجاة من موت هو ابشع موت عرفه الانسان ·

وغشي الصمت الفضاء ، فسمعنا خفق اقدام الغزاة فاصغينا ، فاذا هؤلاء القساة يبرحون القصر الى النواحي المجاورة ، وقد حملوا معهم كنوز غسان واعلامها .

واستفاقت هندمن هذا الحلم الراعب فجمعت الى صدرها الخافق اطفالها البائسين ثم خرجت من ذلك المكمن الرهيب مستندة الى ذينك الشيخين الغسانيين اللذين لم يتركاها في وحدتها المحزنة .

كنا في فصل شتاء ماطر فبرحنا مكان عزلتنا نفتش في نواحي القصر عن الحياة فلا تعاق نواظرنا الغائمة باثر منها ثم جعلنا نمر بتلك الجنات التي اجدر النبت في كل ناحية منها وزها فكنا نمر بجثث الأحبة فتطالعنا السحن المغدرة المنقبضة فنروح جافلين مروعين حتى صالحت عينا هند جثة جبلة بن الايهم ، فنظرت اليها مبهوتة واجمة ولكنها لم ترق دامعة واحدة ، ذلك بان خيـــالة زوجها الذي احبت كانت تطفو على عينيها وعلى مشاعرها ونزواتها فمرت بجثة جبلة بعد ان حيتها تحية يائسة !

تركنا القصر وطفنا بسكاء لا نحمل في نفوسنا غير هشيم من رجاء وكان العدو قد ابتعد عن الضاحية متوغلا في ضواحي الغوطة ومنحدراً الى دمشق فواصلنـــا سيرنا الى دير مارية نحاول لحاقاً بعمرو وقد خفيت عنا معالمه ·

وكان التعب قد برح بنا ، فانتبذنا ناحية منفردة في بيت قروي وامضينا الليل في هذا البيت الذي حمل الينا العزاء والرجاء .

وفي الصباح اغبط علينا المطر وخذفت السماء بالثلج فرمت هند رداءها ومضت

تغطي به اطفالها الذين ارعشهم برد الصباح ، ثم واصلنا السير الى دير مارية حتى بلغنا نواحيه . وكان الشيخان الغسانيان كل هذه الحاشية المنكودة التي رافقت هنداً في طوافهـــا بسكاء .

وهنا سكتت المرأة ذات الملابس السوداء ونظرت الى الجماهير نظرة متفحصة كأنها تريد ان تستوثق من الأثر الذي تركته احاديثها في النفوس . فكان لهـا هذا الذي ارادت فان القرشيين الذين احاطوا بها رقوا لها رقة شديدة ، فارادوها على وصف الكارثة التي هزت الشام الى النهاية فقال لها ورقة بن نوفل

— وماذا حدث بعد هذا كله ، واي مصير صارت اليه هند ؟

فرفعت ليلى عينيها الى السماء لتواري دمعها ثم اردفت قائلة :

وصلنا الى دير مارية ، فاذا نحن حيال مدينة يسودها الموت ويظللها الفناء وكانت جثث الموتى تطالعنا في كل خطوة من خطواتنا ، فريعت النفوس لهذا المشهد البائس وسكتت الألسنة امام عظمة هذا الموت الذي اخرس الى الأبد اناشيد الحياة المائعة في صدور البهاليل من اشرافنا وملوكنا ولكن هنداً وحدها كانت تتكلم ، وكانت تسأل هؤلاء الرقود النيام عن عمرو سليل ثلاثين سيداً ملكوا الشام كما ملك القياصرة القسطنطينية فلم يجبها غير زفيف الرياح العاصفة وفي تلك الأثناء طلع علينا من ناحية الدير رجل اخشاه مشهدنا البائس ، وروعه طوافنا بالموتى . فمشى الينا حاسراً عن صدره . وقد اجدى جرحه وسال فنظرنا اليه فاذا هـــو الأعشى الشاعر صاحب جبلة بن الأيهم .

لقد ظل يمشي الينا حتى عرفنا فصاح صيحة الميت :

— اي احبائي دلوني على الماء فلقد برح بي العطش وهذه جراحي تهد قواي هداً

فمضى به الشيخان الى ساقية غير بعيدة من الدير فاجتنف من مائها شيئاً كثيراً ثم عاد الينا راعشاً فنظرنا اليه من رأسه الى قدمه ، فاذا ثوبه قد تخذرف حتى بدا صدره عاريا ولما سألته هند عن زوجها خطرت له المعركة خطـــوراً مثيراً فالتفت

اليها وقال بصوت خافت ·

— باركي هذه الارض فانها اخذته بين ذراعيها كريما شريفا

ولم يقل اكثر من هذا . فحامت هند حيال الموتى : تفتش عن البطل الذي غيبه ليل الموت في سدفته ، فعثرت عليه ومست جبينه وثوبه المضرج بالوحل والدم فضت تصلي صلاة مؤثرة شجية ؛ وطفق اطفالها يرددون صلاتها وهم وقوف حيال جثة ابيهم !

وفي المساء عرجنا على داريا فاذا هي خلاء من الفرس فآوينا الى قصر قديم بناه الحارث الاكبر وانضم الينا الاعشى الشاعر الذي لم يشأ فراق هند

وبعد ايام اقبلت القوافل من بادية العراق فقص رجالها حديث اجتياح الفرس الحيرة ورووا لنا الشيء الكثير عن النعمان بن المنذر الذي ابى على الفرس اذلال قومه فارادهم على احترامهم فرفضوا فاحمسه رفضهم فعاذ ببادية ذي قار يستنفر شيوخها وشبانها للدفاع عن حرية العرب المقدسة

ياللذل ؛ ان شعراءكم لن يجدوا بعد هذا اليوم في قصور الحيرة ولا في قصور بصرى ودمشق ذلك المجد الذي فاتهم في الصحراء ، وتلك الانغام التي سكبها هؤلاء الشعراء في خضاب الطفل وحمرته والتي تفاوح عطرها في الغابات والأحراج والظلال والجبال لن تجد تلك الحياة الصافية الوادعة التي حركتها واستجاشتها بل لن يجد شعراؤكم الذين اذوت اجسادهم النهارات القائظة في الصحراء تلك الليالي التي احاطهم نداها وسحرها في قصر الحارث بن عمرو وفي قصر مارية ذات القرطين وفي قصر الخورنق وتحت قباب قصر السدير ؟

فصاح الجميع :

— من انت ايتها المرأة التي جاءت تهز الحزن في نفوسنا ؟

— لقد سدت ابواب القصور والكرمات والجنات في وجوه الشعراء والخطباء والأشراف ، فهي لن تفتح بعد هذا اليوم الا لتستقبل النار والعار وكانت في

غابرها الملتمع تستقبل الأنوار .

فصاح ورقة :

ـــ ولكنك تبالغين في وصف هذه المأساة .

رحم الله امرأ القيس يا سيدي الحكيم ؛ فلو بقي حيـــا وجاء بشعره الى تلك الارض الثمراء التي احبها في غوطة دمشق لما وجد ذلك النغم الجميل الذي اودعه شعره ، لقد احسن الله اليه في هذا الموت الذي اخرس لسانه واغمض عينيه الى الابد فلم يبصر شتاء الشيخوخه البارد الذي قوض الصروح واذبل الازهار ؛ واهرم الشباب واطفأ فجر الطفولة المقدس

ـــ لماذا لاتقولين لنا من انت ولم حرصك الشديد على ماضي حياتك ؟.. فقالت ان في ماضي تاريخ حياة امرأة بائسة تعرفت الى المجد والى الشرف وهي طفلة في المهد ثم تتالت عليها صروف ونحوس اهوت بها وهي في ميعة العمر الى مكاره واسواء فاستساغتها ولم تمل صحبتها وطافت بها السهول والاودية والجنات والافياء والبحار والخلجان والمدن العامرة في الليالي الصائفة ؛ وفي الليالي الصاردة

ـــ اذا كنت لا تحسرين عن ماضيك فليس ما يمنعك ان تحسري عن مغداك في حاضرك ، فصاح الجميع :

ـــ تكلمي ايتها المرأة . الى اين معادك ؟

وقال قرشي :

ـــ لماذا جئت الى مكة ؟ .

فجعلت المرأة تجيل نظراتها في الذين يحيطون بباب الكعبة كأنها تبحث عن اشخاص بينهم فلما لم تر احداً من هؤلاء هزت رأسها واستتلت قائلة :

ـــ ولكني لا ابصر هنا احدا من سادة قريش ، فاين هو ابو سفيان بن حرب وابو طالب بن عبد المطلب . بل اين هو شيبة بن ربيعة واسياد قريش ؟

فصاح ورقه :

ــ أن جميع من ذكرت في عكاظ ..

ــ ماذا يفعل هؤلاء في عكاظ ؟ أللشعر كان معادهم الى هذه السوق العجيبة ؟ انه لحزن ايها السادة ان لاتتفتح زهرات الشعر في هذه الارض بعد ان تجهم افق الحياة في قصور الشام وفي قصور العراق ، بــلى انه لشجي ان تجمد يد الشاعر النابه وهي ممسكة بالربابة ، وان تحس هذه اليد بردا يمنعها ان تهز الاوتار

وكان زيد بن حارثة في تلك اللحظة قد وقف عن كثب من ورقة بن نوفل فاخذ يصغي الى احاديث المرأة ذات الملابس السوداء وقد اشجته نبراتهـا فـكاد يروح باكيا ولـكنه فزع الى السكون ولم ينبس ، وانطلقت المرأة في حديثها قائلة

ــ ولـكن هنالك عزاء جديدا سيغسل نفوسكم ايهـا السادة . نعم ان كتاب الشعر قد اقفل . ولـكن كتاب التاريخ سيفتح الى الابد

فقال ورقة بن نوفل :

ــ من انت ايتها المرأة التي تتحدث الينا عن الموت والحياة في امد واحد ؟

ــ ان شعراءكم الفتيـان سيلتفتون في الغد الى الاوتار التي تتحرك في ايديهم فيقولون لها وهم يبكون وداعا وداعا ايتها الاوتار التي تحمل في نغماتهـا اعراف الشباب ولـكنهم سيدخلون عالمـــا جديدا يحمل الى نفوسهم نغما احلى من الشعر واعذب ..

لقد سلخت ثلاثين عاما في البحث عن السيد الذي يخرجـــكم من هذه العزلة الجافـــة الى ضجيج العالم وحركته . فطفت الجبال التي تزخر بالثلوج ، وعبرت الاحراج والغابات الوارفة . ثم رأيت بردى والاردن والفرات ودجلة وصافحت عيناي شجر السرو على ضفاف البوسفور وشطئان مرمرا . ثم عدت الى الشام ومررت بصحراء فلسطين ووقفت عن كثب من اطلال الامم القديمة في وادي موسى وفي وادي القرى وكنت استمع الى اصوات الرعاة والبائسين والغزاة والفاتحين والـكهان والرهبان ، وكنت كذلك اتأمل في وجوه الاطفـال والامهات والشيوخ والمح النور الذي

يخطف على وجوههم ، فاسمع من جميع هؤلاء الذين اشتملت عليهم القصور والاكواخ هذا السؤال : متى يطل سيد قريش ؟

في البادية عند سطيح سمعت هذا الكاهن يبشر ببعث السيد، وفي الشام في قصور آل جفنة رأيت المدن المهذبة تتطلع الى الصحراء كأنها ترقب مسفره ، وفي العراق حيال شواطيء دجلة رأيت الناس يفتشون عن السنا الباهر ؛ وفي القسطنطينية اصغيت الى امريء القيس بن حجر فسمعته يقول بصوت مجلجل « متى يبعث سيد العالم » ؟ وعلى ابواب الغوطة وقف المنذر الغساني يودع رجاله ويقول لهم احملوا الى سيد قريش عطر دمشق وتحية غسان »

نعم في جميع هذه النواحي التي ذكرت كنت ارى الناس الذين برح بهم الرومان والفرس يسألون ، متى يطل سيد قريش ، بل سيد العالم؟

وبعد ثلاثين سنة سلختها في المدن الوارفة الظل وانا انظر الى صحراء العرب اترقب خروج السيد اليها ، جئت مكة وانا واثقة من ظهور السيد المنقذ . .

لقد قال الرهبان والكهان ان بعث سيد العالم سيرافق غارة الفرس على دمشق وعلى الحيرة ، اذن فليس شك في ان هذا الفجر المقدس قد اخذ يظلل بيوتكم ونفوسكم .

فصاح الجميع .

— اين هو السيد الذي جئت تبحثين عنه ؟!..

وقال بعضهم :

— من هو هذا السيد الذي ينتظره العالم ؟

فقالت المرأة ذات الملابس السوداء :

— انه في مكة وسيكون صديق الفقراء وخليل التعساء ، وحامل اللواء الى الجنات والأفياء . .

— ممن هذا السيد ؟

ـــ من قريش ايها السادة .

ـــ ولكن قريشاً كما تعلمين فروع كثيرة فمن اي هذه الفروع هذا السيد ؟

فاومأت المرأة بيدها الى الكعبة واستتلت قائلة :

ـــ هو من آل عبد المطلب اصحاب الحماية على هذا البيت المقدس .

فصاح الجميع :

ـــ من هو ابوه ؟

ـــ في الكتب القديمة ان هذا السيد يعيش يتيما مروعاً لا يعرف ابوه وامه، يكفله جده ، ثم يكفله عمه !

فصاح الجميع :

ـــ اتعنين يتيم ابي طالب ؟

فسكتت ، وتقدم زيد بن حارثة منها ، وجعل ورقة بن نوفل ينتفض هامساً :

« لقد ارادت محمداً في حديثها وكانت صادقة »

ولما اقترب منها زيد قال رابط الجأش :

ان من تبحثين عنه قد بعث في هذه الليلة الى العالم . . .

فتفرست المرأة في ملامح محدثها وقالت له :

ـــ من انت ؟

ـــ انا من يعرف جميع هؤلاء الذين تتحدثين اليهم ؟

فقال احد المجتمعين :

ـــ انه زيد بن محمد !

فقال زيد :

ـــ في هذا الذي تقوله كثير من الشرف ، وكثير من المجد ، ثم التفت الى المرأة قائلا : بلى انا مولى محمد واسمي زيد بن حارثة ؟

ـــ قل لي ايها الشاب ، اصحيح ان سيد قريش قد بعث في هذه الليلة ؟

— قلت، امام هؤلاء الناس ان السيد الذي سلخت في البحث عنه ثلاثين عاماً يعيش يتيما لايعرفه ابوه ولا امه ، ثم يكفله جده . ثم يكفله عمه ؟

— نعم ، نعم .

— لقد عاش « السيد » يتيما في طفولته . فلم يعرف غير حنان جده عبد المطلب وغير رأفة عمه ابي طالب .

فالتفتت المرأة الى ناحية ورقة بن نوفل وقالت له :

— اقد حباك الله ايها الشيخ الجليل علم الاقدمين وجعلك الصلة التي لا تنقطع بين الماضي والحاضر فهل صحيح هذا الذي يتحدث به هذا الفتى ؟

فاطرق ورقة ومضى سابحاً في هواجسه ، وغشي الناس ركود عميق ، واخذت عيونهم تحدج الشيخ الاعمى بنظرات قلقة مضطربة ، وبعد قليل رفع الشيخ عينيه المطفأتين الى الجماهير قائلا :

— نعم في هذه الليلة ظهر على محمد بن عبد المطلب سيد قريش ذلك الناموس الذي ظهر على موسى وفي هذه الليلة ايهـــا السادة مات الجيل القديم الذي عاش منعزلا فيهذه الصحراءوانبثق جيل جديد ، ستخرج منه شعوب كبيرةتغطي الأرض

فصاح الجميع :

— برهانك ايها السيد ، برهانك ايها السيد ؟

فقال ورقة :

« لما ولدت آمنةبنت وهب سيد قريش ارسلت الى جدهعبد المطلب فجاءهالبشير وهو جالس في الحجر ومعه ولده ورجال من قومه فاخبره ان آمنة ولدت غلامـا فسر ذلك عبد المطلب وقام هو ومن كان معه فدخل عليها واخذهبين ذراعيه وادخله الكعبة (١) وعرضه على الرؤساء فنظر اليه زيد بن عمرو بن نفيل والتفت الى جدهقائلا شاممت النصرانية واليهودية فزهدت فيهما فسكنت بالشام وما والاه حتى اتيت

---

(١) الطبقات الكبيرة لأبن سعد ج ١ ص ٦٣

راهباً في صومعة فوقفت عليه فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان فقال لى اراك تريد بدين ابراهيم ياأخا اهل مكة ، انك تطلب دينا مـــا يؤخذ اليوم به وهو دين ابيك ابراهيم فالحق ببلادك فان نبيا يبعث من قومك يأتي بدين ابراهيم وساخبرك مانعته حتى لا يخفى عليك قلت هلم قال هو رجل ليس بالطويل ولا القصير ولا بكثير الشعر ولا قليله وليست تفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه احمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر امره فاياك ان تخدع عنه فاني طفت البلاد كلها اطلب دين ابراهيم فـكل من اسأل يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل مانعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره (١)

ثم سكت زيد بن عمرو وطفق يتفحص الطفل في عينيه وفي كتفيه وعبدالمطلب ينظر اليه وهو ذاهل لا يدري شيئا من هذا الذي يقوله .

وبعد اطراقة قصيرة قال زيد لعبد المطلب

ــ ان في عيني هذا الطفل لحمرة ، وفي كتفيه خاتم النبوة واني ارى الله مقربه منه ، قل لي ما اسمه ؟ فقال عبد المطلب : لقد دعوته محمدا فقال زيد :

ــ لا اراني مدركه وانا اؤمن به واصدقه واشهد انه نبي ثم قبل الطفل في جبينه ودفعه الي جده عبد المطلب .

وقدم كاهن مكة وسيد قريش ابن خمس سنين وقد قدمت به ظئره الى جـــده وكانت تأتيه به في كل عام فنظر اليه الـكاهن مع عبد المطلب فقال يامعشر قريش اقتلوا هذا الصبي فانه يقتلـكم ويفرقكم فهرب به عبـــد المطلب فلم تزل قريش تخشى من امره ما كان الـكاهن حذرهم (٢)

وامس بعد اربعين سنة ،من ولادة يتيم قريش اصغت ذروات حراء الرفيعة الى

---

(١) الطبقات الـكبيرة لابن سعد ج ١ ص١٠٥ و ١٠٦

(٢) الطبقات الـكبيرة لابن سعد ج ١ ص ١٠٩

صوت ملك السماء الذي حمل الى السيد رسالة الله الى العالم ، فتلقى السيد هذه الرسالة في كثير من الورع وتأهب لاتمام العمل الرائع الذي بدأ به الرسل والنبيون من قبل

فقالت امرأة من قريش تحمل طفلها بين ذراعيها :

ـ ايستطيع السيد ان ينقل الى بيوت الفقراء مثل هذا النور الذي يتلألأ في قصور الاغنياء ؟

وقالت امرأة من سليم ؛

هل في قدرة السيد ان يعيد الى المرضى الصحة والعافية والى الشيوخ الشباب والقوة ؟

وقالت امرأة ثالثة : لماذا لا يطل السيد على الناس برسالته ؟ ناشدتك الله ان تحملنا اليه فلعله يبسط الينا يده البارة الرحيمة فنخلص من هذا الغرق الاليم ..

فقال ورقه :

ـ هدئي روعك فان السيد سينشر العافية والشباب ، والامل ليس في هذه الجبال المتجهمة المغدرة فحسب ، بل في جبال فلسطين والاردن وفي الشام والعراق ، بلى ان هذا السيد المواسي المعزي سينشر السلام والمحبة في فارس والهند ..

فصاحت المرأة ذات الملابس السوداء

اذن فذلك الجهد الجاهد الذي تحيفني في ثلاثين سنة امضيتها في البحث عن سيد قريش لم يذهب هدرا ، واذن فان هؤلاء المتاعين المروعين العائشين في الشام والعراق من قومي واسرتي سيفتحون عيونهم المغمضة للاستشراق بنور الانسان الكامل الذي سيملأ اراضيهم الماحلة بالزهر والظل والماء ، وافرحة النفس المقرورة الباردة! وهي تستقبل الدفء والحياة . قل لي في اي ناحية اجد سيد قريش ؟

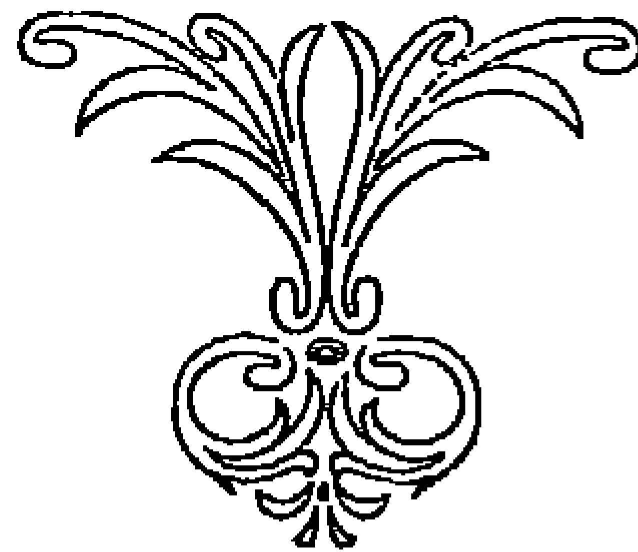
فصاح الجميع :

ـ دلنا على بيته لنذهب اليه

فقال ورقه :

ـــ ان بيته ليس بعيدا من هنا ، قال هذا وانحدر الى الارض ، فمشى زيد بن حارثة الى جانبه واحدقت الجموع بورقة وقد تعالى الصياح ، ورأت المرأة المتلفعة بالسواد ان الفرصة مواتيـة لابتعادها عن هذه الاماكـــن . قبل حدوث طاريء من الطواريء التي لا تحبها ولـكنهـــا لم تكد تهم بالمضي حتى سمعت اصواتا عالية تنبعث من نواحي الجبل ، فآنست في هـــذه الأصوات نغمات لا تروق فارعدت وفطنت الى ماقد يحدث اذا علم القرشيون فاثارتها حمية الضعفـاء والمساكين الذين كانوا كثرة في الجموع !

ولـكنها اطمأنت حينما رأت زيد بن حارثة ينظر الى القادمين رابط الجـــأش غير راعش ولا قلق . ؟



الفصل التاسع
ابو بكر الصديق

في تلك الأثناء اطل القادمون من بعيد على الكعبة فاذا بينهم بعض القرشيين وقد احدقوا برجل يتحدثون اليه بلهجات تحسر عن الصلف والكبر والرجل شديد الأصغاء الى احاديثهم في غير تذمر ولا استياء ·

ولم تكن هذه الأصوات الهامسة غريبة عن ورقة بن نوفل ، فهز رأسه وهمس قائلا

ــ لقد عاد صناديد قريش من عكاظ . .

وكان زيد بن حارثة لايبرح قريباً من ورقة فسمع همسه فالتفت اليه قائلا :

ــ ان بين ماذكرت عقبة بن معيط وشيبة بن ربيعة واخرين لم اتبين قسمات وجوههم

ــ ولكنهم يرغدون ويبرقون ويخيل الي انهم جاءوا هذه النواحي بكبريائهم وصلفهم

فطفق زيد ينظر الى القادمين نظرات متفحصة حتى وقعت عيناه على الرجل الذي احاطوا به من كل ناحية وقد جعلوا يمطرونه سيلا دافقاً من الأسئلة وهو يجيبهم عليها رابط الجأش فهز المشهد زيداً فالتفت الى ورقة قائلا :

ــ لقد اوشكوا ان يقتربوا منا وهم يتحدثون الى ابن ابي قحافة . .

قال ورقة :

ــ اتعني ابا بكر ؟ قال نعم ، فقال ورقة :

ــ ان ابا بكر اكثر القرشيين علماً واوفرهم ذكاء واشدهم لصوقا بالسيد !

ولما اقترب القرشيون من الكعبة قال عقبة بن معيط لابي بكر .

ــ ان يتيم ابي طالب يزعم انه نبي ولولا انتظارك ما انتظرناه فاما وقد جئت فانت الغاية والكفاية(١)

---

(١) سيرة ابن هشام

فقال ابو بكر انه لصادق في هذا الذي يزعم . .

ـــ امصدقه انت ؟

ـــ تمشت معه كثيراً . وخالط همسي همسه فلم اره كاذبا في جميع ماقصه علي ..

ـــ امصدقه انت ؟

ـــ منذ سنوات خرجت الى اليمن فنزلت على شيخ قد قرأ الكتب وعلم من امر الناس كثيراً فقال لي احسبك حرمياً . قلت نعم قال واحسبك قرشياً ، قلت نعم قال واحسبك تيمياً قلت نعم قال بقيت لي فيك واحدة قلت وما هي قال تكشف لي عن كتفيك ، قلت لا افعل او تخبرني لم ذاك ، قال اجد في العلم الصحيح الصادق ان نبياً يبعث في الحرم يعاونه على امره فتى وكهل امـــا الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات واما الكهل فابيض نحيف على كتفيه شامة وعلى فخذه الأيسر علامة وما عليك ان تريني ماسألتك فقد تكاملت لي فيك الصفة الا ماخفي علي فكشفت له عن كتفي فرأى شامة سوداء فقال انت ورب الكعبة واني اوصيك بما هو في امره قلت وما هو قال اياك والميل عن الهدى وتمسك بالطريق الوسطى وخف الله فيما خولك واعطاك ، فقضيت في اليمن اربي ثم اتيت الشيخ فودعته (١)

فقال عقبة بن معيط .

ـــ اذن فانت لا تشاطرنا رأينا فيه ؟

قال : ابداً واني لناصح لكم بالرفق والموادعة حتى لاتقوم في العرب فتنة يعجز حولكم عن اطفاء جذوتها .

ـــ ان مالك كثير ، وفي وسعك ان تنفق هذا المال في حمل محمد على الخروج من مكة

ـــ اتهزلون في احاديثكم ؟ ام هذا هو الجد ، فان كنتم هازلين فليس في الهزل ما يحمد وان كنتم جادين فلست ارى في جدكم غير سحـابة جاهمة . لا تبشر بمطر وانما هي تبشر بشر عميم ، لقد نصحت لكم بالموادعة والرفق حتى يتبين لكم امر صاحبي

---

(١) السيرة النبوية .

فاذا بدا لكم انه كاذب كنت معكم وان كان صادقا في دعوته فليس في قريش من يمنعني اللحاق به

ثم تركهم وقصد الى ناحية الكعبة فطاف بها ثم انحدر الى ناحية زيد بن حارثة وقد ابصره عن كثب من ورقة فحياه وسأله قائلا

— هل السيد في منزله ؟

فقال زيد : نعم

— ماذا يفعل ؟

— انه يصلي ..

فاطرق ابوبكر اطراقة خفيفة ثم رفع رأسه الى ورقة وسأله قائلا

— لعلك سمعت حديث عقبة بن معيط ؟

— اجل لقد سمعت حديث هذا الرجل البغيض

— قل لي . أأنت ممن يؤمنون بحديث محمد ؟

فقال ورقة :

— قص علي محمد حديث نبوته فما ترددت في الايمان بها

— امض بي الى محمد في هذه الساعة

وبينما كان القرشيون ينظرون الى ابي بكر بعد ذهابه . جعل هذا السيد النبيل يشق الصفوف في طريقه الى بيت خديجة بنت خويلد فاخذت الجموع تتفرق امامه ورأت المرأة ذات الملابس السوداء في تفرق الناس فرصة مواتية للابتعاد عن الكعبة فانطلقت تعدو في الطريق المؤدية الى الضواحي

وفي تلك اللحظة شرع القرشيون يطوفون باصنام الكعبة ، فلم يشأ ورقة بن نوفل مخالطتهم ، فصدف عنهم ، ومضى الى منزله

وبعد لحظات استقبلت خديجة بنت خويلد ابا بكر فقال لها : اين هو زوجك ؟ فقالت : انه يصلي : فقال لها اذهبي بي اليه . فذهبت خديجة بابي بكر الى السيد ، فلما

ابصره قال له

ــ يامحمد قدحت منازل اهلك وتركت دين ابائك (١)

فقال السيد :

ــ اني رسول الله اليك والى الناس فآمن بالله (٢)

فجعل ابو بكر يبكي ثم قال :

مد يدك فانا اؤمن برسالتك

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٣

(٢) السبرة الحلبية ج ١ ص ٢١٣

الفصل العاشر

الرسالة

لبث سيد قريش خلال ثلاث سنوات يدعو الى الدين الجديد مستخفيا في بيوت الفقراء والمساكين والملتاعين حتى لحق به من هؤلاء الضعفاء اصدقاء الرسل والنبيين خلق كثير وحتى وجدت الفكرة المقدسة امنها وسلامها وصفاءها في الاماكن التي تهزها ارتعاشات الالم .

وكان سادة قريش في غضون ذلك يرتادون البلاد المهذبة وينزلون منها في الجنات الزاهرة والافياء العطرة التماسا للرطوبة وفرارا من قيظ الصحراء مسايرة لعاداتهم في فصل الصيف من كل عام .

وكان امية بن ابي الصلت في جملة الذين غادروا الحجاز الى ربوع الشام ولكنه في هذه المرة لم يشأ ان ينزل في دمشق او في بصرى بل آثر ان يقضي ايام الصيف في قصر جميل قام على ربوة زاهية في ضاحية تمتد سفوحها الى الاردن

وتفرق سادة قريش في نواحي الشام فذهب ابو سفيان بن حرب سيد بني امية الى انطاكية ونزل على عدي بن امرىء القيس بن عمرو الغساني واجتمع الى هرقل الذي كان يجمع الجنود في انطاكية رجاة الزحف الى الشام لانقاذ دمشق وحمص وحماه وبعلبك وبعض مدن فلسطين

ولم ينزل واحد من صناديد قريش في دمشق لان قصور الغساسنة التي ظلت في الماضي مفتوحة امام القرشيين اصبحت خلاء من ساكنيها بعد ان حمل الفرس اليها النار والعار فهجرها بعض اصحابها الى صحراء العرب في الحجاز ونجد واليمن والتحق بعضهم بهرقل في انطاكية وفضل الآخرون البقاء في ارض الوطن عن كثب من امهاتهم واطفالهم وشيوخهم فلم يلتحقوا لا بمكة ولا بقيصر

وكان من اثر الحرب بين الفرس والروم ان اقفلت البلاد المهذبة في وجه الصحراء فامتنعت قريش عن ارسال قوافلها الى بصرى وتدمر وحمص ودمشق

واضطر بعض القرشيين الى محالفة الفرس ففتح لهم هؤلاء اسواق العالم الخاضع لهم وامدوهم بوسائل نشطت تجارتهم في بلدان الخليج الفارسي وفي البلدان الواقعة على الفرات

وقد كان طبيعيا ان يفضي توثق الصلات التجارية بين قريش والفرس الى توافق في الاغراض والغايات فاصبح القرشيون الذين روعهم اسلام ابي بكر والتحاق بعض اشرافهم بالدين الجديد يجاهرون بارتياحهم الى انتصار الجيوش الفارسية الوثنية على الجيوش الرومانية النصرانية ثقة منهم ان هذا النصر لا يعدان يضعف من الحماسة التي قابل بها بعض العرب الدين الجديد وقد جاء هذا الدين مؤيدا لشريعة موسى وشريعة عيسى

وبينما كان المسلمون في مكة يظهرون غما شديدا لانكسار الرومان وتراجعهم امام جيوش كسرى جعل القرشيون من ناحية اخرى يذيعون افراحهم على ابواب الكعبة واخذوا يصلون لاصنامهم وانصابهم استجلابا لعطفها على جيوش كسرى .

ولم يكن في مكة حديث غير حديث هذه الحرب الضروس التي اتاحت لكسرى ابن هرمز ان يضم الى بلاده بلاداً غنية ومتمدنة كسورية وفلسطين ومصر، بعد ان قهرت جيوشه الاحباش في جزيرة العرب وبعد ان طردتهم نهائيا من شواطيء اليمن

وكان الناس يجتمعون حيال الكعبة في كل مساء فيتجاذبون اطراف الحديث عن هذه الحرب وهما فريقان اثنان، فريق القرشيين الوثنيين حلفاء الفرس وهؤلاء يخضعون لرؤساء وزعماء منهم ابو لهب بن عبد المطلب وعمرو بن هشام، وفريق المسلمين اصدقاء البيزنطيين وهؤلاء يقولون بقول ابي بكر الصديق، ويصدعون برأيه، وينزلون على احكامه

وفي بعض الاحايين كان الفريقان يراهنان على النصر فكان القرشيون يراهنون

على انتصار جيوش الفرس ، والمسلمون يراهنون على انتصار الروم

وفي ذات مساء اجتمع القرشيون حيال ابواب الكعبة جريا على عاداتهم فاصطدموا ببعض المسلمين وكان معهم ابو بكر الصديق ، فحميت بين الفريقين سورة الكلام فقالت قريش بانتصار الفرس وقال المسلمون بانتصار الروم وتغالى بعض القرشيين في العطف على الفرس فقالوا للمسلمين «انتم والنصارى اهل كتاب ونحن وفارس نعبد اربابا لا تعبدونها وقد ظهر اخواننا على اخوانكم فلنظهرن عليكم فاحتدم ابو بكر والتفت الى قريش قائلا « لا يقر الله اعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له امية بن خلف كذبت ، اجعل بيننا اجلا اراهنك عليه فراهنه على عشر قلائص ، وجعلا الاجل ثلاث سنين

ومشى ابو بكر الى سيد قريش فاخبره بالرهان فقال له الرسول ان الروم بالغون نصرا في خلال تسع سنوات ، فانطلق ابو بكر الى ابن خلف فزايده في الرهان وفي الاجل ، فجعلوها مائة قلوص الى تسع سنين (١)

ولكن هذه المنافسات التي ابتعثها حرص قريش على عصبيتها لم تخلق نزاعا جديا بين الفريقين فظل القرشيون يرون في ابي بكر الصديق رئيسا جليلا وزعيما له ثروته ومكانته في العرب وطفق المسلمون من ناحية يعتزلون هؤلاء ويتحامون المرور بهم مخافة ان يستثير ظهورهم في الناس حماسة الجاهلين

ولم يحدث في غضون سنة اربع عشرة وستمائة غير حادث واحد كاد يؤدي الى اراقة الدماء بين الفريقين لولا تغلب العقل على العاطفة ، وقصارى هذا الحادث ان المسلمين كانوا يستخفون بصلاتهم في الأنحاء البعيدة حتى لاتقع عليهم عيون الجاهلين فبينما سعد بن ابي وقاص ونفر من اصحاب الرسول في شعب من شعاب

---

(١) ظهرت الروم على فارس عند رأس تسع سنين وذلك يوم الحديبية فاخذ ابو بكر الرهان من ذرية امية بن خلف وعاد الرسول فقال له صدقت

تفسير ابي السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٩٣٠

مكة اذ ظهر عليهم نفر من القرشيين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن ابي وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجه فكان اول دم اريق في الاسلام (١)

وعلى اثر هذه المأساة استحب الرسول الصلاة مستخفياً في دار الأرقم فلحق به اصحابه وعددهم تسعة وثلاثون (٢)

وفي بعض الأحايين كان السيد يمر بالقرشيين وهم في مجالسهم فيشيرون اليه قائلين « ان غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء » (٣) فلا يلتفت اليهم ولا يخالطهم .

وفي ذات عشية خرج السيد الى حراء وتسلق الذروات التي تسلقها في الماضي ووقف عليها ينظر الى مكة القائمة على السفوح فلاحت له بيوت القرشيين وقصورهم وحصونهم يحيط بها شجر النخيل ثم لاحت له الكعبة وتماثيلها وانصابها وابوابها المذهبة ، ورأى القرشيين يخرجون من الكعبة للطواف حول هذه التماثيل الصامتة التي تعددت اسماؤها واستبحرت الوانها .

وكانوا يقفون حيال هذه الدمى مبهوتين راعشين ثم يلمسونها لمساً خفيفاً ثم يتوارون عنها وعيونهم تحدجها عن بعد .

لقد مر بهذه الأصنام السادة الغطاريف من قريش فاحزنه مشهدهم البائس واضناه ان يمضي هؤلاء الذين ترامت اليهم الشهرة العابقة من كل النواحي الى عبادة تحجب عن عيونهم منح السماء وعطاياها ، فود وهو في عزلته لو ينطلق اليهم فيقول لهم بصوته العذب « لماذا لا تتخلون عن هذه العبادة الماحلة التي تمنعكم جنى العالم الآخر » ؟

وقلب عينيه في الفضاء وفي الجبال فاذا حوله ابعاد ومسافات تفصله عن العالم

---

(١) الاغاني

(٢) ابن هشام

(٣) ابن عبد ربه

الذي تعيش قريش في دجناته فادرك ان صوته الذي رددته هذه الجبال العارية في الماضي لا يستطيع ان يهز قلوب قومه الذين احبهم .

ولما اغسى الليل لم يفارق مكانه في الجبل فلبث صامتاً ومضت عيناه تنظران الى المشاهد التي تراءت له عندما اطفلت الشمس ، فرأى القرشيين يروحون ويجيئون حول الكعبة فنازعته نفسه الى مخاطبتهم ، والى الأصغاء اليهم ورجا لهذه الألوان الكامدة التي ارادوها لحياتهم ان تذوب وتفنى في الوان لامعة زاهية .

وكان يحس في نفسه وهو في الجبل شيئاً بديعاً سامياً يستفزه للرجوع الى مكة قبل ان يحتوي الناس غسق الليل ، وقبل ان تستروح عيونهم الى لذاذة الاحلام وكان من اعذب امانيه ان يحمل الى هؤلاء في ليلتهم هذه سهداً حلواً يمضونه في التعرف الى الجمال والى العطر .

بلى والله ان قريشاً التي احبها في طفولته ، لفي حاجة الى الجمال والى العطر ، ولكن سبيلها الى الجمال والعطر لم يكن شيئاً هيناً لأن النفوس التي الفت التحديق الى مشهد من المشاهد حتى راحت تستلذه وتستحبه يشق عليها كثيراً ان تجد متعها ورغباتها في مشاهد حادثة لاتعرض امامها كثيراً او قليلا من صور الماضي الذي عاشت فيه .

وقريش التي عرفت كيف تحول انتصارها على الأحباش الى اغراض قومية سامية ، اقدم عهداً من الديانات والشرائع وهي كذلك اطول عمراً من بابل واشور ونينوى ومصر وصحراء فاران فليس من الهين اليسير ان تتخلى عن عمر مديد زلفى لعمر جديد .

لقد مرت به ثلاث سنوات وهو في هذه العزلة لايكلم انسياً ، ولا يتخذ نجياً وتعاقب عليه الجديدان وانصاره لايعدون اربعين ولياً وطافت بعينيه مشاهد السماء والصحراء وهؤلاء الانصار لايتعدون البؤساء والضعفاء فكيف يستطيع ان يتحدث الى الناس ، بل كيف يستطيع ان يمشي الى القصور والحصون ليتحدث الى الأقوياء

والعظماء وهو يعلم ان هؤلاء الحمس من قريش قد اورثتهم حميتهم الجاهلية زهداً في ملك كسرى وقيصر ، ففضلوا صحراء وطنهم على سهول الشام وحزون العراق ، وآثروا ان يدفنوا في الجبال العريانة على ان تحتويهم سفوح خضراء تمور بالأعشاب والامواه .

حمل اليه نسيم المساء صدى صلوات القرشيين حيال اصنام الكعبة ، فمضى قلبه راعشا خافقا ولكن ذلك الصوت العذب الذي اصغى اليه قبل ثلاث سنوات عاد الى نفسه يطفر في نواحيها ، فاستعذى ترجيعه ووجد في جرسه القوة والامل والنصر

ولم يكن هذا الصوت الذي مر بنفسه ليحركها في هذه اللحظة غير ذلك الصوت الذي استجاش عيسى في سهول الاردن ، فاستمع ابن مريم اليه وهو يغسل قدميه بالماء الذي يسقي العشب والكلأ وادرك ان عزلته في الصحراء قد حملت اليه الامل والقوة والنصر فجفا الصخور والشعاب والاودية المنفردة ومضى الى العالم يدعوه الى الفضيلة والى العبادة الصحيحة التي تصقل النفس وتحبب اليها الجمال .

وكان العالم على رحبه وامتداده مدرسة تلقي على تلامذتها دروس الصلف والانانية والرياء وتعرض عليهم صوراً بشعة للرذيلة والحمق والرعونة فخرج عيسى الى هذه المدرسة بالتواضع وحب السوى والصراحة وعرض على تلامذتها صورا رائعة للفضيلة والسلائق الطيبة .

لقد تكلم عيسى حينما اراده الله على الكلام ، فلماذا لا يتكلم سيد قريش وقد اراده الله على الكلام ؟

وضع الرسول يده على صدره كأنما هو يريد ان يمس ذلك الصوت الالهي العذب الذي مر بنواحيه ثم جفا حراء واقبل على جبل ابي قبيس فبدت له البطحاء ومكة والكعبة ، ثم تراءت له الاصنام والاشباح والدمى فاعتزم ان يرجع الى المدينة في هذه الساعة ليكون استاذا للفضيلة وللجمال في مدرسة قريش التي مرت بها قرون وعصور وهي عاكفة على دراسة الصلف والكبرياء والانانية

وكانت كل جارحة من جوارحه تقول له انهض واذهب الى مكه واحمل دروس ربك التي حذقتها وعرفتها الى كل قرية . بل الى كل مدينة بل الى كل بحر وشاطيء فان مكانك الذي ارادك الله عليه ليس في هذا الجبل الماحل الجديب. ولكنه في المدن الوارفة الظل .

ترك السيد جبال مكة منحدرا الى البلد الذي احبه فلما اقترب من الكعبة ورأى الناس يروحون ويغدون حيال اصنامها مشى اليهم مترسلا ويده على صدره من غير ان ينبس بكلمة ، ففتحوا له الطريق ودار الهمس بينهم

ـ هذا هو الامين ؟ .

وكان الفقراء والضعفاء والبؤساء يحبون هذا اليتيم العظيم ويرون في وجهه طلعة الرجل الذي اصطفاه الله للعمل النبيل الرائع فلما صاقبهم احتواهم صمت عجيب واحسوا في نفوسهم وهم ينظرون اليه شيئا كثيرا من الروع والورع والحب فتمنى اكثرهم لو ان السيد يسمعهم صوته العذب وحديثه الرائق ، فلم يفعل ، فظل ينظر اليهم كأنما هو يقول لهم « انا من تنظرون ، سمعت صوت الله في الصحراء فحملت صداه الى المدن والى الجبال والاودية والسهول ..

لقد كانوا ينظرون اليه راعشين ، فما الذي ارعشهم ؟ فهل رأوا فيه ملكا اخافهم ام لاحت لهم في جبينه المضيء اعراف نبي مرسل ؟

لم يستطع واحد منهم ان يجد تفسيرا لهذه الرعشة في نفسه ، فمضى الجميع يستمرءون النظر الى وجهه الطافح بالسنى والسناء ، ثم ابتسم لهم ابتسامة حلوة ثم حياهم تحية صافية وانطلق يعدو في الطريق الموصل الى منزله .

وانه ليهم بالدخول الى بيته ليستريح اذا ذلك الصوت العذب الذي اصغى اليه قبل ثلاث سنوات يخرق سمعه ، حتى عادت كل جارحة من جوارحه تردد همسه وترجيعه فانثنى راعدا وخطر له هذا الصوت في جميع المشاهد التي يراها حوله في لألاء السماء وفي حمرة الجبال ، وفي سكون الليلة الظلماء ، فكاد اكثر من مرة يرجع

الى الجبل واخذ العرق ينحدر من جبينه ولـكنه مضى متجلداً ودخل منزله

تردد السيد اكثر من مرة في الدخول الى حجرته تحت وقر هـــذا الاحساس الذي تولاه وكاد يعود الى الجبال ، بل لقد طرقته خيالة المدينة فسهم وجهه وصباالبها صبوا شديدا ، وعلقت نفسه باولئك الماحلين المناكيد الذين استعذبوا تحيته وخفوا اليه يسألونه ان يدعو لهم ربه لعله يسبغ عليهم بعض منحه وعطاياه

ولـكن شيئـا خفيا لم يستطع ان يحسر عنه بعد مشى به الى الحجرة فدخلهـا ورأى اطفاله في مهودهم ينامون نوما وادعا لذيذا وقد راحوا متسدرين باغطيتهم فلم يتبين غير وجوههم النضرة الباسمةوغير شعورهم المرسلة كاجنحة الغسق فوقف حيال هذه المهود ينظر الى بقايا قلبه نظرات استطال فيها الحب والعطف والرأفة ولم يكن في قومه من يجاريه في حبه للصغار واحسانه اليهم بل لم يكن في قريش قديمهـــا وحديثها من يبسم للطفولة بسمته الباكية الرحيمة !

في الماضي كان السيد يطوف بيوت الفقراء والمساكين للبحث عن الطفولة التي يحبها حتى اذا لاح له طفل في الطريق نازعه اليه حب شديد ، وعاد يحمله بين ذراعيه ناشجاً شاجناً ، ثم يفيء الى مساكن اهله ويجتمع الى اعمامه وعماته فينصح لهم بارواء هذه الرياحين ومراقبتها مخافة ان تذبل ، بل مخافة ان يدوسها المارة فتستحيـل وهي الضاحكة المتوردة الى هشيم .

وكان يرى للطفولة حقوقا مقدسة لاينبغي للنـــاس ان يهملوها او يعبثوا بها وهذه الحقوق المقدسة التي اسبغتها يد الله المحسنة على الطفل وهو في المهد لايستطيع انسان نزعها ، فلها ان تنمو وتكبر ولها كذلك ان تتمتع بجميع المزايا التي يتمتع بها الانسان سواء اكان شابا في موعة العمر ام كان شيخاً على عتبة القبر . .

لم يطل وقوف السيد حيال صغاره ففارقهم الى حجرته والقى نفسه على فراشه رجاة ان يستريح من التعب الممض الذي تحيفه في الصبـــاح ولـكن ذلك الصوت المقدس الذي انصت اليه في حراء والذي تردد في كل جارحة من جوارحه وهو يمر

بالكعبة ما عتم ان غشي قلبه في هذه الساعة التي ارادها للراحة ، فاذا هو يناديه الى الخروج من حجرته ليس الى مكة ، بل الى العالم السابح في زواخر الجاهلية « وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (١) فجفا فراشه ساهف الوجه ، راعش اليدين ، ومضى الى النافذة ففتحها ونظر الى الجبال المتلفعة بغيوم الغسق كأنما هو يريد ان يلمس ذلك الصوت الذي ارعشه ولكن السيد لم يلمح على الجبال التي ارتادها في عزلاته اثراً لهذا الصوت الحلو المنسجم ، فعاد الى قلبه الخافق فاذا الصوت يتردد في نواحيه « وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »

ادرك السيد وهو مطل على مكة وجبالها وافقها من النافذة ان الله يستحثه على المضي في دعوته اهله وذويه الى حلاوة الايمان وانه اراده على ان لايحفل باحد من اعمامه وعماته وذويه ، الم يقل له فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين ؟ اذن فقد وجب عليه ان يذهب الى بني هاشم وبني المطلب وبني عبد شمس وبني نوفل فيدعوهم جميعا الى دين الله .

وجعل ينظر الى ما حوله فالفى نفسه وحيداً في حجرة بعيدة من حجرة زوجه واولاده فاحس حاجته الى التفكير في الأمر الذي ندبه الله الى تحقيقه ، فاغلق النافذة وعاد الى فراشه فاستلقى عليه ثم انثنى يفكر في مهمته فاستعرض قريشاً وبيوتها وتفحص هذه الجاهلية التي تحتويها ثم تفحص حماستها وحرصها على قديمها وغيرتها على تقاليدها وذهابها الى النهاية في استبقاء عبادتها الجافة البليدة ، وكذلك استعرض كلمات ورقة بن نوفل الذي قال له « وسيخرجك قومك لمعاداتهم اياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا اباءهم عليها » فآيسته خواطره مؤايسة اليمة فشق عليه ان يجفو اهله وقد احبهم ، بل لقد شق عليه ان يهجر وطنا علقت روحه بارضه ونما احساسه وشعوره في جباله وفي عزلاته واتسق له العيش في هضابه

(١) سورة الشعراء

وروابيه ، ومع هذا كله ظلت كلمة الله تستجيشه الى العمل الرائع الخالب ، فوضع في قلبه حب الله وحب ذوي القربى ومضى يختار بينهما حتى نزع قريشاً من بين جنبيه زلفى الى الله الذي اراده نبياً ورسولا .

ولما تنفس صبح اليوم التالي لم يكن في قلبه اثر لقريش فاعتزم ان يمضي الى مكة ليحمل الى الناس جميعا عطر السماء الذي حمله موسى وعيسى الى العالم .

ولكن الأيام تتالت والرسول لايجفو منزله ولا يخالط اهله حتى ظن عماته انه شاك مريض فدخلن عليه عائدات فسألنه عن الألم الذي يعتصره فقال لهن ما اشتكيت شيئاً لكن الله امرني بقوله وانذر عشيرتك الأقربين فاريد ان اجمع بني عبد المطلب لادعوهم الىالله، قلن فادعهم ولا تجعل ابا لهب فيهم فانه غير مجيبك الى ما تدعوه اليه (١)

---

(١) ابن اسحق ، والسيرة النبوية .

الفصل الحادي عشر

شباب ليلى

في صباح اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة اربع عشرة وستمائة طرقت المرأة ذات الملابس السوداء باب صومعة ورقة بن نوفل في ذرى جبل مجاور لمكة ووقفت هذه المرأة التي اثارت احزان الجماهير باقاصيصها عن المأساة الغسانية ثم عن بعث سيد قريش تنظر الى نواحي الجبل كأنها تريد ان تطمئن الى وحدتها . فلما لم تبصر احدا مضت الى خفق الباب نزلة اخرى وبعد قليل سمعت صوتاً حلواً ينبعث من الصومعة المنفردة ثم اذا هذا الصوت الحلو يقول :

ــ في وسع الزائر ان ينتظر قليلا ريثما اتجمل بملابسي .

فصاحت المرأة :

ــ ولكن الشمس صحرتني ، وقد صخد اليوم صخداناً اليما . افتح يا سيدي افتح ، فقد كان في وسعي ان ابرح هذه الشواهق الى مكة فما استطعت الى ذلك سبيلا ، لأن العطش قد برح بي وامضني ، ولو ان في هذه الحوالي المنحزلة شيئاً من الماء امتاحه واستلذه لما طرقت بابك في هذا الصباح الذي استقبلني في لمعته ريح هتوف حنون .

ففتح ورقة الباب بيده ، فلما رن صوتها في اذنيه عرفها فرعش وقال لها :

ــ ماذا ؟ لقد كنت اظنك برحت مكة فأي قدر ساقك الي في هذا الصباح ؟ ومن انت أيتها المرأة التي تتحدث الى الناس بلهجة تثير الحزن ؟

ــ اسقني من مائك يا سيدي قبل ان تمطرني بهذا السيل الدافق من اسئلة ما برحت نفسي تعافها وتملها .

فحمل الشيخ الى المرأة شيئاً من الماء في اناء من الخزف واستتلى قائلا :

ـــ لعلك لم تأكلي بعد ؟

ـــ انما انا امرأة تجد طعامها على موائد الألم ..

ـــ في صوتك الحزين الشجي رقة تنم عن البؤس ، ولـــكنك ستجدين على مائدتي شيئاً من العزاء الذي تسألينه .

ـــ ما طرقت بابك في هذا الصباح لأكدر وحدتك ايها الحكيم ، ولكني امرأة مال بها طريقها ، فطفقت ترتاد هذه الانحـــاء للبحث عن منتجع تفيء اليه فاستقبلت في طريقها القمم والذروات والأودية حتى وغرتها الشمس وحتى امتاحها الحر فكادت تلقي نفسها من هذه الشواهق الى الوادي السحيق البعيد ولـــكن الله الذي ما تخلى عن حمايتها الى الآن دلها على هذه الصومعة ففزعت اليها .

وكانت المرأة تتكلم بلهجة يخالطها الالتياع والحزن وعيناها تطوفان الصومعة كأنها تريد ان تستوثق من انقطاع ورقة لوحدته ثم هزتها رعشة فرح فقالت للحكيم

ـــ هذا مقعدك يا سيدي فاجلس ، فان الوقوف قد يحمل الى شيخوختك تعبا انت في غنى عنه ،

فجلس الشيخ وجلست المرأة الى جانبه فقال لها :

ـــ لقد سألتك قبل اسابيع من انت فلم تتكلمي وامتنعت عن ذكر القوم الذين تمتين اليهم .. ولكنك ذكرت لنا اسمك ، ثم لم البث ان نسيت هذا الاسم

فقالت المرأة :

اسمي ليلى ..

فهز ورقة رأسه واردف :

ـــ ان هذا الاسم شائع ومعروف في قبائل العرب ، فمن اي القبائل انت ؟

ـــ لقد تكلمت امام الناس كثيراً يوم وقوفي بالكعبة ثم تحدثت اليك اكثر من مرة . فكيف فاتتك في احاديثي لهجة قومي ، فأطرق ورقة يفكر ثم اشرق وجهه والتفت الى المرأة قائلا :

— هذه اللهجة العذبة التي تخللت احاديثك والتي استثارت من حماسة الجماهير هي لهجة الشاعرات الكنديات .. اذن فانت من كندة .

— نعم انا من كندة يا سيدي الحكيم اتعرف هذا الشعر ؟

فلو ان ما اسعى لأدنى معيشة   كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

— في هذا الشعر عطر امريء القيس بن حجر .

— انا عمته يا سيدي .

— أأنت، عمته ؟

— نعم انا عمته يا سيدي ، انا عمة هذا القتيل الشهيد .

— اذن فابوك هو الملك الحارث بن عمرو المقصور ؟

— نعم يا سيدي ان ابي من ذكرت ، ولكني اراك ترعش تحت وقر احاديثي فهل روعك اسمي ؟ هل رأيت في هذا الاسم الذي ظل مطويا عن الناس خلال ثلاثين عاما شيئاً بشعا لا تحبه ولا تأنس اليه ؟ هل رأيت في غضون وجهي وقد احدثها شتاء الزمن صورة تعافها ولا تستلذها ؟

— ولكني يا امرأة اعمى منعته السماء ان يطل على المشاهد الكدراء والمشاهد الزهراء

— سيدي ! ..

— كنت اظن ابناء عمرو آكل المرار في الأموات فاذا هم لا يزالون في الاحياء

— معك حق يا سيدي ، فان ملك العراق المنذر بن ماء السماء لم يكن كريما متسامحا فقتل الشيوخ والاطفال والنساء من كندة حتى ضرج ارض وطنه بالدماء الغالية وحتى جعل في كل ناحية من نواحي العراق قبرا لشهيد او رمسا لشهيدة .. يخيل الي ان عينيك المغمضتين عادتا مخضلتين نديتين فليس شك في ان هذه الكارثة الأليمة التي قوضت ركنا عظيما في بيت الاسرة العربية قد انبتت في صدرك ازهار الرحمة والرأفة،نعم انك لتبكي ولكن في غير دموع ، قل لي ياسيدي اكنت تعرف

واحداً من هؤلاء الملوك الذين تحالف الفرس والروم على قتلهم وتشريدهم ؟

— عرفت حجراً وعرفت يزيد وعرفت معاوية · ثم عرفت معدي كرب .

— اين رأيت هؤلاء الملوك ياسيدي ؟

— كنت في سبع عشرة سنة من عمري لما نزلت قصر الملك الحارث بن عمرو الكندي وكان رفيقي في سياحتي الى ربوع كندة الوليد بن المغيرة احد اعلام قريش. فاحسن الملك وفادتنا وبالغ في ايثارنا وقربنا منه ، فامضينا في القصر شهرين كاملين استمعنا في خلالهما الى اعذب الشعر ، واطيب النثر ، لقد ولد الشعر في قصور ملوك كندة ياسيدتي فما عتم هذا الطفل ان كبر ونما حتى اطمأن الى قدرته على التحليق في الآفاق البعيدة وما زلت اذكر — ويا لها من ذكرى لذة جاءت تستفيق في صدري المترع برماد الأيام — عشية راح ابوك الى اراضي بني تغلب في موكب ما رأيت له مثيلا في قصور القياصرة والأكاسرة ثم عاد الملك الى كندة حاملا الى ولده حجر عرسه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث اخت كليب ومهلهل الشاعرين ، ثم تتالت ايام واعوام على هذا العرس الذي اشتركت في مفارحه ومغابطه قريش واسد وتغلب فاذا امرؤ القيس الطفل حصاده الشهي .

— اتذكر الماضي كله ياسيدي ؟

— اطفأت السماء نور عيني ولكنها ابقت على هـــذا النور الذي يملاء نواحي صدري ، وفي هذا الصدر الذي عاد يخفق بعد ركوده الف صورة للايام الماضية

— لقد كان ابي يضع على ركبتيه وهو جالس على عرشه طفلة يأنس بضحكها ولعبها ، ويرتاح الى صوتها ويلهو بشعرهـــا فهل رأت عيناك ياسيدي هذه الطفلة في عشية من عشيات كندة ؟

— نعم كنت اراها تلعب في حجره وكانت تثب وتطفر . ثم كانت تعبث بغدائر الملك فكنت اسأل كبار كندة « من هي هذه الطفلة التي اصبح الملك يري في سذاجتها ووداعتها متع الحياة ومسراتها »فكان الأمراء يقولون لي « هذه ابنة الملك

وهي احب بنيه الى نفسه ، بل هي عالمه الوحيد الذي اودعه مسراته ومجونه وضحكه

— كانت الطفلة صورة ذلك الماضي الوادع . .

— ولكنك تبكين يا امرأة فهل كنت تعرفين تلك الطفلة السعيدة ؟ .

— انا حاضرها الأليم ياسيدي . .

— فصاح ورقة بن نوفل :

— أأنت هي تلك الطفلة الوثابة الطفارة ؟

— ليت السماء لم تمنعك لألاءها اذن لشهدت عيناك اي تشويه احدثه الماضي في زوايا حياة تلك الطفلة الراغدة .

— منذ هنيهة كنت تتحدثين الي و كان اليأس الذي اودعته كلما تك يلمس نفسي فيهزها هزا ، قصي علي أيها المرأة البائسة حديث ماضيك .

— انها لقصة مؤثرة ياسيدي، أخاف ان قصصتها عليك ان تبعث بعض اليأس في نفسك المحتاجة الى الفرح والأمل .

— تكلمي فليس احب الى نفسي من الاتصال بذلك الماضي البعيد الذي انقطعت عنا اخباره ، تكلمي .

— ولكن لهذه القصص التي تريدني على ترديدها صلة بهذا الحاضر الأليم الذي تسبح اقوامنا في غياهبه .

— تكلمي ! تكلمي !

وكانت عينا ليلى مخضلتين بالدموع وقد استفاض حزنها ويأسها فانشأت تقص على ورقة بن نوفل حديث الماضي :

لما احس ابي انه قريب من الموت دعا اليه حجراً اخي فوفد حجر الى أبيه واقام عنده حتى هلك ، ثم اقبل راجعاً الى بني أسد كان أغار عليهم في النساء وأساء ولايتهم وكان يقدم بعض ثقله امامه ويهيء نزله ثم يجيء وقد هيء له من ذلك ما يعجبه فينزل ويقدم مثل ذلك الى ما بين يديه من المنازل

فيضرب له في المنزلة الأخرى فلما دنا من بلاد بني أسدوقد بلغهم موت أبيه طمعوا فيه فما ان اظلهم وضربت قبابه حتى اجتمعت بنو أسد الى نوفل بن ربيعة بن خلدان فقال يا بني أسد من يتلقى هذا الرجل منكم فيقتطعه فاني قد اجمعت الفتك به فقال له القوم ما لذلك احد غيرك فخرج نوفل في خيله حتى اغار على الثقل فقتل من وجد فيه وساق الثقل واصاب جاريتين لحجر ثم اقبل حتى اتى قومه فلما رأوا ما قد حدث واتاهم به عرفوا ان حجرا يقاتلهم وانه لا بد من القتال فحشد الناس لذلك وبلغ حجراً امرهم فاقبل نحوهم فلماغشيهم ناهضوه القتال ثم هزموا اصحابه واسروه فتشاور القوم في قتله فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد ان حبسوه ليروا فيه رأيهم اي قوم لا تعجلوا بقتل الرجل حتى ازجر لكم فانصرف عن القوم لينظر لهم في قتله فلما رأى ذلك علباء بن الحارث احد بني كاهل خشي ان يتواكلوا في قتله فدعا غلاما من بني كاهل وكان ابن اخته، كان حجر قتل اباه زوج اخت علباء فقال يا بني اعندك خير فتثأر بابيك وتنال شرف الدهر، وان قومك لن يقتلوك ،فلم يزل بالغلام حتى حربه ودفع اليه حديدة وقد شحذها وقال ادخل عليه مع قومك ثم اطعنه في مقتله فعمد الغلام الى الحديدة فخبأها ثم دخل على حجر في قبته التي حبس فيها فلما رأى الغلام غفلة وثب عليه فقتله فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهن ثارنا وفي ايدينا فقال الغلام انما ثارت بأبي فخلوا عنه واقبل كاهنهم المزدجر فقال اي قوم قتلتموه ، ملك شهر وذل دهر ، اما والله لا تحظون عند الملوك بعده ابدا .

ولما طعن الأسدي حجراً ولم يجهز عليه اوصى ودفع كتابه الى رجل وقال له انطلق الى ابني نافع وكان اكبر اولاده فان بكى وجزع فاله عنه واستقرهم واحداً واحداً حتى تأتي امرأ القيس هو اصغرهم فايهم لم يجزع فادفع اليه سلاحي وخيلي ووصيتي وقد كان بين في وصيته من قتله فانطلق الرجل الى ابنه نافع فاخذ التراب فوضعه على رأسه ثم استقراهم واحداً واحداً فكلهم فعل ذلك .

وكان حجر قد طرد امرأ القيس وآلى ان لا يقيم معه انفة من قوله الشعر فهام

امرؤ القيس على وجهه في احيـــاء العرب ومعه اخلاط من شذاذ العرب من طي وكلب وبكر بن وائل فاذا صادف غديراً او روضة او موضع صيد اقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فاكل واكلوا وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ولا يزال كذلك حتى ينفذ ماء الغدير ثم ينتقل عنه الى غيره فاتاه خبر ابيه وهو بدمون اتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور فقـــال : ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً لاصحو اليوم ، ولا سكر غداً اليوم خمر وغداً امر (١)

وكنت يومئذ في موعة العمر فجئت امرأ القيس وهو في حجرته فالفيته شاجناً وقد اعتزم ان لايخالط الناس حتى يثأر بابيه ، فاحزنني التياعـه ورق قلبي لصورته البائسة . فقلت له ما يمنعك ان تخرج الى مراحك كعهدك الأول ؟ فراح وجهه مسفوعاً ونظر الي بعينين لم تخالطهما تلك الابتسامة التي كانت طابعاً لوجهه وقال لي: أأنت تقولين هذا القول ياعمتي ؟ اكان دم اخيك عليك رخيصاً الى هذا الحد ؟

فقلت له : ولكني جازعة فقال ممن ؟ قلت من اعـــداء ابيك فانهم كثرة ومن ورائهم ملوك يحمونهم وانت شـاب لاتجد في كندة من ينضوي تحت رايتك فهز كتفيه ساخراً وقال لي : — احسبك تهزلين ياعمتي ؟ — ولم يقل اكثر من ذلك فلما جن الليل خرج بمن معه من بكر وتغلب حتى اتى بني كنانة وهو يحسبهم بني اسد فوضع السلاح فيهم وقال يالثارات الملك يالثارات الهمام فخرجت اليه عجوز من بني كنانة فقالت له ابيت اللعن لسنا لك بثأر نحن من كنانة فدونك ثأرك فاطلبهم فان القوم قد ساروا بالأمس فتبع بني اســـد فقاتلوه ليلتهم تلك حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم وحجز الليل بينهم وهربت بنو اسد فلما اصبحت بكر وتغلب ابوا ان يتبعوه وقالوا له قد اصبت ثأرك قال والله ما فعلت ولا اصبت من بني كاهـل ولا من غيرهم من بني اسد احداً قالوا بلى ولكنك رجل مشؤوم وكرهوا قتالهم بني كنانة وانصرفوا عنه فلجأ الى عمرو بن المنذر وامه هنـــد بنت عمرو آكل المرار ،

---

(١) الاغاني ج ٨ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦

وكان قد ايأسه قتل ابيه واعمامه ، وتفرق اهل بيته فطفق يقص على عمرو قصته حتى رق له وذكر صهره ورحمه وانه قد تعلق بحباله ولجأ اليه فاجاره ومكث عنده زمانا ثم بلغ المنذر بن ماء السماء ملك العراق مكانه عنده فطلبه وانذره عمرو فهرب حتى اتى حمير .

والح الملك المنذر في طلب امريء القيس ووجه الجيوش في طلبه من اياد وبهراء وتنوخ ولم تكن لهم طاقة وامده كسرى انو شروان بجيش من الأساورة فسرحهم في طلبه وتفرق حمير ومن كان معه عنه فنجا في عصبة من بني آكل المرار حتى نزل بالحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ومع امريء القيس ادراعه الفضفاضة والضافية والمحصنة والخربق وام الذبول ، كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك فقلما لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر بن ماء السماء مائة من اصحابه يوعده بالحرب ان لم يسلم اليه بني آكل المرار فاسلمهم وكنت من جملتهم ، فذبحهم جميعا ولم يشأ قتلي لأنه لم ينتبه الى امري . وقد خالني امرأة من السوقة ، فالتحقت بالشام ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند بنت امريء القيس والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه ولحق بطي .

فلما وقعت الحرب بين طي من اجله خرج من عندهم فنزل برجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر بن مازن فطلب منه الجوار حتى يرى ذات غيبه فقال له الفزاري يا ابن حجر اني اراك في خلل من قومك وانا انفس بمثلك من اهل الشرف وقد كدت بالأمس تؤكل في دار طي واهل البادية اهل بر لا اهل حصون تمنعهم وبين اهل اليمن ذوبان من قيس افلا ادلك على بلد يمنعك فقد جئت قيصر وجئت كسرى وجئت المنذر فلم ارى لضيف نازل او لمجتد مثله ولا مثل صاحبه قال من هو واين منزله قال السموأل بتيماء من الشام وسوف اضرب لك مثله ، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك وهو في حصن حصين وحسب كبير فقال له امرؤ القيس وكيف لي به قال : اوصلك الى من يوصلك اليه فصحبه الى رجل من بني فزاره يقال له الربيع بن ضبع الفزاري ممن يأتي السموأل فيحمله ويعطيه ثم مضوا جميعاً حتى

قدموا على السموأل بتيماء فانشده امرؤ القيس الشعر ، فاحتفى به وانزل هندا في قبة من الأدم وانزل القوم في حصن تيماء (١)

وكنت يومئذ في بصرى فجئت امرأ القيس وحسرت له عن امري ففتح لي ذراعيه صائحاً «أأنت هنا ياعمتي؟ لقد كنت اخالك في الأموات فكيف نجوت من الذبح؟» فقلت له ان لنجاتي قصة طويلة ساقصها عليك في الأيام المقبلة ولكني ارغب اليك ان لا تفضحني مخافة ان يعلم المنذر بامرنا فلا يتريث في قتلنا جميعاً! فوعدني امرؤ القيس بالسكوت فكان اذا سأله سائل عني يقول له :

— انها كاهنة من كندة اردتها رفيقة لي في سفري!

ثم مضت الايام والأعوام وامرؤ القيس ناعم وادع في حصن تيماء حتى علم المنذر بن ماء السماء بامره فاحفظه لياذه بالشام وهو الذي لا يحب ملوكها وامراءها فبعث اليه بجيش جرار تحت قيادة الحارث بن ظالم المري. فرابط هذا الجيش الكثيف حيال بصرى وخرج قائده الى السموأل وهو في حصنه فاراده على تسليم امريء القيس فرفض السموأل فقتل الحارث ابنه ، ثم رجع الى العراق بعد ان عجز عن اختراق حصن تيماء

وعلى اثر هذه المأساة سأل امرؤ القيس السموأل ان يكتب الى الحارث ابن جبلة الغساني ملك الشام ليوصله الى قيصر الرومان فاستنجد له رجلا واستودع عنده ابنته والادراع والمال فاقام يزيد بن الحارث بن معاوية مع هند في احد قصور بصرى ومضى امرؤ القيس الى القسطنطينية ومعه بعض رجاله وانا بينهم .

ولما بلغ المنذر بن ماء السماء ملك العراق خبر لياذ امريء القيس باعدائه طلب الى كسرى انو شروان ان يمده ببعض جيوشه ففعل وجاءت هذه الجيوش الى الشام فاحرقت الدور والقصور وحصدت الزروع وكان النزاع بين الرومان والفرس على اشده يومئذ فاضطر قيصر الى اغاثة الحارث بن جبلة الغساني فارسل اليه جنودا من الرومان ووقعت المعارك بين الشام والعراق!

وهنا سكتت ليلى سكوتا مذيبا فرق لها ورقة رقة اليمة وجاراها في صمتها احتراما لهذا الألم البادي على وجهها ؟

---

(١) الأغاني ج ٨ ص ٦٩ و ٧٠

الفصل الثاني عشر
في القسطنطينية

تتالت لحظات وليلى ساكتة ، ثم فتحت فمها واردفت :

كلما خطر الماضي بذهني ، عدت الى نفسي فسألتها ميراثها منه فلا تقع عيني الا على الحطام البالي فلقد كان ميراثنا من ارض كندة ، هـذا الليل المغدر الذي غطى حظوظنا واقدارنا وهذا الموت الذي اطفأ ومضات الحياة في نفوس الأحبة والأهل ثم هذا الخريف الذي عصفت رياحه بالقصور والخلوات التي عاش فيها الشعر طفلا مراحا يقبس عطوره وابتساماته من الحب .

قد تركنا ارض الوطن ، تخلفنا في كل ذروة من ذرواته ، وفي كل سفح من سفوحه اعراف عمرنا الأول . ذلك العمر الذي ما تعرف الى غير الاناشيد فطرحتنا النوى مطارحها ، وقذفت بنا الى المكان الواعر الماحل ، ونحن نمشي يومئذ في موكب شاحب اسوان !

ولما بدت لنا الارض الفنواء في الشام ، ولاحت لنا الغياض والادواح والظلال والأشعة . رجونا ان نستريح عن كثب من العطور واملنا ان تتجدد حظوظنا فنخلع لباسنا البالي ونلبس لباساً جديداً نلمس فيه شبابا وعافية ومرحا بل لقد رجونا ان نستقبل في ارض الاحلام المتوردة ربيعاً حالياً بالنوار والرياحين بعد ان تركنا في ارض الوطن الاول خريفا لم نقبس من ريحه الجفول غير البرد والالم ولكن شتاء الاحزان ماعتم ان تساقط علينا في وطننا الجديد فجرفتنا سيوله العارمة الى ارض الروم

نزلت مواكبنا وهي هشيم في ضاحية على سفوح طوروس . فرجت ان تستريح من طواف اليم ، وفي تلك الاثناء اخذت عيناي جبين امريء القيس المكفهر واني اليوم اعود بالخاطر الى ذلك الماضي البعيد فاذكر اي نشيج تسايل من صدر هـذا

الشاب الذي خلف في الشام ابنته وآماله ، فدنوت منه وسألته عن هـذا الالم الذي جعله يتمايح في مشيته فقال لي « لقد شممت في هذه الارض رائحة البغض ، ثم رفع عينيه الى الفضاء وكانت ارض الشام لاتزال تبين له عن بعد وانثنى صائحا « هنا دفنت ثاراتي ومجدي فامرح هادئا ناعما يا ابن مـاء السماء ، فنظرت اليه وقلت له مبهوتة ولـكن المنذر قتل شيوخ قومك ، واراق دماء اعمامك . فكيف تخليت عن ثاراتك ، ولشد ما كانت دهشتي اذ رأيته قد رفع يده فاهوى بها علي ، فنجوت منه ولذت بفتى من كندة اسمه حنظلة ، لحال بيني وبين هذا الصقر الهائج المحنق،ولـكني ماتبرمت بهذا الذي بدر منه ، بل نظرت الى ابن اخي نظرة بارة رحيمة ، فاذا لونه قد تغير ثم رأيته قد توذف وذفانا عجيبا ، حتى اقترب مني فجثا عند قدمي والدموع من عينيه في سح وتهطال ثم انثنى قائلا : لقد صيرني الالم مجنوناً ياعمتي فاصفحي عن ذاتي، اواه ! انك لاتقدرين هذه الالآم التي ذهبت بصفو حياتنـــا وبرفها .ثم هز يدي وقـــال :

— ينبغي لك ان تصفحي عن المنذر فان سادة العراق قد عادوا حماة هذا المجد الذي فاتنا في ارض الوطن،وهذه الارض الجديدة التى وطئتها قدماي اليوم عادت تحمل الي كبرياء الرومان وصلفهم،اعلمت الآن لماذا نزعت طيف ابي المضرج بالدم من صدري

ومضينا الى بيزنطية وبعد ايام لحق بنا الملك الحارث بن جبلة فانضمت حاشيتنا الاسوانة الى حاشيته الفرحانـــة . ورحنا جميعا الى لقاء قيصر .

وفي صباح يوم صائف مضى قيصر وتيودورا والملك الحارث بن جبلة الى قصر الشالسيه في موكب فخم بارع ، فلحق امرؤ القيس بالملك الحارث وجلس حياله في القصر تحت قبته المرمرية فاذا امرؤ القيس فتنة لنـــاظريه ، فكنت ابتهج اذ ارى الناس يتهامسون كلما مررنا بهم اويدونا لعيونهم قائلين ذلكم هو امرؤ القيس الذي حارب الفرس في سبيل قيصر !.

ثم برحنا القصر الى ساحة ايبودروم وشهدنا الألعاب المتنوعة ، ثم خرجنا الى

العزلات والى اماكن اللهو والمراح تحف بنا حاشية من فتيان الفوا الأنتداء في الغياض على الاصائل ابان صيف وخلال ربيع ، فانسانا اعجاب الناس بالحارث وتعلقهم بامريء القيس تلك الحياة الناعسة التي تركناها وراء بلاد الروم .

ومضت ايام واسابيع وتصرمت ليال وعشيات فاذا امرؤ القيس يعود في الناس جديداً في شهرته ، جديداً في عنفوانه ، واذا الكفاح في سبيل استرداد ارض الوطن ينقلب الى نعيم لذ ، ثم اذا امرؤ القيس يطمع في الرجوع الى كندة بجيش من الرومان

ولكن هذا الحلم الفاتن الذي بهر الملك الضليل بهراً ، ماعتم ان استحال الى كمد مذيب ، ففي ذات عشية من عشيات بيزنطية ، التفت قيصر الى امريء القيس وقال له : لقد اعددت لك جيشاً عظيما من فتيان الرومان ، ففي وسعك ان تنطلق به الى وطنك لانقاذ تربته من رجس الفرس فغامت عينا الملك من الفرح فاخذ يدي قيصر ومضى يلثمهما في كثير من الورع فاثر مشهده هذا في نفس قيصر فقال له : « ليس هذا كل ما عملته لأجلك ، بل لقد فكرت في منحك ارض فلسطين فانت اميرها منذ هذه الليلة » وهنا تدخلت تيودورا في الأمر فالتفتت هذه المرأة التي راح قيصر مأخوذاً بجمالها الى امريء القيس وقالت له جادة غير هازلة : «

ان زوجي طيب القلب رقيق الحس بعيد عن فهم اخلاق العرب ، فلا ينبغي لك ان تصطنع بساطته وطيب عنصره في مثل هذه الشهوات التي عرفناها في كثيرين من ذويك

فاحمر وجه امريء القيس ولم يفقه هذا التعس ما ارادته المرأة الفاجرة ولما حاول ان يتكلم مضت تيودوراً قائلة :

— لقد جاء عثمان بن الحويرث (١) قبل سنوات الى القسطنطينية فتنصر على يدي اسقفها واراد الى قيصر ان يبعث معه جيشاً من الرومان لاجتياح الحجاز ووضع الكعبة تحت حماية بيزنطية ، فسأله قيصر ان يلتحق بالأحباش ويحارب في

(١) عثمان بن الحويرث احد اعلام قريش وساداتهـا تنصر والتحق بقيصر ودعا الرومان الى نشر نفوذهم على الحجاز فاحبطت مساعيه ، مات سنة ٥٧٢ مسموما

صفوفهم واراده على حمل النصرانية الى الكعبة فرفض وقال لقيصر « لقد اكتفيت بنصرانيتي فليس في وسعي ان احمل الناس على استساغتها وقد كان حقاً بعد هـذا الرفض ان يمتنع قيصر عن اصراخه بجيش من الرومان ثم مات هذا الرجل في بيزنطية فهل في وسعك انت الذي سلبه الأكاسرة وحلفاؤهم المناذرة ملكه الضخم ان تحمل قومك على استمراء النصرانية ؟

وقفت تيودورا تلحظه بعينين عابثتين فلم يتكلم ولم يرفع رأسه الى وجهها الذي تلفع بصفرة عجيبة ، فادرك قيصر هذا الألم الممض الذي يطل من عيني الملك الشاعر فنحا بالحديث منحى جديداً وطفق يسأله عن كندة وعن ملاحمه في بني اسد فلم ترق هذه الأقاصيص تيودورا فالتفتت الى الحارث بن جبلة ملك غسان وقالت له :

ـ لعلك تذكر ايها الملك ذلك الزمن البعيد الذي ارادت فيه احدى ملكات غسان طرد اساقفة الرومان من بلادها ففعلت ذلك وزحفت بجنودها الى القسطنطينية حتى حملت قيصر الرومـان في ذلك العهد على قبول الصلح فسلم بشروطها كلها ورضي ان ينزل اسقف عربي منزلة الاسقف الروماني (١)

---

(١) اهمل مؤرخو العرب ذكر ماوية الغسانية لجهلهم تاريخ الغساسنة فلم يذكرها منهم غير حمزة الأصفهاني فاسماها مارية فهي في رأيه ام الحارث الثاني لا اقل ولا اكثر ولكن مؤرخي اليونان كسقراط وامنيوس وتيودور وسوزمنيس يروون عن ماوية الغسانية ما يأتي :

بعد ان مات الحـارث الثاني سنة ٣٧٣ خلفته على العرش امرأته ماوية وهي امرأة باسلة كثيرة المطامع عرفت كيف تنشر سلطانها على شعبها ويقول المؤرخ اليوناني تيوفان ان ماوية هذه كانت على جانب عظيم من الجمال فلما مات زوجها الحارث الثاني واطمأنت الى سلطانها قطعت علاقتها بالرومان ونبذت جميع المعاهدات التي كانت تربط بلادها بالامبراطورية الرومانية ثم سارت على رأس جيش كبير من العرب الى احتلال فينيقيه وفلسطين حتى هددت مصر وحملت الى الرومان الانكسار في معارك مجيدة حتى اضطر القائد الروماني الى طلب النجدات

وكان الملك الحارث يكره هذه المرأة التي اصطنعت ذكاءها ودهاءها في سبيل الدين حتى آذت كثيرين ممن لا يسايرونها فادرك هذا الذي ارادته في حديثهـــا ولم يفته انها تنزع الى اثارة حادثة قديمة للعبث بكرامة ملكة عربية باسلة احتوتها ارض غسان . بل لقد رأى في عيني تيودورا الآمرة النـــاهية في بيزنطية والمسيطرة على الشعوب الخاضعة لقيصر الرومان حمرة ما تأججت، مرة الا حملت الى امراء المقاطعات والولايات الظلم والقسوة والتعذيب في اعماق السجون ولـــكن الملك الحارث لم يكن جباناً ولا رعديداً فنهض واضعاً احدى يديه على قوائم المقعد الثمين الذي اجلسه قيصر عليه بينا يده الأخرى على صدره وراح يحدج تيودورا بنظرات هي في حمرتهـــا كالأرجوان وقد امتلاْ صدره وغماً ثم قال بلهجة حازمة ارعشتها واخافتها وهي المرأة التي لا تعرف خوفاً وهلعا .

— دعي الموتى يستسيغون احلام الراحة في ظل العفاء فان الحياة المترعة بمتاعب

من القائد الروماني في الشرق فما كان من هذا الا ان عنف قائد فينيقيه على جبنه امام امرأة وارسل عدداً كبيراً من الجنود فتجددت المعارك واضطر الرومان الى التقهقر فنسي قائد فينيقية الأهانة التي لحقت به من قائد الشرق وجاء لأنقاذ الرومان ولـكن الملكة العزية الجأت الرومان الى الانسحاب ووالت زحفهـــا حتى ازرت بكبرياء الرومان وحتى حملتهم على النزوع الى الصلح ولـكن بشرط ان يسمي الرومان لبلادها اسقفاً عربياً اسمه موسى اشتهر بالطيبة والصلاح وكان هذا الناسك يقيم في منسك منفرد في الصحراء بين فلسطين وسورية فقبل الرومان شروطها ورضوا ان تكون لغة العرب لغة الـكنيسة الغســـانية وكان ذلك في عهد الامبراطور فالانس وفي سنة ٣٧٧ غزا برابرة السلاف تراقية وامتدوا بزحفهم من نهر الدانوب الى ضواحي القسطنطينية فطلب الامبراطور فالانس من ماوية ملكة غسان معونتهـــا فامدته بجيش من الفرسان ، وشوهد هذا الجيش العربي في القسطنطينية واشترك في الدفاع عن هذه المدينة وكانت شجاعته سبباً قوياً في حمل البرابرة على التراجع .

تاريخ العرب قبل الأسلام لكوسين دي برسفال ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

المجد قد اذرت على عيونهم غيما شديدا فما عادوا يبصرون شيئاً من الألوان التي يحبونها فرجوا ان يجدوا في الموت هذه الألوان ..

ان ماوية الغسانية كانت سيدة نساء الزمن الذي عاشت فيه ، وكان نجمها اشد ائتلاقا من نجم الزباء التي ساقها اوريليان اسيرة الى روما وقد استطاعت ملكة غسان التي انبثق دمي من دمها ان تصطنع ذكاءها في تعويد جنودها على النصر ، فانتصروا وكان الحق وحده حاديا بها الى النصر فخشي قيصران يبعث التنافس بين الحارث وزوجه تيودورا الى نتائج لاتروق وكان يحب الملك الحارث حباً جما ، ولا ينسى اثره في تمزيق جيوش كسرى فنهض على قدميه ووقف بين الحارث وتيودورا وفي صدره زفير وصرير ثم التفت الى تيودورا قائلا :

— لقد نسيت ان تباركي سيف الملك الحارث الذي ربح المعركة بعد ان خسرها بلازريوس .

فلم يفت هذه المرأة النابهة ما اراده قيصر ، فادركت اي اثر سيء اثاره حديثها في الملك الحارث فاجبت للعاصفة التي اثارتها سكوناً فمدت يدها البضة النـاعمة الى الملك الحارث واستتلت قائلة :

— لقد حميت الايمان يا سيدي في تغلبك على الوثنية .

وعانق قيصر الحارث عناقاً طويلا ثم التفت الى امريء القيس قائلا :

— الا تذهب معنا في الغد الى كنيسة ايا صوفيا ؟

واشتركت تيودورا في الحديث فقالت لامريء القيس.

— ان يوستانيوس قد جدد بناء هذا المعبد المقدس الذي بنـــاه الامبراطور قسطنطين ، ناشدتك الله ان تمضي معنا لترى عيناك اي زخرف خالب ادخله المثالان انتيموس تراس وايزيدور ميليه في المعبد .

ان زوجي الذي اشجاه احتراق المعبد في المـــاضي قد دعا اليه جميع امراء المقاطعات فطلب اليهم ان ينقلوا الى القسطنطينية بقايا الهياكل القديمة ليصنع منها

قبـــاب المعبد واعمدته فلم يتردد هؤلاء في النزول على ارادته فارسلوا الى بيزنطية عجائب آسية واثينة ، وروائع افسس وبعلبك ، وارسلت مدينة بروكونيس رخامها الأبيض النقي وتخلت مدينة كارستيوس عن شيء كثير من مرمرها الأخضر البديع ونافست مدينة لاسوس هاتين المدينتين في السخاء فقدمت شيئاً كثيراً من رخامها الاحمر وبعثت مصر بالبرفير وارسلت الشام حجارتها الصفراء الملساء (١) ؛ قل لي الا يروقك ان تنظر معنا الى هذه الالوان البهجة ؟ فاجابها امرؤ القيس قائلا :

— بلى يروقني كثيراً ان ارى بسمتك تضيء كلؤلؤة ثمينة على الوان هذا المعبد .

وفي صباح اليوم التالي خرج قيصر الى المعبد في مركبة يجرها اربعة من جياد العرب كان الملك الحارث بن جبلة اهداها اليه ولحق به موكب الملك الحارث وفيه امرؤ القيس وبعض فتيان الغساسنة وشبان كندة ، وكان يوم الاحتفـال بدخول قيصر الى معبد اياصوفيا من ازهى ايام هـــذا الملك الذي حجبت طيبة قلبه ورقة مشاعره اخلاق امرأته الفاجرة .

وفي المعبد ابت تيودورا الا انـ تجلس الى جانب امريء القيس تحت القبة المرصعة بالوف الألوان وفي المعبد اعترفت تيودورا للملك امريء القيس بن حجر بحبها (٢) وراحت عيناها الضحوكان العابثتان متوغلتين في اعمـــاق ذلك القلب الذي لم يخالطه غير احساس الألم وغير الشعور بواجب الرجوع الى الوطن لانقاذه من الفرس والمناذرة .

---

(١) كتاب « القسطنطينية » لشارل دوهل .

(٢) ولدت الامبراطورة تيودورا في القسطنطينية من ابوين مغمورين كانا يعرضان الالعاب على الشعب الروماني في ساحه ايبودروم فلما بلغت ربيعها الخامس عشر صبت الى التمثيل والرقص في مسارح بيزنطية فرآها الامبراطور يوستانيوس فاعجب بحسنها وملاحتها فتزوجها وكانت حياتها مملوءة بحوادث الدعارة والمجون والقتل ولـكنها كانت شديدة الدهاء نزاعة الى مسايرة رجال الدين فتمكنت بذكائها من التغلب على زوجها « لاروس الـكبير »

وفي المُعبد ادركت ان ابن اخي مقبل على دموع وحسرات واحزان فاعتزمت المضي الى انقاذه وتمثل لي مصرع ذلك التعس عثمان بن الحويرث وقد التحق بالنصرانية فمات في بيزنطية مسموما بعد اجتماعه الى تيودورا في قصر الثسالسيه وكنت اخاف على امريء القيس ان تتأكله سموم هذه المرأة التي لا تعرف الخوف والتردد والرجوع الوراء .

وفي المساء اجتمعت الى امريء القيس فافضيت اليه بمخاوفي وصارحته بعزمي على مراقبته مع فتيان كندة . فنظر الي وفي عينيه كثير من الدموع وقال لي : الآن علمت اي حب تحملينه لي في صدرك يا عمتي ثم وثب الي وطفق يعانقني عناقا لا ازال اشم عبقه الى الآن .

ولم اتردد في العمل فبرحت القصر الذي اعده قيصر لامريء القيس ولحق بي حنظلة الكندي وبعض الرفاق واتخذت صهريج موسويوس الرابض على شواطيء البحر معاذاً أفيء اليه واطلقت على نفسي اسم الساحرة .

ولما اطمأن الناس الى سحري ووثقوا بقدرتي على ارجاع الحياة الى النفوس التي ماتت فيها الأهواء والمشاعر طفقوا يتبارون في الاكثار من الطواف حول منزلي . يخفقون بابه خفقا ثم ينتظرون وفودي عليهم رجاة ان احمل اليهم ما يحتاجون اليه من متع الحياة ومسراتها . .

وطارت شهرتي في انحاء بيزنطية حتى بلغت قصر يوستانيوس فدعتني تيودورا اليها فاتيتها في زي امرأة مصرية توشي الشيب في رأسها وراح الزمن يحدث في وجهها غضونا وخطوطاً فاستقبلتني سحراً في روض اورف ظله واوشى ثراه ايشاء بديعاً فاومضت الي بعينيها العابثتين كأنما هي تريدني على اللحاق بها ففعلت ورحت اتبع خطواتها وانا انظر الى ذيول ثوبها الأبيض وقد تهدلت على الارض وليس في المكان جند ولا حرس ثم رأيتها تقف عن كثب من جدول صغير تسيع ماؤه حتى سنا الارض وسقاها ثم رأيتها تجلس على مقعد من الرخام حيال الماء وراحت

تحسر لي عن حبها لامريء القيس وطفقت تسألني علاجاً يدنيها من امير البـادية الذي ابى ان يستمع اليها وقالت لي ان الناس لا يشكون في قدرتك على احياء الموتى وانقاذ المرضى على انني ما اردتك على احياء ميت ولا طلبت اليك شفاء مريض وانما اردتك على اتراع قلبي الصديان برحاق الحب فصبي في هذا القلب ماء يعيد اليه خفقة الهوى ، فقلت لها : لعل هذا العربي لا يحبك يا مولاتي ! فقالت : لا ادري ولكني حاولت ان امضي به الى الحب فازور ونأى ، ناشدتك الله يا امرأة ان تصنعي علاجاً يعيد الي هذا البدوي حبيباً قريبـا ، اقادرة انت على بعث الحب في قلبه ؟ فقلت لها : اتحبينه كثيراً يا مولاتي ؟ فقالت لي وهي تشير باحدى يديهـا الى الزروع الضاحكة في الخميلة ، مثل قلبي في هذا الحب مثل هذا الزرع الذي اعصف وزها ، انك لا ترين في قلبي غير ثمر قد اينع حتى حان قطافه .

كان فمها المضرج بارجوان يتحدث عن الحب وعن ملاذه ، ولكن عينيهـا العابثتين وحدهما حسرتا عن حقيقة تلك الزروع التي اينعت في قلبها . انها زروع الحقد والوغم ايها الشيخ الجليل . . .

لم اكن مخطئة حينما علقت هذه الظنون بنفسي فلقد اخذت افكر في معنى كلماتها فاستطال تفكيري وامتد بي غرقي ، حتى سمعتها تقول : لقد يرفض هذا البدوي حبي وقد يمنع همس قلبه ان يختلط بهمس قلبي ، وقد يدوس قبلاتي بقدميه ويفضل الرجوع الى صحراء العرب على البقاء هنا في المدينة الكبرى . قد يفعل هذا كله ، ولكن هذا الرجل الذي لاح لي طفلا ساذجاً لن يفلت من غضبي ، فقلت لهـا مبهوتة واجمة ، اتريدين قتله يامولاتي ؟ ! فنظرت الي نظرة متفحصة كأنما قد رابها وجومي وقلقي ثم مضت تسألني :

— يلوح لي انك تهتمين لأمره كثيراً ؟

فادركت غلطتي ، ورأيتني قد تعجلت الخوف على امريء القيس فقلت لها :

— كلا . فان امره لا يعنيني ، ولكني لمحت في عينيك بصيص يأس فاحببت ان

اشاركك في تدابيرك واعمالك .

فاطمأنت الى سكون نفسي ، وزال هذا القلق الذي غشيها فقالت لي :

متى يكون معادك الى القصر ؟

— بعد ثلاثة ايام .

— اتحملين الي ذلك العلاج الذي اردتك على صنعه ؟

— نعم يامولاتي !

— ما اسمك ؟

— سميراميس !

— اذن فانت من البلاد البابلية !

— ان اسمي بابلي يامولاتي ، ولكني ولدت في بلاد الفراعنة !

— امصرية انت ؟

— نعم ومن مدينة منف يامولاتي ؟

فاطرقت تيودورا طويلا ، ثم رفعت رأسها قائلة :

— لقد ارسل الينا قوادنا في مصر كثيراً من حجارة منف واعمدتها فجعلنا منها هيكلا بديع الصنع في كنيسة اياصوفيا. اتعرفين هذا المعبد؟ ان زوجي يوستانيوس قد حمل قواده في مصر وسورية واثينة على تجريد معابد هذه البلدان من نفائسها وارسال هذه النفائس الى القسطنطينية لتضم الى عجائب الفن الروماني ، اذن الى اللقاء بعد ثلاثة ايام يا ابنة الفراعنة !

ومدت الي يدها ، فاذا هي مترعة بالذهب واستتلت قائلة :

— اتحبين النضار يا سميراميس ؟ ان هذا كله لك !

ورحت انثر الذهب في جيبي ، وفي صدري رعشة خوف ثم برحت روضة القصر راعدة واجفة يطالعني شبح هذه المرأة المتكبرة في كل خطوة من خطواتي .

وفي المساء اجتمعت الى امريء القيس في قصر تيودوس ، وقصصت عليه الحكاية

واوصيت فتيان كندة بالسهر على حياة الملك الشاعر .

وفي مساء اليوم التالي دعا قيصر الملك الحـــارث بن جبلة الى القصر . وكانت تيودورا لاتفارق زوجها ، فغص القصر بالسادة والأشراف وبطـارقة الجيوش ، فالبس قيصر في وسط هذه الجموع الملك الحارث تاجا مرصعاً بدل الأكليل واسبغ عليه رداء ارجوانياً اخاذاً ، واسماه ملكا لبلائه في السامريين الذين ثاروا عـلى قيصر في نواحي فلسطين (١) ولانتصاره على الفرس والمناذرة في العراق .

وانتهزت تيودورا هذه السانحه للترفيه عن الملك الحارث الذي اثاره عبثهـــا بجدته ماوية وكانت تعلم رغبته في الخلاص من سيطرتها على الارثوذكسية ، فتقدمت منه بينما كان راكعا حيال اسقف القسطنطينية الذي البسه التاج وقالت له:

ـــ لقد اسمى زوجي اسقفين عربيين لحوران ودمشق ، فاحمر وجه الملك الحارث ، ولم يفته في هذه اللحظة ما ارادته هذه المرأة منذ ايام في حديثها عن جدته ماوية التي حاربت الرومان في سبيل انشاء اسقفية عربية في الشـام وبصرى ، ولمـا حاول ان يتكلم قالت له تيودورا :

ـــ ان مستقبل النصرانية في الشام منوط بذكاء هذين الرجلين اللذين سيحاربان الزندقة الى النهاية ، ولست اشك في استعدادهما للعمل دائما بنصائحك الثمينة (٢)

---

(١) اعلن اليهود السامريون الثورة على الرومان في جميع نواحي فلسطين في شهر نيسان سنة ٥٢٩ فارسل قيصر الحارث بن جبلة بجيش من غسـان فنكل بهم واخضعهم للرومان Histoire des arabes, tome «1» par Cl. Huart

ويقول كوسين دي برسفال في الجزء الثاني من كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام ان جيوش الحارث الغساني اسرت من اليهود السامريين عشرين الفا باعهم الغساسنة في اسواق مصر والحبشة .

(٢) اسمى الامبراطور يوستانيوس اسقفين عربيين لدمشق وبصرى وكلفهما اطفاء نار المنازعات الدينية وكان ذلك خـــلال زيارة الملك الحارث بن جبلة للقسطنطينية   نولدكي الالماني في كتابه امراء غسان

ولما تصرمت الأيام الثلاثة جئت تيودورا في القصر فالفيتها قلقة فسألتني قائلة :

ــ هل احضرت الدواء ؟ فقلت لها .

ــ دونك اياه يامولاتي .

واخرجت من جيبي حقاً صغيراً من العاج اودعته سائلا قلت لها عنه انه يؤثر كثيراً في ترقيق قلب امريء القيس ، فراحت تنظر الى الحق وهي تقلبه في يدهــا وقــالت لي :

ــ اترين في هذا الحق علاجا شافياً من الم الحب ؟

قلت لهــا :

ــ ان جرعة صغيرة من هذا الســائل العجيب تكفى لأثارة جنون الحب في صدر الرجل فقالت :

ــ احسبك هازلة .

فقلت لها :

ــ كلا ما انا بهازلة ولكن في حديثي شيئاً كثيراً من الجد فتبسمت وقالت لي:

ــ ليس شك في ان عملك هذا سيريحني من سهد طويل ؟

ثم مدت يدها الى جيبها واخرجت منه بعض الذهب وقالت لي !

ــ خذي هذا المال واذهبي ، ولكن لا تنسي ان تزوري القصر ليلة بعد ليـلة فلقد احتاج اليك ؟

ولما تركت القصر ، سرت هائمة على وجهي في الشـوارع لا اصحب وعياً ولا املك فكراً فلقد اذهلني في عيني تيودورا بصيص احمر رأيت على ضوئه شبح البغض فقلت واحسرتاه ، هل يتاح لي ان اخنق في صدر هذه المرأة الفاجرة طفل الجريمة؟

وكنت اطوي الأرض وعيناي سادرتان لا تلمحان مشهداً من المشــاهد ، ثم رأيتني اصعد جبلا ثم رأيتني اهبط سفحاً : ثم احتواني في نهاية الطواف ساحل يتدافع موجه ويصطخب ثبجه ، فعذبت عن السير ورحت ناظرة الى شواطيء آسية

التي لا تستلذ عناق شواطيء خليج القرن الذهبي فوددت لو كان لنا معاد قريب الى ارض العرب حيث تتفتح زهرات الحب تحت ندى الصباح الباكر بعيدة من الرياح السافيات التي تميت فيها الغضارة والعطر !

وفي هذه اللحظة ذهب بي الخاطر الراعش الى تلك الكلمات التي رددها امرؤ القيس على مسمعي عشية احتوته جبال الروم وكان الحنين الى الوطن قد هزه واماله . فبدا ضاوياً مسفوعاً شاحباً ثم اذرت عيناه الدمع وطفق يصيح — من لي برجوع الى جبال قومي . فانها على امحالها وجدبها امتع في نظري من هذه الجبال العاشبة . لقد نسيت ثاراتي ، ونسيت دم ابي ، ودماء اعمامي بل لقد نسيت دموعاً اراقها شيوخ قومي المناكيد ، ونسيت كذلك كبرياء المنذر بن ماء السماء حتى لقد وددت لو انني استطيع رجوعا اليه لا كون في حاشيته رجلا منسياً مغمور الصيت ! . .

لقد هزتني هذه الكلمات وانا حيال الشاطيء امعن نظري في الوان الأفق فنسيت بغضي وثأري وانتزعت صورة المنذر الحمراء من صدري ورميت بها الى البحر العبوس المكفهر ورحت اصيح في الشاطيء المقفر ، اي صحراء الوطن انك لأحب الى نفسي من هذه القصور والدور ، وان رعاتك الذين يفتشون عن الينابيع في رؤوس الجبال لأفضل بكثير من ملوك يسرقون المجد والحظوظ الملتمعة من الماحلين المكدودين

اودقت السماء في تلك اللحظة فاذا لها بروق ورعود في جميع النواحي فاعتزلت مكاني على الشاطيء وعدت الى قصر تيودوس فدخلت على ابن اخي وهو في حجرته فالفيته قد ضم الى صدره فتاة في وجهها الأبيض نضرة الربيع في ثرى الشام ، فلما ابصرني مضي مستحييا واصطبغ وجهه بورس شديد وقد حاول ان يواري الفتاة في رداثه المذهب ، فادركت اي المحملته اليه وهو في عزلته فندمت على هذه المباغتة البشعة ثم هممت برجوع فدلف الي متمهيحاً في مشيته وقال لي : لا تذهبي يا عمتي فهذه الطفلة التي ترين اصبحت منذ هذا اليوم عزاء حياتي المكدودة الجاهدة .

فنظرت الى الفتاة نظرة متفحصة فاذا هي ترعش من الحياء وقد اذهلها ان اقلق احلامها الوادعة وراعها ان تستفيق من سكر الهوى على يقظة نزعتها من بين ذراعين كانت تجد فيهما ظلا ممدوداً وهناء مديدا .

وجعلت انظر اليها وانا سادرة حائرة اسأل نفسي معنى هذا التوافق الغريب في صورتها وصورة تيودورا حتى لاقسم ان خيال تيودورا في ربيعها السابع عشر قد عاد في هذه اللحظة يطوف بخاطري ويمر بذهني .

ولم يفت الملك الشاعر ارتباكي وذهولي فقال لي : ايروقك يا عمتي ان تعرفي حبيبتي الغالية ، انهم يدعونها سيلفيا في قصور بيزنطية وانا ادعوها فاطمة تلذذاً باسم امي ، ان في وجهها شيئاً كثيراً من ملاحة امها تيودورا ولكن في قلبها شيئاً كثيراً من حنو امي وطيبتها ؛ ستحبينها مثل حبي اليس كذلك يا عمتي ؟ انظري اليها ، لقد غامرت بكرامتها وحياتها في خروجها من قصر ابيها الى ميعاد حب وهوى وصبابة وجوى

وكان يتكلم بلغة حلوة ماتت فيها نبرات الألم والعذاب فتمثلته فاذا هو قد عاد رجلا جديداً لا تبدو على جبينه طلعة ذلك الرجل اليؤوس الذي امضه الاغتراب وروعه النفي ، فتقدمت منه وهمست في اذنه همساً ضعيفاً وقلت له :

— ينبغي لك ان تبالغ في الحذر من الام ، انها امرأة سفاحة قد اعدت لقتالك جميع قوات الشياطين ، فهز رأسه وقال لي :

— ليس شك في انك ستظلين ساهرة علي الى النهاية ! .

فقلت له :

— ان رفاقك كلهم قد شحذوا اسلحتهم وتهيأوا للمعركة ؟

الفصل الثالث عشر

النشيد

وقفت ليلى في حديثها عند هذا الحد وورقة بن نوفل يصغي اليها اصغاء شديدا وفي جبينه الذي اقتحمته متاعب الشيخوخة اثر شديد من غم والم ، ولما طال سكوتها خيل الى حكيم قريش انها فقدت وعيها ، فترعدد والتفت اليها قائلا :

ــ ما الذي اسكتك ؟

فقالت له :

ــ انك تعرف تلك الخاتمة البشعة التي اختتم امرؤ القيس حياته بها فلقد ثار حيوان الغيرة في صدر تيودورا فقتلت الحبيب بالسم ولم تتورع عن قتل الحبيبة التعسة حزنا وغما ، ثم جاء حصاد هذا الحب النحيس طفلة لقيت في حياتها القصيرة صنوفا جديدة من آلام واحزان ولم يلبث الذبول ان نحيف هذه الزهرة فنكست رأسها تحت شتاء المرض الذي مضى يملأ صدرها قراً وبردا

ولم تشأ ليلى ان تطوي حكاية مارية فقصتها على ورقة بن نوفل ووصفت خروجها من دمشق في حاشية الملك المنذر رجاة ان تحج الى الاماكن التي ولدت فيها على شواطيء البوسفور ثم لم تلبث ان ماتت بعد ان علمت بموت ابيها امريء القيس بن حجر في البلاد الاجنبية ،

لقد كان الملك المنذر شديد البر بقومه يا سيدي الحكيم وكان من اسمى امانيه ان تموت الاحقاد والمنافسات بين ملوك العراق وملوك الشام وكان الرومان يعرفون فيه هذا الميل فتحاموا اثارته وهم يعلمون اي حصاد تحصده ايديهم في اثارة هذا الرجل النبيل الذي فضل الف مرة ان يعيش في جبال العرب بدوياً مغمور الصيت على ان يعيش ملكا متوجاً في بلاد الحقول والجنات والمياه

امتنع هذا الصقر العربي عن محاباة الرومان خلال ثلاث سنوات ، وقطع تلك الصلات القديمة التي ربطت اباه الملك الحارث الى يوستانيوس قيصر ولكن يوستينوس الصغير الذي عجز عن الصمود لجيوش الفرس ارسل الى الملك المنذر رسولا اصحبه بهدايا وتحف ، فجاء هذا الرسول الروماني الى قصر المنذر في بصرى (١) وراح

(١) يقول الاستاذ نولدكي في كتابه امراء آل جفنة الغسانيين « طبع برلين »
Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's

مات الحارث بن جبلة على الارجح في سنة ٥٧٠ بعد ان حكم في مشارف الشام اربعين عاماً فخلفه ابنه المنذر « وهو المندروس كما يسميه مؤرخو الرومان » فوقعت بين هذا الملك وبين ملك الحيرة في ايار سنة ٥٨٠ معارك جرى حديثها على السنة الشعراء ولكن الامبراطور يوستينوس الثاني لم يطمئن الى مطامعه وميوله ، فسعى الى قتله بالحيلة فثـار المنذر على القسطنطينية وظل ثلاث سنوات لا يحفل بقيصر وقواده فلما اجتاح عرب العراق حلفاء الفرس اراضي الرومان رأى الامبراطور يوستينوس نفسه مسوقاً الى مصالحة المنذر فتم الصلح حيـال قبر القديس سرج Saint-Serge في مدينه الرصافة Sergiopolis وكان رسول قيصر الى الملك المنذر في هذا الصلح البطريق يوستانيوس .

وفي تشرين الاول سنة ٥٨١ ساعد موت يوستينوس الثاني كما يقول نولدكي على توثيق العلاقات الودية بين ملك غسان والقيصر طيباريوس الثـاني — فقصد الملك المنذر الى القسطنطينية حيث احتفل بتتويجه في كنيستها العظمى .

ولكن الرومانيين ظلوا يعدون الملك المنذر مسؤولا عن اخفاق الحملة التي قام بها امير الاناضول موريس او موريق كما يسميه مؤرخو العرب لوقف زحف الفرس في اراضي الفرات ، وكان موريس الروماني قد اوشك ان يتغلب على الفرس . ولكنه انثنى راجعاً لأنه وجد الجسر القـائم على الفرات مهدما ، فأتهم الملك المنذر الغساني بالتواطؤ مع العراقيين والفرس فاعتزم الرومان تصفية حسابهم مع المنذر ، واغتنموا فرصة الاحتفال بفتح كنيسة الحواريين التي اقاموها في الصحراء بين دمشق وتدمر فقبضوا على الملك المنذر الذي حضر الاحتفال بنفسه

يستحثه على اغاثة قيصر المروع ففعل ونسي حقده ومطامعه النبيلة وخرج من منزله الى تدمر لينتصر فانتصر

واسهبت ليلى في وصف الكارثة الأليمة التي نزلت بالملك المنذر الذي غدر به الرومان بعد ان جحدوا مآثر أبيه ثم ذكرت فراره غسقاً من القسطنطينية ورجوعه الى الشام ملتاعاً بائساً ثم وصفت موته الأليم على ابواب الغوطة .

وكان ورقة يستمع لها وهو راعش الصدر ، فالتفت اليها وقال :

— لقد تحملت في حياتك آلاما لو نزلت بشعب من شعوب الارض لما اضطلع بوقرها ، ناشدتك الله ان تمضي في حديثك الى النهاية ، فماذا فعل ابناء المنذر بعد تلك الخاتمة البشعة التي اختتم الملك العربي بها حياته المجيدة ؟

فقالت ليلى :

واعتقلوه في جزيرة بروتي احدى جزر بحر مرمرة في القسطنطينية وقيل ان طيباريوس الثاني الذي خلف يوستينوس على العرش بعث به الى حصن في صقلية فمات فيه .

هذه هي رواية نولدكي المستعرب الالماني عن مصير المنذر ، وقد نقلها عنه المسيو كليمان هيار مؤلف تاريخ العرب في الصفحة الحادية والستين من المجلد الاول ومن الغريب ان مؤرخي العرب سكتوا عن هذه الحادثة فلم يذكروها بل لم يذكروا عن هذا الملك السيء الحظ كثيراً او قليلا ، والأغرب من الغريب ان الاستاذ كوسين دي برسفال المستعرب الفرنسوي المشهور نقل هذه الحادثة في الفصل الخاص بملوك العراق في المجلد الثاني من كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » وذكر ان الملك المنذر الذي اعتقله الرومان في القسطنطينية اولا ثم نقلوه الى حصن في صقلية ، لم يكن غير المنذر الرابع ملك العراق ، ولما بحث العلامة كوسين دي برسفال ملوك الشام لم يذكر شيئاً عن الملك المنذر الغساني بل لقد اغفل ذكره وخالف في ذلك روايات مؤرخي الروم والرومان الذي كرموا ذكرى هذا الملك العربي

« المؤلف »

ـ دخلنا الشام بعد ان دفنا الملك المنذر في سكاء فاذا النعمان بن المنذر وجبلة ابن الأيهم وامرؤ القيس بن المنذر يقودون الجيوش الى النصر في البلقــاء ، وفي فلسطين ، وفي حوران ، وكذلك في تدمر وحمص وبعلبك ، وكانت ثورتهم على الرومان ثورة رائعة اشترك في مفاخرها شيوخ الوطن وفتيــانه ، ولكن هذه الثورة التي ازرت بكبرياء الرومان لم تلبث اكثر من سبع سنوات فهمدت نيرانها تحت تأثير الخيانة .

لما رأى سكان فينيقية وفلسطين والبلقاء فوز النعمان بن المنذر ماتوانوا في اللحاق به فانضوى شبابهم تحت رايته وتفانوا في الأخلاص لدعوته وقد اثر فيهم ان يغدر الرومان بابيه وان لايعترفوا باحسان آل جفنة الذين ردوا الفرس عن حدود بيزنطية

ولكن الرومان الذين خسروا كثيراً من المدن في فلسطين وفي الشام ، لم تذهلهم انتصارات الغسانيين عن التفكير في الحيلة فرأوا فيها سلاحاً اشد مضاء من سلاح جنودهم ، فدعوا اليهم رجلا من دمشق اسمه ماغينوس كانت له بآل جفنة صلة ود قديمة ، وكان ابوه قائداً من قواد الحارث بن جبلة ، فحملوه على الذهاب الى تدمر حيث يرابط النعمان واخوه الأصغر وسألوه ان يتظاهر امام الفتى الغساني بميــل الرومان الى مصالحته على شروط تكفل له حقوقه في البلاد التي دخلتها جماعاته وجيــوش ابيه .

وقد تم هذا الاجتماع في ضاحية بين تدمر وحمص ، ولم يحضره غير النعمان وماغينوس الدمشقي وعشرة من قواد الغساسنة ، وكان جبلة بن الأيهم يرابط بجيوشه في البلقاء ، فانضم اليه عمرو بن الحارث ، ثم مــا عتم عمرو ان ذهب الى فلسطين ملتحقاً بقواد الغساسنة .

وهنالك على ربوة شاهقة بين تدمر وحمص ، وقفت جيوش الامبراطور موريس الذي خلف الامبراطور طيباريوس تنظر الى النعمان بن المنذر وهو يتحدث الى ماغينوس في سهل اجدر فيه العشب والنبات ، ثم هنالك غير بعيد من السهل صخور

غبراء توارى خلفها بعض الرومان وقد لبسوا لباس الجند الغساني .

كانت المقابلة مؤثرة في البداية ، فلقد تهافت النعمان الفتى على ماغينوس ومضى يقبله ناعماً وادعاً وهو يهمس :

— كيف جئت الى هنا ايها الرفيق القديم يامن كان ابوه احب الناس الى قلب جدي ؟ . . افي مثل هذا اليوم الراعب تبرح منزلك الوادع في دمشـــق لتمشي الي فوق جثث القتلى ؟ . .

فتعمل ماغينوس الخائن البكاء وقال لذلك الفتى الغالي :

— مولاي ! مولاي ! . .

— اي ما غينوس الطيب القلب اني المح في بكائك شيئاً كثيراً من اشجان نفسك فهل غشيتك غاشية من الم وعذاب؟قل لي كيف هوعيشك في منزلك بين اهلك؟

— ما شكوت من عيشي — وهو بعض حسنات ابيك وجدك —ارهاقا وعسرا فالبنون الذين احبهم في عافية وشباب ، والمرأة التي أعبدها لا تفارق فمهـا ابتسامة حملها الينا كرم آبائك .

— اذن فيم هذا البكاء الذي يقرح جفنيك ؟ ولماذا اردتني على المضي اليك في ساعة مثل هذه ؟

— لقد بكيت على غسان يا مولاي .

— ولـكن غسان في فرحة ، وقد بدلت انكسارها نصرا ، وليلهـا صبحا ، فما كان احراك بمشاطرتها ابتسامها وضحكها .

فقص ماغينوس على النعمان حديث الصلح مع الرومان وناشده الله ان يطرح سلاحه فضحك الفتى وقال له :

— امن اجل الصلح جئت الى هذه الحوالي ؟ قل لي من هم الذين جشموك عناء هذه الرحلة ؟

— ان الامبراطور موريس في دمشق مع حاشيته وقد برح القسطنطينية لينضم الى جيشه.

ـــ اذن فقيصر هو الذي ارادك على هذا الصلح ؟

ـــ نعم !.

ـــ ولكنني ارفض .

ـــ اترفض يا مولاي صلحاً جاء به اليك احب الناس الى ابيك والى جدك ؟

ـــ ولكن الرومان قد غدروا بابي وطاردوه حتى مات تلك الموتة المؤلمة على ابواب غسان .

ـــ ان الامبراطور موريس رجل طيب القلب ، وهو الى ذلك شديد الحدب على غسان .

ـــ كان الناس يتحدثون عن طيبة يوستينوس بمثل لهجتك هذه . ثم مالبثوا ان تغالوا في اطراء صفات طيباريوس ، ولكن الحوادث التي وقعت في السنوات الماضية حسرت لنا عن حقيقة هذين الرجلين ، فاذا الاول رجل خداع جبان لايتورع عن استخدام السم في القضاء على خصومه واذا الثاني وهو في ثوبه الملكي لص شديد القسوة وسفاح لا يجد متع نفسه في غير الدماء المطلولة .

ـــ ليتك تعرف موريس ! . . .

ـــ عرفته حينما كان قائداً في الجيش ، اليس هو الذي سرق النصر من غسان في معركة الرقة ؟ (١) لقد كانت جيوشنا في تلك الأيام تغلو في مطاردة الفرس حتى ضيقت عليهم المذاهب فراحوا يلقون انفسهم الى الفرات . .

وبينا جيوشنا تتقدم ، اذا موريس الزاحف من انطاكية يسألها الرجوع الى منبج (٢) لتستريح فابى القائد الغساني النزول على ارادته ، وفضل الرجوع الى غسان على البقاء في منبج وهكذا استطاع موريس ان يسرق من جنودنا الفتيان نصراً ربحته سيوفهم على شواطيء الفرات .

---

(١) « Callincus » مدينة الرقة

(٢) Hiérapolis مدينة منبج وكانت عاصمة بلدان الفرات في العهد الروماني

ـــ مولاي ان فتيان غسان الذين يحاربون تحت لوائك قد امضهم التعب فهم في حاجة الى موادعة طويلة .

ـــ ماغينوس ! ماغينوس ! لو كان مخاطبي غيرك لاستسغت الشك في نياته ، ولحملته على الرجوع الى الوراء . .

ـــ اذن فانت ترفض هذا الصلح ؟ . .

ـــ لقد مات ابي مبتئساً مغتماً بعد افلاته من مطاردة الرومان !

فسكت ماغينوس ، ولكن هذا الرجل الذي اغراه قيصر بخيانة بلاده ، ماعتم ان رفع يديه الى الأفق ، فكان رفعهما ايذانا لجنود الرومان بالخروج من المكامن التي لجأوا اليها فتهافت هؤلاء على حاشية النعمان الضعيفة كالاتي المنهمر . ولم يتركوا لها سبيلا للدفاع . فجردوها من سلاحها وجاؤا الى النعمان فاحاطوا به وماغينوس ينظر اليه ضاحكا والفتى يقول له :

ـــ لقد مكرت بي يا ماغينوس وضيعت نصراً عزيزاً ادركته سيوف غسان ! لتأخذك لعنتي ايها الرجل المتلذذ باحزان وطنه . .

وبعد ايام ارسل قيصر هـــذا الفتى الشريف الى القسطنطينية فحمله قواده الى جزيرة بروتي (١) فلم يلبث ان قضى نحبه بعيداً عن الارض التي احبها ودافع عن

---

(١) ثار الغساسنة على الرومان ثورة شديدة بقيادة النعمان بن المنذر الغساني فاجتاحوا معظم البلاد وطردوا منها عمال الرومان حتى غرسوا الرعب في كل ناحية فاعد قيصر حملة بقيادة ماغونيس السوري Magnus فجنح هـــذا الى الحيلة واراد النعمان على موافاته الى مكان قريب من حمص ليبحث معه في امر الصلح فلما وافاه اعتقله وبعث به الى القسطنطينية وعلى اثر هذه الحادثة تصدع شمل الغساسنة فالتحق بعضهم بالعراق وسادت الحدود الرومانية الفوضى حتى خشي الرومان على الامبراطورية فاعادوا انشاء الدولة الغسانية واعترفوا بملوكها .

تاريخ العرب ـــ لكليمان هيار ج ٢ ص ٦٠ و ٦١

حريتها وظل الغساسنة في البلقاء وفلسطين ممتنين عن القسطنطينية حتى قتل الامبراطور موريس وخلفه على العرش فوكاس الثاني الذي لبس الأرجوان عشية مضت جيوش كسرى الى اجتياح بلاد الشام فاضطر فوكاس الى مصالحة الغساسنة ، واقام عمراً زوج هند بنت امريء القيس ملكا على البلقاء وبصرى وفلسطين .

لقد كانت السنوات الماضية مترعة بالمآسي وابشع هذه المآسي ، تلك التي اختتم المنذر حياته بها ثم مأساة النعمان الفتى الذي عجزت السيوف عن قتله تحت النقع فقتلته خيانة احب الناس الى ابيه وجده .

ليس في وسعي ياسيدي ان اسهب في تصوير هذه المآسي ولكني استطيع ان انقل اليك صورة صغيرة للماضي الكريه الممقوت ! مات يوستينوس ، فخلفه طيباريوس (١) الذي عاش في طفولته راعياً في جبال مقدونية ، ثم خلفه موريس (٢) اللص الذي لم يخجل من لبس ارجوان القياصرة ، ثم قام فوكاس (٣) فقتل موريس قتلة فظيعة ، وصعد العرش فكان اول عمل اتاه ارجاع امراء غسان الهائمين على وجوههم الى بلادهم واطلاقه ايديهم في فلسطين والبلقاء وبصرى ولكن صعود هذا الرجل المعروف بمطامحه الى العرش لم يرق كسرى ابرويز الذي شرع

---

(١) طيباريوس قسطنطين الثاني واسمه اناسيوس تراكس فلافيوس قسطنطينوس امبراطور بزنطية خلف يوستينوس الثاني في سنة ٥٨٢ وحارب البرابرة والافاريين والفرس

(٢) الامبراطور موريس هو فلافيوس موريسيوس طيباريوس امبراطور بيزنطية ولد في سنة ٥٢٩ — وفي سنة ٦٠٢ دعاه طيباريوس قسطنطين فصاهره وجعله وريثه ، كان موريس بطاشاً سفاحاً حارب البرابرة وانتصر عليهم ، قتل واهله بامر من فوكاس .

(٣) جلس على عرش بيزنطية في سنة ٦٠٢ اثر ثورة عسكرية قتل فيها الامبراطور موريس — خلع فوكاس بامر هرقل ثم حكم عليه بالموت في سنة ٦١٠ فنفذ فيه . كليمان هيار في كتابه فارس القديمة ص ١٣٦

ينظر الى توغل الرومان في العراق نظرة تنم عن ارتماضه والتياعه ، فما عتم ان اتخذ قتل موريس بيد فوكاس حجة لغزو الأراضي البزنطية، فاجتاح العراق وارمينية(١) وتوغل قواده في بضع سنين في حمص وانطاكية ودمشق وطردوا امراء غسان من الغوطتين ومن بصرى بعد ان قتلوا شيوخهم وفتيانها وكان في جملة هؤلاء القتلى عمرو بن الحارث وجبلة بن الأيهم ، الا تذكر ياسيدي تفاصيل هذه النكبة وقد قصصتها على الناس حيال الكعبة ؟

فتنهد ورقة واستتلى قائلا :

—نعم اني اذكر كل هذا واذكر كذلك وصفك الشجي كارثة تلك المرأة التاعسة التي حملت اولادها لتنجو بهم من الموت بعد ان احدق الفرس بالقصر ، نعم اذكر طواف هند بجثث القتلى وهي ماضية في البحث عن جثة زوجها الشجاع ، لقد اثرت قصتك في الاعراب تأثيراً اليماً فمضوا ناشجين ماحلين ، ولما قصصت على الناس حديث الاعشى الشاعر شحبت وجوههم وخفقت قلوبهم فما عادوا يطيقون الاصغاء الى تفاصيل هذه المآسي فانطلقوا الى منازلهم يائسين .

فقالت ليلى :

— وما زلت اذكر الآن كيف مشى الذعر في الصفوف حتى راحت عيون الناس تحدجني بنظرات التيه ولما حدثتهم عن سيد قريش في وسط هذا الحزن الصارخ احسوا كثيراً من الانتعاش . واخذت الغبرة التي غشيت وجوههم تزول وتضمحل ثم سمعتهم يصيحون : اين هو هذا السيد المنقذ الذي تتحدثين عنه ؟ انطلقي بنا اليه فان في نفوسنا لتوقاً شديداً الى الاستمتاع بفجر جبينه .

في دمشق يا سيدي الشيخ كان جرحى الغساسنة يلفظون ارواحهم وهم يهتفون لسيد قريش الذي لم يطالعهم خياله وكانوا ينظرون الى الموت فلا ترتاع نفوسهم

---

(١) اجتاحت جيوش كسرى في سنة ٦٢ بقيادة شهر باراز الفارسي العراق وارمينية وسورية ومصر .

لصورته البشعة ، ذلك بان طيف السيد الذي ظل بعيداً عنهم أخذ يتراءى لهم جميلا فتاناً حتى انساهم شبح الموت العبوس المكفهر .

ــ ولكنك لم تذكري لي كيف قدرت على الخلاص من اذى الفرس ؟

ــ فقالت ليلى :

لما استوثق فوكاس من عجزه عن الصمود للفرس عاد الى القسطنطينية ليجمع جيوشه فقتله هرقل شر قتلة (١) ورأى الفرس في موته حافزاً الى المضي في الزحف فاجتاحت جيوشهم مصر وآسية ، وزحفت الى كليكية فنشرت راية الاكاسرة على اسوار قيصرية ثم والت زحفها حتى استصفت خالقدونيا (٢) ورابطت حيال القسطنطينية .

وعلى اثر موت الامبراطور فوكاس نودي بهرقل ملكا في بيزنطية واجتمع نبلاء الرومان في مجلس الشيوخ ليقلدوا قيصر سيف يوستانيوس صاحب النصر على الفرس ، فاقسم هرقل امام الاشراف على المضي الى النهاية في الدفاع عن البلاد حتى يسترد القرى والدساكر والمدن .

وفي اليوم التالي من صعود هرقل على العرش تجددت المعارك بين الرومان وجيوش كسرى حوالي نهر الفرات فاستطاع الرومان بفضل ثباتهم الرجوع الى

---

(١) هرقل الاول امبراطور بيزنطية ولد في سنة ٥٨٥ — جلس على العرش في سنة ٦١٠ واستغرق حكمه ثلاثين عاماً كان قائداً حسناً تغلب على الفرس والاناريين ولكنه لم يستطع وقف زحف العرب على سورية .

(٢) احتلت جيوش كسرى ابرويز بقيادة شهر بازار مدينة خالقدونيا — قاضي كوي اليوم — على الشاطىء الأسيوي من مدينة القسطنطينية بعد حصار شديد استغرق شهوراً عدة ونقل الفرس الى بلادهم من بيت المقدس الصليب الكبير فطافوا به على شعوبهم وعلى اثر هذا الانكسار قامت ثورة في القسطنطينية بزعامة هرقل الذي قتل فوكاس كليمان هيار تاريخ فارس القديمة ص ١٣٦

انطاكية فوافاهم هرقل اليها عن طريق الجبال ولا يزال فيها الى الآن ، هذه هي قصة حياتي الشجية يا سيدي ما كنت احب ان اعيدها على سمعك مخافة ان ابعث في نفسك ارتماضاً وقلقاً فانت ترى من هذه القصة ان ليلى بنت عمرو آكل المرار لم تتذوق جنى الراحة وكانت تبحث عن الموت فلا يقرب منها .

ولما استعصى علي الخلاص من هذه الاحزان وانا في المدن الوارفة الظل صبت نفسي الى صحراء العرب صبواً شديدا ، وطرقتني خيالة تلك النبوءة التي تحدث عنها رهبان الشام وبصرى فتركت دمشق وجئت البلقاء ابحث عن سطيح فقيل لي انه مات فمضيت الى دومة الجندل ونزلت على قسوسها وسألتهم اذا كانوا يعلمون شيئاً جديداً عن سيد العرب ، فقالوا لي ان بعثه في الناس اصبح قريبا ، وان في وسعي ان ادركه في مكة مكان مولده ، فتابعت سيري حتى نزلت بوادي القرى وسألت قسوسها عن النبي فقالوا لي انهم قرأوا في الكتب القديمة شيئاً كثيراً عنه وان بعثه يوافق اليوم الذي يغزو فيه الفرس الشام ومصر والقسطنطينية فتركت وادي القرى وهبطت مكة في ليلة غبشاء ضريرة النجم ، فلم يعرف احد شيئاً من امري وظلت حقيقتي غريبة عن جميع الذين كنت امر بهم واتحدث اليهم .

لا تسل يا سيدي عن الغبطة التي تسللت الى قلبي حينما علمت بخروج سيد قريش الى العالم حاملا اليه تعاليمه السامية فلقد رحت الى الذين رأوا السيد واستمعوا الى بيانه فسألتهم اذا كانت صفاته تطابق صفات ذلك النبي الذي بشر به رهبان الشام وبصرى فذكروا لي شيئاً كثيراً من صفاته فاذا هي لا تختلف عن هذا الذي رواه سطيح وانبأ به بحيرا ..

وليس شك في ان خطوة سيد العالم الاولى ستكون في مكة ، ثم لاتلبث فكرته السامية ان تمتد حتى تستقر خطوته الثانية في الشام ، ثم تكون له خطوات في جميع نواحي العالم الذي لبث ينتظر مبعثه خلال ثلاثين عاماً . .

ــ اتؤمنين بالسيد ايتها المرأة المنكودة المكدودة ؟

ـ لقد آمنت به وانا في في بزنطية وكان طفلا في كنف عمه . .

ـ اذن فانت ستمكثين في مكة ؟

ـ كلا ياسيدي ، كلا ياسيدي فلقد نذرت حينما كنت في الشام ان امضي الى العراق لأستصراخ قومي على الفرس الذين تنكروا للنعمان بن المنذر . .

لقد ملت نفسي هذه الحياة البائسة ياسيدي فما عاد يستهويني بعد هذا اليوم غير الموت في ارض الوطن الذي ولدت فيه ، ان في العراق جماعة من بني آكل المرار لم تستطع سيوف المنذر بن ماء السماء ان تحصدهم في جملة الذين هشمت رؤوسهم الحراب والفؤوس ، وسأمضي ما تبقى من ايامي عن كثب من هذه الفلول واشترك معها في شرف الدفاع عن التربة الغالية التي لم يكتب لأمريء القيس التعس ان يفيء اليها فاغمض عينيه في ذرى جبل لا ترقص عليه ظلال بلاد العرب . .

ولكنك نسيت احباءك في الشام ، اليست هند بنت امريء القيس بين هؤلاء الذين تحبين ؟ الا يهزك الحنين الى هذا العطر الذي خلفه ابن اخيك في الغوطة ؟

فتأوهت ليلى واستتلت قائلة :

ـ لقد اردت الاعشى الشاعر على اللحاق بي الى العراق ورجوته ان يحمل معه هنداً وصغارها .

ـ اذن فانت لا تفكرين في الرجوع الى الشام ؟

ـ ان وطناً ينزله الفرس لا خير فيه يا سيدي .

ـ ولكن الفرس في العراق .

ـ لم انس وانا في محنتي هذه كلمة سمعت يوستانيوس يرددها امام قواده ورجاله فلقد دعاهم الى قصر دافنة الصيفي ليقدمهم الى الملك الحارث بن جبلة ، وكنت في ذلك الحين عن كثب من امريء القيس ننظر معاً الى الازرق الرجراج من شرفة تحسر عن شواطيء القسطنطينية ، وتريك البوسفور ومرمرا متعانقين مؤتلفين وكان امرؤ القيس ينظر الى صرح مشمخر على الشاطيء الاسيوي امتدت ابراجه

الغائمة امتداداً مخوفاً حتى كادت تواري الافق فاخذ الشاعر التعس يسألني :

ـــ الا ترين الى هذا البرج ؟ ان مشهده وهو رابض على الشاطيء قد اذكرني تلك الصروح التي مررنا بها في صحراء النبط ، ان في ابراجه يا عمتي لوناً لا احبه ولا استسيغه ، هو لون الموت . اتعرفين بناته ؟

فجعلت انظر في غير همس الى وجه الشاحب الذي اعتصره الرعب . فراحت عيناه الى الافق البعيد وطفق يسألني ، الا تعرفين بناته ؟ انك لا تتكلمين ؟ الم تسألي الحارث بن جبلة شيئاً عن ماضي هذا البرج ؟

ولجب البحر في تلك اللحظة ، واظلم الافق وانحسرت السماء عن سحاب ملحاح ثم تلاحظت الاشياء وتشابهت في الدأماء والسماء وفي الغبراء والجبال حتى خيل الينا ان الليل قد احتوى بيزنطية فنظرت الى امريء القيس وقلت له :

لعله برج تيودوس .

وعصفت كلمتي هذه بأذن قيصر ، وكان قد اقترب من امريء القيس يريد ان يتحبب اليه فقال :

ـــ بل هو برج المنذر ملك العراق .

ثم اصفر وجهه ، ولكنه لم يترعدد وانثنى قائلا :

ـــ لقد ابقى الصلح بيننا وبين فارس والعراق هذا الحصن الذي اراد العراقيون من انشائه التضييق على بيزنطيه ثم رق صوته ولان خلقه لياناً عجيبا ، والتفت الى امريء القيس قائلا :

ـــ ان عدوك المنذر لا يمل الحرب ولا يفوته النصر ، وددت لو انــــ في صدور جنودى مثل هذه الحمية التي في صدور جنوده اذن لاستطعت عبور آسية الى الهند .

ووقف قيصر على النافذة ، فبدت له السماء وقد انكدرت نجومها فاستتلى قائلا:

ـــ في المعركة التي تلظت على ابواب منبج تناثر رجال بلزاريوس امام ثلاثين

من فرسان العراق حتى شابهوا في تصدعهم وتناثر صفوفهم هذه الكواكب المتناثرة.

لم يقل قيصر اكثر من ذلك فلحق بالملك الحارث وعاد امرؤ القيس الى التحديق في الحصن فاذا الانوار قد لألأت في بعض شرفاته فانكشفت على بريقها ابراجه ونوافذه فاخذ امرؤ القيس يدي وقال لي :

— يا ليتني كنت في حاشية المنذر .

فهز ورقة بن نوفل رأسه وقال للساحرة :

— صدق قيصر ! اذن فانت قد وطنت النفس على اللحاق بهؤلاء المغاوير ؟

— نعم يا سيدي ! نعم يا سيدي !

— ولكن هؤلاء الأباسل الذين تسايلوا من كل ناحية لانقاذ ارض الوطن يحتاجون الى نشيد يرددونه فهل فكرت في حمل هذا النشيد اليهم ؟

فصاحت ليلى :

— ماذا تقول يا سيدي ؟

— اقول ان فتيان العراق في حاجة الى نشيد يهزهم الى النصر .

فلمعت عينا ليلى بضياء غريب ، ثم انحت انحاء مكة واستتلت قائلة :

— لقد غنى فتيان الشام نشيد « سيد قريش » يا سيدي وسيغني فتيان العراق بدورهم هذا النشيد .

فنهض ورقة على قدميه وامسك يدي ليلى وقال لها :

— وستقولين في غير شك لهؤلاء الفتيان الذين نصلت وجوههم تحت هجير الصحراء ان سيد قريش — بلى ستقولين لهؤلاء الفتيان الذين افنوا نضرة العمر في العيش الكدير الماحل، والذين لم يحملوا صدى اصواتهم الى غير جبال وطنهم ، ان سيد قريش بل سيد العالم قد فتح امامهم سهول الشام وسهول العراق ففي وسعهم بعد هذا اليوم ان يتركوا هذه العزلة الباردة التي تحتويهم ليطلوا على العالم بسحن اوطف بهاؤها وزها ، وستقولين لهم ان في العالم جبالا وسهولا لم تنصت

الى اصواتهم ولم تخالطها اعراف نفوسهم فوجب عليهم ان يحملوا الى هذه الجبال اناشيدهم وصورهم .

— نعم ، نعم ياسيدي ، سأقول لهؤلاء الذين وارتهم رمال بلادهم عن الشعوب ان الرومان والفرس قد غشيهم الصدأ حتى شاخت نفوسهم فشاخ معهم العالم الذي يعيشون فيه حتى اصبح هذا العالم يستعذي افناء حياته القديمة في حياة العرب الجديدة

وكانت الحماسة قد طغت على نواحي نفسها فقامت الى نافذة المنسك المطلة على الجبال والسفوح ورفعت يدها قائلة :

ويخيل الي وانا انظر الى الجبال ان رعشة الم بدأت تعصف بنواحيها حتى لتكاد تهزها هزاً . . .

فقال لها ورقة :

— ليس ماترين رعشة الم ياسيدتي ولكنه الشباب اخذ يطفو على هذه الجبال حتى استجاشها واثارها ! . .

— وددت ياسيدي لو ان السماء لم تمنعك النور ، اذن لرأيت كيف انحنى جبل حراء ناحية الشام ، ليخيل الي ان جبال مكة كلها بدأت تزحف الى الاراضي التي تمور بالمياه والأعشاب . ياللروعة ! ان مكة تحمل الينا ونحن في هذه العزلة اصواتا المس فيها الشباب والعنفوان والمجد ، اسامع انت ياسيدي ؟ . .

— اعطني يدك ياسيدتي ولا بأس ان تدنيني من النافذة فان في هذه الأصوات التي تحملها سفوح الوطن الينا نغمات ما الفتها في ماضي الذاهب . .

ولما رجعت ليلى الى ناحية الشيخ . الفته يرعش فقالت له :

— ما يرعشك ايها الحكيم ؟

— الا تسمعين ؟

— انهم يصيحون في البلد صياحاً يماثل هزيم الرعد في الجبال ، فهل رأيت في الصياح نغمات لاتروق .

ــ اعطني عصاي ياسيدتي ٠٠

وكانت عصا الشيخ عن كثب منه ، فأخذتها ليلى وطفقت تقلبها في يديها ، ثم مضت الى ورقة قائلة :

ــ هاك عصاك ياسيدي فما انت صانع بها ؟

فقال لها :

ــ اتوكأ عليها

وكانت الأصوات التي سمعتها ليلى منذ حين لاتزال ترتفع من مكة الى الجبال وقد اختلطت بها اناشيد واهازيج فقال ورقة .

ــ لقد عادوا الى بلادهم ٠٠

ــ من يكون هؤلاء الذين استقبلتهم مكة بالأناشيد ؟

ــ اسياد قريش وصناديدها ٠

ــ من تعني ياسيدي ؟

ــ لقد عنيت ابا سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت ، والمغيرة بن الوليد ، ثلاثة من اشراف قريش وساداتها سلخوا الصيف في ربوع الشام ثم ارتدوا الى مكة فاستقبلهم قومهم باناشيد الف الناس الأصغاء اليها من قديم ٠٠

ــ ولكني رأيت على وجهك غيمة حزن اليم فهل هذه الأنغام لاتروقك ؟

ــ اي ليلى انك لا تعرفين اي كبرياء تعصف بنفوس هؤلاء السادة ٠٠

ــ اذن فانت تخافهم كثيرا ؟ ٠٠

ــ كلا ولكني اخاف ان تهزهم الكبرياء الى الصدوف عن محاسن الدين الجديد

ــ هبهم فعلوا هذا الذي تخافه فهل يمنع الله رسوله النصر ؟ ..

ــ لقد خص الله النبيين والرسل بالآلآم والتباريح ، ولم يمنعهم النصر

فاغيمت عينا ليلى من الفرح وقالت :

ــ اذن فهذه الأناشيد كلها ستذوب وتفنى في نشيد سيد قريش ؟

ــ نعم ، وسيفنى ليل الجاهلية في صبح سيد العالم ·انطلق بي الى مكة في هذه اللحظة

ــ اتعود الى مكة في هذه اللحظة ؟ . . وماذا تريد ان تفعل ؟

ــ ابث قومي النصح . .

ــ دعني اذهب معك

ــ ولكنك امرأة ضعيفة وقد تحملت كثيراً من الضنى والعذاب ، ولا تزال امامك آلام جديدة في العراق وفي الشام .

ــ سيدي !

ــ سيدتي !

ــ اذا كنت لا تريد ان اشترك معك في العمل فدعني على الاقل قريبة منك .

ــ اذهبي الى العراق يا ابنة الملوك ، فان في الحيرة صراعاً لا ينبغي ان يفوتك شرف الاشتراك في مفاخره . احملي الى فتيان قومك تلك الانشودة العابقة التي انشدها الغسانيون في كثير من الملاحم ، فلعل النصر الذي فات الشام لا يفوت العراق .

فنكست ليلى رأسها ومضت سابحة في زواخر تأملاتها حتى لقد خيل الى ورقة انها ما عادت تتكلم فبسط يده اليها واردف :

ــ سيدتي ! الا تذهبين الى العراق ؟

وكان صوته يخرج من فمه حلواً سائغــاً ثم يتسرب الى صدر هذه الوالهة الشاكية فيهزها هزاً فرفعت عينيها اليه وقالت له :

ــ بلى سأذهب الى العراق يا سيدي . .

فتنهد الشيخ كأنما حديثها قد نفس عنه ، واستتلى قائلا :

ــ اذن دعيني استند الى ذراعك في انحداري الى مكة .

فتقدمت ليلى منه ، فاستند الى ذراعها وبرح الاثنان المنسك تحت اشعة الصباح الرطبة .؟

الفصل الرابع عشر

اصنام قريش

لعل اروع ما يستهويك في منازل القرشيين وقصورهم وحصونهم هذا الزخرف العجيب الذي خلعوه على المقاصير وعلى الحنايا ، ثم هذه النقوش الملونة التي تتراءى لك في السقوف وفي الاعمدة وفي القناطر القائمة على الابواب ، ثم هذا الاختلاط الرائع بين الفن الهندي والفن الفارسي ، ثم هذه الفسيفساء الأخاذة التي تحسر عن عبقرية دمشق واخيراً هذه التماثيل المرمرية القائمة على الابواب وفي الساحات ، وحيال المعابد .

انك لترى كل هذا فيخيل اليك ان ارض الشام ذات الزخرف العجيب قد زحفت الى بادية العرب فاستقرت فيها ولكن هذه المنازل التي لم ينقصها شيء من حياة القصور في بلاد الينابيع الثرة والانهار الدافقة ظلت في حاجة الى الحدائق والجنات ، فاستعاض اهلها عن الخمائل التي يضحك فيها الآس والنارنج والورد والياسمين والرمان باشجار النخيل فبدت هذه الاشجار وهي محدقة بالقصور على شاكلة الابراج التي تلوح للسياح في معابد الهند القديمة .

وكانت الطرق التي يمر بها السياح من الكعبة الى سفوح الجبال المحدقة بمدينة قريش تغص بالتماثيل والاصنام والدمى حتى لقد استفاض سيل هذه التماثيل في كل ناحية ، وحتى صارت خيالاتها تبين للناظرين

ومع ان الطرق كانت ملتوية وكثيرة التعاريج والمنعطفات فان القرشيين الذين اولعوا بالسياحة الى بلاد المياه والظلال لم ينسوا ان ينقلوا الى وطنهم شيئاً كثيراً من الحجارة الملونة ليصنعوا عنها معابد وثنيتهم العريقة في قدمها ، وكان القرشيون الذين يمرون بهذه الطرق في الصباح وفي المساء يطوفون بالاصنام كطوافهم حول

الكعبة وكان عليهم كذلك ان يعظموها وان يذبحوا لها وان يهدوا اليها انفس الهدايا (١)

على ان الولع باقامة التماثيل والاصنام لم يكن مقصوراً على السادة الذين يعيشون في قصورهم عيشاً حالياً بالرواء والبذخ والترف بل كان لأهل كل دار في مكة صنم يعبدونه فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به واذا قدم من سفر كان اول ما يصنع ان يتمسح به ايضا (٢)

ومن لم يقدر على بناء صنم او تمثال او بيت نصب حجراً امام الحرم وامام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وكانوا يسمونها الانصاب فاذا كانت تماثيل دعوها الاصنام والاوثان (٣)

يمر السائح بالكعبة فيذهله تكاثف التماثيل حيال ابوابها ، فيمضي الى عدها فلا يستطيع لها عداً ، ثم يعزف عنها الى مقام ابراهيم فيمر طائفاً في خشوع واطراق فتحتويه ذهلة عميقة وتصافح عيناه افقاً بعيداً من الأصنام والأنصاب . وقد يلبث حيال هذه التماثيل لبثاطويلا وهو يحدق في صورها واشكالها . وقد يجد عناء جليلا في تفسير هذا الذي اراده اصحابها من جعلها على صور البنات وصور الرجال، بل لقد يمضي حائراً مشدوها اذ يبدو له تماثل غريب بين اصنام قريش والأصنام التي اقامها الأغريق والرومان والنبط والغساسنة في وادي القرى وفي البلقاء وفي بلاد الأردن من الشام ولكن حيرته لا تلبث ان تزول متى علم تلك الروابط الموثقة التي تربط القرشيين في مكة ببلاد الظلال والمياه والأعناب .

اول من نصب التماثيل حول الكعبة عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو من الأزد ، وكان يلي امر الكعبة رجل اسمه الحارث فنازعه عمرو بن لحي في الولاية وقاتل جرهما فظفر بهم واجلاهم عن الكعبة ونفاهم من مكة وتولى امر البيت

---

(١) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ١٣

(٢) — (٣) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٣٢

بعدهم ثم ما عتم ان احس مرضاً شديداً فقيل له ان بالبلقاء من الشام حمة ان اتيتها برأت فاتاها فاستحم بها ووجد اهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه فقالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا فقدم مكة ونصبها حول الكعبة (١)

وكان العرب يرتادون الشام في مواسم معروفة يحملون فيها الى الرومان عطور الهند وحرير الصين فوثقت هذه التجارة بينهم وبين غسان والرومان حتى لقد افضى بهم نماء الروابط التجارية الى استمراء بعض التقاليد الرومانية فحملوا الى بلادهم الى جانب مظاهر الترف والبذخ شيئاً كثيراً من التماثيل التي رأوها في البلقاء وفي بصرى وفطن الرومان الى ولعهم هذا فنحتوا لهم التماثيل ، وبعثوا بطائفة من المثالين الى مكة لنحت الأعمدة ونصبها في المعابد ·

ولم يفت العرب ما اراده الرومان والغساسنة من عكوفهم على عبادة التماثيل ، فادركوا ان الرومان قد جنحوا الى تكريم رجالاتهم فنافسوهم في هذا المضمار ، وذهبوا الى محاكاتهم في تكريم رجالاتهم . من ذلك انهم جزعوا على بعض رجالهم بعد ان شملهم الموت فقال رجل لهم هل لكم ان اعمل لكم خمسة اصنام على صورهم غير اني لا اقدر ان اجعل فيها روحا ، قالوا نعم فنحت لهم خمسة اصنام ونصبها لهم (٢)

وتفنن العرب في تجميل اصنامهم محاكاة للرومان في تجميل اصنامهم فكان هبل اعظم اصنام العرب وقد صنعوه من عقيق على صورة انسان كسرت يده اليمنى فلما ادركته قريش جعلوا له يداً من ذهب واقاموه على باب الكعبة (٢)

واقدم اصنام قريش مناة . نصبه القرشيون على ساحل البحر من ناحية الشلل بين المدينة ومكة وكانت العرب جميعها تعظمه وتذبح حوله (٣) ثم عبدته الأوس

---

(١) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٨

(٢) (٣) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ١٤ و ١٨

والخزرج حتى لم يكن احد اشد اعظاماً له من الأوس والخزرج فكانوا يحجون اليه ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا اعتزلوا النـــاس اتوه فحلقوا رؤوسهم واقاموا عنده لايرون لحجهم تماماً الا بذلك (١)

ولقد تفانى العرب في تعظيمه حتى عبدته غسان على نصرانيتها ، فجاء اليه ملوكها وفي جملتهم الحارث المعروف بالاكبر فالبسه سيفين ذهبيين (٢)

ثم اتخـــذوا اللات بالطائف ، وعبدوا العزى وهي اعظم الاصنام عند قريش يزورونها ويهدون اليها ويتقربون عندها بالذبح وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى (٣)

كان اجمل هذه القصور التي رفعت من حولها التماثيل والأصنام قصر ابي سفيان ابن حرب سيد بني امية ، وصاحب راية العقاب . وان الناظر الى قناطره وحناياه واعمدته الملونة ليخيل اليه ان صاحب القصر قد اراد في تزيينه وترصيعه واتراعه بالنقوش الاخاذة ان يقدم الى مواطنيه دليلا ناصعاً على شرف بيته ، وعلى عراقة هذا البيت في السيادة والبذخ ومحاكاة الملوك في الصلف والكبرياء والابتعاد عن البساطة والتواضع في العيش .

ولكن هذا القصر الفخم ظل في حاجة الى الجنات والافياء فبدا على كثرة نقوشه وزخارفه جاهمـــاً كامداً لا تخالطه هذه المفاتن التي تلوح للناظرين في جنات دمشق .

وكان لا معدى للذين يغشونه في الصباح والمساء عن الوقوف على ابوابه قليلا حتى يفتح لهم فتيان من آل عبد شمس جمعوا الى نضارة الاعراق ، نضارة الاخلاق ثم يدخل الزائرون تحت عيون الحرس الى باحة فيحاء تتصل بها اروقة ذات عمد

---

(١) و (٢) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ١٤ و١٨

(٣) كتاب الاصنام

من الرخام الابيض ، ثم يقود الحرس الزائرين الى ردهة قامت حولها اعمدة من المرمر الاحمر وازينت سقوفها بفسيفساء ساحرة من صنع دمشق ، وبعد ان يطاف بالزائرين حول التماثيل الماثلة خلال الاعمدة المرمرية يسار بهم الى حجرة السيد الاموي فيستقبلهم ويريدهم على الجلوس ، ثم يشرع في الاصغاء الى احاديثهم ثم يسألهم عن مواسم عكاظ وعن سياحاتهم في بلاد الجنات والانهار .

في هذا الصباح اجتمع خلق كثير حول البيت الاموي وقد جاء هؤلاء من جميع النواحي ليروا سيد بني امية الذي عاد من الشام بعد ان امضى في ربوعها شهوراً عدة ، وكانت اخبار الحرب بين الفرس والرومان قد اثارت المشاعر واذكت العواطف وحفزت الناس الى السؤال عن مصائر الغسانيين الذين تفرقوا تحت كل كوكب بعد ان غشيهم الفرس في ديارهم وبعد ان حملوهم على الجلاء عنها برغم تفانيهم في البذل وبرغم اشتدادهم في الدفاع عن ملك اورف ظله في خلال ستة قرون

وكان طبيعياً ان يحس القرشيون مثل هذا القلق على مصائر الغسانيين لأن الروابط القومية التي تربط الاولين بالآخرين قد وثقتها روابط تجارية قديمة ولأن هؤلاء النبلاء الذين يعيشون في مكة وفي يثرب عيشاً حالياً بالبذخ والترف والكبر تربطهم بالغساسنة اواصر قرابة لم تستطع هذه الابعاد التي تفصل صحراء العرب عن البلاد الظليلة توهينها فظلت على صفائها الاول .

وبينما كان ورقة بن نوفل ينحدر عن الجبل الى مكة مستنداً الى ذراع ليلى الكندية غص البيت الاموي بمرتاديه وزائريه وأخذ فتيان آل عبد شمس يفتحون امامهم ابواب الأروقة والغرف .

وكان ابو سفيان بن حرب في تلك الفينة يستقبل هذه الجموع وعلى شفتيه ابتسامة قد تكلفها وفي عينيه الم ممض لم يستطع حبسه ، والى جانبه رجل قد تلفع برداء أسود غاتم وقد رأى الناس في طلعة هذا الرجل حزناً اليماً لم يحسروا عن اسبابه ودوافعه ، ولم يكن هذا الرجل المتلفع بالسواد [illegible] كانه ا

يعرفونه حق المعرفة وكانوا يسمونه شاعر ثقيف وحكيمها فلما حام الناس حوله قال له احدهم :

— عم صباحاً يا امية . لقد انقطعت عنا اخبارك حتى خيل الى رفاقك ان امية بن ابي الصلت اصبح في الاموات .

فضحك أمية ضحكة مرة واستتلى قائلا :

— اذن فقد كنتم ترون في سكوتي الطويل نذيراً بموتي .

فقال احدهم :

— وكنا نخاف ان تذهلك الشام عن التفكير في الوطن الاول .

— ما نسيت وطناً الفته وتراباً علقته ولكن في الشام من المآسي صوراً تنسي الطفل الوليد لهوه ومراحه .

— لقد عرفنا من امر هذه المآسي شيئاً كثيراً ولكن هنالك اشياء لا نبرح في معزل عنها ، قل يا سيدي ! هل طوت غسان راياتها الى الأبد ؟

فتنهد امية واردف قائلا :

— يا اسفا على غسان ، خاضت الحومة وعليها جدة من شباب خلاب ولمعة من آمال عذاب ، ثم خرجت منها شيخة فانية تمشي على عصوين من بأس وعذاب .

— وبنو الاصفر اصحاب قيصر ؟

— لحقت كتائب الفرس بفلولهم حتى ادركتها على ابواب القسطنطينية .

— اذن فهذا الصيف الذي مضيتم الى افنائه في بلاد الجداول والأنهار ؟ . .

فقاطعه اميه قائلا :

— هذا الصيف ، بدله الله شتاء واترعه برداً ورعداً ، ناشدتكم الله ايها الاصحاب ان تواروا في نفوسكم ذكريات هذه المآسي ، دعوها نائمة ، فان ايقاظها ليس مما يروق . .

فصاح الجميع :

ــ معك حق ، فليس في اثارة هذه الذكريات غير اهاجة احزان نائمة .

وشخص الجميع الى ناحية ابي سفيان وقال احدهم : .

ــ دونكم صاحب قيصر ! . .

فالتفت ابو سفيان اليهم وقال لهم مازحا :

ــ ماذا تريدون من صاحب قيصر ؟

ــ جئنا اليه لنسمع احاديثه ؟

فحدق ابو سفيان الى وجوههم كأنه يريدان يتوغل في اعماق قلوبهم واستلى قائلا :

ــ اي الأحاديث احب الى نفوسكم ايها الفتيان المماريح ! احاديث الوغى ، ام احاديث الهوى ؟ . .

ــ دعنا من حديث الحروب ، فليس فيها هذا الفيء الذي تشتاقه نفوسنا !

ــ اذن فانتم تستعذون الاصغاء الى احاديث الحب ؟

فصاح الجميع :

ــ نعم نعم حدثنا عن الحب فان القبل الحلوة التي طبعناها على وجوه الغيد الحسان مازال شهدها في افواهنا ، وليس فينا الا من يذكر اثر تلك اللسعة الحلوة التي تركتها نحلة الحب في قلوبنا . .

فضحك ابو سفيان ضحكة مجلجلة وقال مردفا :

ــ لقد رجوت وانا في الشام ان اتذوق جنى هذه اللسعة ، ولكن الحب في هذه المرة لم يشأ مرافقتي فطارت نحلته الى الآفق البعيد .

فقال احدهم :

اين امضيت لياليك الطوال ؟

ــ امضيتها في الخوف ، وفي الاصغاء الى احاديث الرهبان في الصوامع والمناسك وهي احاديث سمعناها في الماضي حتى مللناها وفي هذه المرة نبا امية صاحبي عن الاصغاء اليها ، وفضل ان يعتزل المناسك والاديرة حتى لايعلق بنواحي نفسه اثر منها

ـ ماذا قال رهبان الشام ؟

ـ قالوا ان نبياً عربياً يخرج من بلاده الى العالم حاملا الى شعوبه ديناً جديداً.

ولما كان امية صاحبي يطمع في النبوة ، فقد رأيته يسأل الرهبان عن ذلك النبي ، ولكنه لم يلبث ان احس يأساً لان الرهبان لم يجدوا في وجهه شيئاً من دلائل النبوة

وكان ابو سفيان يتكلم . وعيون القوم تحدجه بنظرات راعشة ، فلم يفته هذا القلق الذي يساورهم فقال لهم . .

ـ ولكن في عيونكم وميض خوف رأيت مثله في عيني امية ؟

ـ لقد خرج هذا النبي الى العالم ؟ . . .

فامتقع وجه ابي سفيان ، حتى خيل الى الناس ان الموت قد غشيه ، وراحت عيونهم تحدج امية بن ابي الصلت ، فاذا هو قد ترعدد حتى اوشك ان يسقط على الارض كالطلل البالي ولما حاول ابو سفيان ان يتكلم غلبته شجونه فظل صامتاً ولكن اميه الاسوان تغلب على شجونه واحزانه فتدلف الى القوم وسألهم قائلا :

ـ ما اسم هذا النبي ايها الرفاق ؟ وفي اي مكان من هذه الجزيرة مولده وبعثه ؟

فقال احدهم :

ـ هو يتيم ابي طالب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . .

فصاح امية صياح الألم .

ـ واحزاناه ! . . .

وخرجت من صدر ابي سفيان زفرة يأس ولكنه لم يتكلم ، وشرع الجميع ينظرون الى امية الذي عاد ممسوساً مجنونا يبعث فمه كلمات مضطربة حتى لقد تتالت عليه لحظات وهو ينظر الى الناس نظرة ذاهلة لا اثر فيها للحياة .

وفي تلك الفينة دخل القصر ورقة بن نوفل وليلى الكندية ، فلما ابصره ابو سفيان وهو يمشي مستنداً الى المرأة ذات الملابس السوداء التفت الى صحبه قائلا :

ــ لعل الشيخ يحمل اليكم شيئاً جديداً عن النبي ؟

فشخصت العيون الى ناحية ورقة الذي لم يفته ما اراده ابو سفيـان في حديثه وتقدم بعضهم منه ، وحاول بعضهم ان يحمله على الكلام فأومأ سيد بني امية اليهم بالسكوت فسكتوا ، ثم تقدم الى ورقة قائلا :

عم صباحاً يا ابن عم .

فرد ورقة التحية بلهجة ساكنة هادئة وانثنى ابو سفيان قائلا :

من اين اتيت ؟

ــ من منسكي المنفرد في الجبل .

ــ من هي هذه المرأة ؟

ــ ابنة عمنا .

ــ هل اتاك حديث ابن عبد المطلب ؟

فرفع الشيخ عينيه المغمضتين الى محدثه من غير ان يفوته هذا الحزن الذي تخال لهجته وقال له :

ــ كنت اظنكم غير بعيدين من هذا السنى الذي جاء يترع قلوبكم حباً وحدباً فوجم الجميع ولكنهم لم يتكلموا وطفق ورقة يحدثهم عن سيد العالم بلهجة حلوة ساكنة لا تعبق فيها اعراف الغضب والصلف، فلقد كان التواضع اللحن العذب لهذه الانشودة البريئة التي جاء يرددها امام صناديد قريش ثم قال لهم :

ــ ان صحراءكم العطشانة ايها السادة قد احرقتها هذه الشمس التي لم تغرب عن جبالها منذ اقدم العصور ، حتى اصبح من حقهـا ان تبترد بالظلال والجنات وحتى احست حاجتها الى الارتماء في حضن سيد العالم الذي سيمشي بها الى النواحي البعيدة عن هذه الارض .

انه لجليل ورائع ان تخرج من صخرة حراء العارية زهرة فواحة يملأ عطرها هذه الجبال وهذه الزهرة التي انبثقت من كمها قبل ليـال في جبل حراء ستورق

ايراقاً عجيباً حتى يخرج منها زهر جني سيتفاوح عبقه ليس في هذه الاماكن فحسب بل في كل ضاحية من ضواحي الشام والعراق ومصر .

فقال ابو سفيان :

ولكن في هياكلنا ومعابدنا مثل هذا الاريج الفواح الذي تتحدث عنه

ـــ كلا يا سيدي كلا ! فان اريجكم هذا الذي تفخرون به ما كان غير رماد اذرته على عيونكم هذه الجاهلية التي تسبحون في خضمها وهذه الزهرة العابقة التي تضوعت في غار حراء سيضيع في روائها وحسنها جميع ازهار العالم القديم .

ـــ ولكنك تغلو في حديثك يا سيدى الشيخ . .

ـــ ليس في حديثي هذا الغلو الذي ذكرت فان فكرة الله ستتدفق من جبال مكة تدفق السيل ، انها ستمتد ، وستمتد كثيراً حتى تطفو على نواحي الارض ، وسيقوم الملوك والقياصرة وقواد الجيوش لمنعها الزحف ، ولكنها ستظل على امتدادها حتى تطمئن الى انتصار العالم الجديد على العالم القديم .

ـــ أهذه احاديثك في هذا الصباح ؟

ـــ سألتني رأيي في سيد العالم فما اخفيته عنك .

فهز ابو سفيان كتفيه ولم ينبس ، واخذ الناس ينظرون الى ورقة الذي عاد شاباً جديداً في تلك اللحظة وقد خيل اليهم ان عينيه المغمضتين عادتا تنظران الى الوجوه والى الضمائر بل لقد خيل اليهم ان هذا الاعمى الذي حرمته السماء لألاءها عاد بصيراً ينظر الى الاشياء التي تتراءى له فلا يفوته كثير او قليل منها وكان مشهد الناس وهم في هذا الغرق الاليم يستثير الرحمة والعطف بل لقد كان مشهدهم وهم وقوف حول امية السادر الحائر يدل عن الانكسار والتضعضع والألم .

في العام الماضي ترك ابو سفيان بن حرب في مكة عالماً قديماً رجاة ان يجد في الشام ذلك العالم الذي افتتن بزخرفه ورونقه وكبريائه ، وكانت نفسه قد اجتوت صحراء العرب وملت رياحها وجبالها القائمة ، فراح يفتش في بلاد القياصرة عن

الحياة والحب والمجد.

وفي الشام عن كثب من الجنات والامواه والظلال وجد ابو سفيان متع النفس واهواءها ، ورأى المجد يطوف بالقصور الطافحة بالبرفير والفسيفساء واستمع الى الاغاني الشجية في عشيات الصيف القمراء.

وفي انطاكية طاف بسيد بني امية بسهول العاصي الريانة ، وصافحت عيناه على شطئان هذا النهر الافيح عظمة القياصرة ماثلة في الهياكل والاصنام . وفي البيع والمحاريب ثم في العمد الذهبية والاقواس المنجوتة ، فلم يمنع نفسه ان تتذوق ذلك المرح الذي فتش عنه ، حتى عثر عليه في سفائح الجبال المعشوشبة بالقرب من شلالات دافنة .

وفي منبج والرقة ابصرت عيناه موكب هرقل الملكي ، فمضى مأخوذاً بجمال الألوان التي استفاضت على ملابس الحرس ورجال الحاشية القيصرية ، بمواكبها وحرسها وجيوشها فاذا هو يطمع في محاكاتها ومجاراتها ، فانطلق الى عرافة تسكن كوخا عتيقاً في انطاكية وسألها ان تقرأ له المستقبل الذي لم يطالعه بعد ، فاخذت يده وقرأت خطوطها فلم يلبث وجهها ان غشيته رعدة مخوفة فالتفتت اليه قائلة :

« عد الى بلادك ايها السيد قبل ان يعلم الروم بامرك ! فنظر اليها حائرا مشدوها وقال لها : ولكنني لا افقه هذا الذي تقولين ، وانا صديق قيصر فما احسبه قاتلي قالت : نصحت لك بالرجوع الى وطنك فما اصغيت الى نصحي ، الا فاعلم ان بنيك سيرثون قيصر وسينزلون في دمشق وفي انطاكية .

وفي خفة البرق المومض عاد به الخاطر الى طوافه القديم ببصرى واديرتها ومناسكها فذكر اجتماعه الى بحيرا الراهب . وطرقته خيالة هذا الراهب ، الذي مضى يحدثه عن ظهور نبي في العرب ، فخيل اليه ان لحديث عرافة انطاكية صلة بحديث الراهب النصراني ، فارتاح الى صور الماضي واطمأنت نفسه الى انبثاق هذا الفجر الجديد.

وفي اليوم التالي ودع هرقل وودع انطاكية وآب الى الاردن واجتمع الى امية ابن ابي الصلت فاراده على الرجوع معه الى الوطن

ولكن ابا سفيان الذي تعشق المجد لم يلبث — وقد غشي منزله بعد سياحة عنيفة جاهدة — ان فتح عينيه في مكة على عالم جديد لم يتصل به من قبل ثم اذا تلك النبوة التي استملح احاديث الرهبان عنها في اديرة بصرى وكنائس دمشق قد انبثقت في بيت عبد المطلب فمنعته كبرياؤه ان يستشرق بنورها واحزنه كثيراً ان لا يخالط بيته القديم بعض روائها .

ولم يكن امية بن ابي الصلت — وقد طمع في النبوة في شبابه الماضي — اقل ارتماضا من ابي سفيان فطفق يستعيد كلمات ورقة بن نوفل وهو ذاهل ، حتى لقد تخلل احاديثه هذيان بليغ فلم يشك احد من هؤلاء الذين يحدقون به في جنونه فمضوا يسألونه عزوفا عن هذه الاوهام التي علقت بنفسه حتى اذبلتها وصوحتها .

وليس في وسع امية ان يكذب هذا الفجر الجديد ، لأن محمداً بن عبد الله الذي تعرف الى وحي السماء في غار حراء سلخ في ماضيه طفولة حالية بالصفاء والصدق ولأن هؤلاء الذين احتواهم بيت ابي سفيان في هذه اللحظة كانوا كلهم من شهود هذه الطفولة البريئة المتواضعة .

ولما استطال حزن امية لم يجد ابو سفيان معدى عن الخروج من الصمت ، فنحا بالحديث ناحية جديدة ، والتفت الى ورقة قائلا :

— سيدي الشيخ ؟

— سيدي !!!

— اتعرف شيئاً جديداً عن مصير ملك العراق التعس ؟

فاطرق الشيخ اطراقة خفيفة ؛ ثم رفع رأسه قائلا :

— اتسألني عن النعمان بن المنذر . ان هذا الصقر العربي لايبرح هائماً على وجهه في بادية العراق ، وقد استطاع كسرى ابرويز بن هرمز صاحب فارس ان يزحزحه عن الحيرة

فقال ابو سفيان :

ــ اذن فأرض الحيرة خلاء من المناذرة ؟

ــ نعم يا سيدي وقد اقام كسرى على الحيرة رجلا من طي اسمه اياس بن قبيصة ، وهو رجل ضعيف والعرب ينظرون اليه نظرات مليئة بالشك والريب .

ــ لقد اثرت في نفسي كارثة هذا الرجل حتى منعتني مناعمي في الشام وحتى رجوت لفتيان العراق الذين نهدوا للدفاع عن وطنهم نصراً عزيزاً .

واخذ ابو سفيان في تلك الفينة يعرض امام القرشيين صوراً كامدة للكارثة العراقية وليلى الكندية التي لم تبرح مكانها مصغية الى هذا الوصف الشجي المحزن

ولما نصف النهار بدأت الجموع التي جاءت الى بيت ابي سفيان في الصباح تعود الى منازلها ومساكنها في مكة ، بعد ان مرت بالكعبة وطافت باصنامها .

وفي المساء برح امية بن ابي الصلت منزل السيد الاموي محمولا على اكتاف بعض اصدقائه فدخلوا به منزله وهو في غشية الية .

ولما ودع السيد الاموي صاحبه امية خرج الى الكعبة فطاف حول ثلاثمائة وسبعين صنماً حتى انتهى به طوافه الى الوقوف حيال تمثال رجل كاعظم ما يكون من الرجال قد ذبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل (١) وكان هذا التمثال لآله يعبده سادة قريش وقد دعوه وداً فشرع السيد الاموي ينظر الى الصنم نظرات استطال فيها حزنه وجواه ثم رفع يده الى عيني التمثال قائلا :

انك لتبدو لي ضاوياً هزيلا متعباً من اثر السنين والايام ولكن يدي لا تستطيع ان تحمل اليك العافية والشباب ، فالبث في مكانك هذا حتى تأخذك العاصفة الى اودية الفناء والعفاء

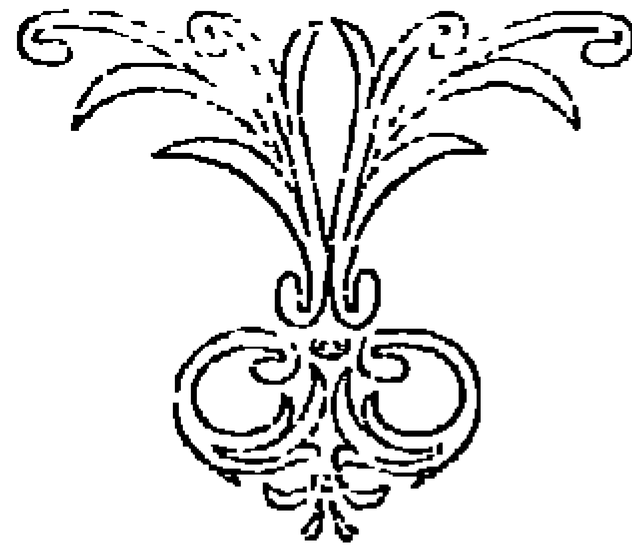
وكانت هذه الصلاة القصيرة التي قذفها سيد الامويين آخر عهده بالطواف حول اصنام قريش

---

(١) كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٥٦

وجعل الناس يمرون به وهو في طريقه الى منزله فلا يعرفونه لسبحه وغرقه ، فقد القت هذه الاحزان التي دهمته في ليلة واحدة والتي نقلته من ربيع الشباب الحافل بالضياء والمشاهد الزهراء الى شتاء الشيخوخة الحافل بالمشاهد الكدراء بينهم وبينه وهو حديث عهد برجوعه الى الوطن ظلا شاحباً مكفهراً منعهم ان يعرفوه فانطلقوا منحدرين الى الاحياء المؤدية الى بيوتهم لا يكترثون لهذا الدمع الدافق الذي منع عينيه نور السماء .

ثم دخل الى منزله والقى بنفسه على فراشه لا لينام ويستريح من الحمى التي هصرته هصرا . بل ليمنع الناس ان يروه شاجناً ناشجاً .



الفصل الخامس عشر
على الصفا

تفاوح الحر في صباح اليوم التالي فوحاناً اليماً ورمت الجبال الكدراء ظلالا من اللهب على المنازل والقصور لجفا الناس تلك الاماكن التي كثر فيها النخيل بعد ان يئسوا من العثور على الرطوبة تحت ظلاله وافيائه وذهبوا الى سفائح الوادي في الغلائل الرقيقة والاثواب الفضفاضة .

وفي هذا الصباح اللفاح الاوار تثاءبت الصحراء النائمة وراء مكة ، فاذا رعاة الابل يصدرون عنها الى النواحي الظليلة فمشى بعضهم في طريق الطائف وشق بعضهم طريقاً الى وادي القرى مما يلي الشام ثم تتالت لحظات فاذا هذه الصحراء لا تزال ترمي بابنائها الى اسواق مكة وشوارعها واذا هؤلاء يمضون الى الكعبة للطواف حول اصنامها وتماثيلها في الصباح الباكر .

وهنالك وراء اشجار النخيل الهزيلة الشاحبة الماثلة كنقطة غائمة في الصحراء الفيحاء اسراب من الجمال رمى بها اصحابها الى الطريق المؤدية الى عكاظ فلم يدخلوا بها مكة مخافة ان تنأى عنهم ضاحية الشعر والشعراء وقد رأوا في مواسمها صبابة الحياة في التجارة وفي الشعر الذي ارتضوه غذاء لافهامهم واذهانهم .

ولما كانوا يحترمون شرائع الوطن ولا ينزعون الى العبث بها ، ولا الى التفريط في كثير او قليل منها فقد تركوا اسلحتهم في خيامهم وفي بيوتهم وانتشروا تحت الفضاء الواسع لايحملون سيفاً ، ولا يهزون نصلا ودليلهم الوحيد الى ارض الشعر والشعراء اغنية طفق هداتهم يرددونها وهم على ظهور الابل ,

وكانوا يستمرءون ترديد هذه الأغنية كلما استراح منشدوهم ، ثم يتضاحكون ويتسارون بينما اشباحهم التي اضوتها الاسفار وقيظ الصحراء تلوح للناظرين

كأنها المومياء .

وبعد قليل توارت خيالاتهم وراء الجبال فاتسع الفضاء امام قوافل جديدة تحمل كثيراً من النساء والاولاد والشيوخ وقد توافت هذه القوافل من اماكن قصية بعيدة لتطوف مع الطائفين حيال الكعبة .

ولم يكن يحيط بمكة في هذا الصباح غير عالم دائم من الرمال تغشى نواحيه رعشة برد اليمة وحول عالم الرمال الواسع ، عالم اخر من الاصلاد والشواهق قد التف بمكة واحاطها باطار اصهب من ذروات تفصل بعضها عن بعض هوات سحيقة . واغوار بعيدة المدى ، وكهوف مرت بها العصور والقرون وهي مستبقية الوانها الكأباء

وتحت هذه الجبال سفوح لم تستطع ان تنقل اصواتها الى غير هذا العالم الذي يمور بالرمال فقد لبثت هذه السفوح خلال عصور مديدة منكمشة في عزلتها لاتفكر في احداث حدث عجيب يستميل العالم اليها .

وعلى السفوح بناء كبير كانت له في حياة العرب العقلية روعة الكابيتول اليوناني في حياة اليونان العقلية ، والى جانب هذا البناء الكبير مثل هذا الذي الى جانب الكابيتول اليوناني من اصنام وتماثيل ، وطرف باقية ونفائس عجيبة .

وطيء موسى الصحراء للبحث عن الارض الثمراء التي ارادها لبني اسرائيل ثم ما لبث ان تطامن الى جبل عبريم فانحسرت له ارض الموعد فمضى متوغلا فيها خلال صباح وخلال مساء حتى بلغ في طوافه هذه الجبال التي تحدق بمياه البحر الميت ووادي الاردن .

ولما صعد هذه الشواهق بدت له من جانب جزيرة العرب جبال عارية خابية مرت بها عصور وقرون وهي تصب في البحر الأحمر سيولا من ريحها الجفول ولكنه لم ير في هذه الأصلاد مكانا غضيراً لطائر . وما الفى في هضباتها وطناً للشعب الذي احبه فازور عنها وراح منحدراً الي السفوح فبدت له الاودية الفنوانة

والسهول الطافحة بالاعناب والزيتون ، فانسته مشاهد الارض الغضراء ، مشاهد الصحراء الكدراء . ثم وجد في سينـاء بداية العيش الممرع الذي اراده لشعب اسرائيل . ولكن هذا الشعب الذي احب موسى فيه تقاليد الوطن وعاداته وسلائقه عصفت به كبرياؤه وانانيته فاعرض عن نبيه ولم يخط معه الى نواحي العالم خطوة تدنيه من البحار والخلجان والمدن ثم ما عتم هذا الشعب الذي عصى نبيه ورسوله ان مات موتة باردة منعته ان يتكاثر .

واصطفى الله عيسى نبياً ورسولا فجفا في الصباح مغـارة بيت لحم ومشى الى الارض الظليلة التي مشى موسى اليها ، وصافحت عيناه ارض الجليل والبحر الميت ونهر الاردن . فأوطأ الله له هذه الجنات الحاليات بالزيتون والنارنج والأعنـاب ثم توغل في السهول التي توغل موسى فيها بعد خروجه من الصحراء ، فاذرت السماء على يديه البركة واليمن فعاد زاهداً في العالم كله ولكنه استغذى هذه الارض الفيحاء فاقام مناسكه وبيعه وصوامعه في سفوحها وعلى ذروات جبـالها ثم اتسع امامه الفضاء فاذا هو يحمل عطوره الى بيزنطية والى روما ثم الى الخلجان والجبال والبحار

وفي هذا الصباح الذي تطاغى حره ، خرج سيد العـالم محمد بن عبد الله يتيم قريش من منزله في مكة لا ليلحق بالقوافل الكثيرة التي توغلت في الطريق المؤدية الى وادي القرى حيث الاعناب والادواح والمياه ، ولا ليلحق باولئك الذين نهدوا من مكامنهم مع الفجر الى سوق عكاظ او الى الطائف للاصغـاء الى الشعر . بل خرج من منزله في هذا الصباح القائظ ليطوف قليلا حول الكعبة ثم هو يخرج بعد طوافه هذا الى العالم الواسع ، الى دمشق ، الى بغداد ، الى القـاهرة ، والى بيزنطية ثم الى بحار افريقية وآسية حيث الشعوب المنسية الغارقة في جاهليتهـا تنتظر معاده اليها .

نعم في هذا الصباح القائظ خرج سيد العالم من منزله ليجعل من الكعبة التي ظلت حرماً مقدساً لقريش حرماً تفيء اليه شعوب مجيدة قديمة لم تجد صبابة نفوسها

في معابد الهند وهيا كل فارس ومحاريب البيزنطيين وفي هذا الصباح اعتزم ان يمضي الى ذويه لينصح لهم باستمراء التعاليم الجديدة التي تعرف اليها في غار حراء .

وفي هذا الصباح تسدر السيد بثوبه الابيض وانحدر الى الكعبة غير راعش ولا قلق وامنيته الغالية ان تنمو اسرته الجديدة التي تألفت في البداية من الماحلين والمكدودين وان يدخل في نظامها سادة قريش وغطاريفها وصناديدها .

طاف السيد بالكعبة فمر باصنامها وتماثيلها من غير ان يلمسها ثم اعرض عنها منحدراً الى مقام ابراهيم والناس يحدجونه بنظرات لا اثر فيهـا للبغض والحقد ، وكانوا يحبونه حباً جما ، ويحملون له في نفوسهم شيئاً كثيراً من الاحترام العميق ولكنه لم يلبث طويلا حيال مقام ابراهيم فراحت عيناه تنظران الى بيوت القرشيين والى قصورهم وقد اصبحت غرضه في هذا الصباح .

ثم اجتاز الطريق القصيرة بين الكعبة ومقام ابراهيم في غير حاشية ولا موكب وظلت عيناه شاخصتين الى بيوت القرشيين حتى اطل على بئر زمزم فاقام حيـالها لا يحس تعباً ولا يشكو نصبا .

وفي تلك الفينة سرت في الافق رعشة باردة فنيت في صفائها تلك الريح الجفول فجلس السيد الى حافة البئر مراحاً طروباً باسما ، وقد تفـاوح وجهه المتورد بجمال شديد الفتون فجعل الناس الذين جاءوا الى البئر زرافات ووحداناً ينظرون اليه صامتين حادبين وقد عرفوا فيه ذلك الصادق الامين الذي احاطته قريش باعجابها واجلالها

ولما مرت القوافل الذاهبة الى وادي القرى والى دمشق بالقرب من البئر قرأ رجالها في وجهه الفتـان آيات الرحمة ورأوا في عينيه بارقاً لطيفاً لم يروه في عيون القرشيين الذي استعبدوا الناس وقد ولدتهم امهـاتهم احرارا ، فأثرت نظراته في نفوسهم فانحدروا عن جمالهم وحاموا حوله وقد انساهم مشهده الهـادىء الوادع تجارتهم في وادي القرى وفي دمشق فطفق يتحدث اليهم عن الله وعن العبـادة الجديدة بلغة بارعة فخمة لا اثر فيها لذلك الصلف الذي لمسوه في احاديثهم الماضية

مع اسياد مضر حتى كادوا يرون فيه ملكا لولا هذه البساطة التي لا تفارق وجهه ولولا تواضعه في لباسه وفي احاديثه .

وخيل اليهم انه شاعر وانه جاء اليهم بنوع جديد من الشعر ولكن كثيرين منهم لم يكن يفوتهم شيء من الشعر الذي سمعوه في مواسم عكاظ فلماقرأ عليهم آيات الله قالوا « كلا ليس شعراً هذا الذي نسمع وانما هو شيء امتع من الشعر وانفس، ثم مرت باذهانهم صورة جديدة لهذا الذي سمعوه فخيل اليهم انه ضرب من السحر، ولكنهم نظروا الى السيد وحدقوا الى جبينه واستمعوا من جديد الى صوته ، وتذوقوا بيانه حتى استيقنوا ان كلماته ما كانت شعرا ،وهي كذلك لن تكون سحرا وانما هي كلمات اجراها على فمه من لا يصطنع الشعر والسحر اذن فمن اين جاء السيد بهذا الجديد الخالب ؟

لقد كان بينهم كثير من هؤلاء الذين استمعوا الى سجع الكهان في باديةحوران وفي معابد نجران ، وكان بينهم من عرف قس بن ساعدة واتصل به واصغى الى وعظه وارشاده ، ولكن هؤلاء الذين زخرت بهم في الماضي بادية الشام وصحراء العرب عادوا يلمسون في كلام الرسول بياناً حلو المذاق لم يلمسوه في بيان قس ولا في سجع سحبان .

اذن فمن اين جاءهم السيد بهذا الجديد الخالب ؟

لما عرض السيد امامهم صور الماضي وحدثهم عن مصائر الشعوب التيعلقت بالاهواء حتى تخلت عن سلائقها الطيبة في سبيل ملذاتها اثرت لهجته البارعة في نفوسهم فزرفوا اليه وسألوه ان يمضي في حديثه الى النهاية فتكلم وارادهم على الاحسان الى الاسرة والى اليتيم وافاض في نصحه وعرض لهم صورة هذا العالم الذي يعيشون فيه وقد خلا من الحب والعطف والبر ، حتى بدا مسيخاً مشوها ، ثم نصح لهم ان يكفوا عن وأد البنات لأنهن قوام الاسرة العربية في المستقبل ، ولأنهن كذلك اجمل ازهار البيت واشد رياحينه فيحانا .

وكانت كلماته تتفجر في نفوس هؤلاء الغلاظ القساة تفجر الينابيع في الارض الماحلة فيحس الاعراب ان نفوسهم عادت حالية بالزهر والعطر ولعل اروع ما اثر في هؤلاء الذين ارتضوا عيش الصحراء واستساغوا تقاليدها واطمأنوا الى رياحها ورمالها وسمائها العارية هو هذا الرجاء العذب الذي تسرب الى نفوسهم فلقد خرجوا من خيامهم ومضاربهم في هذا الصباح وهم لا يطمعون في اكثر من ارتياد هذه القرى الصغيرة المنتشرة على سفوح الشام يفتشون في آفاقها الضيقة عن احلام الحياة العزيزة ولا يتطلعون الى ما هو ابعد من جداولها وانهارها وحقولها فنقلهم السيد في لحظات قليلة من هذه الآفاق الضيقة التي لا يملكون منها غير حرية الاستمتاع بمشاهدها الى آفاق واسعة ستكون ارثهم الابدي في بضع سنين ، وظلت نظراتهم عالقة بنظراته لا يستطيعون رفعها ولا خفضها حتى رأوه يتحفز لترك البئر فامتطوا غوارب الجمال وحيوه تحية مفعمة بالكياسة والظرف ، فرد عليهم بتحية متواضعة ومضى في الطريق المؤدية الى منازل قريش وراحوا يشقون الطريق الذي اعتادت القوافل عبوره في طريقها الى وادي القرى والى البلقاء . وكانت انشودتهم في هذه المرة تزخر بالمعاني الجديدة التي اقتبسوها من احاديث سيد العالم فنذروا حملها الى البلقاء ووادي الاردن والى دمشق .

لم يبق للمغيب غير لحظات فقد اخذت الشمس تنحدر عن الافق ناشرة في كل قمة من قمم الجبال جمالا فتاناً مضرجاً بحمرة ، ثم استفاضت اشعتها الاخيرة على ابواب الكعبة وعلى التماثيل المحدقة بها ثم على مقام ابراهيم .

وفي هذه الساعة التي تخيرها الرعاة للرجوع الى مآلف الطفولة امتدت القوافل تحت ظلال المساء من ابواب مكة الى منافذ البلاد المهذبة وشرع الناس الذين روعهم قيظ النهار في الخروج من منازلهم الى السطوح والى الاماكن التي يسودها الظل

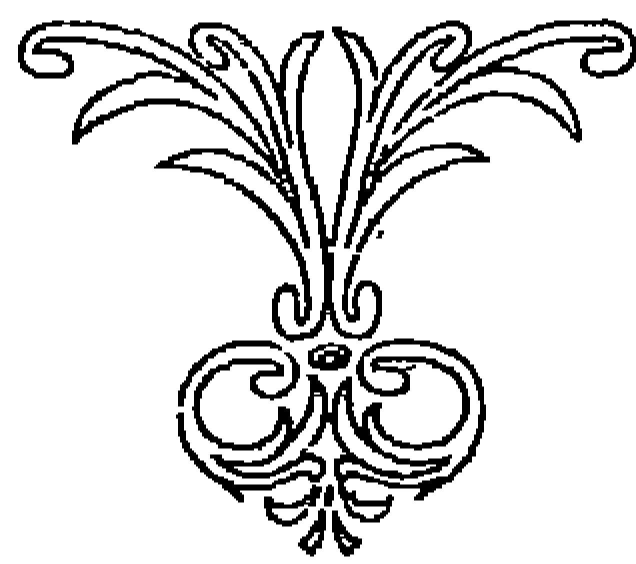
وكان سيد العالم قد بلغ في طوافه احياء القرشيين وهي غرضه في هذا الصباح فمر بمنازل اعمامه وعماته ولكنه لم يشأ خفق باب من ابوابها بل ظل دائباً على

طوافه بمنازل السادة والرؤساء والصناديد حتى صافحت عيناه بيت ابي سفيان بن حرب ورأى الاصنام والتماثيل التي اعتزلها في طفولته المقدسة فلم يستأنس بمشهدها فواصل سيره حتى بلغ منزل عمه ابي لهب ، فاحس وهو ينظر الى حجارته الدكناء عطفاً شديداً على اسرته التي سهرت عليه يتيما وحمته شأبا ، فود لو إنه يستطيع ان يحمل اليها بعض هذا الخلاص الذي ناطت به العناية حمله الى العالم وكان شديد البر بذويه ، يحب فيهم الضعفاء والاقوياء على السواء ، ثم مر ببيت عمرو بن هشام ورفع عينيه الى الافق ضارعاً الى الله ان ينصر الدين الجديد باحب العمرين اليه ، عمرو بن هشام او عمر بن الخطاب ، ثم واصل طوافه بالقصور والحصون وظلال الطفل تطفو على جبينه الرائع البياض .

وقف سيد العالم في ناحية منعزلة ينظر الى هذه القصور التي تشابهت في طراز بنائها كما تشابهت في كبريائها فلم يفته هذا التناقض البين الذي مضى يلمسه في حياة القرشيين النبلاء وفي حياة قومه الضعفاء ، بل لقد لمس سيد العالم وهو ينظر الى حجارة البيوت البيضاء عيش القرشيين الحافل بالكبرياء والصلف والقسوة والاثم فاحزنه عيش قومه الحافل بالقهر والالم والبكاء ولما بدت له النقوش الملونة التي خلعها القرشيون على الشرفات والابراج والعمد عاد به الخاطر الى تلك الخيام المتواضعة الفقيرة التي تعصف بها رياح الصحراء خلال صباح وخلال مساء ، فمرت بذهنه صور ساكنيها وقد غشيت وجوههم ربدة البؤس حتى ماتت الوان الحياة في عيونهم وقلوبهم ، ثم مضى يذكر قصور القرشيين وجناتهم في المدن الوارفة الظل كدمشق والاردن وتبوك ودومة الجندل ووادي القرى والطائف ، وقارن بين هذه المراتع الهانئة التي ابتسم فيها العيش الغضير وبين خيام الصحراء ، فروعه ضحك الاولين كما روعه بكاء الآخرين .ورأى في التعاليم التي فتح لها صدره في غار حراء حافزاً الى نشر فضيلة المساواة في القصور وفي الخيام فاعتزم ان يشرع في العمل المجيد الذي اراده الله على تحقيقه .

وفي طريقه الى منزله ازدحمت في خاطره صور متغايرة لحياة جزيرة العرب ، فرأى الى جانب السادة الذين زينوا قصورهم بالرخام والبرفير شعباً كبيراً من المكدودين نصفه من الرعاة ونصفه الآخر من التجار الذين يخرجون الى الهند والى الامصار البعيدة رجاة البحث عن حياة ثرة دافقة لا تقع عيونهم عليها في الوطن الاول ، واستيقن ان هذا الشعب المكدود البائس في حاجة الى الدعة والى الصفو ، ثم عرضت له صورة هذه المآسي التي روعت الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق فرأى في الدين الجديد خلاصاً لهؤلاء الذين برح بهم ظلم الرومان والفرس

ولما خفق باب منزله جوي جوى شديداً فنظر الى الأفق فاذا هو قد تجون واكفهر فلم يأنس بالسدفة . فوضع يده على صدره ولمس خفقه ووجيبه فادرك اي حب يحمله هذا الصدر لقريش السابحة في وثنيتها . ثم رق قلبه لأسرته الصغيرة التي نشأ فيها وشعر بحب شديد حيال الأسرة العربية الكبيرة ، نخفق الباب كرة اخرى ليخلو الى نفسه وحجرته . بل طفق ينزع الى دخول حجرته هربا من هذه الجونة التي تغطي الأفق وقد آنس في منزله الهادي، نوراً يترع صدره بالامال العذاب ولم ينتظر طويلا على باب منزله ففتح له غلام خديجة فدخل حجرته فامضى ليله ساهداً ارقا . ؟



الفصل السادس عشر

في بيت عبد المطلب

في صباح اليوم التالي دعا سيد العالم بني عبد المطلب وبني عبد مناف الى طعام في منزله فما تردد واحد في قبول دعوته ، وكانوا خمسة واربعين رجلا فاكلوا حتى شبعوا ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا (١) وطفق يطوف على اعمامه يحدثهم باحاديثه الماتعة الخالبة وهم ينظرون اليه نظرات قلقة ولا يعلمون غرضه من دعوته اليهم وكان ابو طالب — وهو اكبر اعمامه سناً — في صدر المجلس وقد جلس الى يمينه اخوه العباس ، وجلس الى يساره ابو لهب ولعل هذا الاخير كان اشد القرشيين الذين حضروا هذه المأدبة اجفالا وارتياعاً .

وفتح السيد فمه ليتكلم ، فلحظته العيون ، وتحفز ابو لهب للخروج من الحجرة فسأله ابو طالب البقاء فاذعن ، وتكلم السيد بلهجة صافية هادئة تتخللها رنة حب عميق ، ثم قال :

يابني عبد المطلب اني والله ما اعلم شابا في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد امرني الله ان ادعوكم اليه فايكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون اخي وصاحبي ؟ (٢)

وهنا سكت واخذ يطيل التحديق الى وجوه اعمامه ، كأنه ينزع الى الاستيثاق من تأثير حديثه في نفوسهم ولم تبن على وجهه الجميل غيمة حزن والم فظل شديد الايمان بتغلبه على هؤلاء الذين اغلقوا قلوبهم ومنعوها ان تتذوق جنى الفضيلة ولكن القرشيين لم ترقهم لهجة السيد في هذا الصباح فضحكوا منه (٣) فما ثناه ضحكهم عن المضي في العمل الرائع الذي انتدب الى اتمامه في المساء جفا منزله ومشى في الطريق

---

(١) و(٢) و(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢

المفضي الى الصفا ، وغيوم السماء لاتبرح تتراءى له رمادية اللون فابصر الرعاة الذين برحوا صحراءهم الماحلة قبل الفجر قد اختلفوا الى الأودية والسفوح ليلتحقوا بارض الطائف الشجراء فامالته بساطتهم اليهم وهو الذي يحب البسطاء والفقراء فحياهم فما ضنوا عليه بتحياتهم الوادعة ، وانطلق يعدو حتى بلغ الصفا فاذا هي صخرة منعزلة على جبل ابي قبيس فوقف عليها واستعرض الكعبة والحجر الاسود والاصنام وكذلك استعرض القرشيين الذين ازدحمت بهم الساحات في ذلك المساء وكانوا قد برحوا منازلهم لألتقاط هذه الاخبار التي نقلها الرعاة ورجال القوافل عن حرب فارس والرومان بعد رجوعهم من الشام .

ورأى السيد ان السانحة مواتية للشروع في العمل فاستند الى عصاه وهو على الصخرة وصاح : واصباحاه : فاجتمعت قريش كلها على صوته، وزرفوا الى ناحيته مروعين جافلين ، فقالوا له مالك ؟ فقال ارأيتكم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا ، قال فانني نذير لكم بين يدي عذاب شديد (١)

فاجفلوا وراح ابو لهب يزحف اليه حتى صاقبه وفي عينيه وميض خبث ورياء وغضب فلم يحفل السيد به،ولم يكترث لهذهالثورة التييطفح بها صدره فقالله ابولهب هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبأة واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان احق من اخذك فحبسك بنو ابيك وان اقمت على ما انت عليه فهو ايسر عليهم من ان يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت احداً جاء بني ابيه بشر مما جئتهم به (٢) .

فصاح السيد ، ان الرائد لا يكذب اهله ، والله الذي لا اله الا هو انني رسول الله اليكم خاصة والى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون وانها الجنة ابداً والنار ابدا (٣)

---

(١) و(٢) و(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢

وكان ابو طالب في جملة القرشيين الذين تهافتوا على الصفا ، فلما صافحت عيناه عيني ابي لهب ، ورأى هذه الومضـــات الحمراء التي تخللت نظراته ، رق قلبه لابن اخيه فاسرع اليه ووقف بينه وبين ابي لهب وانثنى قائلا :

ما احب الينا معاونتك واقبلنا لنصيحتك واشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو ابيك مجتمعون وانما انا احدهم غير اني اسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا ازال احوطك وامنعك غير ان نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب (١) ثم سكت فاحنقت كلماته ابا لهب فصاح : هذه والله السوء خذوا على يديه قبل ان يأخذ غيركم (٢) فامسك ابو طالب بيد ابي لهب وقال له :

ـــ أغرب عنك ان عمه يحميه . افاتك ان هذا اليتيم قد عاد احب الناس الي والله لنمنعنه ما بقينا (٣)

ولما تجوش الليل عاد القرشيون الى بيوتهم وقد نذروا ان لا يتعرضوا له مخافة ان يثير تحرشهم به ثائرة عمه ابي طالب الذي جاهر باستعداده لحمايته والذب عنه ، وانقطع سيد العالم للعبادة في غار حراء خلال اربعة ايام وطاف بتلك الجبال الهاجعة الوسنانة التي تلق فيها كلمة الله وفي اليوم الخامس خرج الى الكعبة ومر باصنامها والناس يومئذ يطوفون بها ، فأنكر عليهم عبادتها ودعاهم الى هدمها فثارت ثائرة القرشيين لهذا الامر ، فانطلق رهط منهم الى ابي طالب فيهم ابو جهل عمرو بن هشام ـــ وكان ابو طالب مريضا ـــ فقال له ابو جهل : يا ابا طالب انت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن اخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وآلهه .

فبعث اليه فجاء سيد العـــالم فدخل البيت وبين القرشيين وبين ابي طالب قدر مجلس رجل فخشي ابو جهل ان جلس الى جنب ابي طالب ان يكون ارق عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد السيد مجلساً قرب عمه فقعد عند البـاب فقال له ابوطالب اي ابن اخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوك النصف ان تكف عن شتم

(١) — (٢) — (٣) ابن الاثير ٢ ص ٢٢

آلهتهم ويدعوك وآلهك ، فقال السيد اي عم اولا ادعوهم الى ما هو خير لهم منها ، كلمة يقولونها تدين لهم العرب بها ، ويملكون رقاب العجم(١) فقال ابو جهل ما هي وابيك لنعطينكها وعشر امثالها ؟ قال:تقولون لا اله الا الله ، فنفروا وقالوا سلنا غير هذه فقال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا وقالوا والله لنشتمنك وآلهك الذي يأمرك بهذا(٢) ثم خرجوا الى بيوتهم متبرمين بهذا الذي سمعوه .

مرت على هذه الحادثة ايام كثيرة امتدت في خلالها شهرة سيد العالم الى انحاء مكة فخرجت القوافل التي اعتادت ارتياد البلاد الظليلة الى وادي القرى والى تبوك ودومة الجندل حاملة الى القبائل الخاضعة للرومان حديثاً عابقاً معطراً عن نبوة السيد فتلقى بعض هذه القبائل دعوته في كثير من الاحترام واقبل الناس من وادي القرى الى مكة يفتشون عن رسول السماء بينما كان بعض الذين استهوتهم هذه الرائعة المقدسة يطوفون شتى انحاء الجزيرة حاملين الى الخيام عطر سيد العالم الذي لقي انصاره ومؤازريه في احياء مكة البائسة بين الفقراء والبسطاء والمضطهدين والخائفين المروعين فلقيت بذوره في القلوب المحطمة ازهارها وامراعها ولم تجد هذه البذور في احياء الاسياد العظماء غير الارض الماحلة الحافلة بالهشيم .

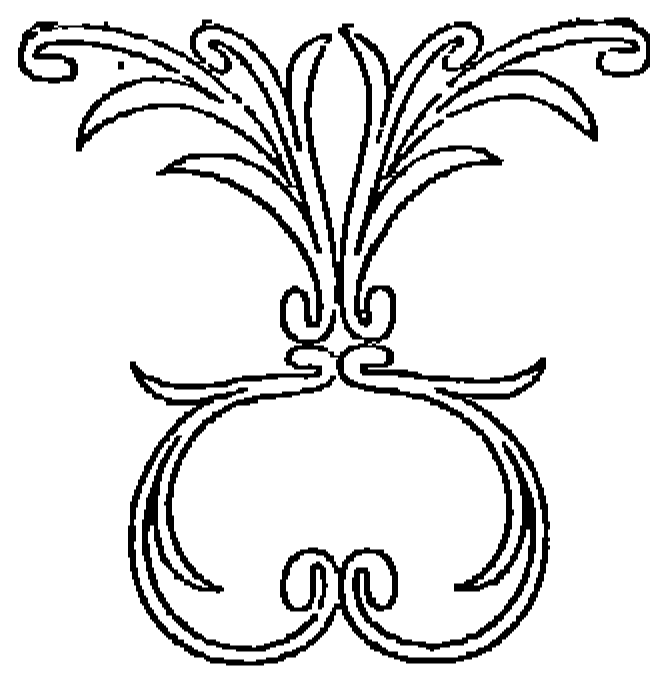
وجعل القرشيون في خلال ذلك يختلفون الى دار الندوة للتآمر على سيد العالم الذي ازرى بامالهم . وعبث باربابهم ولكن هؤلاء الذين لم ترقهم دعوة السيد الى ديانة مهذبة وثيقة تحملهم في مستقبل غير بعيد الى بلاد الظلال والاعناب تحاشوا ان يصارحوا السيد بعدائهم قبل ان يسألوا ابا طالب ارجاع ابن اخيه للمرةالاخيرة عن دعوته ، فانتدبوا منهم وفداً مؤلفاً من كبارهم وحملوه غسقا الى بيت ابي طالب فخرج الوفد وفيه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو البحتري بن هشام والاسود بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وابو لهب والعاصي بن وائل فمروا حيال الكعبة

---

(١) — (٢) الطبري ج ٢ ص ٢١٧

واصطدموا بورقة بن نوفل فأرادهم على الرجوع الى منازلهم حقناً لدمـــاء العرب فاهانه عمرو بن هشام فاعنه ورقة ومضى الوفد الى حصن قريش فاصطدم بليـــلى الـكندية وهي راجعة من زيارة ابي طالب وكانت قد علمت بمؤامرة القرشيـــين فسقطت على حصن ابي طالب وحدثته بحديث المؤامرة ، ثم واصل الوفد سيره الى حصن قريش بعد ان سرح رجاله ليلى الـكندية فدعا هؤلاء ابا طالب فاطل عليهم من شرفة الحصن والليل شديد القر ،فكانت بين عم سيد العالم وصناديدقريش تلك الاحاديث المؤثرة التي مرت بالقراء في الفصل الثاني من هذه الرواية .

وقد علم القراء بعد ذلك ان سيد العالم لم يشأ عزوفاً عن المهمة الرائعة التي ندبته السماء الى تحقيقها في شعب لبث في عزلته عصوراً طوالا فمضت قريش الى ايذائه . ومضى الى تحقيق ارادة الله غير حافل بالألم والاغتراب عن الوطن ؟



الفصل السابع عشر

الى بادية ذي قار

— من هنا ياسيدي ، من هنا !

— ولكن اجتيازك هذه الطريق الجبلية يجشمك كثيراً من العناء ايتها التعسة

— دعني اواصل سيري فان القرشيين قد اترعوا مكة ظلماً وظلاماً واقاموا مخارسهم على الطرقات المؤدية الى الشام ومنعوا الناس ان يمضوا الى وادي القرى والى البلقاء مخافة ان ينقلوا معهم شيئاً كثيراً من اخبار الترويع ، ولقد رأيت ان ان اتغلغل في الجبال فلا اخالط هؤلاء الصاخبين الذين يقتلون مخالفيهم في العقيدة ويغلون في تعذيبهم وتشريدهم حتى يحملوهم على احترام التماثيل والاصنام والدمى

— اذن فانت تصرين على المضي الى الجبل ؟

— نعم وقد قلت لك في العشية الفائتة ان ابا جهل قد حرض جماعته على تعذيبي فاصبح من حقي ان ابحث عن الحياة في غير هذا البلد . .

— اتمضين وحدك ؟

— ولم لا امضي وحدي ؟ اتخالني عاجزة عن اختراق هذه الشواهق وقد اجتزت قبل شهور حدوداً واسعة تمتد من دمشق الى مكة ، ولم يكن يرافقني في هذه السياحة المضنية خليل او رفيق ، يكفيني ياسيدي ان اترك مكة ورائي حتى ابتسم لأفق جديد وحتى اصبح في نجوة من مطاردة قريش . .

— ولكني انصح لك بالمضي الى يثرب فانها احفل بالهدوء والدعة من هذه الجبال العارية ، وانت تعلمين ان ليس في يثرب ظل ممدود لقريش وفي قدرتك ان تمكثي فيها اياماً ريثما ينبثق في صدرك كوكب الأمل . .

— ان في العراق فتياناً من كندة ينتظرون معادي الى الوطن الأول وقد مشى

هؤلاء الى قتال عدوهم تحت الرايات والاعلام ولكنهم ظلوا في حاجة الى تلك الأنشودة التي تحملهم الى النصر ، وهذه الانشودة المقدسة التي ابت جبال مكة ترديدها ما تزال تطفر في قلبي ، انها لتحاول الخروج من اعماق هذا القلب الى الفضاء الواسع ، الى الآفاق التي ظلت في حاجة الى عطر سيد قريش ، وداعاً ، وداعاً ياسيدي الشيخ والف شكر لك على جميل صنعته حيال امرأة تعسة هدم الفرس نصف بيتها ، واحرق الرومان نصفه الاخر . .

— ليلى . .

— وداعاً وداعاً ايها الشيخ الذي خرج الى مؤاساة الضعفاء والفقراء ، قبل ان تخرج الشمس باشعتها المغرية الى العالم الذي يعيش في برد الجاهلية وقرها . وداعا وداعا ايها الرجل الذي احب لقومه عيشاً حالياً بالصفا والنور بينما الليل السرمد لم يفارق عينيه المطفأتين . .

— لا بأس ان يرافقك بعض رجالي الى الصحراء ! ناشدتك الله ان لا ترفضي هذا الموكب الصغير الذي اردته على السير في ركابك !

— انسيت ياسيدي ان هؤلاء الشهداء يمضون الى لقاء الموت في غير موكب ولا حاشية ؟ اني لاجد تسلية عظيمة في الذهاب الى المنفى وحيدة منفردة ، بقي علي ان اذكرك بالوفاء لهؤلاء الشهداء الذين يحصدهم الموت وهم بعد كازهار الحقل . .

— لقد اقسمت لك في العشية الماضية على الوفاء للشهداء وقلت لك ونحن نطوف بالكعبة في هذا الصباح ان للشهداء ديناً علي يحفزني الى الترفيه عن نفوسهم حتى اذا غشيت هذه النفوس غاشية من عذاب رحت احمل اليها فضيلة التجلد والصبر . .

— ورسالتي الى هند ؟ ! لقد كتبتها امس على ضوء المصباح في صومعتك المنعزلة وصورت فيها احزاني وآلامي ودموعي . فما اظنك تتردد في نقلها الى هند الاسوانة الملتاعة

— لا تفارق هذه الرسالة صدري ، وسأبعث بها الى من تحبين في هذا المساء .

— دعني اذن اقبل يديك يا سيدي .

— ليلى ...

— سيدي ! اذا كان احترامك لشجني يمنعك ان تمد يديك المحسنتين الي لاقبلهما فليس يمنعك حبك لاسرتي ان تفسح لي الطريق لتقبيل شعورك البيضاء .

وهنا تهـــافتت ليلى الكندية على ورقة بن نوفل وطفقت تقبل شعره الابيض المستفيض وعيناها السوداوان تطفحان بالدمع وفي قلبها عاصفة الم شديد .

وكانت ليلى الكندية قد خرجت من مأواها في صباح يوم صائف فراراً من القرشيين الذين اندفعوا في تعذيب انصار الديانة الجديدة اندفاع الآتي المنهمر فمرت التعسة بصومعة الناسك متشحة بلباسها الاسود القاتم وطرقت باب الصومعة وهي تنظر الى مكة نظرات ارتماض والم وقد خشيت ان يلحق بها القرشيون فخرج ورقة اليها واصغى الى بثها وشكاتها . ومزج دمعه بدمعها ثم صعد بهـــا في جبال مكة ومعه بعض رجاله .

ولما وصلت ليلى الى الجبل وبدت لها الصحراء توجست خيفة من هذه السياحة الممضة . فرعشت واحس ورقة الذي كان عن كثب منهـــا هذا الخوف الذي يساورها . فسألها ان تخرج الى يثرب . فرفضت وآثرت ان تشق الصحراء العارية عن طريق الجبال مخافة ان تدركها قريش التي اوغلت ايغالا شنيعاً في مطاردة اتباع الديانة الجديدة . وفضلت ان تحتويها رمال الصحراء على الموت حرقاً تحت عيون القرشيين الهازئين بآلام الشهداء .

ولما تهـــافتت على تقبيل شعور الشيخ احس ورقة في قلبه نشيجاً عميقاً فوضع يده على صدره كأنما هو ينزع الى خنق ذلك النشيج العميق فلم يفت ليـــلى شيء من حزنه وجواه . وادركت ان شفقته عليها بلغت الغاية القصوى فسألته ان يرجع الى منسكه وقالت له :

— ينبغي لك ان تعود الى صومعتك يا سيدي قبل المساء لان في مكة جيشاً لجباً من التعساء هو في حاجة الى من يمسح الدموع ويخفف الاحزان،قل لي امنطلق انت؟

فقال لها :

ــ ولكني افضل ان امضي معك الى السفوح حتى اذا بلغت الصحراء عدت ورجالي الى مكة .

فلم تجب وكان سكوتها دليلا على ارتياحها الى ارادته الذهاب معها ، وبعد قليل مشي ورقة الى جانب ليلى في الطرقات الجبلية المقفرة ولحق بهما أولئك الفتيان الذين خرجوا من منازلهم قبل طلوع الشمس .

وكانت الرطوبة في هذا الصباح الطافح باللألاء تحمل الى النفوس شيئاً كثيراً من العزاء المستحب ولكن ليلى الاسوانة التي مرت بعزلات هادئة وادعة في انحدارها الى الصحراء الغارقة في بهاء الفجر لم تجد في السكون العميق الذي يغشى الجبال والاودية والافق ذلك العزاء الذي يهدىء خواطرها الجائشة فجعلت تمشي مشية الواله الملتاع في قلب الموكب الشاحب ؛ ذلك بان هواجسها واحلامها ظلت موزعة بين دمشق التي خلفت فيها هنداً واطفالها تحت حماية المتغلبين من الفرس وبين مكة التي صبت الى حياة العزلة في جبالها .

لقد شهدت ليلى في حياتها البائسة صوراً كثيرة من المآسي ، وطلعت عليها آفاق لا تحبها فشهدت في العراق تلك المذابح الدامية التي انتهت بقتل ملوك كندة ، ثم اغتربت الى الشام فلقيت في ارضها العاشبة تتمة محزنة للمأساة التي نزلت بأهلها في العراق ورأت امرأ القيس آخر ملوك كندة محمولا على اجنحة الالم والعذاب الى القسطنطينية حيث عاذ بقيصر ، ثم شهدت مصرع هذا الفتى النبيغ ، ولم يفتها قليل او كثير من قصة حياة مارية التي هصرتها ريح المنون وهي في عمرها الاغيف ، ثم شهدت تلك المأساة التي انتهت بموت الملك المنذر الغساني على ابواب دمشق ، وشهدت كذلك غارة الفرس على الشام وايغالهم في التشنيع بالغساسنة واحراقهم الدور والقصور والمعابد ، ولما فتشت عن العيش الرفيه في مكة عن كثب من المهد الذي انبثق منه فجر سيد العالم عرضت لها مأساة راعبة انستها مآسي حياتها الماضية ، فرأت

القرشيين الذين لم يرقهم سنى سيد العالم يغلون في تعذيب الضعفاء والفقراء بعد ان جفا هؤلاء عبادة الاصنام والتماثيل ، ثم ابى حظها الجديب الماحل الا ان تشهد في خاتمة العمر المديد الذي ساحته في الدمع والسهد والالم مأساة العراق ، بلى لقد كانت هواجسها موزعة بين هذا العالم السابح في الآلام والدموع فلم تفتنها اشعة الشمس وهي تنحني على رؤوس الجبال ولم يرقها غرق الطبيعة في الصمت العميق ولما غورت الشمس ، وامتدت الصحراء امـــام عيني ليلى بعد طواف جاهد في جبال جمة الاخاديد صاحت الكندية التاعسة :

ـــ لقد بعدت عن سمعي اغاني قريش الليلة في قدرتك ياسيدي ان ترجع الى بلدك

ثم القت نظراتها على الحاشية الصغيرة التي خرجت معها وتأملت في وجوه فتيانها فما شكت وهي تحس خفق صدورهم انهم سيكونون دعاة الحرية في الغد المقبل فانثنت قائلة

ـــ الى لقاء قريب ايها الفرسان في الارض التي ستخرجون اليها بشرائعكم وتقـــاليدكم . .

ان جزيرة العرب لم تزف اليكم غير الجبـــال وغير الرمال حتى ملت عيونكم التحديق الى الأفق الذي تغطيه السحب الصفراء وحتى اجتوت نفوسكم الاصغاء الى عصف الرياح فوق الصخور الغدراء . .

فصاح الفرسان :

ـــ الى الملتقى ! الى الملتقى

ـــ نعم الى الملتقى ، في الامصار التي اقام الرومان على شطئانها المحارس والحصون والقصور ، الى الملتقى في الشام وفي العراق . .

ـــ الى الملتقى في الشام والعراق . .

ولما سجا الليل وراء الجبال عاد ورقة وحاشيته الصغيرة الى مكة ، وانطلقت ليلى الكندية الى الخيام السابحة فوق رمال الصحراء فالتحقت بالقوافل التي اعتادت ارتياد ارض العراق . ؟

الفصل الثامن عشر

الشهداء

احس ورقة بن نوفل وهناً في قواه وهو منحدر الى مكة فامتنع عن السير ووقف امام ابواب المدينة التي احبها في القديم ليستريح من طوافه الجاهد وكانت انوار المصابيح تغمر القصور والحصون والابراج . فطفق اصحابه الذين راحوا يلتفون به ينصحون له بالمضي الى منزله قبل ان يتحيفه برد المساء فما عبث بنصحهم فتابع سيره حتى لقد هم ان يدخل منزله في الحي القرشي لولا انشودة يائسة نقلها الصدى الى اذنيه فترسل في مشيته والتفت الى الناحية التي صدر الغناء عنها وسأل اصحابه ان ينطلقوا الى صاحب الغناء رجاة ان يتعرفوا الى الألم الذي فجر في صدره هذه النغمات الموجعات .

ولم يلبث اصحابه ان رجعوا اليه ، فوصفوا له المشهد الحافز فذهب معهم الى ناحية الصوت فاذا هنالك رجل قد استلقى على صخرة منفردة قد شدت يده اليمنى الى يده اليسرى بمرس غليظة ، وعري جسده من اللباس فبدا ضاوياً هزيلا وكان الى جانبه رماد لايزال فيه بعض الوهج فحل رجال ورقة وثاقه واعانوه على النهوض ، فنهض بعد نصب بليغ وطفق ينظر الى وجوه هؤلاء الذين وفدوا الى صوبه لانقاذه لعله يعرف فيهم صديقاً قديماً يكاشفه باحزانه وآلامه فما عرف فيهم غير ورقة بن نوفل فهش لمشهده واستأنس بطلعته ، وانزرف اليه صائحاً :

— لعلك قد عرفتني ؟

فلم يرفع ورقة رأسه الى محدثه بل طفق يفكر في الصوت الذي خرق سمعه وقد خيل اليه انه يعرف صاحبه من قديم وبعد قليل التفت الشيخ قائلا :

— من الرجل ؟

ــ عمار بن ياسر العبسي .

ــ عمار ؟ يالفتى الشريف ، قل لي اي جائحة رمت بك الى هذه النواحي ؟

ــ أذاكر انت يا سيدي عشية جئت الى دار الارقم مع صهيب الرومي ؟

ــ لقد اذكرني سؤالك هذا حادثاً وددت لو انه ظل حبيساً في صدري .. في تلك العشية الصاردة خرجت قريش من حصونهـا لمطاردة الذين عاذوا بكنف السيد واستساغوا تعاليمه ، فاضطر السيد الى الخروج برجاله وهم يومئـذ يعدون خمسة وثلاثين رجلا الى دار الارقم يعبدون الله مستخفين عن العالم .

ــ وفي تلك العشية جاء ابي وامي الى السيد واستمعا الى صوته باكين ناشجين ثم انطلقا الى منزلها وهما يحملان الى صغارهما صفاء الدين الجديد .

ــ اذكر هذا كله ، واذكر ان امك البارة الرحيمة لم تنس وهي في طريقها الى بادية بني عبس ان تمر بنساء قومها رجاة ان تهز في قلوبهن حنيناً الى الدين الجديد فلم يفت قريش امرها في ذلك اليوم فاعتزموا ان يمنعوها الرجوع الى مكة .

ــ ولكن هذه الأم البارة الرحيمة ماتت وا حزاناه ميتة بشعة .

فصاح ورقة :

ــ لعلك من الهازلين ؟

ــ وابي ! ذلك الاب الذي شارك أمي في حماستها وغيرتها على تعاليم سيد العالم نعم ! ابي الذي احببت في شيخوخته وداعة طفولته الماضية وسذاجة ايامـه العافية ، ابي ...

فصاح ورقة :

ــ تكلم يا سيدي ! تكلم ! ماذا حدث لابيك ؟

فتهافت عمار على يدي ورقة وشدهما باكياً وقال :

ــ لقد قتلت قريش ابي قتلة سوء .

ــ ولكن اباك مر بمنسكي قبل ليلة .

— في هذا الصباح قبل طلوع الشمس افاق ابي من نومه على صياح اليم ينبعث من النواحي المجاورة ، فأطل من الشرفة ليرى صاحب الصوت وقد خيل اليه انه غير بعيد منه ، وهبت امي من رقدتها جافلة مذعورة كأن ذلك الفحام البليغ الذي اخرج ابي الشيخ من دفئه قد امالها وهزها فاقبلت الى الشرفة ووقفت عن كثب من الزوج الذي احبت تنزع الى مشاطرته بعض خوفه وذهوله وفي تلك الفينة ابصر الشيخان على اضواء الصباح مشهداً فظيعاً اراق كثيراً من دموعهما ، وفجر كثيراً من احزانهما ، فلبثا صامتين ، لأن الرعب منعهما الكلام ، ولكنهما ظلا يحدقان الى المشهد الذي عرض لهما واحدهما ينظر الآخر نظرات جنون وارتماض

وبغتة انحسر لهما المشهد فاذا بعض القرشيين يسوقون امامهم بعض الناس في اطمار بالية وسحن كابية وصدور اثخنتها الجراح وقد انهالت ايديهم على هؤلاء المناكيد بالسياط والحراب ومن حولهم صبيان عقل الرعب السنتهم وطبعهم الموت بطابعه فما قدروا على الكلام ، ولكنهم ظلوا ينظرون الى ذويهم المصفدين بالحديد المضرجين بالدماء نظرات حزينة بائسة تغاضى القرشيون عن النظر اليها حتى لا يشجيهم مشهدها

وفي تلك الاثناء ثارت رياح الصحراء فامارت التراب ، فمضى متناثراً في الفضاء ثم اصخد الحر صخداناً عنيفاً فجعل التعساء يرسلون من اعماق قلوبهم انيناً شجياً اثر في نفس ابي وهز قلب امي فهما بصياح وهما على الشرفة فثناهما عنه وهن الشيخوخة وركودها ولكن هذا الانين الشجي لم يهز قلوب القرشيين . فمضى هؤلاء الى اضرام النار على الروابي ، فلما ذكت جاؤوا بالتعساء في الغلائل الرقيقة ورموا بهم الى اللهب الصارخ في غير خوف ولا فزع فاخذتهم النار بين ذراعيها وايديهم ممدودة الى أولئك الصغار الذين مشوا في موكبهم العاثر وبعد حين خيل الى ابي انه يسمع صلصلة عنيفة فنظرت امي الى النار كأنها تنظر الى صورة راعبة في الحلم ثم تهافتت على ابي تقول له : اسامع انت ؟ فقال لها : بلى لقد سمعت ، انها لصلصلة عظام هؤلاء المناكيد ، ولم يكن ابي واهما في تصوراته ، فان ذلك الجرس الراعب الذي خرق

اذنيه . كان صليل عظام أولئك الشهداء فالتفت الى امي وقال لها :

— الا ترين الى هذه المشاهد ؟

فوضعت يدها على عينيها حتى لا ترى تلك النار التي تحتضن فرائسها وقالت :

— بلى لقد رأيت في هذا الصباح شيئاً كثيراً من الصور التي لا تروق، فقال لها:

ما يمنعك اذن ان تعودي الى حجرتك ؟

فسكتت . ولما مدت يدها الى ابي اذا هي تصيح :

انظر ! انظر !

فالقى الشيخ نظرة على الروابي التي تحترق فاذا هي حيــال مشهد جديد واذا امية بن خلف الجمحي يدفع امامه رجلا حبشياً يكاد لا يقوى على السير من الألم فقال ابي لأمي .

اتعرفين هذا الحبشي يا سمية ؟

فقالت له :

هو بلال بن رياح الحبشي مولى ابي بكر .

فقال الشيخ :

نعم ! لقد كان هذا التعس مولى ابي بكر ثم صار لأمية بن خلف ، اي سمية الا ترين اليه ؟ انه غير جازع من الموت .

وكان القرشيون قد بلغوا ببلال ناحية الربوة التي اضرموا عليهــا النار فجاء احدهم اليه ونزع لباسه حتى بدا عارياً ثم تهافت عليه بالضرب الوجيع وهو صامت ثم ركع التعس على قدميه وبسط يديه الى السماء كأنه يصلي فما راقت صلاته القرشيين فالقوه على وجهه وظهره (١) وتقدم احدهم من صخرة فحملها في يديه وراح يلقيها على صدر التعس وهو يقول له : لا تزال هكذا حتى تمــوت او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى (٢)

---

(١) — (٢) — ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤

لقد حدث هذا كله وبلال اشد ما يكون صبراً وجلدا ، انهال عليه جلادوه بالضرب فما تزلزلت له عقيدة، فجنحوا الى تجويعه فما ثناه الجوع عن ارادته . فلما ايأسهم جأشه الثابت منعوه ان يرد الماء فلبث ينافح ، ولقد وصف ابي مشهده فقال لي « لقد كانت على جبينه كبرياء الملوك فلم يذهله العذاب الاليم عن شممه فظل يردد اسم سيد العالم ، وكان هذا الاسم العذب صلاته المعزية المسلية في محنته .

ورأى ابي بعد حين جماعة من القرشيين يتقدمهم ابو بكر فثلج صدره وغامت عيناه من الفرح فالتفت الى امي قائلا : لقد نجا بلال ورب الكعبة .

ولم يكن ابي مخطئاً في الأمر الذي توقع حدوثه فلقد مضى ابو بكر وهو محنق الى ناحية امية بن خلف الجمحي وهز يده قائلا :

« الا تتقي الله في هذا المسكين (١) فجعل امية ينظر الى ابي بكر نظرة ارتياع وارتماض ولم يكن في طوقه — وهو الرجل الذي يعلم مكانة مخاطبه في قريش وفي العرب — ان يفكر في اثارته واستفزازه فالتفت اليه قائلا: انت افسدته فابعدنه (٢) فقال ابو بكر عندي غلام على دينك اسود اجلد من هذا اعطيكه به (٣) قال قبلت فذهب ابو بكر ببلال الى منزله واعتقه وارسل الى امية غلاماً على دين قريش كان عنده

وقبل ان تطفو اشعة الطفل على الجبال المجاورة وفد ابو جهل عمرو بن هشام في حاشية مسلحة فرابط بها حيال منزل ابي ثم خفق الباب خفقاً شديداً فاطل ابي وامي من الشرفة وسألاه عما ينزع اليه فالحف عمرو على ابي في النزول اليه فمنعته امي ان يفعل وصارحته بخوفها من هذه الزيارة الغريبة وتوسلت اليه ان يبقى في حجرته وقالت له : « لقد رأيت في عيني الرجل حمرة الدماء » فضحك الشيخ وقال لها : دعيني انطلق اليه فما احسبه جلداً على قتل الشيوخ ، وعبثا ارادت امي التعسة منع ابي من الخروج الى عمرو فبرح حجرته متوكئاً على عصاه ومتزملا بردائه وشعره الابيض يتدفق على كتفيه .

---

(١) — (٢) — (٣) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤

ولما تلاقى الرجلان قال عمرو : مــازهدك في عيشك القديم ؟ فاجابه الشيخ : زهدني في القديم جمال الجديد ،فارعد عمرو واستتلى قائلا : اتدري ان جديدك هذا قد طوى حياة متصلة بحياة ابائك؟ فقال : — ادري ؟ فهز عمرو كتفيه والتفت الى صحبه قائلا : خذوا هذا الشيخ فعذبوه فلعل الألم لا ينسيه امسه الدابر ؟ لقد كفر بدين ابائنا وازرى بعبادتهم حتى اغرته حماسته للدين الجديد بفتح ابواب منزله امام اعدائنا ، فرفع الشيخ عينيه الى عمرو وانثنى قائلا : اذن فقد جئت لقتلي ؟ فقال نعم فصاح ابي : اقتلني اذا شئت . ولكن دعني على الأقل حيا الى الغد حتى ارى امرأتي وولدي فاودعهما الوداع الاخير ، فضحك عمرو ضحكة متشنجة وقال مردفا : كلا لن افعل شيئاً من هذا ، ثم طفق يعيب الدين الجديد ، فاحنق عمله ابي فلطمه لطمة عنيفة ثارت لها ثائرة الحاشية المسلحة فتهافت رجالها على الشيخ البائس بالضرب الأليم الوجيع فتعالى صياحه فاقبلت امي وشهدت وجه الشيخ العـاني مسفوعاً مقروراً ، بل لقد شهدت دموعه المراقة وهي تغسـل شعور لحيته ، فاثار النزاع الاول بين ديانة السيء وديانة الجاهلية الجهلاء في روحها الفتية المتوثبة عاطفة كبر وخيلاء فزرفت الى ابي جهل ووجهها يطفح جمالا وقالت له : كنت احسبك رجلا سريا نبيغاً ، يحترم الشعر الابيض . ويغض الطرف عن ايذاء الضعـاف ، فاذا بي اراك لصاً دنيئاً قالت هذا ثم وثبت على ابي تريد انقاذه ، ورمت بنفسها بين ذراعيه فتعانق الزوجان وراح الشيخ يرعش من الفرح وقد توامضت على جبينه المتغضن اشعة من رجاء حلو ، واثار مشهد زوجه في نفسه احلاماً متوردة فما عاد شيخاً هرماً فطفق يلمس في اطلال شيخوخته شبابا مفراحاً طروبا ما كان له به قديم عهد

واخذت امي تتأمله وتحدق اليه وعيناها المخضلتان النديتان تطالعان هذا الشباب الذي تجدد في اطلال روحه العافية ، ثم اصغت الى نشيج قلبه فبدا لها هادئا ساجياً فما فاتها في الشيخ الوادع كبر الألم الذي اعتصر نفسه فاحبت ان تستثير شجاعته وحميته ، وارادت لحبه وايمانه استفـاقة دائمة ، حتى لا يرده ضعف الشيخوخة الى

مرد غير مستحب . فالتفتت اليه قائلة :

— اجازع انت ؟

فقال لها ، كلا

قالت : لقد انتهت مسراتنا في هذه الارض ولكنها بدأت جديدة وشابة في العالم الآخر ، ذلك العالم الذي حدثر عنه سيد قريش في دار الأرقم ، اذاكر انت كيف اصغى الناس الى السيد ؟ سألوه ان يدلهم على العالم الذي يمضون اليه بعد موت وعفاء ، فدلهم على الجنان الخضراء في السماء . .

فحنى الشيخ رأسه واستلى قائلا :

— نعم وما زلت اذكر كيف توافى الشهداء الى الموت طمعاً في اجتناء هذه المسرات

وظلت امي تشجع ابي على الصمود للموت وهو بين ذراعيها يضحك لها كطفل حتى وثقت بقدرته على مغالبة الأذى والعذاب . فشخصت الى ناحية عمرو بن هشام وكان لا يزال على الراية ينظر الى هذا المشهد المؤثر مروراً ملتاعا فحسرت عن صدرها وقالت له :

— اقتلني ياسيدي قبل ان تغمس يديك في دم هذا الشيخ ، اقتلني ياسيدي اقتلني

فلم يتكلم وظل ينظر الى حزنها والمها وهو ذاهل فقالت مردفة :

— لعلك قد خفت ان يقول الناس عنك في البلد ، ياله سفاحا ! لقد صبغ يديه بنجيع امرأة .

فرفع عمرو عينيه الى ابي وقال له :

— ما حملك ايها التعس على الوقوف في الشرفة في هـــذا الصباح وليس في شيخوختك ما يمنع عنك برد الموت وقره ، وددت لو انك عذت بفراشك حتى لا يثير مشهدك حماسة رجالي .

وقد خيل الى امي ان ابا جهل عاد رقيقاً شفيقاً فدلفت اليه وقالت :

— نعم لقد وقف على الشرفة في هذا الصباح ولكن صوته ظل نائما في اعماق

صدره ! قل له ياسيدي ان في طوقه ان يرجع الى حجرته ، قل له ان في وسعه ان يضحك

وكانت كلماتها الشجية ابلغ صورة لهذا اليأس الذي جاش في صدرها فخيل اليها ان توسلاتها قد اثرت في نفس ابي جهل. ولكن هذا الوهم الذي علق بنفسها ماعتم ان تبدد حينما ابصرت ابا جهل يغلو في ضحكه واستهتاره فوثقت بموت هذه الاحلام الغالية التي توامضت على جبينها وادركت خطلها في نزوعها الى ترقيق قلب لم تخالطه منذ الطفولة اشعة الرحمة .

اومض ابو جهل الى رجاله ايماضة خفية فاذا هؤلاء يفصلون بين الزوج وزوجه في شيء كثير من الصلف والعنف ، فبكت امي ، وتألم ابي ، وتضاحك عمرو بن هشام واشترك رجاله في ضحكه وعبثه .

وفي تلك الاثناء انحدر سيد العالم عن الجبل في طريقه الى منزله وكان متزملا بردائه وقد راح يتوكأ على عصاه . فابتعث ظهوره حماسة الشهداء فما عادوا يحسون خوفا ، ورأوا في الموت الذي عافته نفوسهم لذة لم يتعرفوا اليها في هذا الصباح ولما مر بالقرب من اماكن العذاب جمد القرشيون في مواقفهم ، فجعلوا ينظرون اليه نظرات غاضت في ركودها وذهولها تلك الحمية التي استأصلت في قلوبهم بذور الرحمة والحنان فواصل السيد سيره حتى بلغ ناحية ابي وعيناه تنظران الى الساحة التي حمل القرشيون امي اليها .

ورأى ابو جهل هذا المشهد فاستحيا ان ينظر السيد الى يديه المضرجتين بدماء الابرياء ولم يكن في طوقه — وهو الرجل الصليب الشديد — ان ينظر طويلا الى النور الذي يخطف على جبين سيد العالم فعاذ بصخور الجبل ، ووارى طلعته في الذروات الرمادية .

حيال هذا الجيش اللجب من الشهداء وقف السيد ينظر الى حزن ابي والتياع امي ، وقد استفاض شعره على كتفيه وبدا جبينه متورداً زاهياً فاثر مشهده في ذينك الشيخين العانيين فنظرا اليه نظرة اودعاها كل ما في قلبيهما من حب وعطف فدنا

منهما واخذ يعلمهما ما ينبغي لهما ترديده وترجيعه في الساعات الاخيرة من حياة مليئة بالاوجاع والالآم! وكانت صلاته تمر صافية حلوة بنفسيهما اللتين حالتا الى هشيم من فرط الألم فاذا هما تُحسان حياة ونماء وتوثباً .

وطفقت امي تردد صلاة السيد وجعل ابي ينظر الى ساعاته الاخيرة مستروحا الى مشاهد حياته الغاربة ثم اختلط همس ابي بصلاة امي . فاذا اسم سيد العالم ينسجم في هذه الصلاة الحلوة البريئة .

ورأت امي سيد العالم يضرب الارض بعصاه ثم رأته ينحني على زوجها ليباركه ثم سمعته يقول له ، صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة (١)

وكانت الابتسامة لا تفارق شفتي السيد فما شك الشهداء الذين رأوا سنى هذه الابتسامة في وفوده عليهم مسلياً معزيا فزالت من عيونهم تلك الحملقة الشاردة التي حرمتهم مشاهد الحياة الماتعة ونظروا اليه متطامنين الى ضباء مقدس يضيء في عينيه

وجعل السيد يطوف بالشهداء مواسياً ومشجعاً حتى استطاع ان يمحو فكرة الموت في النفوس الضارعة المهشمة . فحالت هذه النفوس بعد جدب واممحال الى رياحين تضحك الحياة في صباغها وعطرها ،

ولما عاد السيد الى الجبال خرج ابو جهل من مكمنه مغيظاً محنقاً ، فاستقبله الشهداء بالصياح فانهال على ابي بالضرب الأليم غير حافل بشيخوخته ثم تهافت على امي يريدها على ان لا تقرب من زوجها فابت الا ان تكون عن كثب من الرجل الذي شاطرها مفارح العيش ومناكده فركلها عمرو برجله فهوت الى الارض ثم نهضت واقبلت الى ناحية زوجها تنزع الى تقبيل شعوره فطار صواب عمر حيال هذا المشهد . واشجاه ان تسكب امي دموعها الاخيرة في دموع ابي فانتزع خنجره واهوى به على صدر الشيخ التاعس فزفر زفرة الیمة ثم لفظ روحه بين ذراعي امي استجاش اليأس نفس تلك المرأة النبيلة . فنفرت من ذهولها واغمائها حتى

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤

اشبهت طائراً دهمه الصياد في وكره فوق صخور الجبال فلبث بين صغاره لا يطيق فراقا لمغناه مخافة ان تعصف رياح الموت بعيشه المطمئن الوادع

وكان مشهد المرأة الاسوانة الملتاعة مثاراً لعظمة نفسها المتكبرة . فبدا جمالها من خلال عينيها المكدودتين الواسعتين . بل لقد كانت امي وهي منحنية على جثة ابي كنسرينة فواحة احنت رأسها على سفح ينبوع مترقرق ، ولكن هذا الجمال الذي اترعه شحوب الموت فتوناً ؛ وصقله الحزن لم ينفع في اطفاء شهوة البغض في صدر عمرو بن هشام فمضى الى رجاله يسألهم اقصاء امي عن جثة القتيل فابت الا ان تظل منحنية على الجسد الهامد واخذت تصب قبلاتها اللاهبة في شفتين كانتا الى العشية الفائتة زاخرتين بحرارة الحياة فلما غشيهما شتاء الموت عادتا مقرورتين كالثلج .

وكانت المرأة التاعسة قد خسرت وعيها فجعلت تضحك ضحكا متشنجاً اليما · ثم بكت فاختلطت القهقهة المرة بالدمعة المرة فما شك الذين حضروا هذا المشهد الحافز في جنونها .

وامتنع الفتيان الذين ارادهم عمرو على قتلها من غمس ايديهم في دماء امرأة ممسوسة فعادوا الى اماكنهم ماحلين وكره كثير من هؤلاء الفتيان ان يظلوا من شهود هذه المأساة فانطلقوا الى الجبال المجاورة يبحثون في ربواتها وعزلاتها عن اماكن بعيدة قصية لا يرون فيها صوراً قاتمة .

ولما تطاغى جنون امي اذا هي تثب على عمرو ويداها الممدودتان الى عنقه ترعشان من الالم فافلت الطاغية منها وظل رابط الجأش ، ثم تهافت عليها وانثنى يشد بيديه القويتين على عنقها شداً اليماً حتى غشيتها غاشية الموت فاغمضت عينيها فرمى بها الى الارض فهوت فوق جثة زوجها (١) وعاد عمرو الى رجاله مراحاً مفراحا

(١) مر النبي بياسر وهو يعذب في حي الابطح فقال صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة فمات ياسر في العذاب واغلظت امرأته سمية القول لابي جهل فطعنها في قلبها بحربة فماتت وهي اول شهيد في الاسلام « ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤ »

كنت في الصفا اتحدث الى صديق قديم عرفته في الجاهلية ثم عرفته في الاسلام وكان هذا الصديق القديم يحب السيد حباً جما ويستأنس بنبوته ولا يمل ان يكثر اصحابه من احاديثهم عن رسالته . فلما استحر القتل في جماعة السيد عاذ بعض هؤلاء البؤساء بكنفه فمتح لهم ابواب منزله وقربهم اليه وكان في جملة هؤلاء المروعين المضطهدين الذين استذروا بفيئه شيخ من هوازن اسمه مرة بن مالك شهد في هذا الصباح مناكر القرشيين ولم يفته قليل من تفاصيل موت ابي وامي .

لقد اخذت عيناي هذا الشيخ وهو يبكي واقسم ان سحابة كثيفة من الالم قد اغانت عينيه حتى منعته ان يبصر ما حوله فخيل الي انه عاد اعمى فوافيته وهو في مكانه يترعدد وقد مست، روحي روحه ثم جعلت اعزيه واسأله ان يمضي متجلداً الى النهاية وقلت له ان الاحزان لا تضني النفوس الكبيرة ولا تقتلها ولكنها تميت النفوس الصغيرة التي تستسلم الى اليأس في بداية المعركة فنظر الي مسفوعاً شاحباً فنظرت الى عينيه فاذا الدمع الذي رأيته يسح ويهطل قد انغاض ثم رأيته يتماسك في قعدته كأنه عاد لساعته شاباً جلدا ثم فتح فمه وقال لي : لقد كان ياسر براً بأبيه فما يمنعك انت ان تكون براً بأبيك ؟

فما شككت وهو يرسل القول ارسالا في انه يعرفني ولكن نغمته الحزينة ونظراته الراكدة وحديثه المرمض عن ياسر وعن بره بأبيه ، كل ذلك جعلني ازدلف اليه واتفرس في ملامحه لأعرف اي صلة تربطه الى اسرتي وهو الرجل الذي تحدث عن ابي بلهجة لمست في كل نبرة من نبراتها شيئاً كثيراً من آلام صدره

قلت له ويدي لا تفارق شعره الابيض ، لقد اذكرتني في حديثك عن ياسر شيئاً من حب هذا الشيخ لأسرته ، انه ابي يا سيدي فقال لي : اعلم ذلك يا سيدي ولكنك انت لا تدري اي مطاف انتهت اليه حياة هذا الشيخ ! .

فنظرت اليه ذاعراً وقلت له : او قد انتهى ياسر الى مطاف لا يحبه ؟ ناشدتك الله ايها الشيخ ان تحدثني عن ابي :

لقد تركته عشية امس سليماً معافى يتمتع بصحة وابتسامة فهل ركدت هذه الابتسامة على شفتيه ، ورأيته يمضي راعشاً كلما خطف على جبينه خيال ياسر ثم سمعته يصيح : ماتبتغي من ياسر. لقد كان في الصباح حزمة من الرياحين لحال عند المساء الى كومة من رماد .

فقلت له : وأمي ؟ اتعرف شيئاً عن امي يا سيدي ؟

فهمس الشيخ في اذني قائلا :

ــ اتسألني عن سمية ؟ لقد ودعت امك مغيب حياتها بينما كانت عيناها تنظران الى مسفر صبح سيد العالم .

ثم جعل يقص علي حكاية ذلك الموت الذي وارى سمية وزوجها في سدفته وانا في ذهلة عميقة ، ثم تركت هذا المنزل الذي ضم المستضعفين الى جناحيه ورحت الى منزل ابي افتش في كل زاوية من زواياه عن عطر ابي وامي ، حتى خرجت الى ساحة العذاب فاذا هي خلاء من قريش ثم نظرت الى مداها الواسع فاذا عيناي تصافحان عالماً كبيراً من الموتى فوقفت حيال الجثث الهامدة اطالع آلام الحياة واحزانها في هذه الوجوه التي نصل صباغها وكنت في غرق اليم مثلي فيه مثل ذلك الملاح الذي قاد زورقه في ليلة غابشة مطخية الى اللجج الصاردة فجعل الذين احتواهم الزورق يردون ماء البحر مالحاً غير سائغ وهم يكافحون التيار المخنق حتى ابتلعهم اليم وحتى طوتهم مجاهله .

وقد طغا غرقي وتدافع وانا غير بعيد من جثة ابي وجثة امي ، وكنت انظر الى جبين ياسر فيستهويني صفاؤه الشديد وبياضه الناصع وكانت تلك الابتسامة المتوامضة على شفتي امي اجمل شعر قرأته في كتاب حياة الشهداء الذين اذابوا نفوسهم في جمال فكرة مقدسة .

وكانت اناشيد الشهداء التي اختتموا بها حياتهم لا تزال رطبة ندية في ساحة العذاب.تخيل الي ان صفاءها ينعكس على الصحراء وعلى المدن التي تصاقب الصحراء

فما شككت في قدرة الدماء المراقة في هذا الصعيد على اتراع فكرة سيد قريش بالخصب والامراع حتى تسود العالم .

وانني لكذلك اذا جماعة من قريش تنسل الي فاستفقت من احلامي وانتبهت الى قعقعة سلاح خرقت سمعي ، ثم التفت فاذا عمرو بن هشام على رأسي يحدجني بنظرات لها الله ما اشد وميضها .

وجعلت انظر الى ما حولي نظرة سادرة فلما عرفت ابا جهل اغضنت علي الحمى وجفتني طباعي الهادئة وخلقي الوادع وعدت في الناس سبعاً ضارياً فصحت :

أأنت قاتل ابي وامي ؟

فانطلق ضاحكا كأن ألمي قد حفزه الى لذاذة وهناءة ، ثم جعل يرتص فوالله ما رأت عيناي رجلا مثله في استهتاره بالموتى وعبثه بالذين احتوتهم الارض ، وكررت صياحي :

أأنت قاتل ابي وامي ؟

فاندفق الضحك من فمه فأيأسني اني رأيت على وجهه صورة الرجل المغضر الرافه وروعني ان يعود من ذلك الدم الطليل مغتمراً منزوفاً فجعلت اصيح ورجاله يحيطون بي « لماذا قتلتهما يا سيدي وقد كانا شيخين جليلين . تكلم ! تكلم !

فانقبضت شفتاه عن الضحك وجعل يزحمني بكتفه حتى صك وجهه بوجهي ، ثم قال لي ويده ممتدة الى ناحية الجبال .

أرأيت هذه الطريق ؟ انها تدفع الى صحراء غلفاء .

قلت له راعشا :

— اعلم ذلك ...

قال :

— لخير لك اذن ان تظل صامتاً حتى لا يسوقك لغوك الى مساق لا تحبه ... ان هذه الصحراء حاضرة لابتلاع هذه الجثث التي جئت تسقيها بدمعك المدرار .

قلت : اومانعي انت البكاء على ابي ؟

قال : نعم ! واتذرني بعد فلست افهم هذا الحزن الذي يقرض نفسك ؟

ثم ولاني ظهره وهو ارضى ما يكون عن نفسه . فعلمت انني اخاطب من ذلك الفظ صخرة صماء فرجعت الى صلاتي الهامسة اصب فيها آلامي وهواجسي وكنت انظر الى الجثث الباردة لعل طرفي يقع منها على بصيص حياة وما كنت ادري انني اطيل تأملاتي في فلاة غطشاء لا اسمع للحياة فيها حساً ولا ركزا .

وكان السحاب قد زاد ارتكاماً فوق قنن الجبال ، ولكن النهار ظل يطفو على نواحي البلد ولم يكن ثمة مساء غير مساء الموت الذي غيب في لحمته نفوساً ما كان اغلاها لولا ان حصدها الفناء .

وبغتة رأيت القرشيين يضرمون النار ورأيت ابا جهل يهمس في آذانهم همساً بعدت عني غاياته ومقاصده لبعد المسافة بيني وبينه فخيل الي ان برد الجبال قد افرط عليهم وان هذه النار الغاضبة التي جمعوا لها الاعواد من كل النواحي ستحبوهم الدفء والحرارة ولم اكن ادري ان هذه النار الحاصدة اعدت لتعذيبي وتنكيدي .

ولما واريت عيني بكفي اذا يدان قويتان تشدان على عنقي شداً اليما . ثم رأيتني متوسداً مكاناً قريباً من النار وقد شد الطغاة رجلي الى صخرة ضخمة غشيها دم جديد فأخذ اللهب يطفو ويمتد الى قدمي حتى شعرت بلذعته المخوفة وحتى سمعت صليل الحطب وجرسه فطار صوابي على ذوائب اللهب واخذت اصيح صياحاً كان له صرير بليغ في حواشي الافق .

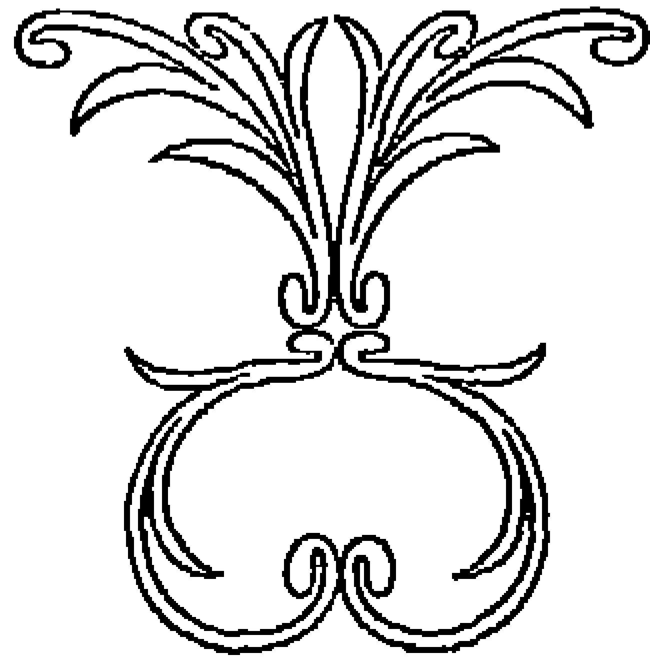
وكان ابو جهل ينظر الى هذا المشهد مطمئن النفس غير مكدود الذهن وكان يحمله على استمراء آلامي ما لم يزل يستحوذ على نفسه من بغضه لانصار الدين الجديد .

ولما استوثق الطاغية من اثر العذاب في نفسي عاد الى رجاله فسألهم اخماد النار فتباروا في اطفائها حتى عادت كليلة ضئيلة ثم ارادهم على فراق هذه الاماكن قبل

هبوط المساء واقبل الى ناحيتي يتدفق في سيره فهمس في اذني قائلا :

— لقد كان ذووك في غضراء من العيش فلمـــا كفروا بار بابهم اذا هم في ليل غميس من العذاب والالم .

ثم تركني ولحق بصحبه الذين انحدروا الى مكة وقد تمكنت على حالتي هذه لا استطيع افلاتاً من قيودي حتى حمل الهواء الي صدى اصواتكم فجعلت اردد شعراً قديماً رفعت صوتي به عالياً رجاة ان اهز في قلوبكم هذه المعـاني السامية التي جاءت حصاد تعاليم سيد العالم .؟



الفصل التاسع عشر

الى غار حراء

كان عمار يتكلم وعيناه تطالعان هذه الوجوه المحدقة اليه كأنه لا يصدق قربها منه ولعله كان على حق في شكوكه فقد كان الى حين روحاً سادرة حائرة انساها الالم والمرض والجوع منبعها ومأتاها وحرمها شعورها واحساسها .

وقد اثرت قصته في ورقة بن نوفل فطفق يتحدث اليه عن ثواب الشهداء الذين لا يأنفون التحديق الى صور الموت المكفهرة زلفى لفكرة مقدسة اترعت نفوسهم التي شوهها الالم وصوحها العذاب بهاء ورواء ، وقال له ان العالم لا يرى في الذين يعذبون ويغتربون وينفون في سبيل الديانة والقومية غير بائسين اجدبت حظوظهم وامحلت اقدارهم وهو لو صقل تفكيره وهذب هواجسه لما ابصر في هؤلاء الذين يستقبلون العذاب والاضطهاد والنفي وادعين رافهين غير زعماء ورؤساء لشعوب عظيمة اوطأ الله لها الارض ذات الطول والعرض .

وانشأ يصف حلاوة التعاليم التي جاء بها سيد قريش قومه وصفاً بديعاً اخاذاً هز قلب عمار واماله فاذا ذلك الرجل الذي اهرمه العذاب قد عاد انساناً جديداً ولما قال له ورقة ان دماء الضعفاء ستطفىء نار الاقوياء ، وان هذه الجثث التي تغطي الارض ، ستتحول الى منابر وعروش في البلاد الوارفة الظل وضع يده على صدره ليحبس خفقانه العنيف ومضى قائلا :

« لقد انساني حديثك ياسيدي ابي وامي ، بل لقد انساني هذا الحديث اللذ جميع آلامي وعذاباتي ! قل لي ياسيدي اين اجد سيد قريش في هذه اللحظة ؟

— في غار حراء ؟ . .

— وماذا يفعل السيد في الغار ؟

فضرب الأعمى بعصاه الارض وانبرى صائحاً :

ـــ انه يرسم بدماء الشهداء حدود العالم الجديد الذي سيخرج اليه عما قريب

ـــ وداعاً اذن ياسيدي ؟

ـــ الى اين ؟

ـــ الى الغار ياسيدي ؟

ـــ وماذا تريد ان تصنع في الغار ؟

ـــ اريد ان احمل الى السيد الآم شهيدين كريمين لم ينسيا وهما في ذهلة الموت ان يحملا معهما الى القبر صورة العالم الجديد ، عالم سيد قريش

فنضا ورقة عنه رداءه وخلعه على جسد عمار الداري وقال له :

ـــ امض الآن في سبيلك وليحرسك الله . .

فدنا عمار من ورقة وقال :

ـــ دعني ابثك حبي ياسيدي !

ثم تناول يدي الشيخ فوضعهما على شفتيه وانبرى قائلا :

ـــ وداعاً ياسيدي وداعاً .

وانطلق يعدو في طريق الجبال غير ملتفت الى ورائه وورقة واصحاب ورقة ينظرون اليه عن بعد وقد اشجاهم حديثه واحزنهم انهم رأوا في سحنته شهيداً تسلل من شهيدين ، ولما وارته الجبال كان الليل قد اغضى اغضاء مرهوبا فالتفت ورقة الى صحبه صائحاً :

ـــ الى دار قصي بن كلاب ايها السادة .

واراد بدار قصي بن كلاب مكة التي اقامت للشعر بناء فخماً كبناء الاكربول في اثينا وكبناء الكابيتول في روما والتي اخذت تتحفز لتطل على العالم لأن الصحراء التي حجزتها بين الرمال والجبال ما عادت تشبع طمحاتها السامية فهي تريد ان تشرف على البحر الرغيب والسهل الخصيب ، لتبني المدن والعواصم وتنافس روما

واثينا في انشاء القباب والعمد والمعاهد والمعابد .

كرر ورقة نداءه :

الى دار قصي بن كلاب ايها السادة .

وكان صوته يخرج من اعماق قلبه محطماً مهشما ، فلمس رفاقه في هذا الصوت رنة الم والتياع ورأوا على جبينه — ذلك الجبين الذي لم تغضنه احداث الليالي — سكونا اذكرهم سكون الموت واحسوا في صدره خفقة جناح الطائر الذي امضى نهاره متنقلا في شتى الآفاق . فارتد في المساء الى وكره مملولا مكدوداً .

وكان وجه ورقة في هذه الليلة الغماء حالياً بنور شاحب رسمته هذه المشاهد الراعبة الطائفة بعينيه المطبقتين خلال صباح وخلال مساء فما شك صحبه ان سنواته العافية قد طفرت من بين جانحتي الماضي حاملة الى حاضره ودائع الألم المقدسة واستيقنوا انه مشرف على موت ، مقبل على عفاء . فحفزهم هذا الجوى الخفي الذي هد قوى الشيخ هدأ الى بر شديد به فتوافوا اليه وحملوه على اكتافهم وساروا به في طريق تدفع الى مصلاه .

وكان على هؤلاء الرفاق الذين قرأوا في احزان الشيخ صفحة مجيدة من كتاب حرية الوطن ان يمروا باحياء كثيرة قبل وصولهم الى الكعبة فلما توغلوا في هذه الاحياء لم يروا فيها شبحاً ولا خيالا ولم يسمعوا حساً ولا حركة فقد كان السكون العميق يغشى جميع هذه الارجاء كأن الذين احتوتهم المنازل واشتملت عليهم الدور قد لفظتهم الغرف والمقاصير الى العالم الآخر .

ولكن هذا المشهد الذي يورث الحزن والانقباض ما عتم ان تبدد واضمحل حينما اقترب موكب ورقة من حي الابطح ففي هذه الحي كانت الحياة تموج بعناصر الفرح واللذة وكان القرشيون الذين سلخوا نهارهم في ترويع المستضعفين والشهداء قد عادوا في المساء الى بيوتهم رجاة ان يجدوا مرح النفس وهواها في الاصغاء الى اناشيد الحب

وبينما كانت المنازل الدانية من الابطح تلوح للناس في الصورة الروعاء الشنعاء اذا قصور القرشيين تسبح في عالم الحب والغناء فترسل الموكب في سيره واخذ الشيخ ينصت الى غناء لذ ينبعث من قصر قديم لامية بن خلف الجمحي ، ثم ماعتم الغناء ان في وذاب ، فاصغى الشيخ اصغاء شديداً فاذا هو يسمع شعراً يتغنى صاحبه بكبرياء قريش بعد انتصارها المخوف على فلول التاعسين .

وكان ورقة يعلم ان اصغاءه الى هـذا الشعر هو البرح المبرح وكيف لا يكون اصغاؤه برحا مبرحا وهذا الشعر الذي استعذت قريش نغماته ورناته قـد ضم اليه عبثاً شديداً بالآم الدين الجديد وشماتة قاسية باحزان شهدائه وقتلاه .

ولم يكن يهد قوى هذا الشيخ الذي اشفى على النهـاية اكثر من تحديقه الى صورتين مختلفتين ، صورة الدمعة المرة في عيني قتيل شهيد ، وصورة الضحكة العابثة في عيني ساخر كنود ، بل لم يكن يرمض عينيه السادرتين اليابستين غير هذا البؤس الذي خلفه وراءه في الاحياء الفقيرة ، وغير هذا العرس الضاحك الذي جاء يستقبله في الابطح .

ولما اراد الشيخ صحبه عـلى المضي في الطريق الذي يدفع الى الكعبة ، خرقت سمعه صيحة اليمة وكان صحبه في تلك الفينة قد التقوا برجل رث الثيـاب هبط عليهم من وراء جدار قصر امية بن خلف فالتفت ورقة الى الناحية التي صدرت الصيحة عنها وابتدر رفاقه قائلا :

— من الباكي ؟

فقالوا :

— هو عبد الصفوان بن امية بن خلف الجمحي .

فصاح ورقة .

— اليس غريباً ايها الفتى ان تريق دمعك وابوك يلهو ويطرب بين قيانه وشعرائه

وكان عبد الصفوان في العشرين من عمره فلمـا صاقب ورقة هز الشيخ يده

وانثنى قائلا :

— لعلك كنت بين هؤلاء المناكيد الذين سامهم ابوك خسفاً في هذا الصباح

فتأوه الفتى وقال مردفا :

— جاء ابي في هذا الصباح الى منزله وهو مغيظ محنق فسأل امي عني وقال لها ان ولدك قد زهد في دين آبائه وعاد يفضل اله محمد على آلهة قومه فاين هو هـذا الابن الذي حمل العار الى بيت ابيه ؟ وكنت ساعة هبط ابي منزله اصلي في حجرة منعزلة من البيت ، ففضلت امي ان تسكت فاهوى عليها ابي بيده القوية فافلتت منه ومضت الى حجرتها تريد ان تجفوه فلحق بها حتى ابصرها تختبيء في ناحية قريبة من الحجرة التي آويت اليها فجعلت التعسة تنظر الى باب الحجرة نظرات خوف وقلق فما فاته في هذه النظرات شيء من معاني ذهولها فاقبل الى الحجرة وفتحها فاذا هو يراني راكعاً فحاول ان ينتهرني ولكنه غص حلقه فلم يقل شيئا ، فمضيت اصلي وطفق ابي ينظر الي حتى نضت نفسه ذلك الخوف الذي تحيفها وحتى املس الذهول الذي تحيفه فعاد وهو اثبت ما يكون جأشاً وقال لي :

— قل لي اي حافز حفزك الى الصبأة ؟ فقلت له :

— او يضيرك يا ابي ان تنزع نفسي شكا قتلها ؟

فلم يتكلم : ورأيته بعيني يجفو الحجرة فخيل الي انه لن يعود وحده ، وكنت اعلم الناس بخشونته وقسوته فسألت الله ان يمنعني غضبه ، وبعد قليل عاد ابي ومعه رهط من رجاله فربط في رجلي حبلا وجرني رجاله الى سوح العذاب ، ثم امرني فالقوني في الرمضاء وجعل يخنقني خنقاً شديدا ، وعمي ابي بن خلف يقول له زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ولم يزل يشد على عنقي حتى توهم انني قضيت نحبي فتركني ثم استفقت فمر بي ابو بكر عبد الله بن ابي قحافة (١) فقـال لي خفف الله عنك وهون ما بك ، ثم حماني الى منزله يريد ان يرفه عني .

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥

وفي المساء عدت الى منزل ابي رجاة ان اتسرق لحظات امي التي احبها فرأيت القرشيين ينسلون الى المنزل كقطعان الماشية. فرحت مختبئاً انظر من صفيق الجدران الى داخل الفناء الذي غص بقريش وصناديدها ولا استطيع خفق الباب،وبيني وبين امي التي اضواها تعسي واحزنها مصيري اكثر من حجاب، وقد تمكثت على حالتي هذه حتى اغسى الليل اغساء شديدا ، وحتى زحف السحاب المرتكم الى قنن الجبال فاخذت أفكر ، ثم اخذت افكر ، وكلما ازددت تفكيراً ازددت مساً وخبالا ، وكلما اردت عن التأمل عزوفاً زدت بالتأمل اغراء وقد اشتملت تأملاتي كلها على صورة امي التي احب .

ثم اجمعت، ان ابقى وراء هذه الجدران حتى يهبط النوم على اجفان الزائرين فلا يفوتني بعد ذلك ان اتسلل الى منزل ابي مستخفياً فاجوس خلال حجرة امي لعلني استرق منها قبلة خرساء وهي نائمة تحلم بطيف ابنها .

وما زلت في موقفي احلم بلذة اللقاء حتى رأيت هذا الموكب فعدت جافياً منقبضاً وشعرت بغيمة اثمة ماتت في ثلجها صورة امي ، ثم خيل الي ان ابي وقد اصخر قلبه ومنعه الله الحياء — لم يطق لبثاً بين قيانه وعيدانه فخرج من منزله مرتداً الى سوح العذاب ليجدد مناكره او ليبحث عني بين الذين حصد الالم افهامهم وعقولهم ولكن نفسي لم تلبث طويلا في غرقها فلقد عدت اليها فرأيتها تطمئن وتركد ، ثم فارقها ذهولها ساعة بدا لها في وجوه رجالك وميض حب ليس لتعس مثلي ان ينظر اليه مستحيا

هذه هي قصتي يا سيدي وافيتك بصورها وانا موقن انك ستلمس في هذه الصور اثراً بالغاً من حياة الشهداء .

وكان صوت عبد الصفوان بن امية بن خلف يخرج من صدره غضاً رقيقاً فاثرت نبراته في نفوس الذين سمعوه ، وجعل ورقة يهدهد آلام هذه الفتى الذي لقي من ابيه في سبيل سيد قريش عنتاً وامتهاناً والما ، فطفق عبد الصفوان يمسح دموعه الدافقة بيده ونظراته الراعشة لا تزال عالقة بجدران بيت ابيه ، ثم اذا هو يتهافت

على ورقة صائحاً :

ـ لقد قرأت آلامي يا سيدي في كتاب حياتي وعلمت اي والدهذا الذي احمل دمه في عروقي ، فهل تنصحني بالرجوع الى امي فاعيش عن كثب منها متخلياً عن هذا الرواء الذي تطفح به حيـــاة الشهداء ، ام تريدني على التجلد والصبر الى اليوم الذي تورق فيه ازهار « سيد قريش » في صحراء العرب · قل كلمتك يا سيدي .

فهمس ورقة قائلا :

ـ ليتني كنت شاعراً اذن لخلدت في اشعاري آلام وطني .

ـ نصيحتك يا سيدي ! نصيحتك الغالية !

ـ اتسألني النصح ؟

ـ نعم واريد كذلك ان تدلني على الطريق التي ارتاح فيها الى حيـــاة غير مكدودة ولا جافلة .

ـ اقترب مني ، نعم اقترب مني · فاني اريد ان لا يفوتك بعض حديثي ، قل لي اتعرف الى اين تدفع هذه الطريق ؟

وكان ورقة يتكلم ويده ممدودة الى جبـال مكة فجعل عبد الصفوان ينظر الى القمم المتوارية وراء سحب الغسق وهو يهمس :

ـ هذه الطريق . انها تدفع الى غار حراء .

ـ ان في الغار لعطراً مقدساً لا تجده في قبلات أمك .

ـ لقد ادركت ما تريدني عليه . في هذا الصباح رأيت قافلة من الشهداء تصعد في هذه الطريق فلحقت بها وسألت شيوخها « الى اين تمضون في هذا الفجر فاومض احدهم بيده الى روابي الجبال وقال لي : الى غار حراء · قلت : وماذا في غار حراء ؟

فصاح الجميع :

« في غار حراء شمس لا تمل ان تطل على سماء حياتنا نحن معاشر المكدودين والضعفاء

ـ قلت : اذن فانتم منطلقون الى سيد العالم ؟

فقالوا :

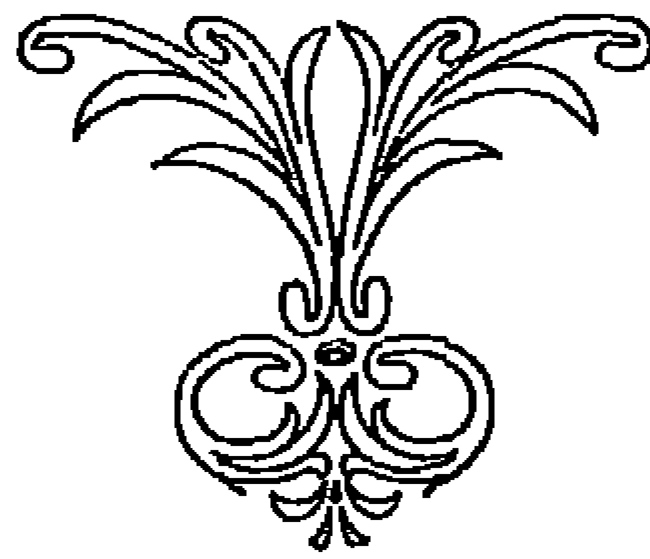
« نعم ! اوليست شمسه اكثر سطوعاً واشد فتوناً من شمس قريش التي لا تحمل الينا غير برد الموت وقره ؟ » قلت بلى ولم ازد على ذلك حرفاً ومضت القـافلة في طريق حراء . .

ـــ أرأيت الآن لماذا اردتك على الذهاب الى حراء ؟ رأيتك في حاجة الى الدفء والى القبلات المعسولة فنصحت لك بارتياد الغـار الذي تظلله شمس دائمة الاشراق ، قل لي امنطلق انت ؟

ـــ نعم ! وفي هذه اللحظة .

واكب عبد الصفوان على يدي ورقة يغمرهما بقبلاته ودموعه والشيخ لا يمنع قلبه خفقة حب وبر وعطف .

ثم ما عتم عبد الصفوان ان توغل في الطريق المفضي الى الجبال فوارته غيوم يزحم بعضها في افق مقشعر النواحي ، مغيم الارجاء ؟



الفصل العشرون

في معبد المعلقات السبع

لم يشأ ورقة مكثاً طويلا في الابطح فازمع هجرانه وقد مل هذه الانغـــام التي تسربت الى سمعه من نوافذ بيت امية بن خلف ولمس في جرسها صلف قريش وخيلاءها وكان يشجيه كثيراً ان تمضي قريش في الطريق الواعر المظلم وهو الذي اراد لحيانها مثل هذا الضياء الذي تطفح به حياة الرومان والفرس في الشام وفي العراق وفي كل ناحية من نواحي العالم ، فطفق يفكر ويستعرض ماضيه .

ماذا كان في وسعه ان يفعل وهو الرجل الضعيف الذي أثخنته جراح الايام بلى ماذا كان في قدرته ان يفعل وشتاء الشيخوخة قد أطفأ في نفسه ذلك البصيص الدائم الذي يرافق النفوس الشابة الوثابة ومنعته الطبيعة ان ينظر الى الجمال والى الحب وارادته سابحاً في ليل مكفهر لا ينتهي منه الى صباح بهي .

لقد اغدقت الطبيعة حسناتها على الرعاة وعلى المساكين ولكنها لم تغدق عليه بعض حسناتها الكثيرة فطوى عمره المديد بعيداً عن التعرف الى الالوان البراقة التي استفاضت على الجبال والشعاب والاودية ابان شروق ، وخلال غروب .

يا له تعسا !

لقد لبث في عزلته المضنية اربعين عاماً ، فلم يذهب خلالها الى بلاد الظـــلال والاعناب ولم يفكر في الانتقال من هذه الجبال الكأباء الى جبال تمور بالزهر والماء وكذلك ظل بعيداً نائياً عن لذيذ النغم فلم تفتنه الخود الرعابيب لا في دمشق ولا في وادي القرى وكان لزاماً عليه ان يصغي وهو في عزلته الموحشة الى عصف الرياح السافيات المتلفعات بالسحب على الروابي وعلى الاودية ثم الى برد الشيخوخة اللاذع الذي تجيش به روحه .

وبينما كان الناس يمضون للترفيه عن نفوسهم في بلاد التاريخ والديانات كان الشيخ الاعمى مسوقاً الى الطواف حيال تماثيل واصنام اقامتها قريش لتخليد الاساطير والاوهام وكان يشعر بحاجة قومه الى الخروج من ركود الخرافة الى ضجيج التاريخ ، ويرى في الشعر الذى استساغته افهام العرب واذهانها غذاء جافا لايستطيع ان يتجه بهذه الافهام والاذهان الى خلق الرائعة التاريخية الكبرى ، ذلك بان العرب الذين احبهم ظلوا خلال عصور عدة في حاجة الى الرجل الذي يستطيع بصبره وجلده وايمانه ان ينتقل بهم من ليل الخرافة الى فجر التاريخ .

وكان في خلواته الماضية يعود الى نفسه فيسألها : كيف يصنع التاريخ ؟ وممن تتألف عناصره ؟ فكانت اطراقة خفيفة يصب فيها تأملاته في وعاء الماضي وحوادثه كافية لارشاده الى الحقيقة التي مرت بنواحي نفسه ثم اخذت هذه الحقيقة تهمس في اذنيه همساً لذيذاً مستحباً كأنها تقول له : يصنع التاريخ من الديانة الصافية وتتألف عناصره من الماضي والحاضر ، ومن وقائع جليلة تنم عن عبقرية الشعب في الفتح والانشاء

ولما شرع يفتش عن ذلك الرجل السامي الذي يستطيع ان يصنع التاريخ من عصارة حسه وشعوره وفكره ، والذي يستطيع ان يدخل الصحراء الى دمشق والى اورشليم ثم الى الهند لم ينتقل من هذه البادية الشجواء ولم يذهب الى القسطنطينية او الى روما للبحث عنه بين الذين يختالون بالطيالس المذهبة ، في قصور غصت بالرخام والبرفير والقباب الملونة ، بل لبث في وطنه يفتش عنه في الجبال الكدراء بين الرعاة والضعفاء .

وفي ذات عشية احس شيخ قريش في طوافه بالجبال تعباً وشعر بيأس شديد من العثور على رجل الديانة والتاريخ فهم برجوع الى منسكه وقد اخذته رعدة خوف من غابر مظلم وحاضر قلق ، ومستقبل مبهم ، ولكن صوتا خفياً ما عتم ان تردد في اعماق نفسه فاستفزه الى رجاء جديد واخذ هذا الصوت الخفي يقول له : « عد الى الجبال فانك واجد فيها ذلك الرجل الذي تفتش عنه »

وفي صباح يوم جم اللألاء ، مستبحر الضياء خرج الشيخ من منزله متوكئاً على عصاه فصعد في الجبال ، ثم طفق ينحدر عنها ثم ارتد اليها حتى امضى زلفاً من نهاره صاعداً هابطاً وحتى انتهى به مطافه الى حراء فاذا هو عن كثب من رجل الدين والتاريخ

نعم في غار حراء وجد ورقة بن نوفل يتيم قريش ، وفي غار حراء المنعزل عن الانهار والبحار والمدن العظيمة وجد الاعمى الحكيم ذلك الانسان المهذب الذي اصطعنه الله لأنشاء المدن والقرى والمعابد والصوامع والصروح ليس في الصحراء النشوى من سحب قائظة مشبوبة ولكن في الشام والعراق ومصر والقسطنطينية والهند

ولما عاد ورقة الى مكة ليحدث قريش بالنبأ السار تو امضت على عينيه اليابستين المطفأتين اشعة غريبة رأى تحت سناهـــا حدود العالم الكبير الذي سيتفيأ رايات سيد قريش ، وخطف على قلبه جمال هذا العالم العجيب الذي سينتزع من رومـــا وبزنطية واثينا جميع البلاد التي خضعت للرومان والأغريق في آسية وافريقية فمضى متحمساً لدعوة اليتيم الكبير وكان اول الناس ايمانا بنبوة تفاوح عطرها في السماء قبل ان يتفاوح في الغبراء .

اذن فهذا الشعر الذي ظل القرون الطوال غذاء بارداً للافهام والاذهان قد بدله الله ديناً صحيحاً واذن فتلك الخرافة التي ولدت الشعر وولدت الأهواء ستجفو مكانها القديم ليحل التاريخ محلها فيه .

استعرض ورقة بن نوفل الماضي كله في ومضات من خواطره المتوثبة ، وكذلك استعرض الآم الشهداء فلم تزحزحه شدة هذه الآلام عن ايمانه بتغلب الدين الجديد على النفي والاغتراب والألم والطوى .

ولما انتهت به تأملاته الى هذا المدى ، كانت الكعبة جد دانية منه ، فانحدر عن مناكب الذين حملوه من رجاله ، ومشى اليها بين رجلين اثنين ، يضرب بعصاه الارض وعيناه المغمضتان تنظران الى البيت الذي كان ابراهيم اول بناته واول حماته .

وكان لزاماً عليه ان يمس هذه الاصنام التي تلتف بالكعبة ، ففعل ذلك وهو

شاعر بقر المساء يرتمي على رخامها وحجارتها ، ولم يكن يأنس بهـا او يستروح الى مشاهدها ، بل كان يلمس فيها عدا برد المساء برد الموت وثلجه ويرى في اشكالهـا وصورها طيفاً ضئيلا لجاهلية خاملة بليدة .

ثم ما لبث ان اعرض عنها دائباً على طوافه حتى وقف حيـال الكعبة فاسند ظهره الى بابها ومضت عيناه متوغلتين في الجبال وفي السفوح وقد تسـايل من المصابيح المتوامضة فوق باب الكعبة نور ضعيف ترقرق على تلك التماثيل الشاحبة الهزيلة ، ثم أخذ يطفو على جبين ورقة .

لقد كان اول سؤال جرى على لسانه وهو حيال الكعبة همساً ضعيفاً لم يخرق آذان الذين يلتفون به لأن هؤلاء الذين اعتـادوا ان يحترموا صمته وحزنه ظلوا بعيدين منه وظلت عيونهم تحدجه بنظرات لم تركد في لمعانها صور الحب والرحمة

وكانت الاصنام التي انتشروا حولها تلقي بينهم وبين شيخ قريش ظلالا غائمة يزيدها إرتكام الظلام تعتيما وقتاما .

سأل ورقة نفسه « الم يحن لعهد الشعر ان ينقضي ؟ » .

ثم ادار بصره الى ناحية الباب وراحت يده تسقط على حروف بارزة كتبت بالذهب ثم اذا هو يجس هذه الحروف ثم اذا رأسه يتدلى على صدره ثم اذا هو يقول:

« بلى لقد انقضى عهد الشعر وجاء عهد النبوة .

اربعة آلاف سنة مرت بالشعب العربي وهو منكمش في الصحراء ، اربعة آلاف سنة تصرمت وهذا الشعب الذي طغت عليه امواج العصور لا يبرح جديداً كأنه ولد في هذه العشية وكأن احلامه بالخلود قد ولدت ساعة ولد وساعة وثب من المهد.

نعم ! اربعة آلاف سنة مرت بالشعب العربي وهو خالد لا يتسرب الى روحه هذا الصدأ الذي ذابت في سدفته المخوفة بابل واشور ونينوى ومصر .

اربعة آلاف سنة فنيت وانمحت كوميض البرق ثم تراكم رمادها على ارض الوطن ثم اذا هذا الرماد الخابي الذي اذرته الايام والاعوام على الرمال والجبال

ينقلب نوراً فتانا ، ثم اذا الناس يرون هذا النور يتفجر من جبين سيد قريش .

قرأ ورقة على النقوش المذهبة اسماء شعراء الجيل الماضي فلمس في اسم امريء القيس بن حجر وفي اسم النابغة الذبياني بداية رائعة للغة الوطن ، ثم امر يده على اسم علقمة بن علاثة واسم لبيد ، وقرأ في قصائد الشعراء الخالدين تاريخ لغة الوطن في ثلاثين سنة تتالت على غارة الاحباش ، ولما استعاد بعض سور القرآن لم تفته النهاية البارعة التي انتهت اليها لغة منتصرة في اشور وبابل ونينوى والبلقاء ودمشق فانتفض انتفاضة الصقر وطفر من ليل الشيخوخة الصارد الى فجر الشباب الناعش الدافيء بل لقد عاد ينظر الى الماضي كأنه يبصر وكأن الالوان والاشياء التي تراءت له في صور الماضي ليست غريبة عنه ثم اذا هو يتخافت بصوته كأنه يقول :

« هنالك في العالم ميادين واسعة ظلت في عزلة عن جمال لغة امريء القيس والنابغة ولكن سيد قريش سيحمل في الغد جمال لغة القرآن الى هذه الميادين » .

لقد كان ورقة في وقفته على باب الكعبة في هذه الليلة المدجان ينظر في امد واحد الى الماضي والى المستقبل.نعم كان ورقة ينظر الى عصور اللغة العربية الماضية والى عصورها الآتية.فلا تفوته قدرة هذه اللغة على التوغل والفتح في امصار جديدة بعيدة من دمشق وبابل واشور ونينوى .

اخذت ظلال الليل تمتد الى جبين الاعمى العربي فكان مثله في وقفته حيال الاكربول القرشي مثل هوميروس اعمى الاغريق في وقفته على الاكربول الاثيني.

وقف هوميروس قبل بضعة آلاف سنة على هضبة اثينا المطلة على البحر الازرق وطفق يردد ويده على قيثارته اشعار الالياذة بلغة وطنه فاثارت نغماته شجو الامواج في شواطيء بحر ايجه والادرياتيك .

وفي هذه الليلة وقف ورقة بن نوفل على باب الكعبة،امامه الصحراء ومن خلفه بلاد الظلال والاعناب ليسمع شعوب الارض شيئا عاليا نغما من لغة الماضي ولغة المستقبل ولو كان لهذا الشيخ الذي حرمته السماء النور قدرة النبيين والرسل

على اختراق حجب المستقبل لاستطاع وهو في وقفته حيال الكعبة ان يمتد بنور قلبه الى فارس والهند ومصر وقرطبة وآسية وافريقية حيث اقامت لغة قريش محارسها الى الابد في حصون تتراخى عنها لغات الغزاة والفاتحين .

طالت وقفة الشيخ القرشي حيال الكعبة فخيل الى رفاقه انه قد ادنف فزرفوا اليه فاذا هو يلوح لهم مستنداً الى عصاه وعيناه الراكدتان تنظران الى جبال مكة فقال له احدهم مترفقا حادبا .

— انها لليلة قرة ياسيدي افلا تشعر بحاجة الى الدفء ؟

فاطرق الشيخ اطراقة خفيفة واستتلى قائلا :

— صحيح ؛ انها لليلة قرة .

ولم يكن في قدرته وقد طاف في هذا النهار بالجبال والحزون والأودية وشهد سوح العذاب والألم واستمع الى نحام الشهداء ونشيج الضعفاء، لم يكن في قدرته وقد مر بهذه الأصنام الباردة الذاهلة واستعرض الماضي والحاضر ان يقول اكثر من ذلك ثم شجي شجا اليما فخيل الى الذين سمعوا خفقة قلبه انه مشرف على موت ، مقبل على عفاء ، بل خيل اليهم وقد رأوا يده تنسدر على صدره من فرط الاعياء انه لن يطوف نزلة اخرى بهذا البيت المقدس الذي عكف فيه على عبادته البريئة الصافية .

واخذت صورة الكعبة تتراءى لعينيه السادرتين في هذا المساء الاخير من حياة لم تجد ايراقها الا في الالم والاسى فقال مردفا :

— صحيح ؛ انها لليلة قرة !

والتفت الى الكعبة ، واخذ يلمس ابوابها وجدرها فمرت يده بالنقوش المذهبة فتمسح بها حانيا حادبا ، ثم ضرب الارض بعصاه صائحا :

وداعا وداعا يادار قصي بن كلاب ، وكان نحامه يتفجر من صدره ضعيفا فاحاط به صحبه وانطلقوا به في طريق تدفع الى منزله وهو صامت صمت هـــذه الصحراء النائمة وراء جبال ام القرى .

مرت ايام عدة على الحوادث الماضية في ذات صباح اجتمع صناديد قريش وسادة مضر حيال الكعبة وبين هؤلاء المساعير الذين جفوا داراتهم قبل انبلاج الصبح ابو جهل عمرو بن هشام وعبد العزى بن عبد المطلب المعروف بابي لهب وامية بن خلف الجمحي .

ثم وفد على الكعبة خلق كثير فانتشر بعضهم حول الاصنام والتماثيل ومشى بعضهم الى البيوت فصعدوا الشرفات والسطوح ليشرفوا منها على الكعبة ونزل شعراء قريش في اماكن دانية من دار الندوة .

وبعد قليل وفد على الساحة موكب ابي سفيان بن حرب سيد بني امية ، فتفرق الناس امامه وفتحوا له طريقا يرتادها الى الكعبة وكان ابو سفيان في محفة بيزنطية حالية بالنقوش الملونة وقد حملها بعض عبيده على المناكب والتف بها فتية من عبد شمس لم تخضب الصحراء وجوههم بسمرة او حمرة فلبثت هذه الوجوه بيضاء كالغمامة

كان ابو سفيان بذاخا في قومه وكان اشد القرشيين ايثاراً للحياة التي يخالطها ضجيج الشهرة وكان على كبريائه وعنفوانه حليما عاقلا مهذبا فلما شهد الناس موكبه لم تبهرهم نفاسته ولم تذهلهم روعته كأن الحلم الذي رأوا صورته ماثلة في عيني السيد الاموي قد عاد مالئا اذهانهم وقلوبهم وشواعرهم فما عادوا يفكرون في كبرياء الموكب ولكن هؤلاء الذين شهدوا في هذا الصباح قيصرية ابي سفيان ولمسوا في جبينه اثراً من شهرة معطرة وعنفوان عريق لم يكن في وسعهم ان يخفوا قلقاً خامر نفوسهم حينما رأوا السيد الاموي ينحدر من المحفة وحينما ابصروه يمشي الى الكعبة مشية الرجل الملتاع وقد كان الى العشية الماضية مفراحاً ناعما ، وكان عيشه في قومه رسيغاً رخصا .

وطفق هؤلاء الذين انتشروا كالغمام حيال الكعبة عن كثب من مصلى ابراهيم ينظرون تارة الى وجوه القرشيين المحبورة وتارة اخرى الى وجه ابي سفيان الشاحب من فرط الالم ومع ان هؤلاء كانوا يعلمون اي نشوة ولدت في نفوس

القرشيين من انتصاراتهم على البائسين والمستضعفين فقد ظل الاسى الذي لاح لهم في عيني السيد الاموي غريباً عنهم فلم يتصلوا بنواحيه ولم يعرفوا كثيراً او قليلا من العوامل التي اذكته وفجرته فودوا لو انهم يستطيعون الى قلب ابي سفيان وصولا لعل لخام هذا القلب ينقل اليهم صورة صحيحة ليأس الرجل الذي عرفوه قديماً أعلق غطاريف مضر بمفارح العيش واشدهم لصوقاً بلذاته .

ولم يكن في قدرة احدهم ان يسأل ابا سفيان عن هذا الجوى الخفي الذي يهده هداً فانقطع همسهم وعاذوا بالصمت واخذت وفود القبائل تترى على الكعبة من كل فج عميق حتى غصت السوح والميادين بكل نابه عليم وحتى امتلأت بالشعراء والبلغاء وكان بين هؤلاء الذين توافوا في هذا الصباح الى الكعبة امية بن ابي الصلت شاعر ثقيف وعبدالله بن الزبعري شاعر قريش . والوليد بن العاصى من فحول شعراء بني عبد شمس وكان يخيل الى الناس ان عهد الشعر في مكة قد عاد جديداً بعد موت شعراء المعلقات السبع بل لقد كان يخيل اليهم ان شعراء الماضي كامريء القيس والنابغة ولبيد وعلقمة وعنترة قد خرجوا من قبورهم ليطوفوا بالدار التي الهمتهم الهاماً حسنا رائعا .

وكان ابو لهب يلوح للناس تعبا ضاويا كأنما هو قد مل الانتظار وكأن تحديقه الطويل الى رواهص الجبال واصلادها قد جعله يتبرم بصورها التي لم تتبدل في عينيه وكان من حين الى آخر يفيء الى نفسه فيهمس في قرارتها همسا لا يفوت هؤلاء الذين كانوا عن كثب منه وكان يقول :

— لقد ابطأ ، انه لم يرجع الينا فلعله قد صبأ ؟

ولما استطالت تأملاته وامتد به الانتظار الوى برأسه الواء شديداً والتفت الى رجل قريب منه وقال له :

— اخشى ان يكون محمد قد استماله اليه ؟.

فلاحت على وجه الرجل غبرة حزن شديد وانبرى قائلا :

— في صباح الامس قبل مسفر الصبح ، رأيت الوليد بن المغيرة شيخ قريش يتسلق الصخور والاصلاد فسألته الى اين معادك يا عم فاومض بيده الى ناحيةالجبل وقال لي :

— الى يتيم ابي طالب ، ثم نظر الي واردف :

— ايدهشك ان امضي الى يتيم ابي طالب ؟

قلت :

— كلا ، ولكني احب ان اعلم ما تصنع عند هذا اليتيم ؟

فقال لي :

لقد قال ناس انه شاعر وقال بعضهم بل هو ساحر وقال آخرون انه كاهن فلما اختلفوا على اي الثلاثة هذا اليتيم جاؤا الي وأرادوني على الذهاب اليه رجاة ان اتعرف الى حقيقته .

فقلت له :

ولكني اخشى عليك منه فانه فاتن البيان .

فقال لي ضاحكا :

—لا تخف فلن يبهرني بيانه ثم رأيته يطفر فوق ذرى الجبل ثم وارته الصخور الرمادية .

وكان ابو لهب أشد ما يكون اصغاء الى حديث ابي جهل ولكن عينيه ظلتا تنظران الى الافق البعيد والناس لا يعافون التحديق الى روابي الجبال وفي تلك اللحظة تراءى لأبي لهب خيال ينحدر من جبل ابي قبيس الى مكة فصاح :

— لقد أتى ...

فنظر ابو جهل الى ناحية الجبل وراحت عيناه تلحظان خيالا ضاوياً هزيلا ثم ما عتم الخيال ان بدا للناس جميعاً فصاح ابو جهل :

— هو ورب الكعبة .

فصفق ابو لهب بيديه صائحاً :

ـــ الوليد بن المغيرة . الا ترون اليه ؟

واجتمع على صياح ابي لهب صناديد قريش وقد احسوا تبرماً بوقوفهم الطويل على باب الكعبة وكان عقبة بن معيط أشد هؤلاء شعوراً بالملل فالتفت الى ابي لهب وقال له :

الا ترى الى الشيخ كيف تقحل من الكبر والضنى ؟

فقال ابو لهب :

ـــ او تربده شاباً وقد قحم في نهاره شعاباً واودية وهضابا ؟

يا للبؤس ! ان من ينظر اليه وهو على بعيره يرتهش من الألم ، لا يمنع عينيه ان تعودا مخضلتين بالدمع .

ـــ او تحبه ؟

ـــ اشد الحب ! . .

ـــ اتظنه قد افلح في سعيه ؟

ـــ ليس لمثلي ان يعلم الغيب !

فضحك عقبة واستتلى قائلا :

ـــ ولكنه ابن اخيك ياسيدي .

فحدج ابو لهب عقبة بن معيط بعينين نديتين بالالتياع ومضى قائلا :

ـــ احذر ياسيدي ان تقول سوءاً عن ابن اخي . .

ـــ اتدافع عنه ؟

ـــ كلا ولكني لا اسمح لأحد ان يتحدث عنه بسوء امامي !

فسكت عقبة ولكن قلبه لم يسكت بل ظل يجيش بالحقد والحسد والغيرة وفي تلك الاثناء بلغ الوليد بن المغيرة سفح الوادي وهو راكب بعيره فصاح ابو لهب

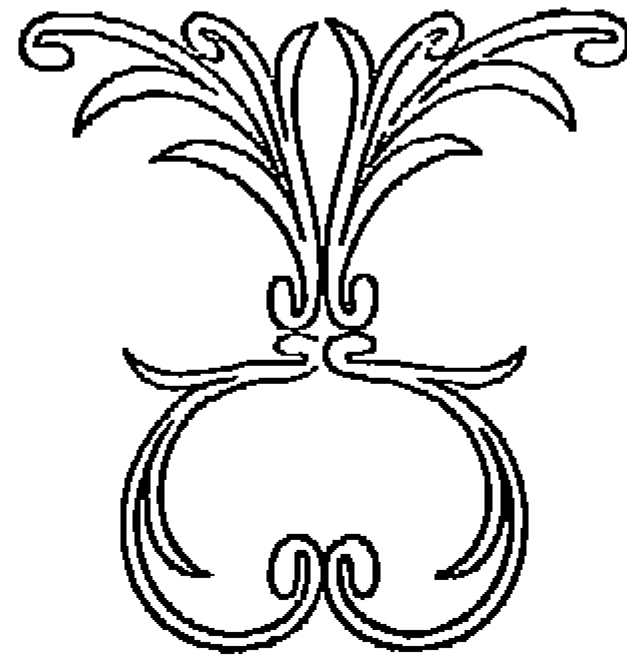
ـــ الا ترون اليه ! لقد الاعته الشمس الآعة شديدة .

وتتالت لحظات بطاء خيل الى الناس انها الدهر ، وبعد قليل اطل الوليد بن المغيرة على الجماهير الحاشدة حيال الكعبة وقد خلف بعيره في الوادي فلحق به النـــاس والتفوا حوله وطفقوا يمسحون غباراً كثيفاً علق بردائه وهـو ينظر اليهم مسفوعاً مقروراً كهذه التماثيل والدمى القائمة حيال الكعبة .

ولما اطمأن وأرفه مشى الى الكعبة وجاس خلالهـــا فلحق به صناديد قريش وســـادة مضر .

وهنالك في الكعبة فناء واسع قد ازينت جنباته بالنقوش والالوان الزاهية وغصت اطرافه بمقاعد من المرمر النقي قامت حولها تماثيل واصنام .

في هذا الفناء حيث عاش الشعر العربي الى جانب الاسطورة القوميـة اجتمع صناديد قريش وسادة مضر تحت ذوائب الصباح لدراســة القرآن الذي لمسوا فيه شيئاً اسمى من ذلك الشعر القديم الذي خالط حياتهم خلال عصور بعيدة . ؟



الفصل الحادي والعشرون

الوليد بن المغيرة

قبل ايام خرج شيوخ قريش الى الصفا فاستمعوا الى سيد العالم وهو يقرأ القرآن ثم عادوا الى بيوتهم وقد أخذتهم حلاوته وبهرهم بيانه فاحسوا في نفوسهم عجزاً عن منافسته في بليغ القول، وصفاء الاسلوب وخيل اليهم — وقد اصغوا الى وصف السماء والجبال والانهار والبحار والجنات والعقاب والثواب — ان سيد قريش عاد شاعراً وان شعره الذي احتوى هذه الصور قد اورف وامتد حتى كادت ظلال الشعر القديم تتقاصر امامه وحتى اوشكت ان تغيب الى الأبد.

وفي خلال معادهم الى بيوتهم ومساكنهم جعل شعراؤهم يقولون «ما عرفنا لهذا الكلام الذي سمعناه مثالا لا في شعر امريء القيس ولا في شعر النابغة»

ولما استوثقوا من عجز بلغائهم وفصحائهم عن مجاراة هذا الجديد الخالب في روعته وصفائه فزعوا الى كبير شيوخهم الوليد بن المغيرة وكان افصح القرشيين لسانا واعذبهم بيانا فسألوه ان يمضي الى الرسول وهو في مصلاه ليسأله من اين جاء بهذا الجديد الرائع فانطلق الشيخ الى الرسول واستمع الى سورة «الرحمن علم القرآن»، ثم ما عتم ان ارتد الى قومه ناشجاً شاجناً وقد أخذته حلاوة القرآن واستهواه في صوت النبي جرس فاتن عذب المذاق.

وكان فناء الكعبة في هذا الصباح يغص بامراء البيان، واعيان الفصاحة من تميم وعبس وعدنان، وقد هجر هؤلاء اماكنهم ودارائهم لاستماع ما يقوله هذا الرجل الذي كان يكسو الكعبة من ماله (١)

وبينما كانت قريش تتهافت على الكعبة اذا مكة في هذا الصباح المصحي تسبح

---

(١) ابن الاثير

في لألاء بديع وقد اراقت ذكاء عـــلى الجبال الحمراء ظلالا جمة الالوان فامتدت هـــذه الظلال حتى شملت الصحراء وحتى شقت طريقها الى الاراضي الفيحــاء مما يلي بلاد النبط ووادي القرى حيث يستريح ابطــال الخرافة العربية في صمت الموت العميق

في هذه اللحظة الروعاء نهض الوليد بن المغيرة — وكان يكنى ابا عبد شمس — ويده مستندة الى عصاه فشخصت اليه الانظار ووقف ابو جهل عمرو بن هشام عن كثب منه يحدق الى شعره الذي لهزه الشيب وينظر الى شجن بليغ يطفو على وجهه وجعل ابو سفيان ينظر الى هذا المشهد قلقاً راعشاً كأنما هو قد ادنف وكأنه لايلذ هذا الاجتماع الذي دعت قريش اليه ابناء عدنان واحفاد قحطان .

ولم يكن ابو لهب عم النبي اقل ارتماضاً والتياعاً من رفيقيه عمرو بن هشام وابي سفيان بن حرب فلقد راح هذا الرجل الذي حفزته كبرياؤه الى مناهضة سيد العالم ينتبذ ناحية قريبة من الوليد بن المغيرة وطفق يلعب بغدائره الضافية على كتفيه حتى يسترجع رباطة جأشه .

ولما فتح الوليد فمه ليتكلم اذا امية بن ابي الصلت يمضي الى التحديق في الدمى والتماثيل رجاة ان لا يرى سحنة الشيخ الشاحبة الكامدة .

وظل الوليد صامتاً مطرقاً حتى خيل الى الناس انه لا يستطيع كلاما ، ثم تخافت بصوته فقال :

— لقد سمعتم بأمر صاحبكم — يريد الرسول — فاجمعوا اليه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضــا ، قالوا يا ابا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به قال بل انتم فقولوا اسمع . قالوا (١)

— نقول ان محمداً كاهن .

قال لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه

(١) سيرة ابن هشام .

قالوا فنقول مجنون، قال ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا فنقول شاعر، قال ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه قريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا فنقول ساحر، قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم (١)

فوثب ابو جهل اليه مغيظاً محنقاً وقال له:

يا عم ان قومك يريدون ان يجمعوا لك مالا يعطوكه (٢)

فتخاذفت عينا الوليد بالدمع ولكنه لم يغضب بل عاد ينظر الى ابي جهل نظرة رثاء وتوجع وانبرى قائلا:

— لقد علمت قريش اني من اكثرها مالا، واني لا اقول كذبا.

ثم ادار عينيه في وجوه القرشيين حتى لاح له ابو سفيان وهو حاسر الرأس فصاح به:

— في وسعك يا ابن حرب ان تقول كلمتك في الوليد بن المغيرة هنا تحت استار الكعبة، نعم في مقدورك ان تعيد امام الناس كلمة قلتها يوم احجمت قريش عن هدم الكعبة وتجديد بنيانها.

فطفر ابو سفيان من مكانه حتى وقف بين الوليد وابي جهل وقال:

ما زلت اذكر كيف تسايل القرشيون من كل فج عميق لتجديد البيت الذي بناه ابراهيم، لقد كان ذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة، وكان النهار قائظاً وقد اماخت الرياح الاشجار حوالي جدة ولاح الناس لوحاناً شديداً فخرجنا الى الشواطيء نبترد بهواء وماء. وكنا في ذلك اليوم عشرة من عيون قريش بيننا هذا الشيخ الذي تنظرون اليه، وكان البحر في ذلك اليوم قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت (٣) فاخذنا خشبها واعددناه لسقف الكعبة ثم رجعنا

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) و (٣) الطبري ج ٢ ص ٢٠٠

الى مكة وشرعنا في الهدم فكان اول من حمل الحجارة على كتفيه ونقل الخشب في يديه هذا الرجل الذي ترون ، لقد سمعته بأذني يقول :

« يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم الا طيباً ولا تدخلوا فيها مال بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة احد من الناس فهابت قريش هدمها وفرقت منه فقال الوليد انا ابدأكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع ، اللهم لا نريد الا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص به النـــاس تلك الليلة وقالوا ننظر فان اصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت وان لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غادياً الى عمله فهدم والناس معه حتى انتهى الهدم الى الاساس (١) وحتى استحالت الكعبة الى صرح رفيع .

فصاح ابو جهل :

— اعرف هذا كله ، ثم التفت الى الوليد وقال له :

— اذن فقل في محمد قولا يبلغ قومك انك منكر له (٢) فانهم هنا يخافون ان يكون قد استمالك اليه .

فقال الوليد :

— وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل اعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن ، ووالله ان في قوله الذي يقول لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر اعلاه مغدق اسفله وانه يعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته .

فالتفت ابو جهل الى القرشيين وقال لهم :

واحزاناه ! صبأ الشيخ وترك دين آبائه ثم ضحك ضحكة خشنة واستلقى قائلا:

— وددت لو انني كنت ذلك الرجل الذي ارادته قريش على استماع هذا الجديد الذي جاء به يتيم ابي طالب .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٢٠٠

(٢) الطبري ج ٢ ص ٢٠١

فهز الوليد يدي ابي جهل صائحا :

ــ اذن فماذا كنت تفعل ؟

ــ أمهددي انت ؟

ــ كلا ولكني اريد ان اتعرف الى المدى الذي تقف شجاعتك عنده · قل لي اكنت تقول له شيئا ؟

ــ أتسألني ماذا كنت افعل ؟ انطلق اليه واجلسن له بحجر ما اطيق حمله فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه (١)

فصاح الوليد :

ــ او تفعل هذا انت ؟

ــ نعم !

ــ ولكنك لا تستطيع ان تعمل عملا يثير عليك حنق ابي طالب ، أنسيت ان فتيان عبد المطلب يحمونه ويذبون عنه ؟

فضحك ابو جهل ضحكة جشاء واردف قائلا :

ــ لقد مر بي هؤلاء عشية الامس فاخافني مشهدهم ، اتدري مــاذا رأيت في حدجات هؤلاء الفتيان ؟ اتدري اي بروق تو امضت على عيونهم ؟

ــ عمرو !

ــ امهددي انت ؟

ــ كلا !

ــ اذن فاي حافز حفزك الى الاعتزاز بهؤلاء الصبيان ؟ الأني سألتك امراً فابيته علي ؟ والله ما يرضي قومك عنك حتى تقول فيه شيئاً يبلغ قومك انك منكر له (٢)

فتخلج الوليد وشجي شجاً اليماً فقال ابو جهل :

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠

(٢) البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس .

ـــ أرأيت كيف ارعشك حياؤك من قومك ؟

فقال الوليد :

ـــ ناشدتك الله ان تدعني افكر .

وأطرق رأسه الى الارض كأنه يفكر وطفق الناس يحدجون هذا الشيخ الذي اناف على الثمانين بنظرات قلقة راعشة وهم لا يعلمون ما سيقوله ثم رفع الوليد عينيه الى ابي جهل وقال له :

ـــ ليس لي ما اقوله ..

ـــ اي شيخ قريش ! اهذه هي بلاغتك ؟

فتمايح الوليد من الالم واردف قائلا :

ـــ انه لسحر يؤثر ، بلى انه لسحر يؤثر (١) .

ـــ ما أبلغ ما قلت !

وكان يقول ذلك هازلا ثم ادار عينيه في القرشيين ومضى قائلا :

ـــ لقد رأيت هذا الشيخ في يوم الرهان بين عبس (٢) وذبيان ، بلى لقد

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس .

(٢) يوم الرهان من ايام العرب المشهورة في الجاهلية وهو بين عبس وذبيان كان لقيس بن زهير بن جذيمة سيد بني عبس فرس يقال له داحس اجراه مع فرس لحذيفة بن زهير بن بدر الفزاري سيد بني ذبيان يقال لها الغبراء فدس حذيفة قوما وامرهم ان يضربوا وجه داحس ان رأوه قد جاء سابقاً فجاء داحس سابقاً فضربوا وجهه وجاءت الغبراء فلما اقبل فارس داحس اخبر قيساً الخبر فوثب اخوه مالك ابن زهير فلطم وجه الغبراء فقام حمل بن بدر فلطم مالكا ثم ان الجنيدب العبسي لقي عوف بن حذيفة فقتله ثم لقي رجل من بني فزارة مالكا فقتله فوقعت الحرب بين عبس وذبيان وامتد خطرها حتى قتل حذيفة بن بدر واخوه حمل بن بدر ، ثم حصلت الموادعة بين عبس وذبيان وحل الصلح محل الحرب وكان لقريش اثر بليغ فيه .

رأيته يشق الجماهير غير مكترث لهذه الشيخوخة العافية التي تجرها سنواته الذاهبة وعمره الآفل ، ثم رأيته يصعد في ذروة الجبل وهو اشد ما يكون مرحا وتوثباً ، ثم الفيته يخطب الناس خطبة اقسم ان صداها قد خرق سمع هـذه البادية ! . . افليس غريباً ان يعود الينا هذا الذي رأيناه شابا يصعد في الجبال ولا يمل الطواف بها شيخاً فانياً ، اليس غريباً ان يعود هذا البليغ النابه راكداً خامداً .

نهض الوليد بن المغيرة الى الباب يريد الخروج من الكعبة فلم يسـأله احد البقاء فخرج ملتاعاً ولحق به غير واحد من رجالات قومه ثم غشي الصمت العميق نواحي البيت المقدس وانقطع الهمس وجعل الناس ينظرون الى ابي جهل بعيون مترعة بالقلق والحذر والشك وقد رأوا فيه رجل شر ومكر وخداع ولم يكن بين هؤلاء الذين توافوا في هذا الصباح الى الكعبة من يحب هذا الرجل البغيض ويأنس بطلعته بل كانوا يخافون ايغاله في الصلف ، ويهابون اسرافه في الاعتداء وكانوا لا يحبون ان يمضي الى ترويع الآمنين والمستضعفين .

ولما اراد بعضهم الخروج من الكعبة خشي ابو جهل ان يجد في هؤلاء الذين استفزهم الى نصرته رجلا يصارحه بالعداء فلطف لهجته وطفق يتحدث اليهم حادبا مترفقاً ثم اخذ يتفرس في وجوه الجميع كأنه يبحث عن ضالته بينهم حتى صافحت عيناه وجه عتبة بن ربيعة وكان في الثلاثين من عمره فاومأ اليه وهو جالس في ناحية غير بعيدة من تمثال العزى وطلب اليه ان يمضي لساعته الى الرسول فيسأله نزولا عن دعوته فانطلق عتبة مع رهط من رجاله الى الصفا ولبث الناس ينتظرون معاده قلقين واجفين !

وتتالت لحظات ، ثم تتالت لحظات ، ثم اذا عتبة يعود الى الكعبة راعشاً ذاعراً فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم ابو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (١) فلما جلس اليهم سأله ابو جهل قائلا ما وراءك يا ابا الوليد ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦٦

فحنى الشاب رأسه كأنه يفكر ، ثم رفع عينيه الى القرشيين قائلا :

— يا معشر قريش اطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم اسعد الناس به .

فقال ابو جهل .

— ما وراءك يا ابا الوليد ؟

— ورائي اني سمعت قولا ما سمعت مثله قط. والله ماهو بالشعر ولا السحر ولا بالكهانة ، لقد جلست الى يتيم ابي طالب وهو في مصلاه فقلت له يا ابن اخي انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد اتيت قومك بامر عظيم فرقت، به جماعتهم وسفهت احلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من ابائهم فاسمع مني اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فنظر الي متطامنا مترفقاً وقال لي قل يا ابا الوليد اسمع ، قلت يا ابن اخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع امراً دونك وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرئك منه (١) فلما فرغت من حديثي اقبل علي وقال لي اوقد فرغت يا ابا الوليد ؟ قلت نعم قال فاستمع مني قلت افعل فقال « بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً ... » ثم مضى يقرؤها فانصت له والقيت يدي خلف ظهري معتمداً عليهما اسمع منه ، ثم نظر الي وقال لي « ما بي ماتقولون ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦١

رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي اصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم (١) فتركته وجئت اليكم.

فقال ابو جهل :

سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه (٢)

قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدالكم.

فهز ابو جهل رأسه وراح قائلا :

— تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فاطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فاعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به ولا نصدقه (٣)

وكان صوت ابي جهل في تلك الفينة قد رق وفنيت فيه تلك النبرات الحادة الدالة على الكبر فاقبل الى ناحية آلهة قريش الوسنانة وامر يده على طيوفها الشاحبة وهو يرعش كأن ذلك الحديث الذي سمعه من عتبة بن ربيعة قد فتح امام عينيه ابواب النهاية المخوفة التي ستنتهي اليها اصنام آبائه فاصبح لا يستلذ فراقها ولا يستطيب الصدوف عنها ولعله قد لمس في صمت هذه الاشباح الضاوية الهزيلة هشيما لا تلبث الرياح الهوج ان تذروه.

وجعل اصحابه ينظرون اليه ذاعرين، وهو دائب على التحديق الى الدمى الخرساء يمر يده عليها وهي جامدة كامدة وكان يزيد الهول هولا ان جو نفسه محاط بخيالات باردة كهذا الخيالات التي راح يلمسها فكان الموت ماثلا في نفسه وفي عينيه وفي الاصنام.

عند ذلك ارسل صيحة راعبة ولاذ راعشاً بحقوي كرسيه يمنع به عن نفسه غاشية الاغماء ثم فتح فمه فاذا الزبد يتدفق واذا صذره يبعث صديداً ودماً واذا عيناه تطفحان بالدمع ثم تدلى رأسه على صدره من فرط الالم فتهافت عليه صحبه

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦١

(١) و (٢) سيرة ابن هشام ص ١٦٢

يلطفون شجوه ويسألونه ان يمضي متجلداً فما أصاخ لهم وظل سابحاً في عالم يغص بالالم الشديد من الهواجس والوساوس .

لقد كان هؤلاء الذين يلتفون به يمثلون عالماً اهرمته الشيخوخة ، وكان هو احد ابناء هذا العالم الراكض الى الفناء والعفاء ، وكان على ذهوله واغمائه يشعر بحاجته الى الشباب ، وكان كذلك يشعر بحاجته الى الخروج من هذه الاطلال الكامنة في نفسه الى بنيان جديد ، فالتفت الى اصحابه وانثنى ينظر في الوجوه التي ابصرها في الماضي فعرف من بينها وجه ابي سفيان بن حرب ووجه امية بن ابي الصلت ووجه ابي لهب ابن عبد المطلب وربما خيل اليه وهو ينظر الى هذه الوجوه انها قادرة على خلقه جديداً وربما خيل اليه ان اصحابها لا يحملون في نفوسهم هذا الهشيم الذي عاد يحمله في نفسه .

ولكنه ما عتم ان ادرك خطأه ، فقد استعرض هذه الوجوه ، واستعرض كذلك حوادث الايام الماضية وقايس بين هؤلاء الشيوخ الذي يمثلون عصراً ماضيا وبين الفتيان الاباسل الذين يمثلون عصراً جديداً فأدرك من المقايسة بين الشيوخ والفتيان ان شتاء الشيخوخة قد طغا بسيوله العارمة على هذه الوجوه ، فهي في ركودها ويبسها كهذا الهشيم الذي لمسه وكهذه الدمى الشاحبة .

ولما خرج به صحبه من الكعبة وتفرقت الجماهير الحاشدة بين مصلى ابراهيم ودار الندوة ، مشى بين عتبة بن ربيعة وابي لهب في طريق يدفع الى الصفا ومن حوله شعراء قريش الفتيان .

وكان السير قد لغبه فوقف في منتصف الطريق وطفق ينظر ذاهلا الى رجل اجتمع من حوله خلق كثير ومع انه كان لاغباً ضعيفاً فقد أحس في نفسه نزوعاً الى الاقتراب من الرجل لعله يسمع شيئاً جديداً ينسيه هذا الذي سمعه من الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

ولما اطل الرجل استفاض الجو بلجب شديد وأخذ الناس الذين يحدقون به

يهتفون له هتافاً شديداً فوقف ينصت ثم قذف بنفسه الى الجماهير فبدا له تحت ارتعاشة السراب في الافق وجه لا يحبه ولا يتطامن اليه وعرف في هذا الوجــه حسان بن ثابت شاعر النبي .

ماذا يفعل ؟ انها لفرصة مواتية للخلاص من هذا الشاعر الذي رمى القرشيين بكل شديد اليم من الهجو .

لقد هم بان ينقض على الشاعر ولكنه مضى متخلجاً فلقد أبصر حيال الشاعر جماعة من فتيان الهاشميين تركوا مرابضهم في هذه اللحظة لحماية الرجل الذي حبس نفسه على التغني بروائع النبوة ومفاتنها .

وكان عزيزاً عليه ان يثير حماسة هؤلاء الفتيان والرعب الذي طاف بعينيه وهو في الكعبة لا يبرح يقرض ذاكرته ويعتصر شعوره وقلبه .

وكان يعلم اي حصاد يحصده في تحرشه بفتيان باعوا نفوسهم في سبيل الفكرة المحسنة التي جاء بها سيد العالم بل كان يعلم اي كارثة اليمة تنشأ من اقتحامه هذه الجموع المتكاثفة التي خرجت من منازلها وداراتها لاستماع شاعر النبوة .

أيرجع على عقبيه ويفيء الى داره فلا يخرج منها ويجفو الناس جميعا ؟

لقد فكر في الرجوع بلى فكر في الرجوع ورأى في لياذه بمنزله وفي ابتعاده عن الناس ذلك الهدوء الذي تشتاقه نفسه ، وذلك المرح الذي لم يخالط حياته منذ اكثر من عشرين ليلة .

ولكن الشاعر الذي اهان القرشيين لم يبرح مكانه بعد ، ولا يزال النــاس يحدقون به ويهتفون له ، وقد اشدى اشداء اثار حماستهم وفجر عواطفهم ، اذن فمن اين له الصبر على الرجوع الى منزله ، نعم من اين له الصبر على فراق هذه السوح وهذا الشاعر لا يبرح يصب اناشيده في الاسماع وفي القلوب فيحرك في النفوس شعورها بالحاجة الى عزاء لطيف لا تجده في غير الرجوع الى حضن سيد العالم وكان يعود الى نفسه فيسألها في همس ضعيف ، لقد حاربنا حفيد عبد المطلب

بوحي السماء فما باله يحاربنا بالشعراء ؟ »

وكان لشعر حسان في نفوس سامعيه رقة هذه الاناشيد الصافية التي ينثرها شداة الصحراء في اسماع الابل فتشجن ابو جهل وادرك روعة الاثر الذي احدثته اشعار حسان في هؤلاء الذين ارادتهم قريش على الابتعاد عن سنى النبوة .

وكان في موكبه ثلاثة من شعراء قريش الفتيان مرنوا على هجو الرسول : عبد الله بن الزبعري.وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.وعمرو بن العاصي(١) فالتفت عمرو اليهم وقال لهم عليكم بهذا الرجل ، فاحجموا فامتقع لونه وخشي الفضيحة فكرر قوله لهم : عليكم بهذا الرجل ..

فامتنعوا واخذوا يرسلون الى ابي جهل نظرات قلقة لمس فيها اجفالهم وارتياعهم فقال لهم :

— او تحجمون عن منازلته بالشعر ؟ اني لم اطلب اليكم اراقة دم في هذا الصباح ولكني اردتكم على اسكات هذا الرجل .

فسكتوا فمضى قائلا :

— اتدرون ما سيقوله الناس عنكم في الغد وقد احجمتم اليوم عن منازلة ابن الفريعة ؟ — اسم والدة حسان — سيقولون تخاذلت قريش امام الشاعر بعد ان تخاذلت امام النبي .

فاستحيا الشعراء من ابي جهل واثرت فيهم لهجته اليائسة فانطلقوا الى ناحية حسان ووقفوا عن كثب منه وكان الشاعر في تلك الفينة يخطب الناس ويقول لهم :

« كنت بالامس شاعر الملوك فعدت اليوم شاعر النبوة ، في هذا الصباح اتيت رسول الله وهو في مصلاه فسمعت رجلا يقول له ائذن لعلي بن ابي طالب ان يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا فقال الرسول : ليس عند علي ذلك ثم التفت الى جماعته وقال لهم ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ان ينصروه بألسنتهم

(١) الاغاني ج ٤ ص ٤٠

فقلت له انا لها فقال كيف تهجوهم وانا منهم ؟ فقلت اني اسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين فقال لي اذهب الى ابي بكر فليحدثك حديث القوم وايامهم واحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك (١) فاتيت ابا بكر فاعلمته ما قال رسول الله فعلمني ما اقوله (٢) ثم رجعت الى الرسول فأنشدته شعري في قريش فجعـــل يصغي إلي ويستمع حتى فرغت من نشيدي .

فقال لي « لهذا اشد عليهم من وقع النبل (٣) انطلق اليهم فان روح القدس لايزال يؤيدك ما كافحت (٤) فغادرت مصلى الرسول وجعلت اطوف بالاحياء انثر شعري في سيد العرب على الناس وادعوهم الى الايمان برسالته .

وكان عبد الله بن الزبعرى (٥) غير بعيد من حسان فقال له او انت تقول ذلك؟ فامعن حسان نظراً في وجه محدثه فلم يفته شيء من امره فقال له هازلا .

— نعم ! . .

ثم ازدلف الى الشاعرين الآخرين حتى حاذاهما فجعلا يرعشان وهو يقول لهما :

— من ذا الذي اغراكما بالمجيء الى هذه الناحية ؟

فلم ينبسا فتقدم ابو جهل من حسان قائلا :

— انا ؟

— انت ياسيدي ، دائماً انت ؟

ثم ضحك ضحكة مجلجلة كان لها اثر بليغ في الجماهير فتبرم ابو جهل بهذا الضحك وانبرى قائلا :

— الا تكف عن هجوك ؟

— اتسألني كفاً عن الهجو ؟ وانت اول من حرض الشعراء المســـاكين على السب والشتم ، اخالك لاتعرفني بعد ؟

---

(١) و (٢) الاغاني ج ٤ ص ٢

(٣) و (٤) و (٥) الاغاني ج ٤ ص ٦

فلوى ابو جهل رأسه ساخراً وقال ..

ـ اتخالني لا اعرف الرجل الذي امضى شبابه حائماً على موائد الملوك في الشام والعراق ؟ ان ثيابك التي عليك ياسيدي من عطايا غسان والمناذرة ..

ـ ألهذا الأمر جئت الى هذه النواحي ؟ اراهن ياسيدي على انك لاتستطيع ان تصافح ملكا من ملوك الشام والعراق ، واراهن كذلك على انك لن تبلغ بعض هذا المجد الذي بلغته انا في قصور هؤلاء الملوك !

ـ ياللرجل الذي لا يخجل ، ياللرجل الذي لايخجل !

ـ سيدي ان كان لديك ما تقوله فلا بأس من ارســـال صوتك عالياً قويا حتى يسمعه جميع هؤلاء الناس .

ـ ياللرجل الذي لايخجل ! ياللرجل الذي لايخجل !

والتفت حسان الى الشعراء الثلاثة قائلا !

ـ مضى عصر كنتم تستعلون فيه على الناس بالشعر وجاء عصر لا يستلذ الأصغاء اليكم ..

ثم تكلف المزاح وانبرى قائلا :

ـ انتم هنا ثلاثة من فحول الشعراء ! عبد الله بن الزبعرى ، وعمرو بن العاصي وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان فحول الشعراء في الماضي ثلاثة ، امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني ، وعلقمة بن علاثة ، اذن فهذا البيت القديم الذي استمع في الماضي الى الشعراء الذاهبين والذي لم يخسر شيئاً من روائه سيصغي اليكم ... اجل انه سيصغي اليكم انتم الذين تتقدمون الى الناس بنغمات باردة لا اثر فيها للحياة وكانت الأهانة شديدة فلم يطق عمرو بن هشام صبراً عليها فالتفت الى شعرائه قائلا

ـ الا ترون اليه كيف اوغل في الهزل والعبث ؟

فحام الشعراء الثلاثة حول حسان ، واخذت الجماهير التي اثار هـــذا الحادث المباغت ذهلتها تتهافت عـــلى الشعراء وراح الفتيان الهاشميون والطالبيون الذين

خرجوا مع حسان في هذا الصباح يهزون عصيهم استعداداً للمنافحة ! ووقف الفتيان الذين رافقوا ابا جهل في طوافه في ناحية اخرى يحدجون الهاشميين والطالبيين بنظرات حمراء وايديهم لا تفارق عصيهم تأهباً للمناضلة !

وكانت ساعة روعاء حافلة بكل ما يستفز النفس ويثير نزواتها ويستجيش حماستها فلقد نافس الشعراء الثلاثة شاعر الجاهلية والاسلام الذي دعاه قومه اشعر اهل المدر (١) وكان حسان اشد ما يكون صمتاً واصغاء وقد انام ربابته على صدره فاخذ الهواء يحرك غدائره المرسلة حتى استفاض شعره على الربابة فبدا للناس وهو في ثوبه الابيض فتاناً ساحرا .

وكان المسلمون والجاهليون في خلال ذلك ينظرون الى هذا المشهد ساكتين ذاهلين

ولما بدأ عبد الله بن الزبعري احد شعراء قريش الثلاثة حديثه لم يفته ان يغرق في وصف حياة الجاهلية ولم ينس ان يذكر شيئاً من ماضي القرشيين الذين كانوا مصابيح تضيء في ليل حياة العرب ثم مضى يذكر زعماءهم كقصي بن كلاب وعبد المطلب بن هاشم وعثمان بن الحويرث وقال ان هؤلاء كانوا يفزعون الى غار حراء ليطلعوا بعد ذلك على عالمهم الذي يعيشون فيه شموساً وأقماراً وتغنى بوقائع العرب وعدد إنتصاراتهم في الحروب التي اثيرت بين ربيعة وتغلب (٢) وفي معارك يوم الرهان بين عبس وذبيان ، ثم استعرض فصولا من حياة امريء القيس والنابغة الذبياني وطرفة وعلقمة وعنترة .

ولم ينس ان يعرض شيئاً كثيراً من اثر هؤلاء الشعراء في بادية العرب فوصف تنقل اشعارهم في القبائل وكذلك وصف هذه القبائل وهي عاكفة في خيامها ومضاربها على تلاوة هذه الاشعار .

وكان عبد الله بن الزبعرى يتغنى بهذا كله ويده على ربابته يحركها ويستجيشها فيخرج منها نغم ماتع ، وكان ابو جهل يصفق كلما اوغل شاعر القرشيين في العزف

---

(١) و (٢) الاغاني ج ٤ ص ٢

على الربابة وكلما ذكر اسماً من اسماء رجالات الماضي حتى خيل الى الذين ينظرون اليه مترنحاً طروباً انه عاد منزوفاً مغتمراً ولكن هذه النغمة التي استساغها رأس الجاهليين لم تستطل أعرافها لأن الشاعر الذي انصرف الى تمجيد الجاهلية بلغة الماضي ما عتم ان اراد ربابته على السكوت فانقطع انشاده وفنيت نغماته ، ثم تحفز حسان للغناء بلغة المستقبل لا بلغة الماضي .

خرج صوت حسان في البداية راعشاً قلقاً ولكنهما لبث ان تطامن حينما ابصر في عيون الفتيان الذين يلتفون به وميض حماسة فاشذى وأخذ شدوه يتدفق الى النفوس فيرويها فتعود حالية بالخصب فكان لغنائه في هذه النفوس العطشى اثر السيل الدافق الهادر في ارض مرواء لا عشب فيها ولا كلأ .

لقد تكلم شاعر العرب في الجاهلية و الاسلام عن طفولة السيد لحام حول مهده الاول ووصف عيون القرشيين وسادة المضريين وهم يحدقون بالمهد ينظرون الى الطفل العجيب ، ويسألون الله ان يكون مولده وسيلة الانتصار على الاحباش الذين رمت بهم سفن الرومان الى شواطيء اليمن رجاة التوغل في جزيرة العرب .

وكان العدو — والطفل اليتيم يضحك في مهده — قد نصب مضاربه على ابواب مكة لجزع الناس واستيقنوا ان الكعبة التي احترمها آباؤهم في الماضي لا بد صائرة الى معبد روماني ، ولما تهافت شيوخ عدنان على الطفل وارخوا شعورهم البيضاء فوق مهده تعالت اصواتهم بالبكاء فتحرك الطفل في مهده وابتسم فكانت ابتسامته في وسط هـذا النشيج فجراً بديعاً اضاء حنادس قلوبهم وفي الحق لقد لمس شيوخ قريش في هذه الابتسامة شيئاً عذباً لم يستطع واحد منهم ان يحذق معناه ، ثم خرجوا الى قتال عدوهم واسم الطفل انشودتهم الصافية وفي المساء عادوا الى بيوتهم ناعمين وادعين ثم طفقوا ينظرون من شرفات بيوتهم الى فلول العدو المحطمة وهي تنحدر عن جبال الوطن في معادها الى البحر ، وفي تلك الفينة بينما الاحباش يعودون القهقرى الى شواطيء بلادهم ادرك شيوخ قريش معنى الابتسامة

الطاهرة التي انكشف عنها ثغر الطفل يوم حاموا حيال مهده وعلموا ان هذا النصر الاسمى الذي ربحته سيوفهم على عبيد القياصرة كان حصاد هذا اليتيم العظيم .

لقد كانت بداية سيد قريش في « عام الفيل » لا في المعارك التي اثارها البغض والعصبية الجاهلة بين ربيعة وتغلب ولا في يوم الرهان بين عبس وذبيان ! وكان الانتصار الاول الذي ربحته جزيرة العرب على حلفاء الرومان اول اصداء السلاح العربي في ميادين الحق والحرية لا في ميادين الظلم والبغي والاعتداء على الضعفاء !

وكانت المرحلة الثانية للطفل اليتيم في غار حراء ، في هذا الغار لم يطلع اليتيم على الناس طفلا ، بل طلع عليهم شابا يمور بالسنى وكان سادات قريش في الماضي يعتزلون في الغار مخافة ان يخرق اذانهم صوت الله ولكن سيد العالم في عزلته لم يكن يجهل هذا الصوت الذي سكت في جبال الجليل ليسمع عالياً فوق روابي جبل ابي قبيس !

ثم خرج السيد من عزلته ليرى مدى العالم الضيق الذي يعيش قومه فيه ، فاشجاه انه لا يتسع لا كثر من هذه الصحراء واحزنه ان يقرض الصدأ اسماءكم وان يتأكل النسيان حياتكم ، وفي العالم الذي يزخر بالنعيم ما وراء هذه الصحراء متسع ليس فيه صدأ ولا نسيان .

عالمكم الذي تعيشون فيه ضيق ، اوله مكة ونهايته البحر المالح عند شاطيء جده وعالمه واسع اوله الازل واخره الابد ، تطفو على عالمكم اشباح الصحراء والجبال الكابية الناصلة التي يضغط عليها القيظ اللاذع ، بينما تطفو على عالمه صور المدن الوارفة الظل في الشام والعراق والهند وفارس وبزنطية والشواطيء البعيدة في بحار لا اسماء لها .

امسكم الغابر حصاد معارك ظالمة غاشمة اثيرت باسم الصلف والكبرياء والعنت والمهاترة وغده حصاد سلم طويل تنصرف فيه العقول الى الانشاء والابتكار !

معابدكم في الصحراء العريانة تطالعها رياح دائمة الترديد والتسجيع ، معابده في

اورشليم ودمشق ومصر والهند والقسطنطينية في صروح تلثمها اشعة الشمس ، وتنحني عليها ظلال الطفل .

بدايتكم حرب البسوس وداحس والغبراء ، وبدايته طرد الرومان والفرس من الشام والعراق ، وثنيتكم هذه الهية شاعر ماجن ساخر ، وديانته عطية من ابهى عطايا السماء ، وفضيلة من اسمى فضائل الاله .

تعيشون في الكره والبغض وحر الهاجرة ، ونعيش في الحب والموادعة والظل تقبسون من الشعر الجاف انواراً لا تلبث ان تغيب ، ونقبس من القرآن انواراً دائمة الأشراق واللمعان .

تتسرب الرطوبة الى اوتاركم فيموت فيها الغناء فلا يسمعه احد ، بينما اغانينا تتسرب الى الجبال تحت ضياء الشمس الفاتن ، فيحملها الصدى الى المروج والانهار والشواطيء والمدن ! . .

اولكم عمرو بن لحي ، وأولنا محمد بن عبد الله ، آلهتكم اللات والعزى ومناة وهبل ، وآلهنا هذا الآله القدير الذي عبده ابراهيم وموسى وعيسى .

ميراثكم من الماضي هذه الخيام التي تحملها الشمأل العاتية الى الرمال والنسيان وميراثنا من الغد قصور وصروح ومعابد لا تغشاها غاشية الفناء والعفاء.

ولما سكت حسان كان التعب قد هده هدا فاعتمد عصاه حتى لا يتداعى الى الارض تحت وقر جواه ففطن صحبه لأمره فتهافتوا عليه يريدونه على ترفيه نفسه فألقى برأسه على صدر فتى هاشمي قريب منه وأخذت أشعة الشمس تدغدغ شعره المستفيض على كتفيه .

ثم غشي الصمت العميق الناس ، وسكت الشعراء فما عدت تسمع في هذا المكان الافيح حساً او ركزاً وكان القرشيون والطالبيون سواء في الاستخذاء للصمت العميق ولم يكن في مقدور ابي جهل وقد لاح له هذا المشهد الحافز ان يسيء الى الشاعر فثنى وجهه حتى لا يراه وظلت كلمات حسان التي طعنت كبرياءه وجرحت صلفه

حافزته الى بغض شديد .

لقد ود كثيراً لو انه استطاع تحطيم ربابة الشاعر وود كذلك لو انه استطاع وثوباً على الرجل الذي ازرى بعبادته فيخنقه خنقاً فما فعل شيئاً من هذا مخافة ان يستفز الطالبيين الى قتال لا يريده ولا يستحبه .

لقد كان يرى هذه الجاهلية التي مرن على عبادتها ميراثاً للمستقبل وكانت على رأيه ميراث ذويه في الماضي ، وكان كذلك لا يعتقد ان في مقدور اي انسان ان يعبث بحرمة الاصنام والدمى التي اشتملت عليها معابد آبائه ، ولكن هذه العقيدة التي وثقتها في نفسه عصور قديمة بائدة لم تلبث ان انهارت امام عينيه في هذا الصباح فلقد راح الى الماضي يطوف بأطلاله العافية لعله يلمس في اشباح هذه الاطلال حياة ونماء وتوثباً فما لمس في هذه الاشباح غير الهشيم فمضى الى شعرائه بذكي قرائحهم ويضرمها وهو يأمل ان يجد في الشعر تلك الحياة التي فاتته في الدمى والتماثيل ولكن هذا الشعر الذي ولدته معارك حمقاء بين ربيعة وتغلب من ناحية ، وبين عبس وذبيان من ناحية اخرى ظل جافياً راكداً وظلت نغماته باردة فلم تحرك في الجماهير شعوراً وكذلك لم توقظ في نفوسهم معنى جديداً للحياة وكانت هذه المعاني التي احتوتها خطبة حسان اكثر امراعاً وأشد خصبا ، واغزر نتاجا ، وكانت كذلك تفيض بشتى عناصر الحياة .

ولما طغت هذه الذكريات الأليمة على نفسه خيل اليه ان قريشاً لا تستطيع ان تهيمن على المستقبل لأن هذه الوثنية الجافة البليدة التي عكف قومه عليها ليس لها قدرة الديانات الموثقة التي تعيش في اراضي الظلال والاعناب وتستمد غذاءها من تعاليم سامية لم تستطع العصور ان تبدل اوضاعها وسننها . بل لقد خيل اليه ان يوم سيد قريش لابد ان يهيمن على المستقبل ، واستيقن ان عمر هذه الديانة الجديدة التي ولدت في غار حراء في قلب جبال كابية قائظة . ليس عمراً جديداً وانما هو عمر قديم يتصل بأول اعمار الانسانية ، وقد كان هذا الذي مر بهاجسه صحيحاً ، فان

الدين الجديد كان خاتمة التعاليم التي جاء بها النبيون والرسل ، اذن فليس الشعر هو الذي املى على حسان وصفه البليغ في هذا الصباح ولكنه الدين الذي بشر به موسى وعيسى ، واذن فهذا اليتيم الذي امضى سنوات اليتم والالم في بيت عبد المطلب لا بد بالغ شأو النبيين الذين تقدموه ، واذن فليست مكة المنعزلة عن العالم وطناً لهذا اليتيم العظيم بل ان وطنه في الغد سيكون في البلاد المهذبة التي ظلت قريش ترتادها في فصل الصيف اللاذع .

ماذا يعمل ؟ أيتخلى عن هذه الجاهلية الرعناء ويستسيغ ديانة السيد وهو اذا فعل ذلك رماه القرشيون بالضعف واتهموه بالمروق من عقيدة آبائه ، أم يظل على حرده من الدين الجديد وهو اذا ظل على هذا الحرد لم يأمن الانغماس في فتن جديدة قد لا يجيء حصاده منها مونقاً زاهيا .

فكر في التخلي عن الجاهلية ، وفكر كذلك في مسايرة الدين الجديد حتى اضناه التفكير وحتى سأم قومه ان ينظروا اليه مطرقاً واجماً كأنه دمية من الدمى ، ثم تغلب هواه القديم على هواه الجديد ، وعصفت بنفسه عاصفة الكبرياء ، فاذا هو يصبو الى اصنام قريش صبواً شديداً ، واذا هو يعتقد النصر في النهاية على الديانة الجديدة فرفع رأسه وادار عينيه في الفتيان الذين يحدقون به كأنه يريد ان يستوثق من قدرتهم على المضي معه الى خاتمة مطافه الكدر ، وانه لكذلك اذ لمحت عيناه في ناحية بعيدة من المكان شاباً يوسع خطاه كأنه ينزع الى شق صفوف الجماهير وحسان لا يبرح واقفاً على الصخرة تلتف به عصائب الطالبيين والهاشميين فلما ابصر الشاب خفق قلبه خفقة شديدة ، وغامت عيناه بدموع الفرح فصاح :

— ان هذا الفتى وحده لقادر على انقاذي من الارتباك ثم التفت الى رفاقه قائلا:

— الا ترون الى هذا الفتى الشديد ؟

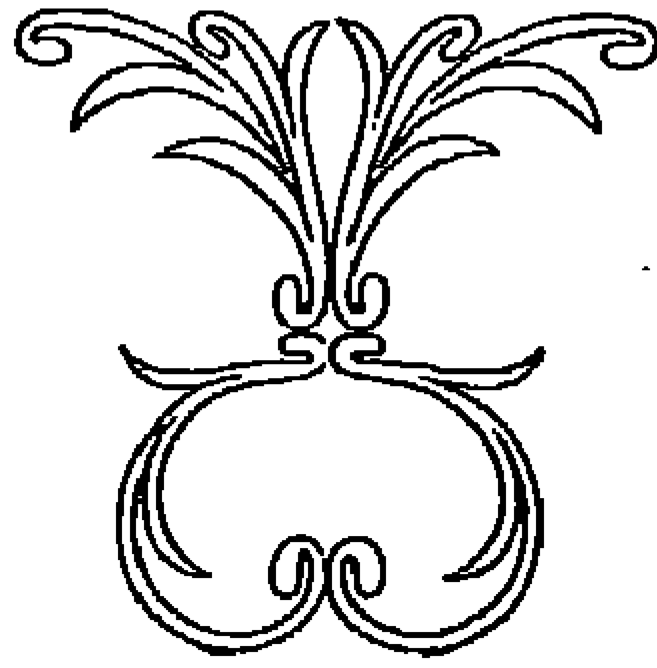
فشخصت ابصارهم الى الناحية التي اومأ ابو جهل بيده اليها حتى تبينوا القادم فصاحوا :

ـــ هذا هو عمر بن الخطاب اصلب فتى في قريش عودا .

فصاح ابو جهل مزهوا :

ـــ انه ابن اختي .

ولما ابتعد الطالبيون والهاشميون عن الساحة وانطلق حسان معهم مترنحاً طروباً فس ابو جهل الصعداء كأن انقضاء هذه اللحظات في غير حادث شجي قد نفس كربه ثم شرع ينظر الى الفتى المنحدر الى صوبه نظرة هادئة ساجية ، وقد خطف لى وجهه وميض بغض شديد لا يزال يحسه حيال سيد العالم . ؟



الفصل الثاني والعشرون

عمر بن الخطاب

قال ابو جهل لعمر بن الخطاب وقد احتبسه بين ذراعيه :

— اين كنت يا ابن اخت ؟

فصاح الفتى الاشقر الناصع البياض :

— كنت اعود ورقة بن نوفل ، انه قد ادنف ويخيل الي ان مساء حياته قد اشفى على النهاية !

فهز ابو جهل كتفيه ساخراً وقال :

— ما ارق قلبك ! كنت اظنك لا تعود هذا الرجل الذي استجاش قبل ايام حمية الناس حتى دفعهم الى العبث بالآلهة والارباب .

— ولكن للرجل في قريش منزلة لا اظنك تجحدها ياخالي ، انه مريض والناس يتهافتون على منزله لتوديعه قبل ان تغرب شمس حياته مع غروب الشمس.

— هل قال لك ورقة شيئاً في هذا الصباح ؟

— وماذا تريد ان يقوله لي رجل قد اناف على التسعين وقد اوشك الموت ان يطفيء في صدره بصيص الحياة حتى لم تعد له قدرة على مخاطبة الذين احدقوا بسريره

— اذن فالرجل لم يقل لك شيئاً ؟

— كان متسدراً بردائه وهو على فراشه وكان وجهه يبين للناس شاحناً مسفوعا وكان من حين الى آخر ينتفض انتفاضة اليمة حتى خيل الى صحبه انها انتفاضة الموت ولكن الشيخ الذي استهوى القلوب بلين جانبه وتواضعه لبث يكافح الموت .

لقد ود رفاقه لو انه يسمعهم شيئاً فظل فمه مغلقاً حتى خيل الى كثيرين انه مات لولا هذا الوجيب الدائم الذي يتعالى من صدره .

وكان ابو جهل يعرف شيئاً كثيراً عن حياة هذا الفتى الذي امضى شطراً من شبابه في البادية بين مرابض الاسود، ومسارح الضواري، وكان يعرفه شجاعا صليباً وكان كذلك يعرفه شديد الزهد في الاجتماع الى الناس، فرأى ان يستثير حماسته وشجاعته فيغريه بقتل سيد العالم حتى اذا فعل ذلك أمن ابو جهل على نفسه من ابي طالب الذي افاء حمايته على السيد.

ولم يكن عمر على اعتزاله مكة وعكوفه على الصيد في الصحراء مغمور الصيت في القرشيين، بل كانت له شهرة معطرة في البيوت والدارات التي جعلها السادة منتجعاً للشعراء والفرسان وكان في نظر قومه بطلا من ابطال الجاهلية حتى لقد مضى الذين اعجبوا بفروسته الى مساواته باولئك الفرسان الغطاريف الذين تقدموا مبعث سيد العالم وكان شأنه فيهم شأن طرفة بن العبد الفارس الشاعر لهذا كله لم يكن صعباً على الذين استمعوا حواره مع خاله ان يدركوا اغراض ابي جهل من استثارته وتحميسه فمضوا ينظرون اليه راعشين قلقين.

قال ابو جهل لعمر:

ــ اظنك لم تعرج في هذا الصباح على منزل اختك؟

ــ اختي؟ لها الله! لقد مضى علي زمن وانا بعيد عنها!

ــ كيف؟ الم ترها الليلة الماضية؟

ــ ابداً..

ــ ولكني اعرفك شديد الحدب عليها وعلى صغارها فكيف تحملت فراقها خلال هذه المدة الطويلة! لعلك كنت تكتفي باستراق بعض الخبر عنها فيطمئن قلبك الى عيشها..

ــ اتعلم ياخالي ان خبرا ولو بسيطاً عنها يخلع على شبابي عمراً جديداً زاهياً..

ــ اذن فانت لم تسمع عنها خبراً؟

ــ ابداً..

— وصهرك ؟ الم تره في الايام الاخيرة ؟

— صهري ؟ كلا ، فاني لم اره منذ ذلك اليوم الذي انقطعت فيه عن بيت اختي

— كان ينبغي لك ان تمضي قبل الجميع الى صهرك لترى اي عيش جديد ينغمس في لذائذه ! . .

فضحك عمر ضحكا شديداً وانبرى قائلا :

— ولكنني اعرف هذا العيش الذي تحدثني عنه ، انه عيش الرازح المكدود !

— بل هو عيش الرافه الوادع . .

— ماذا تقول ياخالي ؟

— اقول ان عيش صهرك لم يعد مرنقاً آسناً بل هو عيش رسيغ غير جافل ولا مكدود

— من اين توافت اليه هذه الثروة ؟ . . وهل دفع ثمنها غالياً ؟

واخذت عيناه تبرقان حتى خيل الى الذين ينظرون اليه انه عاد محموماً فادرك ابو جهل وهو يلحظ ارتعاشة عمر انه قد استثاره الى ما يحب فقال له :

— بلى لقد دفع صهرك ثمن هذه الثروة التي انتهت اليه غالياً . .

— ياخالي لماذا تضن علي بالحقيقة فتخفيها بين شفتيك ؟

— انطلق اذن الى بيت اختك فانهـــا قد صبأت وزوجها وتركا دينك الذي انت عليه (١)

فتجهم وجه عمر حتى لقد اصبح ماحلا من شدة الغم فمضى قائلا :

— اعد علي هذا الذي قلته ياخالي فاني كدت لا اصدق شيئاً مما قصصته علي . .

فتشاجى ابو جهل وقال :

اني ليحزنني ان اقص عليك نبأ كنت افضل الف مرة ان يظل مطويا عنك

— خالي !

ولم يزد على ذلك حرفا بل وقف ينظر الى عمرو بن هشام نظرات تتلظى وكان

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٩

رجلا طوالا جسيما ، اصلع ابيض ، شديد حمرة العينين ، قليل الضحك لا يمازح احداً (١) فخاف الناس صمته وحسبوا لاطراقه الف حساب ، بل لقد خافوا ان يرفع صوته ، وقد رأوه قبل هذا اليوم يحتدم كالرعد ، ورأوه كذلك شديد الوطيء الى الارض (٢)

ولما استطال صمته قال له ابو جهل :

ـ هل ارضاك ان تعدل اختك عن دينها القديم ؟ وكان عمر من اشد الناس على سيد العالم (٣) فالتفت الى خاله قائلا :

ـ قل لي اين اجد محمداً في هذا الصباح ؟

ـ في منزله عند الصفا !

ـ سانطلق اليه . .

ـ قل لي ما انت فاعل؟

ـ سأقتله !

ـ اتقتله ؟

ـ نعم فهل انت في ريبة من قدرتي على قتله ؟

ـ كلا ولكني لا احسبك تقدم على امر كهذا قبل ان تفكر في نتائجه ، فهل فكرت في الذي قد يعتريك بعد قتله ؟ هل فكرت في ابي طالب الذي افاء حمايته على محمد ؟

فهز عمر كتفيه ساخرا ، ثم اوغل في الضحك ، فأخاف ضحكه ابا جهل فرعش وقال له :

ـ لقد اخفتني فما الذي فجر فمك بالضحك ؟ فهل رأيت في كلامي عبثا ؟

فقال عمرو :

---

(١) و (٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٥

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٧

ـــلا واللّه ما انا بالرجل الذي يخيف خاله ، ولـكني رأيتك تخاف علي من أبي طالب فاضحكني ان تتوهم في هذا الشيخ قدرة على قتلي انا الفتى الذي لا يعرف جبنا، وبعد فان لي ان ارفه عنك باخالي ، وان اجعلك تطمئن الى عمرى المديد،فليس صحيحاً ان في وسع ابي طالب ان يقتلي ! بل الصحيح هو ان لحيــاتي مدى بعيدا ! اسمع اخبرك حديثاً قديماً لم اصارح به احداً من الرفاق حتى ولا امي الـتي احب ! خرجت، الى وادي القرى قبل عامين ارتاد جناتها حتى اقبلت عـلى صومعة منفردة لراهب من رهبان النصرانية ، فرحت اليه فاذا هو قد صبا الى عزلته في روضة غناء فيأت الرياح افنانها وغصونها فسلمت عليه فاكرمني فقلت له : « هل تجدونا في شيء من كتبكم ، فنظر الي نظرة مستطيلة وانثنى قائلا : « نجد صفاتكم ولا نجد اسماءكم فحدقت اليه وقلت كيف تجدني ؟ قال : « قرن من حديد » قلت قرن من حديد ثم ماذا ؟ قال امير شديد (١) فضحكت ومضيت في سبيلي افكر في هــذا الذي قاله شيخ النصرانية .

اسمع ،كانت قريش اذا وقعت الحرب بينهم وبين غيرهم بعثوا بي سفيراً واذا نافرهم منافر وفاخرهم مفاخر ارادوني منافراً ومفاخرا (٢) ففي ذات عشية خرجت في سنارة الى الشـام وانا على فرسي فانكشف ثوبي عن فخذي فرأى اهل نجران على فخذي شامة سوداء فقالوا هذا الذي نجد في كتابنا انه يخرجنا من ارضنـا (٣) ولقيني ناس في البلقاء فقالوا هذا الذي يخرج قيصر من الشام ، فانت ترى من هذا كله ان لي اياما مديدة في الحياة لن تدركها شيخوخة ابي طالب .

فابتسم ابو جهل وسأله قائلا .

ـــ امنطلق انت الى الصفا ؟

ـــ نعم وفي الغد .

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٥

(٢) و (٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦

— ولكنك ان اجلت عملك الى الغد رماك قومك بفتور العزيمة !

— ان لي شأناً مع اختي ، إفتدري انت ما ازمعت عليه ياخالي ؟

— وددت لو اعلم ما طواه قلبك !

— ازمعت قتلها ! بلى لاقتلها وزوجها شر قتلة .

— افعل مابدالك ، ولتباركك العزى ؟

واقبل عمر على خاله فشد يده شدة البيعة وابو جهل يريد افلاتا منه فلا يملك قوة على الإفلات ! وطفق الفتى القرشي ينظر الى موكب ابي جهل وهو يهز رأسه ويقول

— لمن اعددت هذا الجيش اللجب ياخالي ؟

فقال ابو جهل مستحيياً !

— للرجل الذي اوفدتك اليه .

— وداعاً اذن ياخالي . .

ثم املست يده من يد ابي جهل فارتد الى الطريق المفضي الى بيت اخته وخاله ينظر اليه راعشاً ذاعراً ولما ابتعد قال ابو جهل :

— لقد اخافني هذا الفتى وهو يقص علي حديث اهل نجران ، الا ترون على وجهه صورة الرجل الذي يرث قيصر ؟

فهز القوم رؤوسهم وبعد قليل انطلق موكب ابي جهل الى احيـاء مكة تحت اشعة الشمس . ؟

الفصل الثالث والعشرون

ذكريات الطفولة

سار عمر بن الخطاب في الطريق الذي يدفع الى منزل اخته فلقيه رجل من بني زهرة فلم يفته ارتباكه وقلقه فقال له « اين تعمد ياعمر ؟ » قال اريد ان اقتل محمداً فلوى الرجل رأسه هازلا وانبرى قائلا « كيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة ! وقد قتلت محمداً فحدق عمر اليه وقال له ما اراك الا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه قال لا : افلا ادلك على العجب ياعمر ، ان اختك وصهرك قد صدفا عن اللات والعزى(١) واتبعا دين محمد فقال عمر اعلم هذا ! افسح لي الطريق فاني اريد اللحاق بهما قبل المساء قال وماذا تريد ان تفعل ؟ قال اقتلهما فارتعد الرجل ومضى في طريقه من غير ان يلتفت الى عمر الذي اوغل في الضحك .

وطفق الفتى القرشي ينظر الى الرجل وهو يعدو فلا يلتفت الى ورائه حتى توارى وحجبته ظلال البيوت والدارات فواصل عمر سيره في الاحياء تحت ضياء استفاض في جوانب الأفق فتانا رائماً كأنه ضياء قد فجرته جنات عدن ، واخذ يمشي بين بيوت القرشيين فلا يستمهله في سيره هذا النخيل الذي ماحته في الصباح ريح سجواء ولا تثنيه عن ركضه وجريه هذه الالوان الحمراء والصفراء التي تلوح سادرة هائمة فوق روابي الجبال ثم لا تلبث ان تمتد الى الصحراء فتملؤها بكل صباغ فتن حتى يخيل الى رائيها انها العقيق واللؤلؤ والاصداف .

لم يكن يستفز خواطره شيء من هذه المشاهد لأن النور الذي تراقص على الجبال لم يكن صبابة نفسه في هذا الصباح ، ولأن النخيل المائس تحت وسوسة النسيم ظل غريباً عن غرضه في طوافه بالاحياء والربوع ولأن هذه الاواذي الرملية التي

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٩

تقذف الوانا عليها طرافة العقيق وجدة اللؤلؤ ونفاسة الاصداف ليست حلمه الذي يحب ويهوى ، بل كان الامر الذي استفز خاطره واثار شجوه ، هذا الذي سمعه من خاله ، ومن الرجل لذي لقيه في الطريق .

الم يقل له خاله ان اخته صبأت ، وان زوجها الذي تحب مشاركها في الصبأة ؟ وذلك الرجل الذي لقيه في الطريق وسأله ابن معاده ومرده الم يقل له ان اختك قد صدفت عن عبادة اللات والعزى ، واستحدثت ديانة جديدة ما كانت لابيك وجدك

اذن فقد كان خيال اخته مغريه بالصدوف عن التحديق الى الضياء والجبال والصحراء واذن فهذا الخيال الذي كان الى الامس حافزه الى حب وحنان ورأفة قد عاد في هذا الصباح مغريه بالبغض والقسوة .

بلى لقد كان يطوف باحياء مكة خلي القلب من كل حس ما خلا حس البغض وكان لا يأبه لغير هذه النوازع المختلفة التي اثارتها في نفسه احاديث خاله .

في الماضي — وهذا الماضي لم يكن بعيداً منه بل كان آخر عهده به الليلةالبارحة — عكف عمر على الصيد فكان يخرج مع القوافل الى البلاد الظليلة فلا يفارق عتبة داره قبل ان يمضي الى اخته ليقبلهاويلعب مع صغارها ، وكان شبابه المترع بالكبر والصلف والعنفوان ينحدر من آفاقه الى الطفولة التي احب سذاجتها في صغار اخته فيتهافت على الصبية في كثير من الحنو والعطف مازجاً ضحكه بضحكهم مشركا لهوه في لهوهم ، وربما راح يخلط أغانيه بأغانيهم فتجيء الحانه منسجمة مع الحانهم .

وفي بعض الاحايين كانت اسفاره البعيدة تضطره الى فراق طويل فلا تبصر عيناه هذه الصور الفاتنة التي استلذها فكان يجفو رحلاته ويقطع آجالها ليعود الى ذلك الوكر الوادع الذي استمع فيه الى اناشيد الصغار وكان الاطفال في معظم الاحايين يمضون الى موافاته في نصف الطريق فيأخذهم بين ذراعيه شاجناً ناشجاً

يا للبؤس ! ان اخته التي احب قد صبأت وهجرت ديناً قديماً كان لآبائه واجداده موضع رجاء ومثوى راحة وفرحة، فاصبح من حقه وهو الحريص على ماضي آبائه

ان يمضي اليها ليعيدها الى عبادة التماثيل والدمى او يقتلها وصغارها .

وأخذ يركض غير حافل بالتعب ولا مكترث للاسى الذي يعتصر نفسه. وكانت عيناه سادرتين هائمتين فلم يبصر القوافل وهي خارجة من مرابضها في طريقها الى بلاد الظلال والاعناب وكذلك لم يسمع اصوات الحداة ولم يفطن الى صليل الجلاجل في اعناق الابل .

ولما لغبه الركض اراد ان يسترفه قليلا فتمهل في مشيه ووضع يده على صدره كأنه يريد ان يمنع خفقه وكأنه ينزع الى جمع هذا الشتيت المبعثر من خواطره ، وكان رجلاقوياً فتغلب على احزانه واسترد رباطة جأشه فاذا هو يعي حاضره واذا هو يدرك كل ما حوله فرأى القوافل وهي تبتعد واصغى الى اصوات الحداة واستمع الى الجلاجل تهتز في اعناق الابل ، ولم يفته قليل او كثير من هذه المشاهد التي تترقرق على الجبال وفي سفوح الاودية .

وانه لكذلك اذا اناس من عيون مكة يلحظونه عن بعد فنظر اليهم فاذا هم يتخافتون بالكلام وقد اومأوا اليه بأيديهم فود لو انه يستطيع ان يسألهم معنى همسهم ولما اراد لصوقاً بهم عزفوا عنه مروعين راعشين كأن طلعته قد اخافتهم وكأن هذا الوميض الذي يخطف على وجهه قد اذكرهم صورة لا يستمرءون النظر اليها فرجع الى مكانه مقروراً من الألم والرعب وخيل اليه ان هؤلاء الذين تجافوه لم يكونوا غرباء عن الحادثة التي حفزته في هذا الصباح الى الم شديد ، بل خيل اليه انهم يعلمون كيف ازرت اخته بدين أهل الجاهلية ، وإنهم جاؤوا اليه ليقصوا عليه حديثها فأحجموا ومنعهم الخوف ان يخالطوه بعد ان لمسوا في جبينه صورة الرجل الذي يخافه جميع من اظلتهم مدينة قريش .

يا للعار ! هذه المرأة التي أحب في طفولة صغارها طفولتها الماضية لم تحترم الماضي فلما اتسق لها الشباب وطمحه شقت الى الحياة طريقاً لم يشقه آباؤه فصدفت عن الآلهة والارباب وجفت التماثيل والانصاب وازرت بالطفولة ومرحها الساذج

البري، لتمضي ما تبقى لها من العمر في عالم لم يجتمع اليه ماضي ابيه وامه .

لقد كان الخطب يسيراً لو ان حديث اخته ظل لغزاً عجيباً لا يفهمه الناس ، ولكن هذا الحديث قد استفاض في مكة حتى اترع نواحيها وحتى ملأ جنباتها وحتى اصبح الناس يمرون به هامسين كأنهم يقولون له : لماذا لا تمضي الى أختك فتقتلها ؟ وفيم سكوتك عن فعلتها ؟ » .

وفي هذه المرة أورق الأسى في نفسه جديداً فتشجن وأقبل على صدره يريد ان ينزع غلالته التماساً للرطوبة وقد خيل اليه ان قيظ النهار قد عاد مؤذيه ومضنيه ، ثم لم يلبث وقد امتاحه الحر ان عاذ بأفياء البيوت فمشى الى بيت اخته تحت اكناف جدران غليظة قامت من حولها باسقات النخيل .

ولم يكن يعي ما يفعل او يحسن التفكير في الاشياء التي تتراءى له فجعل ينظر الى البيوت والى الدارات وهي تمر امام عينيه من غير ان يفطن الى طوافه ببيت اخته وفي الحقيقة لقد مر عمر بهذا البيت اكثر من مرة ولمست يده جدره وربما راحت يده تلمس ابوابه وهو في ذهلة تمنعه ان يتبين نوافذه وشرفاته ، وكان يرجع الى الوراء فيجدد طوافه بالمنازل التي استعرضها فلا يستطيع ان يجد بينها ذلك المأوى الذي جعله غرضه في هذا النهار فظل سادراً حتى هزته صيحات الاطفال في الحي فاصغى اليها ولذ اجراسها الفاتنة واستعذى نبراتها الساذجة فشرع يوسع خطاه الى صوبها وقد خيل اليه انها لم تكن غريبة عنه ، وان له لصلة بأصحابها . وكان يتخال هذا الذي سمعه من افواه الاطفال نشيد قديم علمته امه اياه وهو طفل يلهو ويحبو ثم انتقل هذا النشيد الى أخته فعلمته أطفالها وصغارها فاصبح من امتع امانيه ان يبكر في النهوض من فراشه الى بيت أخته رجاة ان ينصت الى النشيد يخرج لينبا هادئاً من افواه صغارها ..

لقد كان هذا شأنه في الماضي ، فلما خرقت سمعه وهو يطوف بالحي صيحات الاطفال امتنع عن السير وفتح قلبه وروحه لهذه الاجراس العذبة ونسي لحزن

الانتقام الوجيع الذي تردد عاصفاً مرناناً في حواشي صدره وعاد في الناس طفلا لا يفكر الا في مرح الطفولة وعبثها ولا ينظر الى غير مدارجها واهوائها وشرع يركض تحت وقر ذلك النشيد وراء الاطفال ، وهؤلاء المماريح يغلون في الركض ايغالهم في الضحك ، وقد استأنسوا بطلعته واطمأنوا الى ضحكته ، ولما لحق بهم وصافحت عيناه وجوههم الملساء ترعدد فوارى عينيه بكفه كأنه لا يصدق هذا الذي ابصر

وكان احد الاطفال خلال ذلك قد أخذ برداء عمر وهو يصيح :

ــ يا خالي ! يا خالي !

وهنالك في ناحية غير بعيدة من الحي الذي غشيه طفلان يلهوان بجمع الحصى فلما سمعا نداء الطفل وصياحه يا خالي عزفا عن اللهو ولحقا بأخيهما وهما يصيحان :

ــ أين هو خالنا ؟ أين هو خالنا ؟

وفي خفة البرق المومض تعلق الاطفال الثلاثة برداء عمر ، هذا يلثم يده ، وذاك يطفر الى صدره وآخر يحاول ان ينهض على كتفيه وعمر الشديد العنيد ينظر الى هذا المشهد محطماً مهشماً .

« اذن فهذه الاغاني التي انصت لها منذ حين لم تكن بعيدة عن ماضيه ، واذن فهذا الزهر اليانع الذي شم عبقه قبل لحظات لم يكن غريباً عن الحقل الذي انماه ورعاه ، واذن ففي وسعه ان يستنسيغ هذه الاوراد فيفعم قلبه الخلي من العبق بالشذا والعطر .

مضى عمر الى عتبة منزل في الحي فجلس اليها وهو لا يدري انه على عتبة الدار التي جعلها غرضه في هذا الصباح ، فتهافت الاطفال عليه ، فجلس اصغرهم سناً في حجره ووقف آخر فوق رأسه وأقام الثالث على مقربة منه ينظر اليه ناعماً هانئاً .

لقد نسي حديث ابي جهل ونسي عمر كذلك تلك الحدجات الراعبة التي رماه بها بعض الناس وهو في طريقه الى بيت أخته ، بل لقد نسي نفسه ونسي العالم الذي يموج بالحسد والبغض والثأر ، وأصبح يفكر في عالمه الصغير ، عالم الطفولة الذي يزخر بالحب والمرح والعبث .

وكان اول خاطر طرق ذهنه ان يسأل الثلاثة عن النشيد الذي انصت له ثم ينثني فيسألهم عن اخته ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وانما ظل على وصيدالباب ينظر الى هذا الفرح الذي يخطف على وجوه الصغار في غير همس حتى تبرم هؤلاء بسكوته وعهدهم به لا يمل ان يحدثهم بالطريف الجديد من القصص .

قال احدهم لعمر :

ـــ فيم سكوتك ياخالي ؟

وقال آخر :

ـــ هل انت حزين ياخالي ؟

وقال اخر :

ـــ لم نرك منذ ليال فاين كنت ياخالي ؟

وكان الثلاثة في اعمار تغري الناس بحب الطفولة فالتفت عمر الى اصغرهم سناً وكان في ربيعه الخامس فقال له :

ـــ من علمك هذا النشيد الذي تغنيت به منذ لحظة ؟

فقال الصبي :

ـــ امي !

ففكر عمر قليلا وانبرى هامساً :

ـــ امه ؟

ثم التفت الى الصبي وقال :

ـــ هل علمتك امك شيئاً تقوله غير هذا النشيد ؟

فنظر الطفل الى عمر نظرة حلوة هونت على نفسه كل ما قاست من الم وجوى ويأس وقال له :

ـــ علمتني امي ان احب خالي ! وكذلك علمتني ان اقول له كلما عاد مكدوداً من الصيد « افاء الله عليك الراحة ياخالي »

ـــ اكنت تردد هذا الذي قالته لك امك في كل ليلة ؟

ـــ نعم وكانت امي تسألنا جميعاً ان نضرع الى الله لعله يهدي خالي ..

ـــ اذن فقد ارادتكم على الدعاء لي في الكعبة ؟

ـــ في الكعبة ؟ كلا ياخالي ولكن هنا في هذا البيت، وفي زاوية بعيدة عن الازقة بحيث لا يسمع دعاءنا احد الناس ..

ثم رق صوته رقة غريبة واخذته رعدة خفيفة فالتفت الى الصغار قائلا :

ـــ لماذا لا تمضون الى الاحياء المجاورة فان بها لمتسعاً كبيراً للمرح ، هيا العبوا ماشاءت الطفولة هذا اللعب ، هيا انشدوا فاني احب النشيد ، فصاح الثلاثة :

ـــ وانت ؟

فابتسم عمر ومضى قائلا .

ـــ اتسألونني ما افعل ؟ سادخل البيت وسافتش فيه عن مثوى استريح اليه

ـــ هل انت تعب ؟

ـــ تعب ؟ لا ! ولكن الحر قد هدني في هذا الصباح فشعرت بالحاجة الى الفيء

ـــ لما لاتذهب معنا ؟

ـــ اذهب معكم ؟ سافعل هذا في الغد ؟

فتعالى ضحك الصغار من فرط الفرح ، وراحوا يرتمون في حجره ، هذا يقبله في فمه وذاك يدغدغ شعره المستفيض على كتفيه ، واخر يضحك له ، ثم تفرقوا في الحي المجاور وهم يغنون انشودتهم السعيدة وعمر ينظر اليهم مبهوتا واجماً .

الفصل الرابع والعشرون

صلاة شجية

ارسل عمر آخر نظرة الى باسقات النخيل، ثم تنهد ومسح عبرة ثرة تسايلت على خده ، ثم عاد ينظر الى الباب الذي انكره قبل لحظات نظرة مستطيلة اودعها جماح هذه العاصفة التي جاشت بها نفسه ساعة لقيه ابو جهل !

ماذا يفعل ؟ ايطرق الباب ويمضي الى داخله ليصبغ يده في هذا الصباح بدم امرأة . ام يتوارى عن الناس ويعود الى بيته ويستقبل فراشه هادئا وادعا مفراحا طروبا ثم لا تطفو على جبينه النقي احلام رديئة وخيالات مزعجة !

عرضت له هاتان الصورتان فلم يدر ايهما يؤثر ، وايهما يستسيغ ويستمريء ، وكان اشد ما يضنيه ان يصبغ يده بدم ام تحب صغارها وان يمضي بعد ذلك الى هؤلاء الصغار فيسألهم الغناء ايخرس بنشيد الطفولة صوت ضميره الهادر !

وكان مشهد الاطفال لا يزال يغشى عينيه وهو سابح في تأملاته فحاول ان يفلت من وقر هذا المشهد فما استطاع الى ذلك سبيلا وظل ضحك الاطفال يملاء نواحي نفسه حتى استخذى وحتى توهم انه لا يزال يستمع الى ضحكهم وينظر الى لهوهم وعبثهم على بعدهم منه !

ولم يكن في طوقه ان يخنق هذا الضحك وقد لذه واستعذاه ووجد فيه هناءة نفسه وسكونها فراحت يده تلمس الباب كرة اخرى واخذ يهمس قائلا :

لقد علمت اطفالها ان يدعوا لي الله ، وعلمتهم ان يغنوا ذلك النشيد الذي احبه اذن فليس من البر ان اقطع دعاء الطفولة او امنعها غناءها البريء . .

واغمض عينيه وهو على وصيد الباب والناس يمرون به فلا يجرؤن على لمسه !

وكان من امتع امانيه ان يحلم وهو حيال بيت اخته بصورة الاطفال وان

يتمثلهم وهم يعيدون على سمعه نشيداً احبه في طفولته !

وانه لكذلك اذ فتح الباب وخرج منه سعيد بن زيد العدوي زوج اخته فادار عينيه ليتبين القادم الذي قطع عليه اغفاءته اللذة فاذا هو عن كثب من الرجل الذي يبحث عنه قطعا يأسه على آماله العذاب فصوحها واذبلها فما عاد يفكر لا في الصغار الذين لاعبوه وضاحكوه . ولا في امهم التي ارادتهم على الدعاء له . فمشى الى الرجل وهو يصيح صياحا اليما :

— قل لي لمن كانت صلاتك في هذا الصباح، ألللات والعزى ام لآله جديد لا نعرفه ،

فارتد سعيد الى الوراء وحاول املاساً من عمر فما استطاع الى ذلك سبيلا ، وكان يعلم اي رجل هذا الذي جاء يسأله عن صلاة الصباح فراح راعشاً وابتدره عمر قائلا :

— لماذا لا تتكلم ؟ قل لمن كانت صلاتك في هذا الصباح ؟

— اتسألني لمن كانت صلاتي ؟

— نعم ، اندري ما يقوله الناس عنك في المدينة ؟ يقولون انك صبات وزوجك فهل صحيح ان صلاتك عادت غريبة عن صلوات آبائك ؟

— سيدي ! كانت صلاتي في هذا الصباح لاله سيد قريش .

— اذن فقد فتنك الرجل بشعره ؟

— ولكنه ليس بالشاعر !

— ولكن قريشاً تقول ذلك

— « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » (١)

— اذن فهو كاهن ؟ » (٢)

— « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ! » (٣)

---

(١) و (٢) و (٣) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٨ و ٩

فسكت عمر ومضى يفكر في هذا الذي سمعه من صهره ثم لاح الغيظ في وجهه فقال : (١)

ــ الا تتنحى عن طريقي ! فاني اريد بيت اختي !

ــ ولكن هذا الاغبرار الذي يغشى وجهك قد يخيف زوجتي وقد يرمض نفسها فلا تستطيع ان تستقبلك !

ــ امانعي انت من دخول هذا البيت ؟

واحمرت عيناه من الغضب والألم حتى عادتا مضرجتين بلون العقيق فخشي سعيد ان يمضي عمر الى قتله فلطف لهجته وقال له :

ــ ادخل ! . . .

فدفع عمر بيده الباب ولكنه ترسل في خطوه لينصت الى غناء بعيد تبعثه النواحي المجاورة ، وكان الغناء عذبا سائغاً فلمس عمر في جرسه ذلك النشيد الذي اسمعه اياه صغار اخته قبل لحظات، وافتتن من جديد بحلاوة الغناء وخيل اليه ان الصغار يعودون الى المثوى الهادىء الوادع ليكونوا عن كثب من الام الحنون !

وتساءل وهو على عتبة الدار عما يفعل ؟ ايمضي الى اخته فيقتلها وهؤلاء الصغار الذين احبهم سيعودون الى المنزل عما قليل ليفتشوا عن القبل المعطرة على شفتي الام الشفيقة الحادبة فلا تلمس ايديهم الناعمة في تينك الشفتين غير برد الموت وقره ! وفي هذه الحالة يبحث هؤلاء الصغار عمن اطفأ الحياة في ذلك الصدر الرحيم فتطالعهم وهم ينظرون الى يديه المضرجتين بالدم الذكي سحنة الرجل البغيض فينفرون منه ويستحيل انشادهم اللذ الى رثاء اليم ، ام يمضي الى منزله فيستريح من عبث ضميره ووخزه

كانت صورة قريش الحمراء لا تزال تغطي عينيه فمنعته ان يرى صورة الطفولة البريئة الساذجة فتصام عن الغناء ودخل المنزل وصهره على وصيد الباب ينتظر معاد اطفاله ثم طاف بفناء الدار فلم يلحظ احداً ، فمر بالغرف ووقف على ابوابها ينصت

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٨ و ٠

لعله يسمع حساً او ركزاً فكان الصمت العميق حصاده في طوافه الجاهد .

ـــ لعلها نائمة ،

لقد همس فمه بهذا السؤال فترعدد وانف ان يمضي الى قتلها وهي نائمة تسبح في قرارة حلم لذيذ فهم برجعة الى منزله على ان يعود اليهـــا في الغد ولكن صوتا شجياً انبعث من حجرة منفردة مطلة على الكعبة ثناه عن هذه الرجعة فدلف الى مصدره وارهف اذنيه كأنما هو يحاول ان يصب في روحه هذا الجرس الفاتن الذي خرق سمعه !

ولم يمته وهو مكب على الاصغاء ان اخته تصلي وانها تخيرت هذه الحجرة المنعزلة لتمضي في صلاتها بعيدة عن اذى قريش فرفع يده يريد خفق البـاب فارتد مسفوعا شاحباً وطفق يسأل نفسه !

ـــ يا لصلاتها الشجية ! أصحيح يا نفسي ان حماستك بدأت تذوب وتفنى في هذه الصلاة ؟

ولم يعد ذلك الرجل الذي احمسه الغضب . بل عاد انساناً رقيقاً ناعماً ففتح قلبه ليعي صلاة اخته .

كانت فاطمة بنت الخطاب اخت عمر في تلك الاثناء قد انتبذت في حجرتهـــا ناحية منفردة تصلي وتتعبد وكانت تقرأ سورة طه بصوت رقيق فاتن وقد وقف الى جانبها رجل يقال له خباب يعلمها القرآن فلما ربض عمر حيـــال باب الحجرة شرع خباب يرتل سورة طه امامها ترتيلا شجيا فاخذت تستعيد ترتيله ناشجة شاجنة .

« طه ، ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق « الارض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما « في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ، « الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى . »

* * *

شجي عمر شجاً اليماً وهو ينصت لهذا الكلام البليغ ، فجرؤ على خفق البـــاب فصاحت أخته من داخل الحجرة :

ـــ من الطارق ؟

فاجابها بصوت راعش :

ـــ افتحي يا ابنة الخطاب .

ولم يكن صوت عمر غريباً عنها فضمت يدها الى صدرها لتمنع خفقه وقد منعهـا الخوف ان تفتح فخفق عمر الباب كرة أخرى وهو يصيح

ـــ اتخافين ان يسمع أخوك صوتك في هذا الصباح ؟ افتحي ! افتحي !

ولـكن هذا الطارق الذي جاء يقطع صلاتها كان شديداً وكانت تعرفه شديد الضغن على سيد العالم فنظرت الى خباب الذي لم يكن أقل خوفاً منها واومضت اليه بعينيها ان أخفي القرآن فترعدد فتناولت القرآن بيدها وخبأته في صدرها وقامت الى وسط الحجرة وقد ادار عينيه في نواحيها فلم يبصر أحداً ، وكان خباب قد توارى وراء الستائر فالتفت عمر الى اخته وقال لها :

ـــ ما ذا كنت تقرأين ؟

فسكتت فانطلق يسألها :

ـــ لماذا تخفين عني هذا الكلام البليغ الذي سمعته ؟

ـــ أكنت على الباب ؟

ـــ نعم ! وقد سمعتك تقولين قولا لا أحسبه شعراً فأين هو كتابك الذي تقرأين

ـــ ماذا تريد من كتابي ؟

ـــ أريد ان اعلم هذا الفتون الذي ملك عليك لبك ، أتدرين ما يقوله النـاس عنك وعن زوجك ؟

فارعدت فاطمة ولمست في كلمة أخيها ذلك الخطر الذي خافته ساعة أطل عليها ولـكنها لم تقل شيئاً بل أطرقت اطراقة اليمة فقال لها رابط الجأش :

والآن ماذا تقولين ؟ أتدرين ما يقوله الناس عنك وعن زوجك ؟

فظلت ساكتة فلم يتبرم بسكوتها بل راح يقول لها متلطفاً متحببا :

— ليتك سمعت ما قاله شيوخ مكة !

فرفعت عينيها الى وجهه وقد اذهلها سكوته وقالت له :

— ما ذا يقول هؤلاء الشيوخ ؟

— يقولون انك صبأت وزوجك ، اعطني هذا الكتاب الذي كنت تقرأين منذ لحظة ؟

— ولكنك تريدني على أمر لا احبه .

— اتكرهين ان يقرأ أخوك في كتاب ربك ؟

فمضت تهمس ويدها على صدرها .

— كلا ما كرهت لك ان تقرأ في كتاب ربي .

— اذن فما معنى هذا الخوف الذي يبين على وجهك ؟

— ليس خوفاً هذا الذي يبين على وجهي ؟

— اخي . . .

وكان عمر قد رق رقة اذهلتها وعهدها به الرجل الذي لا يلين ولا يرق فحامت حوله وهي تنظر الى شجن بليغ يخطف على وجهه فلم يفتها وهي تنصت لفحام صدره انه لقي شيئاً كثيراً من التعب في هذا النهار ، وانه كان فريسة الام خفية ، فقالت له مترفقة حادبة ويدها على كتفيه وعيناها في عينيه .

— قل لي ، هل أنت مريض فأداويك ؟

— مريض ؟ كلا .

— اذن فمن اين هذا الالم الذي يخطف على وجهك ؟

— أتسألين عن المي ؟

— نعم فهل لمست في سؤالي ما يريب ؟ الا تعلم انني ارق لك وانني احبك كثيرا

ــ ترقين لي وتحبينني ؟

ــ نعم ! نعم ! ألست أخي الذي احب ؟

فأجابها ممرورا :

ــ بلى انا اخوك الذي كنت تحبينه في الماضي يوم كنا ندرج في مآلف الطفولة صغيرين يلهوان بالدمى ، ويجمعان الحصى ، اما اليوم فيخيل الى ان حبك الماضي قد املس من صدرك فانت لا تحبينني ولا ترقين لي .

ــ أخي !

ــ ماذا تريدين ؟

اريد ان افضي اليك بحديث قلبي ،فلقد احببتك قديماً وما زلت احبك .

ــ ان كان ما تقولين حقاً فلماذا تأبين علي ان اقرأ في كتاب ربك ؟

لحنت رأسها وانثنت تفكر ، وكانت رقة صوته قد طغت على نفسها حتى ملأت شعورها وعقلها وحتى خيل اليها ان ذلك الرجل الذي قسا على الضعفاء في الماضي قدعاد انساناً جديداً وانه بدأيشعر بفضيلة العمل الطيب المجدي الذي شعرت به يوم جاءت الى سيد العالم تعرض عليه اسلامها وهو في عزلة عن قريش في دار الارقم فالتفتت اليه وقالت له :

ــ الا تعدل عن فكرتك هذه ؟

فقال لها :

كلا

ــ ولكنك رجس ، وكتابي هذا لا يمسه الا المطهرون (١)

ــ دليني على عمل يعيدني في الناس طاهرا .

فنظرت اليه نزلة أخرى فاذا عيناه قد عادتا نديتين فأثر كلامه في نفسها فقالت له :

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب .

— قُم فتوضأ ، أتفعل ذلك ؟

— نعم أفعل ..

فخرجت به الى فناء الدار واراقت على يديه المـــاء فتوضأ ثم عادت به الى حجرتها فقال لها :

— اعطني الكتاب الذي كنت تقرأين .

فأخرجت القرآن من صدرها وقالت له :

— اقرأ .

فقرأ طه حتى انتهى الى قوله « انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري » فاستدمع وقال لها : من هذا فرت قريش (١) دليني على محمد (٢)

فاشرق وجهها بضياء الفرح وقالت له :

— أمنطلق أنت الى سيد قريش ؟ قال : نعم .

فتنهدت كأنما حديثه قد نفس عنها وقالت له :

— يا لسعادتك ! ان رسول الله قد دعا لك ليلة الخميس (٣)

فسألها هامسا :

— أتقولين انه دعا لي ؟

— نعم وقد كان يقول « اللهم اعز الاسلام بعمر بن الخطاب او بأبي جهـــل عمرو بن هشام (٤)

— اكنت تسمعينه وهو يقول ذلك ؟

فصاحت مستبشرة :

— نعم وكان اصحابه يدعون دعاءه .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب .

(٣) و (٤) تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠

ـــ أين اجد سيد قريش ؟

ـــ انك لتجده في داره بالصفا .

ـــ في داره بالصفا تقولين ؟ اذن فسأراه وأتحدث اليه وأسمع صوته .

قالت : ثم تفتح قلبك الذي اغلقته جاهلية آبائك ؟

فقال لها : نعم .

ولما سكت أخذت عيناه تنظران الى ناحية الستائر فأبصرها تتحرك فانتفض والتفت الى أخته قائلا :

ـــ الا ترين الى الستائر وهي تهتز ؟

فضحكت وقالت : نعم انها تهتز ، ولكن قل لي أفي قدرتك ان تعلم اي يد حركتها ، فامتقع وجهه وأردف :

ـــ اذن فلست وحدك في هذه الحجرة ؟

فأجابه صوت من وراء الستائر :

ـــ كلا بل كان خباب عندها يعلمها كلمات الله ، الا تعرفني ياسيدي؟

وخرج خباب من مثوى عزلته وقد زال ذلك الخوف الشديد الذي اعتصره قبل لحظات وكان عمر يعرفه ويعرف حادثة اسلامه . فلم يذهله وجوده في الحجرة فالتفت اليه وقال له :

ـــ اكنت تعلمها القرآن ؟ قال : خباب نعم .

ـــ وأنت من علمك هذا الكلام البليغ البارع ؟

ـــ علمنيه سيد قريش ، بل سيد العالم .

فأقبل عمر الدميع اللهيف على أخته وشد يدها صائحا :

ـــ الى اللقاء ، موعدنا الغد .

ولما اراد ان يمشي الى ناحية الباب اذا هو يصطدم بسعيد بن زيد العدوي صهره فرفع عينيه اليه وقال له :

— لقد أسأت اليك فاصفح عني . .

فتبسم سعيد وأومأ بيده الى صغاره الذين دخلوا الحجرة معه وانثنى قائلا :

— هل أسمعك الصغار نشيدهم في هذا الصباح ؟

فرعش عمر امام مشهد الطفولة وانبرى قائلا :

— لقد كان نشيدهم صافياً كقلوبهم .

— اذن فقد حملوا اليك في هذا النشيد الصفح الذي سألتنيه ؟

فتهافت عمر على الصغار وأخذ يدغدغ شعورهم بيديه الراجفتين وهم ينشدونه ذلك النشيد القديم الذي أحبه ثم التفت الى أخته قائلا :

— سنجتمع مرة أخرى ليس في هذا المثوى، بل في دار سيد قريش اليس كذلك؟

فتبسمت قائلة :

— نعم ! نعم !

ولم يشأ عمر ان يبرح المنزل قبل ان يقبل الصغار فدلف اليهم قائلا :

— أليس لسيد قريش نشيد تنشدونه ؟

فصاح سعيد بن زيد العدوي متحمسا :

— بلى يا سيدي ! بلى يا سيدي !

— أين هو هذا النشيد ؟ وما بالي لا اسمعه هنا ؟

فقال سعيد :

— ستسمعه في الغد .

— أين ؟

— في العالم الجديد الذي سيقودنا اليه سيد قريش .

فسكت عمر وراح يضع شفتيه على وجوه الصغار ثم فارق المنزل وهو يفكر في كلمات سعيد الاخيرة .؟

الفصل الخامس والعشرون
كعب بن زهير

دنفت الشمس وأخذ الطفل الكابي يخلع على جذوع النخيل ظلالا بلون الذهب وامتدت جبال العرب المتلفعة بالكدري على حواشي الافق امتداداً ارعش رمال الصحراء. فاذا عليها من الطفل سحب خضلة المطارف مبللة الاردان .

تحت ظلال هذا الشفق الصارد أخذت القوافل التي مضت قبل شهور الى بلاد الامواه والاعناب، تعود الى مكة، موقرة بالغلال طافحة بالثمار، جاء بها قاطفوها من وادي القرى وسهول الاردن وجنات دمشق وطفقت الابل تلقي على الرمال تحت ومضات الطفل اشباحاً مستطيلة بينما اصوات الحداة الشجية ظلت ترتفع الى الافق الجاهم صافية حلوة :

وكان عمر بن الخطاب في هذه الفينة يعدو في الطريق المفضي الى الصفا وقد فتح قلبه للهواء ينبعث في الافق ناعشاً عذبا .

ولما مرت به القوافل العائدة الى ام القرى اصغى الى نشيد الحداة فلذ جرسه وحاول ان يستوقف اصحابه ليسألهم من أين جاؤا بهذا النغم السائغ ولكنه لم يفعل بل ظل دائباً على السير وعيناه تلحظان الرمال الحمراء كأنما هو قد افتتن بهذا العقيق الدائم الذي لم يتبدل والذي لم تطفىء الايام شعلته ووميضه ولعل اروع المشاهد التي لذها وهو في طريقه الى بيت سيد قريش كان مشهد هذه الجبال الوردية السابحة في شتى الالوان، فلقد جعل يتأملها مفتوناً بلمعانها مأخوذاً بسحرها وكان يذهله — وهو يترع روحه بفتونها — انها بقيت على الدهر شابة فتية نضرة شديدة اللألاء وانها تغلبت على الرمال وعلى الرياح السافيات التي ابتلعت المدن العظيمة في ارض النبط .

وكان بهاء المساء المستفيض على هذه الجبال لا يزال في جدته ورونقه كما كان في بداية الحقب واول العصور ، وكما سيكون في نهاية الابد .

فادرك عمر وهو يتأمل في مطالع المساء ان وطنه على اتصاله بالعصور المستبقة قد عاد جديداً ، وان جباله وقد صاحبت العصور في شبابها وهرمها لن تبلى فاكثر من النظر الى روائع الطفل السادرة الهائمة في الروابي والسفوح والأودية غير مكترث لذكريات اخته وصغارها ولا حافل بالذي سمعه من ابي جهل خاله .

وكان الطواف تحت ذوائب الشفق بالاحياء والبيوت من الذ امانيه بل كان له ايلاف بارتياد طرق القوافل وانتجاع الاماكن التي تسرح فيهـا اسراب الابل والمعز رجاة ان ينصت الى اغاني الحداة في خلال معادهم الى الخيـام وكان كثيراً ما يجلس على حافة الطريق ، او فوق صخرة في الوادي ، ناظراً الى الافق الفريغ وهو يحاول ان يبلغ مداه فلا يرى الا ابعاداً تتسع وتنمو ، وتمتد امامه الصحراوات امتداد السموات ، ويظل على حاله هذه ، حتى تلوح له الابل سادرة في اواذي الرمال ، كأنها اشباح متوردة تعرض للرائي في افق قصي بعيد !

لقد كان هذا شأنه في الماضي فلما مرت به القوافل — وهو في طريقه الى الصفا — واستمع الى الحداة مضى مفراحا ناعماً ، حتى لقد هم بان يستوقف الشداة ليسألهم عن عمر هذه القصيدة التي يغنونها فثناه عن ذلك بها المساء . فطفق يمشي مترسلا مترفقاً مخافة ان تفوته مشاهد الجبال البارعة حتى زحمته الابل وحتى جاس خلال القوافل فاذا هو جد قريب من الحداة !

وكان الجو مصحياً رائقاً والليل يمشي الى الكون في رفق ودعة ، ونور القمر الخفيف الرقيق يغسل جدران المنازل وحنايا القناطر ، والحداة يغنون اغنية جديدة خفق لها قلب المساء فانتبه عمر الى معاني هذه الاغنية فمشى الى اصحـاب الابل ثائراً طاغياً يريد ان يسألهم عن ذلك المبدع الذي علمهم هذه الاغنية .

ومضى يذكر وهو يدلف الى ناحية الابل حديثه مع صهره سعيد بن زيد العدوي

فاستجاشت الذكرى شجونه .

لقد سأل صهره اليس لسيد قريش نشيد ؟ فقال له سعيد : بلى ان لسيد العالم نشيداً لن تسمعه هنا في هذا المثوى ، ثم رفع صوته صائحاً : لتسمعن هذا النشيد في العالم الجديد الذي سيمشي بنا اليه سيد العالم

لقد جاء في اغنية الحداة وصف بارع لنبوة سيد قريش فزرف عمر الى اصحاب الابل يريد ان يسألهم من اين جاؤا بهذا النشيد .

قال عمر للحادي :

ـــ الا تعيد علي هذه الاغنية ،

فحدق الرجل في وجه عمر وسأله قائلا :

ـــ الست من رجال القوافل ،

ـــ كلا . .

ـــ لعلك من اهل هذا البلد ،

فسكت عمر فاجفل الحادي لسكوته فانبرى قائلا :

ـــ ما اسمك ياسيدي ؟

ـــ ايعنيك كثيراً ان تعرف اسمي ،

ـــ لا ! ولكني رأيت في مشيتك الصامتة مالا يروق !

ـــ سكن روعك يارجل فليس على جبيني ما يخيف الناس !

واقبل رجال القوافل من كل حدب وصوب فاحاطوا بعمر وقد رابهم امره فصرخ فيهم قائلا :

ـــ كنت اظنكم تعرفون عمر بن الخطاب !

فطفر من بينهم شاب في الثلاثين من عمره واقبل الى ناحية عمر وقال له :

ـــ انا اعرفك ياسيدي ! لقد رأيتك منذ شهور حيال الكعبة !

ـــ لا اذكر اني رأيتك قبل هذا اليوم ، فمن انت ،

فصاح الرجل :

ــ صاحب هذه الاغنية !

فرق صوت عمر واردف :

ــ ما اسمك ياسيدي ،

ــ كعب بن زهير (١)

انتشرت السحب السود الكثاف على نواحي الأفق ، فاغرق الليل ذلك الطفل المختضب بحناء فكان لمشهد الابل في بهرة الظلام روعة حافزة فدلف عمر الى ناحية الشاعر مشدوها حائراً وقال له :

ــ لم افهم هذا الذي قلت ، فهل تذكر لي اسمك كرة اخرى ؟

ــ كعب بن زهير !

ــ ولكن اباك لم يكن يدين بدين الرجل الذي مدحته في اغنيتك ؟

ــ هذا صحيح . .

ــ وانت نفسك الم تكن حربا على محمد ، الم تفعم اشعارك بهجوه ؟

ــ هذا صحيح . .

ــ الست القائل يوم اسلم اخوك بجير :

الا بلغا عني بجيرا رسالة — على اي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف اما ولا ابا — عليه ولم تدرك عليه اخالكا

ــ نعم . . .

ــ اذن فكيف مدحت محمدا وقد اهدر دمك لهذا الشعر ؟

---

(١) كعب بن زهير بن ابي سلمى شاعر فحل من شعراء المخضرمين اشتهر بقصيدته الكبرى التي مدح بها النبي والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم اثرها لم يفد مكبول

وابوه زهير شاعر معروف من اصحاب المعلقات واكثرهم حكمة ومثلا

ـ قلت لأخي في ذات عشية اي بجير الحق الرجل وانا مقيم ههنا فانظر مايقول فقدم بجير على السيد واسمعه قولي فالتفت السيد الى اصحابه وقال لهم من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله (١) فكتب الي اخي بذلك وقال لي انج وما اراك بمفلت، ونصح لي ان اسلم وقال لي ان تفعل هذا فانك تغسل حوباء نفسك فرق قلبي وجئت رسول الله وهو في وسط اصحابه يحدثهم فانخت راحلتي ببابه ودخلت عليه فقلت له: يارسول الله الامان! قال: ومن انت. قلت: كعب بن زهير قال انت الذي يقول «الا بلغا عني بجيرا رسالة» قلت: نعم فلم يغضب ثم انشدته قولي فيه (٢).

ان الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما اسلموا زولوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا خور معـــازيل

وكان ابي زهير بن ابي سلمى قد رأى في منامه آتياً أتاه فحمله الى السماء حتى كاد يمسها بيده ثم تركه فهوى الى الارض فلما احتضر قص رؤياه على اخوتي وقال: «اني لا اشك انه كائن من خبر السماء بعدي شيء فان كان فتمسكوا به» فلما جئت سيد قريش وقرأت عليه شعري اذكرني صفحه عني رؤياء ابي فما ارتبت من صدقها وقصصتها على السيد فالتفت الى صحبه واراده على ان يسمعوا شعري (٣)

وفي صباح اليوم التـــالي مضيت مع القوافل الى وادي القرى انثر شعري في رسول الله على الناس الذين لم يعرفوا خبره بعد.

فحدج عمر كعباً بعينين خضلتين وقال له:

ــ قلت لي انه صفح عنك؟

ــ نعم لقد صفح عني وشد يدي.

---

(١) الاغاني ج ١٥ ص ١٤٢
(٢) الاغاني ج ١٥ ص ١٤٣
(٣) الاغاني ج ١٥ ص ١٤٢

ـــ وكان حديثه معك رقيقاً حلوا ؟

ـــ لقد كان ينظر الي وهو يتلو علي القرآن نظرة رحيمة فلم اطق تأثيرها ، فأطرقت مستحييا .

ـــ الا تعد على ما قلت في مجلسه ؟

فغنى كعب بعض شعره في الرسول وعمر يبكي حتى فرغ من غنائه فقال له عمر :

ـــ وداعاً يا صاحبي .

ـــ الى أين ؟

ـــ الى سيد العالم ، اسأله صفحاً وغفرانا .

ثم مضى متوغلا في الطريق وكعب بن زهير ينظر اليه مشدوها .

* * *

أشرف عمر بن الخطاب على بيت ورقة بن نوفل في حي الابطح وكان الحي قد اقفر الا من امرأتين تذرعانه تحت اضواء الكواكب ، والا من اناس يخفقون باب المنزل ثم يدخلونه ، ثم يخرجون منه ناشجين شاجنين ، فتقدم عمر من المرأتين يريد ان يسألها ان كانتا تعلمان شيئاً جديداً عن مرض الشيخ الجليل الذي فارقه في الصباح مدنفاً عليلا فتحاشت المرأتان طريقه وجنبتا نفسيهما لمس يده الممدودة الراجية فناداهما قائلا :

ـــ تمهلا قليلا فلست عدواً تخافانه في هذا الليل !

فعادتا اليه مطمئنتين فنظر اليهما قائلا :

ـــ ليس في سحنتي ما يخيف ، نبآني ناشدتكما الله بالذي تعلمانه عن ورقة بن نوفل

فرنت اليه احداهما بعينتين غائمتين وقالت له :

ـــ ان الناس يعودونه في هذا الليل .

ـــ اذن فهو قد ادنف ؟

فصاحت المرأة :

— أتحبه يا سيدي ؟

— أحبه كثيرا .

— وسيد قريش يا سيدي ؟ ألا تحب سيد قريش ؟

ففكر عمر ملياً ثم رفع رأسه الى المرأة قائلا :

— أحبه كثيرا ، أحبه كثيرا ...

— اذن في مقدورك يا سيدي ان تدخل حجرة الرجل المحتضر فتودعه قبل ان يحمل ندى الصباح البليل روحه الى السماء .

فصاح عمر :

— يا للرجل النبيل .

وكان صياحه قد رن في الفضاء المغدر كحشرجة الميت ، ثم ما لبث ان شعر بالقر يرتمي على وجهه فهمس قائلا :

« ما اشد قر هذه الليلة ؟ انه ليهب على وجهي المحموم حتى يكاد يصوحه ويذبله ثم دخل بيت ورقة أسوان ملتاعاً ، وظلت المرأتان تذرعان الطريق باكيتين ملتاعتين . »

الفصل السادس والعشرون

آلام وذكريات

اضطجع ورقة بن نوفل على سريره في حجرة تطل شرفاتهـــا ونوافذها على الكعبة واحدق بهذا السرير الذي استراح اليه هوميروس العرب ثلاثون من صناديد قريش بينهم الشاعر النابه والخطيب اللامع ورجل الحروب والملاحم ، وقد جاء جميع هؤلاء في هذه الليلة ليشهدوا كيف يخرس الموت اول صوت ارتفع تحت سماء مكة بالدفاع عن رسالة سيد قريش ، وكان بين هؤلاء الصناديد شيخ في الثمانين من عمره رسم الالم والحزن والارق على جبينه مثل هذه الصور الكامدة التي تلوح على جبين المحتضر .

ولم يكن هذا الشيخ الذي جاس الى جانب سرير ورقة بالرجل المغمور الصيت في مكة او في بلاد الظلال والاعناب بل كانت له شهرة معطرة بلغ نواحيها في شبابه الاول يوم اخطأ قريشاً النصر على الاحباش فخرج وطائفة من الفتيان الى الحومة ملبياً صوت ابيه ثم عاد الى مكة يحمل الى الوطن المفجوع بحريته نصراً عزيزا ، والى قلوب الامهات رجاء حلواً والى الشيوخ شباباً جديدا .

لقد كان الناس يعرفون هذا الشيخ وكانوا يقرأون في ثمـــانين عاماً من عمره تاريخ امة هذبها الانكسار . كما هذبها الانتصار . فراحت تستغل الاثنين معاً في تمتين بناء الحرية في ارضها .

بلى لقد كان الناس يعرفون ابا طالب القرشي الهاشمي ولا ينسون يداً له خلعت في الماضي القديم على الوطن البائس المكدود نعيم الحرية ومفاتنهـا وكانوا كذلك لا ينسون له يداً كريمة لم يأنف ان يمدها الى اليتيم العظيم في اليوم العصيب الشديد .

كان ابو طالب ينظر الى وجه ورقة الجاهم ، والى عينيه المطمأتين صامتاً آسياً

وكان القرشيون الذين ملأوا الحجرة يحارونه في صمته والتياعه وينظرون مثله الى وجه المحتضر .

في هذا المساء استفاق الالم في نفس ورقة بن نوفل فشعر الاعمى الجليل بالنهاية فدعا اليه جميع الشيوخ الذين اشتركوا في الحرب المقدسة التي اثارتها جزيرة العرب لطرد الاحباش حلفاء قياصرة القسطنطينية فلبى دعوته ثلاثون من الاحيـــاء في مقدمتهم ابو طالب والوليد بن المغيرة وثلاثة من شعراء الماضي وخمسة من خطبائه ولما دخل هؤلاء على ورقة والفوه يتضاغى من الالم اراد بعضهم ان يحمله الى الكعبة ليموت تحت استارها فيجيء موته على هذه الصورة خليقاً بمنزلته في قومه ولكن الشيخ ابى على رفاقه القدماء هذه الامنية العزيزة فآثر ان يموت في الحجرة القديمة التي ولدته امه تحت سقفها وقال ان احب الاشياء اليه ان يدفن الى جانب عبد المطلب بن هاشم في غير ضجيج ولا عجيج .

ثم صمت صمتة طويلة خيل الى صحبه انها صمتة الموت فارعدوا واجفلوا وقام ابو طالب الى السرير فخلع على جسد ورقة ستاراً قديماً من ستائر الكعبة مبالغة في تكريم المحتضر .

وفي هذه الفينة دخل عمر بن الخطاب الى الحجرة تحت نور ضئيل ينبعث من مصباح معلق على باب الحجرة فانتبه القرشيون اليه، وراحوا يحدقون فيه ، وقد رابهم دخوله كمياً مسلحاً ففطن الى معنى هذه الحيرة التى تجاذبتهم فنزع سلاحه والقى به الى الارض صائحا :

— لقد نسيت انني في حجرة يغشاها وقار الموت .

ثم تقدم من السرير حادباً مترفقاً حتى صاقب ابا طالب فجلس عن كثب منه فاطمأنت نفوس القوم الى سكون نفسه وصفائها .

قال عمر : قد تسألون من اين جاء هذا الرجل في هذا الليل ؟ ثقوا انني لم انحدر الى هذا المثوى من مكان بعيد ، فقد كنت في بيت اختي وهو كما تعلمون غير بعيد من

هنا، وقد يتخافت احدكم بصوته ماذا كان يفعل هذا الرجل في بيت اخته وهي امرأة لا تشاطره دينه وعبادته . قد يهمس احدكم بمثل هذا الهمس وهو لا يستطيع ان يرفع صوته لانه يخاف ان اشد على عنقه ! اي صناديد قومي ! لقد القيت بسلاحي على حضيض هذه الغرفة احتراماً لهالك تبكونه فلم اعد ذلك الرجل الذي تملأ صورته افئدة الناس ذعراً وهلعاً , انظروا الي فهل ترون على وجهي ما يخيف ؟ لقد عدت طفلا فمن حقي وانا طفل ان اجد في قلوبكم ذلك الحنان الذي يجده الصغار في قلوب الشيوخ . .

وكان عمر يتكلم بصوت راعش ولكنه شديد اهتز له ورقة بن نوفل وتمايد في سريره فالتفت الناس الى المحتضر فاذا هم يسمعون صوته :

صاح ورقة :

— من هذا الذي يتكلم ؟

فاكب عمر على السرير ووضع يده على رأس ورقة قائلا :

— لقد مررت في هذا الصباح بمنزلك ! وسمعت صوتك !

فامر الشيخ يده على شعر عمر المتهدل المستفيض وراح يلمسه لمساً خفيفاً وهو يقول

— بلى ، هذا صحيح . . اي عمر ماذا فعلت في نهارك ؟

— اتيت خالي فسلح يدي وقال لي انطلق الى اختك فاقتلها فانها قد جفت دين ابائك فجئت اختي فاطمة بن الخطاب فالفيتها قد اعتزلت الناس فوقفت حيال حجرتها انتظر خروجها ومضيت الى نفسي اسألها معنى هذه العزلة ، واني لكذلك اذا صوت اختي يستفيض في اذني حلواً سائغاً . فاصغيت فاذا هي تقرأ شيئاً عجيباً فوددت لو انني الذ هذا الشيء العجيب ، فطرقت الباب ففتحت لي راعدة راعشة فسألتها عن هذا الذي تقرأ فقالت لي انه القرآن ! وكنت متحمساً ! بل لقد كنت محتدماً كالعاصفة فغاضت حماستي ، وركدت نفسي ، فاقبلت استسيغ معها هذا الكلام العجيب ثم سألتها عن محمد فقالت لي انه في داره بالصفا فجفوت منزلها

اريد بيت محمد ، وفي الطريق عرضت لي قوافل الاعراب في معادها من الشام الى ام القرى فسمعت حداتها يقولون شعراً بارعا في الرسول فاستوقفت الركب وسألت عن الشاعر الذي ابدع في قول هذا الشعر فاطل علي كعب بن زهير وهو من تعلمون شعراً وسحراً وقال لي : انا هو صاحب هذا النشيد ! ثم قص علي حادثة اسلامه حتى استجاشني فتركته وقد ادركت ان الشعر قد استخذى للقرآن .

وهنا سكت عمر وسكت ورقة واخذ الناس ينظرون اليهما نظرات حائرة حتى تكلم ورقة فمضت العيون تنظر اليه من جديد .

قال ورقة :

ــ قل لي امنطلق انت الى الصفا ؟

فصاح عمر :

ــ نعم وسأرى سيد العالم .

فاشرق جبين ورقة بضياء الفرح وزالت من وجهه تلك الغضون التي رسمها الموت وتحركت عيناه المطفأتان حتى خيل الى الناس انهما عادتا مبصرتين وانهما تطلعان على مافي الغرفة من مشاهد ووجوه ثم تناول يدي عمر وضمهما الى صدره والتفت الى ناحية القرشيين صائحاً :

ــ كان سيد العالم يقول « اللهم اعز الاسلام باحب الرجلين اليك ، عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام ! » وكنت اسمعه يرفع صوته بهذا الدعاء وهو يطوف حول الكعبة ، فامر يدي على عيني الهامدتين فاراهما نديتين خضلتين ثم اعود فاضع يدي على صدري فالمس خفقه ووجيبه ثم تهدأ خواطري فاستعرضها امامي فارى خيال عمر بن الخطاب ، لقد استجاب الله دعاء رسوله انها السادة فاعز دينه باحب الرجلين اليه

فشجي عمر وقال :

ــ سيدي

ــ اتاني عمر بن الخطاب قبل ليال وكان قد مر في احدى رحلاته ببصرى

من بلاد الشام فقال له راهب نصراني انك مدرك ثأرك من قيصر وكسرى فازعجه حديث الراهب فجاء يسألني معناه فاخذت يده لعلني اقرأ فيهـا هذا الذي قرأ شيخ النصرانية فرأيت شيئاً عجيباً ولكني لم اشأ ان احسر عن هذا الشيء العجيب بل فضلت ان ينتظر اياماً قليلة حتى اذا ردت الي عافيتي كشفت له ما استبهم من امر آتيه فقبل وفي هذا الصباح جاء الى زيارتي فرآني مدنفاً عليلا فلم يشأ اقلاق وحدتي الاخيرة ففارقني على ان يعود في المساء .

فاما وقد عاد فليس بمانعي مرضي ان احسر عن مستقبله امام عيون قريش وصناديدها .

ـــ سيدي ! ليس في طوقي ان اسمع .

وتابع ورقة حديثه بلهجة لم يضعف الموت صفاءها وحدتهـا وعمر مكب على صدره لا يريد املاسا ، لقد قال ورقة للذين يلتفون به · الا ترون الى هذا الفتى الشديد العنيد ؟ انه بالغ في حياته شأواً لن يبلغ مداه عربي ، ستسألون وكيف ذلك؟ وانى لهذا الفتى ان يدرك امنيته وسؤله من المجد ، وهذه الصحراء لا تخرج ملوكا ولا تلد قوادا .

قد تقولون ذلك ، وقد ترون في ارض الوطن عجزاً عن خلق الروائع على انكم لا تقولون هذا لأنكم تنكرون الماضي واحاديث الوغى وسير الفرسان المخلدين في قصائد الشعراء فان صور الماضي كلها منقوشة على قلوبكم ، ولكن اعتزالكم العـالم الذي اتصل به آباؤكم انساكم قوة الوطن والمعيته وذكاءه .

وهنا رق صوته حتى اوشك ان يغيض ثم اردف :

وددت لو انني استطيع نهوضاً من سريري لأرى مكة وجبال جزيرة العرب ، فأدلكم وانا احدق الى مساء حياتي الاخير على تلك القمم الشوامخ البواذخ التي نهد منها محاربون بسلاء لافتتاح العالم واخضاعه .

ايها الرفاق ! خرج ياسر بن عمرو بن يعفر ملك حمير في عهـد بلقيس بنت

ايليشرح ملكة سباغازيا الى ارض الصين فبلغ بعشرة آلاف من فتيان وطنه وادياً عميقاً تطفح نواحيه برمال سدفاء لم يبلغه احد من قبله فلما صافحت عيناه هذا البحر الخضم من رمال قائظة لفاحة الاوار ورأى الافق المجلبب بضباب اصهب فكر في الرجوع الى وطنه ولكنه ما عتم ان استحيامن الجند الذادة معه فارتد الى التوغل في الرمال فاستقبلته ريح صرصر عاتية فانكمشت نفسه فهم نزلة أخرى بالرجوع الى وطنه ثم عاد ينظر الى فتيانه فاستحيا منهم وراح هؤلاء ينشدونه نشيد حمير حتى استجاشوا حماسته .

وانه ليلذ ذلك النشيد اذ انكشف الرمل فالتفت الى رجل من اهل بيته يقال له يزيد واراده على عبوره وقال له ان نساء العرب ينتظرن اوبته منتصراً حتى ينثرن على هامته رياحين الوطن فتحمس يزيد وعبر الرمل واصحابه ولكنهم لم يرجعوا (١)

لم تضعف هذه النكبة حماسة ياسر الحميري ففكر في تكريم الابطال الذين ابتلعتهم الرمال ، فامر بتمثال نحاس فصنع ثم نصب هذا التمثال على صخرة على شفير الوادي ونقش على صدره هذه الكلمات « تحية ياسر الحميري الى الفرسان الفتيان من حمير ، ليس وراء هذه الرمال مذهب فلا يكلفني احد عبورها فيعطب » (٢)

مات ياسر في الطريق وهو قافل الى اليمن فخلفه ذو الاذعار تبع بن زيد بن عمرو سيد شباب العرب فغزا العراق والترك وقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم انكفأ راجعاً الى اليمن فاقام بها دهراً وهابته الملوك وقدمت له الهدايا فقدم عليه رسول ملك الهند بالهدايا والتحف من الحرير والمسك والعود وسائر طرف بلاد الهند فرأى مالم ير مثله فقال للرسول ويحك اكل ما ارى في بلادكم ؟ فقال ابيت اللعن اقل ما ترى في بلادنا واكثره في بلاد الصين ووصف له سعتها وخصبها وكثره طرقها فآلى ليغزونها فسار بحمير مساجلا حتى اتى الركائك واصحاب القلانس السود

(١) و (٢) تاريخ ابن جرير الطبري ج ٢ ص ٣٠٢

ووجه رجلا من اصحابه يقال له ثابت الى الصين في جمع عظيم فاصيب فسار تبع فقتل مقاتلتها ونشر راياته تحت آفاقها (١)

ومنذ ذلك اليوم الاغر الذي توغلت فيه جيوش ذي الاذعار في ارض الصين اخذ شباب العرب يجفون الصحراء الى بلاد جديدة رجاة الامتداد بحدود وطنهم الى البحار النائية يحفزهم الى تجديد الفتح في كل سنة شعورهم بان لبانات الوطن ورغباته لا تتحقق في الرمال القائظة المشبوبة وانما هي تتحقق في بلاد الانهار والبحار.

نعم منذ ذلك اليوم الذي اخضع فيه ذكاء العرب محارس الصين وجبالها اصبحت فكرة التبسط في نواحي الارض في جملة التقاليد القومية فاخذت بادية العرب ترسل ابناءها ليكونوا ملوكا في ارض الفراعنة حتى اناف هؤلاء الذين نزلوا وادي النيل على خمسة وثلاثين ملكا من ملوك الرعاة.

ولما لم تستطع ارض مصر ارواء ظمأهم الى المجد عادوا يفكرون في اخضاع نواح جديدة من العالم ففي ذات عشية خرج فتى من تغلب اسمه يزيد بن عمرو الى الكعبة فطاف بها مودعاً وارتد الى منازل اصدقائه يريد ان يسلخ معهم زلفاً من الليل قبل املاسه من ارض الوطن، فاوقد اصدقاؤه النار على رؤوس الجبال والتفوا به الليل كله يستمعون لأحاديثه، ويستمع لأحاديثهم، ثم تنفس الصبح فنهض الفتى يريد ذهاباً فسأله صحبه: «الى اين تمضي؟» فاجابهم متحمسا «الى روما» فحاروا لأمره وعجبوا له وهو الفتى الناعم الرقيق ان يمضي وحيداً وبلا رفاق الى ارض القياصرة فسألوه «وماذا تفعل في روما؟» فقال مستكبراً شامخا: انزع فيها منزع قيصر، ألبس أرجوانه، وأحمل صولجانه.

وكان اصدقاؤه على علم بشممه وعنفوانه وكبريائه فما فكروا في اطفاء جذوة

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ج ٢ ص ٢ و ٣

الطمع النبيل في نفسه فاقبلوا على وداعه يهزون في يدي يزيد بن عمرو التغلبي يدي قيصر الرومان .

ثم مضى الى روما فما احتوته ارضهـا حتى راح يعقد على جبينه اكليل قيصر فهتف له الشعب في كابيتول روما وانثنى يرشقه بالآس والورد (١) والريحان .

ولما بلغ ورقة في حديثه هذه الناحية هز يدي عمر واردف :

— ان على يدك رعشة شديدة .

قال : هي رعشة الالم والمرض .

— كلا ! ولكنها رعشة الراية التي ستحملها يدك الى بلاد الاكاسرة والقياصرة

فصاح عمر :

— ولكني أشد القرشيين املاقاً وبؤساً وليس في قدرتي ان اقود الجيوش تحت الرايات .

— ولكن على يدك رعشة عنيفة .

— هي رعشة الالم والمرض .

— كلا بل هي رعشة الراية وخفقها .

— أية راية تعني يا عم ؟ أراية قريش وهذه قد هاض منها الجناحان فما عادت تستطيع امعاناً في الفضاء .

— ولكن سيد قريش سيمنح هذه الراية الحياة فيورق منها الجناحان ويعود في مقدورهما التحليق في الفضاء خلال الفجر او عند مطالع المساء .

— سيد قريش ؟

— نعم ! ثم التفت ورقة الى ناحية القرشيين واردف :

---

(١) يزيد بن عمرو بن حارثة من تغلب توج امبراطوراً على روما باسم فيليب العربي او يوليوس ماركوس سنة ٢٤٤ واستمر حكمه الى سنة ٢٤٩ ثم قتله الجند في مدينة فيرونا وقد شنع به مؤرخو الغرب فنعتوه باللص حسداً وجبنا .

ـــ أعرفتم هذا الفتى الآن ؟ ليكونن له في الغد شأن ذلك الصقر الحميري الذي حمل راية وطنه الى الصين . فلا تقف جنوده عند ابواب دمشق بل تمضي في زحفها متوغلة في صميم بلاد كسرى وبلاد الفراعنة .

ـــ أهذا ما تنبأت لي به انا الرجل الذي يعيش فيهذا الوادي بعيداً عن العالم ؟

ـــ أمنطلق أنت الى سيد قريش قبل ان تنكشف انوار الفجر ؟ امض اذن في سبيلك وافتح صدرك للضياء الذي ينتظرك .

فحنى عمر رأسه باكياً وأخذ الشيوخ ينظرون الى هذا المشهد بعيون وقلوب ، وقد أثر فيهم مشهد هذا العربي المتنصر وهو يتحدث بحماسة الشباب عن وطن آبائه واجداده وللمرة الاولى انصت شيوخ القرشيين الى خفقة الحيــاة في جوارحهم فخيل اليهم وهم يلمسون صدورهم الراعشة ان الوف الرايات تخفق وترعش في نواحيها وشعروا ان افق المجد الذي تقاصر امامهم في الماضي قد اخذ ينمو ويتسع في هذا الحاضر الجديد الذي قبس حياته من شباب سيد العـالم ، فأغيمت عيونهم من فرط الفرح ولذوا ان يكون فتيان اليوم قواداً لجيوش التهذيب في الغــد ، بل لقد حسد هؤلاء الشيوخ ابناءهم على عيشهم الآتي فودوا لو ان الحيــاة تطول بهم ليروا اي سنى يتفجر من يدي سيد قريش على العالم .

وكان ورقة في غضون هذه الســاعة الروعاء يلوح لهم ناصباً مكدوداً . وقد ارتفع من صدره نشيج اليم ، واخذ ظل الموت الجاهم الغائم يطفو على جبينه ولكنه ظل ساكناً هادئاً وديعــاً كطفل اذبله الداء فراح الى حضن امه يلتمس عطفاً وحباً وابتسـاماً .

كانت الابتسامة الحلوة العذبة على شفتي المحتضر ، وكان النور البديع اللألاء يغسل صور الاحزان في جبينه فلا يذر منها كثيراً او قليلا بل لقد كانت هذه الصور البشعة التي رسمتها الايام والاعوام تغيب وتفنى لتحل مكانها صور فتانة عذبة

وفي تلك الاثناء حمل الليل الندي اعراف الجبال المجاورة فتسربت الى حجرة

المحتضر لينة سجواء واخذت تمتد الى النواحي الغارقة في الصمت والحزن ، ثم امتدت وامتدت كثيراً حتى تراقص ظلها الخفيف على جبين الرجل الذي رعى النصرانية شابا ، واحب الاسلامية شيخاً ثم اخذ هذا الظل البديع اللطيف يدغدغ شعوره البيضاء والشيخ يبتسم لحلم بهيج توامض على عينيه المطفأتين .

وبزغ القمر فتانا رائقاً في سماء فتانة رائقة : فظللت انواره بيت ورقة ، كما ظللت الكعبة وامتدت من هذه الانوار الحالية بالوف الالوان وشتى الاصباغ خيوط ناعمة على جبين هوميروس العرب ، فعاد يبتسم للحلم الذي عرض له في خواطره فاهتز في فراشه اهتزازة رقيقة ، ثم زفر زفرة هادئة لا يخالطها الم ولا يرافقها هذيان وطارت روحه على انداء الليل الى الافق لتستحيل في الصباح الباكر الى انشودة يستهوي جرسها الفاتن جبال جزيرة العرب .

ولم يفت هذا الموت الوادع المطمئن شيوخ القرشيين فتدلف ابو طالب الى الجسد الهامد ومضى يتأمل في الرجل العظيم الذي ملأ بطاح مكة وصحراء العرب باناشيد ابن اخيه ولكنه لم يتكلم ، بل ظل يمعن في التحديق الى ماضي هذا الكبير العظيم حتى خيل الى الذين ينظرون الى غرقه انه قد استحال الى نصب من الحجارة ولولا لهاث يطفر من صدره لخيل اليهم ان الحياة املست منه ، ثم ماعتم ان تهافت على جسد المائت الكبير ملتاعا ضارعا . ؟

الفصل السابع والعشرون

تحت قبة الشعراء

امضى شيوخ قريش ليلهم كله حيال سرير ورقة . وفي الصباح الباكر حمل اربعة من غطاريف عام الفيل نعش الهالك الكبير الى الكعبة ليعرض على الجماهير تحت قبة شعراء المعلقات السبع .

وعلمت مكة بهذا الموت الشجي فمشت الى البيت المقدس تودع الرجل الذي اصطنع فضيلة النفس وورعها وشرفها في الاحسان الى الضعفاء والاقوياء معاً ، فهدهد الآم الاولين ، وبذل نصحه للاخرين حتى وجد الابرياء في بيته مثوى رحمة وحنان وحتى وجد الأقوياء في نصحه شيئاً كثيراً من الاحسان .

وفي غضون ذلك اخذ عمر بن الخطاب يوغل في الاحياء المقفرة وهو لا يدري الى اية ناحية من نواحي البلد الحزين الاسوان ينقل خطواته الراعشة وقد ازدحمت في صدره صور الليلة الماضية فاخافته وروعته ومنعته ان يفكر في المضي الى الصفا وظلت هذه الصور المعتمة عالقة بروحه وحسه حتى مر به الناس في طريقهم الى الكعبة فاستفاق من غرقه واصغى الى همسهم الضعيف ، ولمس في رقته ذلك الأسى البليغ الذي ابتعثه موت ورقة ، فازمع رجوعا الى الكعبة ليلقي آخر نظرة على الرجل الذي حدثه عن مستقبله بتلك اللغة العالية السامية !

وانه لكذلك اذ عرض له من بعيد رهط من صناديد قريش ، فعرف من بينهم خاله ابا جهل وعتبة بن معيط والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وكانوا يلبسون الأرجوان والديباج فاثار مشهدهم شجوه وغضبه فلحق بهم حتى ادركهم على ابواب الكعبة ورآهم يشقون الصفوف ، ثم لحظهم يختلطون بالناس فازمع سبهم وفضحهم امام الجماهير .

وكان الحزن على ورقة قد ملك على الناس مشاعرهم والبابهم فلم يفطنوا لعمر ولم ينتبهوا الى ثورته فاخذوا يمرون بنعش الهالك الكبير ، حتى اذا حيوه وودعوه خرجوا من الكعبة الى فنائها الخارجي ، وبعد ان طاف عمر بالكعبة جاء الى خاله وهو اشد ما يكون اهتياجا واغتلاما فناداه

— اسامعي انت ياعمرو بن هشام ؟

فالتفت ابو جهل الى الفتى القرشي فرآى على جبينه المكفهر حمرة الغضب فروعه مشهده ونظر اليه نظرة متفحصة كأنما هو يريد ان يتسرب الى اعماق نفسه ليدرك همسها ولم يكن يدري شيئاً من ذلك الحافز الشديد الذي حفز ابن اخته الى الغضب

كرر عمر سؤاله :

— اسامعي انت ياعمرو بن هشام ؟

فتصنع ابو جهل الرقة والحنو وقال :

— الديك شيء تقوله ايها الفتى ؟

— بل لدي اشياء احب ان لا يفوتك قليلها وكثيرها .

— هنا وامام الناس جميعاً ؟

— نعم هنا وامام الناس جميعاً !

— الا ترى يا ابن اخت انه جدير بك وبي ان نعتزل الناس وان نمضي الى مكان بعيد من هنا ؟

فصاح عمر :

— ولكني اكره العزلة واحب الضجيج ، نعم اكره العزلة لأنها علامة على ضعف النفس ولأنها من شيم اللصوص الذين يتحاشون الاختلاط بعالم الضياء ، اي خالي الدري انني ازمعت ان اكلمك عالياً هنا امام تابوت ورقة ، وامام جميع الناس

فاحمر وجه ابي جهل ولكنه لم يحتدم بل احب ان يمضي الى النهاية في مصانعة عمر حتى لا يستفزه الى غضب اليم فقال له متلطفاً :

ـــ لعلك تريد ان تحدثني عن اختك ! اني اعلم انها صبأت واعلم كذلك ان زوجها قد زين لها الصبأة . قل لي اتريد ان تحدثني عن اختك ؟

وكان ابو جهل يتحدث الى عمر بصوت خفيض مخافة ان يفطن الناس الى امره ولكن الفتى القرشي لم يحب الهمس ولم يشأ ان تظل الغاية الكريمة التي نهد للدفاع عنها ترجيعاً مؤثراً لا تردده غير نفسه فاحب لهذا الترجيع الخروج الى الفضاء الواسع حتى يلذ العالم ترديده !

نعم لم يشأ عمر بن الخطاب ان يظل ايمانه بسيد قريش حبيساً في صدره فرفع صوته وقال لخاله :

ـــ لعلك قد اسأت فهم ما اردت ! فان حديثي لا يتناول اختي ولا يتناول زوجها

ـــ اذن ؟ !

ـــ انه حديث يتناول فتى كثيراً ما فخرت بوضعه تحت كنفك ، واردته ان يظل في جوارك .

ـــ من هو هذا الفتى ؟ يخيل الي انني بدأت افهم ؟

ـــ هو عمر بن الخطاب ، ابن اختك وحفيد ابيك !

ـــ وماذا يريد مني هذا الفتى الذي احببته فوق كل حب ؟

ـــ يريد ان يقول لك انه قد صبأ .

فصاح عمرو مروراً :

ـــ ويحك ماذا قلت ؟

ـــ قلت انني صبوت ، لقد منعتني النور واردتني على السبح في الظلمة فعشت في الناس كما تعيش السائمة ، تطالعني الشمس فلا اعرف لماذا تريق بهاءها على الجبال والمراعي والاودية ، ويرتمي المساء على جبيني فلا ادري الحكمة من ائتلاق دراريه وكواكبه ثم اصعد في الجبال واهبط الى الاودية فتمر بي المشاهد والالوان ثم تعاودني رجعى الى منزلي وانا ذاهل لا ادرك شيئاً من معاني هذا العــالم ، اي عمرو بن

هشام لقد بقيت سادراً حتى استمعت الى صوت اختي وهي تقرأ في كتاب الله فرعشت نفسي رعشة استفاق لها ذهني ففتحت عيني للسماء والجبال والمراعي والانهار فادركت عجز هذه الآلهة التي تعبدونها عن فهم هذا العالم بل لقد ادركت انها غريبة عنه .

فقال ابو جهل متبرما :

ــ صه فاني اخاف ان يسمعك الناس فيقتلوك .

ــ لقد صدفت عن آلهة قريش.ورجعت الى الله الذي اراق على محمد بهاءه ونوره

ــ صه فاني اخاف ان يسمعك الناس فيقتلوك .

فانحى عمر ناحية الجماهير صارخا :

ــ ايها الناس ان عمر بن الخطاب قد صبا .

فطفر العاصي بن وائل من مكانه الى ناحية الفتى القرشي وعليه قباء من ديباج (١) فقال له :

ــ ويحك امدرك انت ما عملت ؟

اثرت صيحة عمر في الجماهير فتركت نواحي الكعبة وجاءت الى صوب عمر ثائرة مهتاجة ! واخذ شيوخ القرشيين يصيحون :

ــ صبا عمر ، صبا عمر (٢)

ولما احاطت الجموع بالفتى الشديد رفع العاصي بن وائل يديه الى الفضاء صائحاً اين تريدون ؟ (٣)

فقالوا :

ــ نريد هذا ابن الخطاب الذي قد صبا . فقال العاصي :

ــ ان كان عمر قد صبا فأنا له جار .

وكان طغيان الجماهير شديداً فأزمع ابو جهل املاساً من الفضيحة فقال :

---

(١) و (٢) و (٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

ـــ يا قوم اني قد اجرت ابن اخي هذا فلا يمسه احد (١) ثم التفت الى عمر وقال له :

ـــ ارأيت حصاد تماديك في الصلف ؟

فقال :

ـــ تسمع ؟

ـــ ما اسمع ؟ ! قل لعلك قد رجعت الى نفسك ؟ فصاح عمر :

ـــ جوارك مردود عليك .

ـــ فقال ابو جهل : لا تفعل ، فصاح عمر:

ـــ بل افعل ! ايها الناس لقد رددت جوار خالي في هذا الصباح ! فألوى ابو جهل برأسه يائساً وقال :

ـــ افعل اذن ما شئت !

فالتفت عمر الى القرشيين صائحا :

ـــ ان في داخل الكعبة جسداً هامداً وجب علينا احترامه جميعاً حتى يغيب في رمسه ، ثم تنكب قوسه وانتضى في يده اسهماً واتي الكعبة نزلة اخرى واشراف قريش بفنائها فطاف بها سبعاً ثم صلى ركعتين عند مقام ابراهيم، ثم أتى قريشاً فقال شاهت الوجوه ، من اراد ان تثكله امه فليلقني وراء هذا الوادي فما تبعه احد (٢) وظل خاله ينظر اليه راعشاً راجفاً حتى غيبه الوادي .؟

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

(٢) تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين للسيوطي ص ٤٥

الفصل الثامن والعشرون

عند سيد العالم

عبر عمر بن الخطاب الوادي فطاف بسفوحه ، ثم انحى ناحية الجبل فاستقبلته ذكاء بأشعتها المتلظية ، وارتمى على جبينه ريح ارتد منه شاحباً مسفوعاً ، فأوغل في الطواف بالروابي والمرتفعات لعله يستريح الى اكنافها ونواحيها .

وكان كلما توغل في سيره امتدت امامه شواهق الجبال واصلادها ، وتراءت له الوان كابية لا تحمل الى نفسه ذلك العزاء الذي تشتاقه ، فود اكثر من مرة لو انه يستطيع ان يفيء الى اماكن جديدة يجد فيها ذلك المرح الذي انملس منه خلال ليلتين امضاهما في التحديق الى مشاهد لا تروق ولا تبهج .

وطفق يفكر وهو دائب على طوافه برواهص الجبال في رجعة قريبة الى الصفا فمنعه القيظ الشديد ان يمضي في تفكيره فارتد الى الوادي ورأى الرعاة ينزلون في سفوحه بين براسق النخيل فحاذاهم واختلط بهم واستمع الى اناشيدهم ثم مل مشهد الابل ومشهد المعز وعاف غناء الرعاة فعاد الى الجبال وفي روحه رعشة السراب على القمم والروابي .

لقد تسلق اكثر من رابية واستقبل طائفة من الجبال الكدراء وتتالت عليه لحظات بطاء وهو يبحث عن الظل فلا يجده حتى اطغات الشمس وتوارى النهار وراء الاصلاد الراعبة التي تحجب زرقة السماء فاستروح الى مشهد الطفل المخضوب وهزته رعشة باردة انتشرت على نواحي الافق ففتح صدره للهواء الصارد ورحب بالمساء واخذ يطفر في الجبال غير مكترث للعرق الدافق يغسل جبينه ويسيل على وجهه

لقد طفرت مطامحه الى الصفا وهو على رابية تطل على مكة فتمثل عالم سيد

قريش ثم تمثل العالم الكبير الذي يعيش فيه قومه وقايس بين خلود الاول ، وعفاء الثاني . فلذ في عالم سيد قريش نهوضه على فكرة الله الماثلة في الطبيعة ، وكره في العالم الذي يعيش قومه في دجناته صدوفه عن الطبيعة وشذوذه عنها .

وفي خدة البرق الومض استجمع خواطره فراح يصبها كلها في عالم سيد قريش واخذ ينظر الى بيوت القرشيين القائمة بين باسقات النخيل وجعل يتأمل في عيش اصحابها فبدا له الحقد والحسد والطمع والشهوة والاسراف في تنكيد الضعفاء فرق رقة غريبة لبيوت قائمة في الطرف الآخر من السفوح ، ولم تكن هذه البيوت غريبة عنه ، بل كان يعرفها ويعرف اصحابها ولا ينوته نهوضها على الحب والموادعة والبر بالضعفاء والاحسان الى الطفولة البريئة والشيخوخة الساذجة وكان يعلم ان عالم سيد قريش يعيش في هذه البيوت المتواضعة الرحيمة .

انحدر عمر من الجبل متوغلا في طريق يدفع الى الصفا حيث عالم سيد قريش وجعل يعدو في سيره رجاة ان يطرق ابواب هذا العالم قبل ان يحتويه الغسق ، ولم يكن يفكر وهو يركض الى نواحي الصفا في العثور على جمال العالم البيزنطي وزخارفه ولا يطمع في الدخول الى معابد الرومان القائمة على اعمدة من المرمر بل لم يكن يطمع في رؤية تلك الزخارف الرائعة التي شهدها في اسفاره الكثيرة الى بلاد الظلال والاعناب فقد كانت احلامه وهواجسه بعيدة عن هياكل بيزنطية وروما ومعابد الفرس والمصريين وكانت هذه الاحلام تمثل في عالم سيد قريش ومعابده البساطة والتواضع والحب والرحمة .

لقد كان عمر يحب البساطة حتى في الدين فنهد الى الصفا تحت ظلال المساء في تلك الساعة الروعاء التي حفزت شعراء قريش الى تمجيد عصور الجاهلية . وبينما كان القرشيون يتمسحون في الكعبة بالآلهة والارباب ويحرقون عطور الهند على جسد ورقة بن نوفل كان عالم سيد قريش ينمو ويتسع في معبد متواضع مرمره الغبراء وسقفه هذه الكواكب السادرة في السماء واعمدته رياح تعصف بنواحي الفضاء ،

دخل عمر الى الصفا هادئاً ناعماً وادعاً خالي الذهن من تلك الوساوس التي اثارتها في روحه احداث الليالي الماضية ، وكان يمشي مترفقاً حادباً فاجتذبته الى ناحية بيت سيد قريش صلاة حلوة عذبة حركت شجونه واثارت حماسته ، فوقف يصغي اليها باكياً وحمل الهواء الى اذنيه أصواتاً رحيمة صافية فارتد الى ناحية غير بعيدة من البيت ووقف يتأمل في الداخلين اليه والخارجين منه ، فرأى على ضوء المساء جماعات المصلين ، وقد ترامت الى الصفا من بلاد الشام ووادي القرى ودومة الجندل ، والبلقاء والاردن ، فراقه ان ينظر الى هذا المشهد وود كثيراً لو انه يستطيع ان يمزج صلاته بصلاة هؤلاء الذين راحوا يعبدون الله في الخفاء .

وكان اول سؤال همست به نفسه ، لماذا يصلي هؤلاء الناس مستخفيين ؟

ولم يكن في مقدوره ان يحسر عن هذه الاشياء التي تراءت له فلبث ينظر اليها وهو في ذهلة عميقه وقد فكر اكثر من مرة في استصراخ هؤلاء الناس الى الصلاة في معابد تظللها القباب والعمد لا في البيوت المنعزلة البعيدة عن السنى والرواء ولكنه ظل صامتاً وظل صوته حبيساً في صدره وربما راح يتأمل وهو منكمش في الناحية التي آوى اليها في كلمات ورقة بن نوفل الاخيرة ، ألم يقل له ذلك الشيخ الجليل انك مدرك شأواً لن يدركه عربي ، ألم يقل له ان على يدك رعشة الراية التي ستمشي بها الى بلاد الاكاسرة والقياصرة ؟ اذن فيم يصلي الناس مستخفيين في اماكن بعيدة عن السنى والسناء ؟ ولماذا لا يطرق الباب على المصلين ويدعوهم الى معابد البيزنطيين والرومان والفرس والفراعنة ؟

لقد كان شديد الايمان بكلمات ورقة فاعتزم ان يطرق الباب وآلى بيمين ليمشين بهؤلاء المصلين في الغد الى الشام والعراق ومصر ، فخرج من عزلته واقبل الى ناحية الباب يريد خفقه فترعدد واجفل وهو الرجل الصليب الشديد .

لقد كان يعلم ان سيد العالم يصلي بالناس فتهيب ان يقطع هذه الصلاة الحلوة العذبة وخجل ان يدخل على السيد وهو لايبرح ثائراً مهتاجا ولما هم برجوع الى

مكة خيل اليه انه يسمع اخته وهي تقرأ في القرآن فاستحيا من كلام الله فتهافت على الباب يخفقه خفقاً شديداً .

* * *

كان الرسول يصلي مستخفياً في دار الارقم بن ابي الارقم في اصل الصفا فلما خفق عمر الباب استجمع الناس وابتدرهم ذعر شديد فقال لهم حمزة بن عبد المطلب مالكم ؟ فسكتوا (١) وطفقوا يتهامسون وقد علت وجوههم غبرة حزن عميق ، ثم تجددت في قلوبهم ذكريات المآسي الماضية ومرت بخواطرهم صور بشعة من مناكر القرشيين واعتدائهم على الضعفاء ، فلم تفت هذه الصور الراعشة حمزة بن عبد المطلب وكان شديد البر بالاسلام على حداثة عهده به فالتفت اليهم وقال :

— الا تذكرون معي كيف ازريت بكبريائه ؟

فسكتوا فاوغل حمزة في الضحك وأردف :

— اذا كنتم لاتذكرون شيئاً من الماضي — وعمر هذا الماضي ثلاثة ايام — فاني محدثكم عنه .

خيل الى ابي جهل ان صوته ارفع الاصوات في قريش فاتى ابن اخي — يريد الرسول — وهو جالس عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه وعاب دينه ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك (٢) ثم انطلق ناعماً طروبا كأنما هو قد ادرك لبانته من الشهرة والمجد ، ثم جلس في نادي قريش عند الكعبة وطفق يحدث قومه عن العمل الذي اتاه ، وهو شديد الضحك وكنت خلال ذلك في الصيد فلم يبلغني كثير او قليل من امر هذه الحادثة ، فلما ادنفت الشمس عدت متوشحاً قوسي فطفت بالكعبة جريا على عادتي ووقفت على اندية قريش اسلم عليهم واتحدث معهم ، ثم مررت بمسكن مولاة عبد الله بن جدعان فخرجت الي اسوانة ملتاعة فقلت

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٣٠

لها : لعل السيدة في بث من دهرها ؟ فتنهدت وقالت لي : لو رأيت مالقي ابن اخيك محمد من ابي الحكم عمرو بن هشام فانه سبه وآذاه ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (١)

فاحنقني حديث المرأة عن ابي جهل فخرجت مريعاً لا الوي على احد وجئت الكعبة ابحث عنه ، حتى رأيته في نادي قريش فاقبلت نحوه وانا ارعش كما يرعش القيظ على روابي ابي قبيس فنظر الي مبهوتا واجماً فضربت رأسه بالقوس فشجه شجه منكرة وقلت له اتشتمه وانا على دينه اقول مايقول فاردد علي ان استطعت (٢) فظل ساكتا واجماً فقلت له فيم سكوتك هذا ؟ فقامت رجال من بني مخزوم لينصروه فالتفت اليهم وقال لهم دعوه فاني سببت ابن اخيه سباً قبيحاً فخرجت واتيت قريشاً في انديتها ورفعت صوتي وقرأت القرآن (٣) هذه هي قصتي مع الرجل الذي تخافونه ! على اني لا احسب ابا جهل يجرؤ على ارتياد هذه الاماكن بعد الذي حدث

وخفق عمر الباب كرة اخرى فاجفل الناس فقام حمزة الى الباب ففتحه فاذا على عتبته عمر بن الخطاب فامتقعت الوجوه ووجفت الصدور وخرج الرسول من حجرته على همس اصحابه فعرض له عمر فاخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف وقال له ما انت بمنته ياعمر ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب . اللهم اعز الاسلام بعمر بن الخطاب

فرق عمر رقة الطفل ، وكبر المؤمنون لاسلامه تكبيرة سمعت في طرق مكة (٤)

.وتتالت لحظات غشي فيها الصمت البيت الذي آوى الرسول اليه ، واخذ عمر ابن الخطاب يجيل نظراته في الغرف وفي الناس فلم ترقه هذه العزلة واشجاه كثيراً ان يمضي المؤمنون في عبادتهم بعيدين عن بهاء الشمس بينما اصنام قريش وتماثيلها تنهض على العمد المرمرية تحت جو دافيء ، نعم لقد اشجاه كثيراً ان تظل صلاة المؤمنين همساً يتردد في نفوسهم بينما قريش ترفع صوتها بشعر الوثنية الجاهلة

---

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠

(٢) و (٣) تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٣٠ و ٣١

(٤) سيرة عمر بن الخطاب .

وفي هذه اللحظة راح عمر يذكر معابد البيزنطيين والرومان في وادي القرى والبلقاء ودمشق وبصرى فتمثل الاجراس في هذه البيع والمحاريب تعصف مجلجلة في مطالع الفجر او في بهرة المساء بينما سيد قريش يمضي في صلاته في بيت قديم منعزل عن مكة وبينما انصاره واشياعه يتخافتون بالكلام مخافة ان تسمعهم قريش فتجنح الى ايذائهم .

لقد هزته خواطره هذه فاحب للديانة الجديدة صعوداً في كل افق ، ورجا لها خروجا من هذه العزلة المضنية لتبني المعابد والمحاريب في بلاد الظلال والاعناب فالتفت الى سيد العالم وقال : السنا على الحق ان متنا وان حيينا ؟ قال بلى والذي نفسي بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم قال ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن الى العالم (١)

وكان صوته يرعش من الحماسة فابتسم الرسول واومض بيده الى بلال الحبشي فدعاه الى الاذان فنهض بلال الى الشرفة الواسعة المطلة على مكة والكعبة والجبال فاذن وكبر فارتفع صوته للمرة الأولى على حواشي الليل حلواً سائغاً الى الافق والرسول ينظر من الشرفة الى الصحراء والى الجبال المحيطة بها فبدت له تحت سنى القمر كأنها بحيرة تموج بالالوان الزاهيه المتوردة .

واخذ صوت بلال يستفيض في نواحي الافق حلواً عذبا حتى سمعته مكة فارعشها وارعش العالم السادر في ليل شديد التعبيس من ظلم الفرس والرومان . م

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب

الفصل التاسع والعشرون

حليمة السعدية

في صباح اليوم التالي قاد عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب جموع المؤمنين إلى الكعبة بعد خروج سيد قريش من تلك العزلة التي اراد اصحابه عليها فطافا بالمصلين سبعاً ومرا بالاصنام والتماثيل فعبثاً بها ثم ارتدا الى مكة يطوفان باحيائها وقريش في ذعر شديد (١)

ولما رأى غطاريف قريش فعلة عمر وحمزة وجلوس المؤمنين حيال الكعبة سقط في ايديهم (٢) وخافوا على آلهتهم واصنامهم فاجتمعوا في انديتهم واعتزموا المضي الى ابي طالب يريدونه على التسليم بابن اخيه اليهم وكان كبير قريش قد ادنف واشفى على النهاية واعتزل الناس في حصن ابيه عبد المطلب .

وفي المساء عادت قريش الى بيوتها وحصونها لتفكر في حماية الآلهة والاصنام بعد ان استوثقت من عجزها عن استمالة ابي طالب اليها وبعد ان رأت في الشيخ مضاء الشباب في منافحتها !

وفي المساء نفسه انتشر همس في مكة فرددته نواحيها وارجاؤها حتى بلغ ترجيعه بيت ابي طالب وهو على سريره يلتف به فتيان من بني المطلب وهاشم فشجي وارعد وعلم الناس من هذا الهمس ان قريشاً قد ندبت بعض فتيانها لقتل سيد العالم فلم يخرجوا من بيوتهم مخافة ان تجرفهم الفتنة الى السبح في ظلمة لا يحبونها ولا يرتاحون اليها .

وامضى ابو طالب ليله ساهداً ارقا بالقرب من الشرفة ووقف ينظر الي المارة

---

(١) سيرة الخلفاء امراء المؤمنين للسيوطي ص ٤٥

(٢) الطبقات الكبيرة لابن سعد ص ١٣٤

وعابري السبيل كأنه يريد ان يطمئن الى مشهد ابن اخيه بينهم فلم يلمح ذلك الطيف الجميل الذي احبه فتمايد من الحزن وعاد الى سريره آسيا ملتاعاً

وفي الصباح جمع اليه الطالبيين والهاشميين فحدثهم عن ابطاء الرسول في رجعته الى داره وقال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني اذا دخلت نادي قريش ، الا تفعلون ما افعل ؟

فصاحوا :

— نفعل .

فهز عصاه وانبرى قائلا :

— وليجلس كل فتي منكم الى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابو جهل فانه لم يغب عن شر ، ان كان محمد قد قتل (١) اتفعلون ما افعل ؟

فصاحوا :

— نفعل .

وبعد قليل جاء زيد بن حارثة فوجد ابا طالب يرعش من الحزن والالم فتخلج واقبل الى ناحية الشيخ الجليل يريده على ترفيه نفسه فسأله ابو طالب :

— اي زيد ! قل لي : هل احسست ابن اخي ؟ (٢)

فادرك زيد ما يجول في خاطر الشيخ فابتسم وقال له :

— سكن روعك ! فاني كنت معه آنفا .

فقال :

— أتدري اني نذرت الا ادخل بيتي حتى اراه ؟ (٣)

قال ادري ! قال : هلم اذن وأتني به .

فخرج زيد حتى اتى رسول الله وهو في بيته عند الصفا ومعه اصحابه يتحدثون فاخبره الخبر فجاء الرسول الى ابي طالب فنظر الشيخ اليه

---

(١) و (٢) و (٣) الطبقات الكبيرة لابن سعد ص ١٣٥

مترفقاً حادباً وشم عبقه وقال له :

ـــ يا ابن اخي اين كنت ؟ اكنت في خير ؟ (١)

قال نعم .

فغامت عينـــا ابي طالب وقال له ادخل بيتك ، فدخل فلما اغسق الليل غدا على الرسول فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومعه الفتيان المطلبيون والهاشميون فصاح : « يا معشر قريش اكنتم تدرون ما هممت به ؟ قالوا:لافاخبرهم الخبر وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة فقال ابو طالب والله لو قتلتموه ما بقيت منكم احداً حتى نتفانى نحن وانتم ، فانكسر القوم وكان ابو جهل اشدهم انكسارا (٢)

* * *

تتالت ايام على مكة اطمأن فيها الناس الى عيشهم الذي صوحته الاحزان العاصفة ، وجنح الضعفاء والمساكين الذين عذبهم القرشيون الى حياة قريرة ناعمة فخرجوا الى المراعي الظليلة في الطائف ، وانحى فريق من الناس ناحية أرض الحب والشعر والعطر حيث بنو عذره يتحدثون الى الجبال والغدران والاودية بلغة العاطفة والقلب وحيث الشعر لا يزال لغة الناس جميعاً ، وحيث صورة الحب البريء العفيف ترعش في جميع النواحي .

وفي صباح اجتمع فيه العطر الى السحر ، خرج ابو طالب من مكة الى وادي القرى في محفة التف بها عشرة من فتيان بني عبد المطلب وهاشم،وقد ازمع ان يمضي بضعة ايام في تلك المنابت المتأرجة التي ولدفي نضرتها اغذب الشعر في الجاهلية والاسلام وكان ابو طالب يريد من هذه السياحة ان يجتمع الى الرعاة الذين عرفهم في الماضي وكانت له بهم صلات ود وزلفى بل كان من الذ امانيه ان يخالط بيوتهم ويتعرف الى شيوخهم ونسائهم فلا تفوته احاديثهم الحلوة العذبة عن طفولة ابن

(١) و (٢) الطبقات الكبيرة لابن سعد ص ١٣٥

اخيه وفي هذه الطفولة المقدسة صور حلوة تلذها نفس هذا الشيخ الذي اطفأت الشيخوخة في روحه متع الحياة ومفارحها . ولم يكن يشجي نفسه اكثر من الاصغاء الى احاديث المراضع اللواتي جلسن الى الطفل يدغدغنه ويستمعن الى جرسه ، وينظرن الى ملامحه الوضيئة وهن ناعمات مبتسمات فلما احتوته ارض وادي القرى وخلف وراءه بادية غطشاء تمور بالسعير ، هزته في وطن الشعر والحب اعراف الماضي فخيل اليه انه يمس في كل ناحية من هذه النواحي العاشبة طيف تلك الطفولة الحلوة فود لو يكون له جناحان يحلقان به في افق الماضي .

وكان يعود الى نفسه فيهمس في قرارتها همساً ضعيفاً ولكنه همس حلو لذيذ : ايستطيع مثلي ان يعثر على الاحبة في هذه الارض ؟ وهل لا يزال الذين احبهم يطلون على الدنيا بالضحك والمرح والحب ؟

ولعله — وهو يهمس هذا الهمس — كان يشك في قدرة الذين احبهم واحبوه على منافحة السنين ومغالبة الاحداث . بل لعله كان يتمثلهم في الاموات ؟

لقد بعد حاضره عن ماضيه ومرت بتلك الليلة التي ولد فيها يتيم قريش اربعون سنة امحلت فيها المشاهد ، وتغيرت الصور . وتبدل الناس اذن فليس شك في ان ليل الموت قد مد رواقه على منازل الاحبة . فانتزع منها الاصفياء والاوفياء ، واذن فهذه السفرة التي مضى اليها كانت سفرة ماحلة ، واذن فقد كان لزاماً عليه ان يرجع الى مكة فلا يجشم نفسه الناصبة نصباً جديداً .

ولكن صوتاً في صدره كان يغريه بالمضي في هذه السفرة وقد ارتفع هذا الصوت الى كل جارحة من جوارحه واخذ يقول له : « امض في سبيلك فان الذين احببتهم ما زالوا يطلون على الشمس بالحب والمرح والحياة الراغدة .

منذ اربعين سنة قدم مكة عشر نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن الرضاع فاصبنه الاحليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية وكان زوجها الحارث بن عبد العزى فعرض عليها يتيم قريش فجعلت تقول يتيم ولا مال له وما عسى امه ان تفعل فخرج

النسوة وخلفنها فقالت حليمة لزوجها ما ترى ؟ قد خرج صواحبي وليس في مكة غلام يسترضع الا هذا اليتيم فلو انا اخذناه فاني اكره ان ارجع الى بلادنا ولم نأخذ شيئاً فقال لها زوجها خذيه عسى الله ان يجعل لنا فيه خيراً فجاءت الى امه فاخذته منها فوضعته في حجرها ثم خرجت به الى منزلها وطلعت على صواحبها بوادي السرر وهن مرتعات فقلن يا حليمة ما صنعت فقالت اخذت والله خير مولود رأيته واعظمهم بركة قال النسوة اهو ابن عبد المطلب ؟ قالت نعم ! ومكث الرسول وهو صبي سنتين حتى فطم وكأنه ابن اربع سنين فقدموا به على امه زائرين، فأخبرتها حليمة خبره فقالت آمنة ارجعي بابني فاني أخاف عليه وباء مكة فوالله ليكونن له شأن ولما بلغ ربيعه الخامس كان يمضي مع اخيه واخته في الرضاع لرعي البهم قريباً من الحي (١)

عرضت هذه الذكرى القديمة لأبي طالب فارعشته فصبت نفسه الى لقاء حليمة وفي غداة اليوم التالي انطلق الى الاحياء يسأل عنها جيرانها فقالوا له انها في الوادي ترعى البهم مع ابنائها فارتد الى الوادي وفي روحه ذلك الورع الذي يشعر به الملاح وقد اكتظ الموج على زورقه الماخر، فابصر الرعاة يرتمون تحت ظلال المساء على الارض العاشبة، وهم ينشدون اناشيد بني عذرة في الحب والمرح واسراب من المعز والابل ترعى في مكان غير بعيد، فوقف ينصت نصتاً عميقاً لهـــذه الاغاني التي لم تكن غريبة عن البادية ولكنه لم يتقدم الى الرعاة ولم يفكر في اقلاق هذه الوحدة الراغدة التي نزعوا اليهـا بل فضل الرجوع الى مثواه عند سفح الوادي ورجاله ينتظرون رجعته وفي الصباح خرج نزلة اخرى الى الوادي فاستقبلته اشعة الشمس الخفيفة وارتمت على جبينه المتغضن اعراف الجبال فوقف ينظر الى الاودية والسفوح فبدت له المشاهد في الصورة التي رآها قبل اربعين سنة وتراءت له الجبـال في حمرة العقيق ثم توامضت اشعة الشمس على السهول الاريضة وقد انبثقت من غيوم

(١) طبقات ابن سعد ص ٦٩ و ٧٠

الصباح حالية بالالوان والافنان .

امام هذه المشاهد الفاتنة لم يمنع نفسه الهمس فقال « ليت ايامي تورق ايراق هذه المراعي ، ولم يقل اكثر من ذلك ، فشرع يتأمل في نساء الرعاة وقد جئن من السفوح المجاورة ، يحملن الاعشاب والحشائش ، ثم عكفن على سرب من المعز والابل فاطعمنه من العشب الذي جمعنه ورحن يغنين اغاني بني عذرة .

وراقه هذا المشهد الساذج فجاء الى ناحية النسوة فابصرهن منحنيات على المعز ورأى اطفالهن يطفرون في السفوح وايديهم الصغيرة تلتقط بعض الحب ، وبعض الزهر ! فلذ هذه الطفولة الطفارة الوثابة وابهجه ان تمضي لاهية ناعمة ، وعاد به الخاطر الى طفولة اليتيم الذي احبه فتمثله غلاماً يطفر في هذه النواحي بين اسراب المعز والابل لألتقاط الحب واقتطاف الزهر فاخذته هذه الذكرى اخــذاً شديداً فاقبل الى النسوة يريد ان يسألهن عن حليمة وفي عينيه مزنة رقيقة !

لقد قال لاحداهن :

ـــ اتعرفين امرأة من بني سعد يقال لها حليمة ؟ وكانت المرأة مكبة على جمع العشب فرفعت عينيها اليه ونظرت الى شعره الابيض فاشجاها كبره فاحترمت سنواته العافية واستوت في قعدتها وقالت له :

ان على لهجتك مسحة قرشية ، فهل انت من قريش ؟

قال ، نعم انا من قريش ، فهل لك ان تدليني على امرأة يقال لها حليمة ؟ . .

فلم تشأ المرأة رداً على سؤاله ولكنها مضت في حديثها قائلة :

ـــ ولكن قريشاً مستبحرة الفروع فمن ايها انت ؟

قال :

ـــ لقد سألتك عن حليمة ، انها امرأة من بني سعد بن بكر ، وهي زوج رجل اسمه الحارث بن عبد العزى ، فهل تعرفينها ؟

ـــ ولكنك لم تذكر لي اسمك ؟

ـــ كانت حليمة تكثر من الرواح والمجيء بين مكة وبادية بني سعد ، وكانت تؤثر مكة على غيرها من المدن ، وكانت تجفو العالم جميعاً فلا تفارق احبتها في مكة.

ـــ ايضيرك ان تحسر عن اسمك ؟

ـــ منذ اربعين سنة ، حملت حليمة السعدية من مكة غلاماً مات ابوه فكفله جده ، فسهرت عليه سهراً شديداً فلما وافاه ربيعه الخامس ارادته على ارتياد المراعي بسرب من المعز فجفا البيت وجاء الاماكن السحيقة الماحلة فجاس خلالها فاذا هي تورق تحت قدميه ثم عاد الى التي ارضعته يحمل الى بيتها الذي انتشرت في نواحيه غيوم الاسى والبؤس صحواً جميلا . .

وكان يتكلم وعيناه تسبحان في الضياء الشفاف الذي اراقه الصباح على العشب والنوار فلم يفطن الى رعدة شديدة تسربت الى المرأة ولم ينتبه الى غيمة في عينيها والى شحوب ترقرق على جبينها ، ثم طغا عليه شجوه فتدفق في حديثه غير حافل بفحام المرأة الشديد . .

« ثم تصرمت الاعوام ، وتتالت الايام فاذا ذلك اليتيم الذي ارادته حليمة على رعاية المعز والابل يخرج من منزله لا ليرعى اسرابه في الارض العاشبة ولا ليبحث عن الماء في السفوح بل خرج في هذه المرة ليرعى شعوبا كبيرة منعها سبحها في جاهلية رعناء ان تتعرف الى حياة العالم » . .

وخفت صوته بغتة كأنما هو قد ادرك هذا الغرق الذي هوت اليه تصوراته وهواجسه ، ثم ارتد بصره الى المرأة فابصرها تنشج فارعد وقال لها متلطفاً :

ـــ ما يبكيك ؟ فهل اسأت اليك حتى تفجرت عيناك بالدمع ؟

فنظرت اليه نظرة مستطيله وقالت له :

ـــ هل انت من اقرباء اليتيم ؟

فحدجها بعينين غائمتين وقال لها :

ـــ اكنت تعرفينه ؟

فبكت وانبرت قائلة :

ــ انه ابني ؟

فصــاح :

ــ لعلك حليمة السعدية ؟ قالت : لا ، قال : اذن فاي النساء انت ؟ قالت :

ــ ثويبة مولاة ابي لهب ، ارضعت هذا اليتيم اياماً قبل ان ترضعه حليمة فاعتقني ابو لهب ! (١)

فتنهد ابو طاالب وقال لها :

ــ صفحاً ياثويبة ، فان احزاني وهذه الشيخوخة التي يلذع نفسي بردها الشديد اقصتني عن الماضي فلم اعد اعرف تلك الوجوه التي عرفتهــا في سنواتي الاول . انا ابو طالب عم محمد ياثويبة .

قالت . لقد نم خلقك عن اصلك .

ــ الا تقولين لي كيف امضيت ايامك ؟

ــ امضيت ايامي راغدة هانئة ياسيدي وكان افق حياتي صحواً . .

ــ لماذا لم ارك في مكة ؟ فهل صرت تملين هذا البلد الذي انبت اليتيم نباتا طيباً

ــ نازعتني نفسي الى مكة فزرتها اكثر من مرة وجئت ابني فرأيته ورأيت هذا السنى الذي يخطف على وجهه ثم جلست اليه وسمعت احاديثه فوصلني واكرمني (٢) وازجى الي الهدايا ، انه يحبني حباً جما . . وهو فوق هذا لعلى خلق عظيم .

فدمعت عينا ابي طالب دمعانا شديداً فقال لها :

ــ اكان ابن اخي يحدب عليك كثيراً ؟

ــ نعم كان يحدب علي حدبه على امه التي لم يرهــا ، وكانت زوجه خديجة

---

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ج ١ ص ٦٩

(٢) الطبقات الكبيرة لابن سعد ص ٦٧ و ٦٨

تكرمني . وهي التي ارادت ابا لهب على عتقي (١) ولا يزال ابن اخيك يبعث الي بصلة وكسوة (٢)

— اتذكرين شيئاً من طفولة ابن اخي ياثوبية ؟

— امن اجل طفولة ابن اخيك جئت هذه الحوالي ؟

— نعم فهل في مقدورك ان تتمثلي الماضي ، ذلك الماضي البهي الجميل الذي وقف على مهد ابن اخي مستمعاً لجرسه العذب .

فتأوهت ثوبية وقالت له :

— يشجيني ان اقر لك بعجزي عن فهم الماضي ولكني . .

— ماذا ؟

— انصح لك بالمضي الى حليمة فانها الوعاء الذي اودعه الماضي احزانه ومفارحه

— واين اجد هذه المرأة الفاضلة ؟

فاومضت ثوبية بيدها الى ربوة منفردة يقوم عليها بيت شبيه بمنازل الرعاة وقالت له

— الا ترى الى هذا البيت الابيض الرابض على القنة ؟

— بلى رأيته ، رأيته !

— في هذا البيت الصغير حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدي ، فشد الهرم على يدها صائحاً :

— الى اللقاء ياثوبية .

ثم تدلف الى ناحية الربوة مخلفاً ثوبية في ذهلة عميقة ولما وارته ظلال ارض بني عذره عادت المرأة الى صواحبها فاذا هن قائمات على مسيل الماء فقالت لهن :

— اتدرين اي رجل هذا الذي كان معي ؟

قلن لا . قالت :

— هو ابو طالب بن عبد المطلب شيخ قريش فقلن لها :

---

(١) و (٢) الطبقات الكبيرة لابن سعد ص ٦٧ و ٧٨

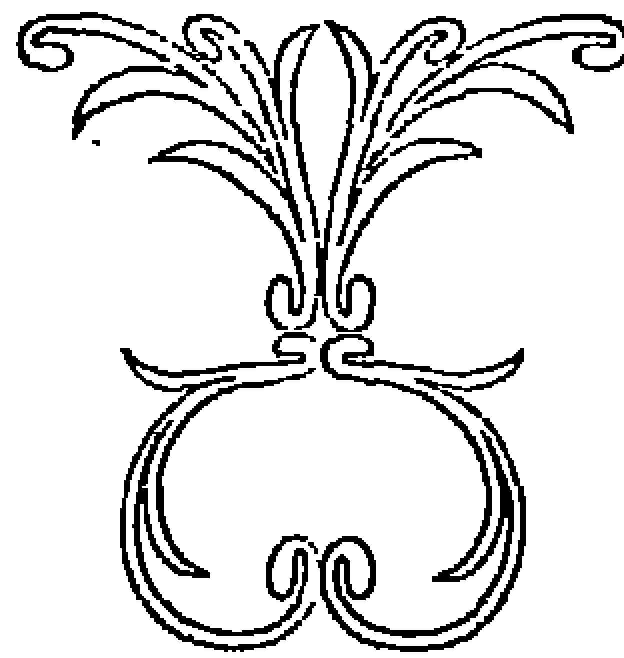
ــ لعله قد حدثك عن ابن اخيه ؟ قالت :.

ــ نعم وقد قال لي ان محمداً خرج من بيته ليرعى شعوب العالم بعد ان رعى اسراب المعز .

فصحن :

ــ انها النبوة ياثويبة ! فان الله قد اراد انبياءه على قيادة المعز امتحانا لقدرتهم على قيادة الشعوب .

ورحن يغنين اغاني سيد قريش وقد جفون اغاني بني عذره .؟



الفصل الثلاثون
اليف الدغل

تدفق ابو طالب في سيره الى ناحية البيت القروي كالآني على الرغم من شيخوخته العاثرة والصباح البهي المشرق النواحي يريق على جبينه شيئاً كثيراً من سحره وفتونه فلما صاقب السفوح وقف ينظر الى البيت القائم على الرابية وقد لاح له عاريا من البهاء والرواء .

قال ابو طالب وهو ينظر الى السفوح : في هذه البقعة الطيبة رنت ضحكة ابن اخي الطفل ، وددت لو ان عبد المطلب الشيخ كان حياً اذن لأستمع الى صوت محمد وقد تجاجل واستفاض في نواحي الكعبة .

وتسلق الصخور مزهواً مستكبراً فاذا هو على الرابية غير بعيد من بيت حليمة ، فطاف بشجر النخيل ولمس بيده تلك الارض التي سمعت في الماضي خفق قلب سيد قريش ، ثم انحى ناحية المنزل يريد ان يهتف بحليمة !

ولما اراد خفق الباب ، اذا صوت يناديه من بعيد . لا تفعل فان البيت خلاء من ساكنيه . فأجفل والتفت الى ناحية الصوت يريد ان يعرف صاحبه فلم ير احداً . فطغى اليأس على نفسه وشعر بألم شديد من خيبة آماله فتمنى لو انه لم يجف داره في مكة ويجشم نفسه تعباً يضاف الى متاعبها الكثيرة ، وهو الرجل الذي برح به المرض واهرمه الالم .

وانه لحائر اذا ذلك الصوت الذي ثناه عن خفق الباب يغني غناء خشناً فأنصت للغناء ومضت عيناه تبحثان عن المغني في المدى الفسيح الذي لاح له فما ابصرت عيناه غير اشعة الشمس وهي تنحني على خضرة المروج فتلثمها في رفق ودعة .

أكان يحلم ؟ خيل اليه انه يحلم فعاد يسخر من تصوراته الاليمة وهواجسه المرة

وطنق يتخافت بصوته .

لا غناء ولا ترنيم في هذه الارجاء ولكن خواطري هي التي ترعش وتهتز فأنغامها وقد اختلفت نغماتها في نفسي قد حالت الى انشاد مجلجل .

وعاد الى بيت حليمة وهم بخفق بابه فثناه عن الخفق ذلك الصوت الشديد الذي خرق اذنيه قبل لحظات فانفلت مذعوراً فاذا رجل يثب من دغلة قريبة وثبة النمر فصاح ابو طالب :

— لك الله ، لقد اخفتني ! فمن انت ؟

فقال الرجل بلهجة جشاء خشنة :

— اليف هذه الدغلة .

— ما لي ولدغلتك يا رجل ! قل لي ما اسمك ؟ ومن اي الناس انت ؟

ووضع ابو طالب يده على حزامه متفحصاً خنجره فادرك الرجل ما يجول في نفسه فاحب ان يهدىء روعه فقال له :

— اسمي حنظلة ! اما من اي الناس انا ، فذلك سؤال لا احب ان امنعك جوابه ، انا من بني سعد بن بكر وقد نشأت في هــذا البيت الذي ترى خشناً لا اعرف ليناً ولكني اقسم لك انني لم اكن رديئاً ولا مؤذيا ، تشهد بذلك اختي حليمة

فاطمأن ابو طالب الى صفاء لهجته واقترب منه وقال له: اذن فانت اقرب الناس الى المرأة التي ابحث عنها ؟

انا ابو طالب بن عبد المطلب سيد بني هاشم .

فصاح الرجل صيحة شديدة :

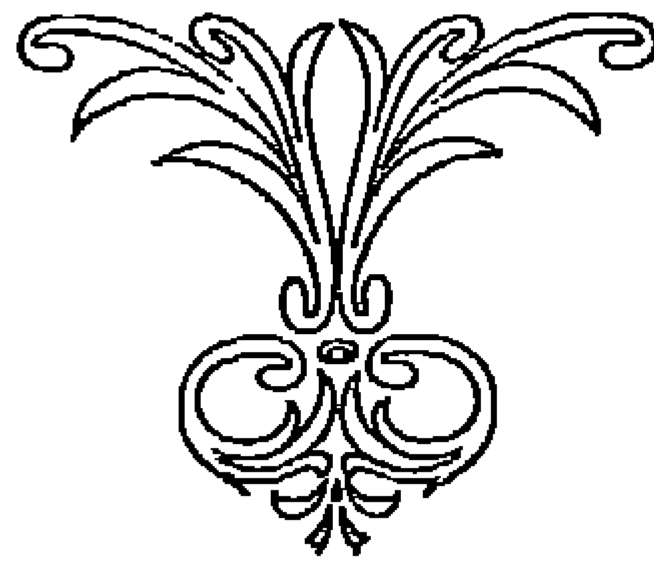
— صفحاً ايها السيد فلقد كنت مذنباً حيالك لأنني تحدثت اليك بخشونه ، ان اختي قدخرجت في هذا الصباح الى المراعي المجاورة مع اولادها واسرابها وستعود في العشية ، ادخل الى البيت فسأمضي اليها في هذه اللحظة واقول لها انني اسأت الي سيد المحسنين الينا .

ولم يكن الرجل كاذباً في دعواه ، فلقد نشأ خشناً شديد العزوف عن النـــاس ولـكنه ظل رقيق القلب ، وكذلك ظل ساذجا ، وكان شديد البر بأخته ، شديد الحدب عليها وكانت حليمة السعدية من ناحية تحبه فوق كل حب وتنيط به حماية بيتها وحقلها ، فأدرك ابو طالب سذاجة الرجل فقال له :

ــ كلا لست في حاجة الى ذهابك للبحث عن حليمة ، فابق هنا ودعني انتظر معادها على هذه الصخرة .

فحدج الرجل ابا طالب بعينين واسعتين تبين فيهما البساطة وقال :

ــ امثلك ينتظر على الصخر ؟ كلا يا سيدي ! انك لا تفعل هذا ، ثم طفر طفرة شديدة ، وانطلق يعدو في الطريق التي تدفع الى مراعي بني عذرة ، ووقف ابو طالب على الصخر ينظر الى الاودية والسفوح .؟



الفصل الحادي والثلاثون

الراعي الطفل

امتدت المشاهدالبارعة امام عيني ابي طالب فظل يحدق اليها في الحدور والجبال وفي الافق المصحي المشرق النواحي فلما ادنفت الشمس جفا مكانه على الصخرة منحدراً الى السفح يريد ان يتوغل في كرماته وغياضه . وقد مل الوحدة وتبرم بها وصبا الى احاديث المرتعات المرحات من نساء الوادي .

وكان ينبغي له ان يشق درباً مستطيلا حتى يطل على بطحاء مكائة مريعة وكان هذا الدرب طريق الرعاة في معادهم الى المنـــازل فجلس شيخ القرشيين على حافته ينظر الى منابت الزنبق وهي ترعش على مسيل المـــاء حتى اذا افعم روحه شذا الازاهر استلقى على العشب منزوفاً من فرط الضياء ورقة الهواء .

وانه لكذلك اذا اسراب من المعز والابل تلوح في اقصى الطريق ، فاستوى في قعدته وراح ينظر اليها ، ثم عرضت له امرأة مع طفلين صغيرين يمسكان بثوبها ويسيران الى قربها ، فوقف مبهوتا في مكانه وقد هم بصياح فما استطاع صياحا !

لقد كانت تلك « حليمة السعدية » وكان الطفلان غلاماً في العاشرة وبنتا في الثامنة فخفق قلب ابي طالب لهـــذا المشهد وثارت نفسه وود اكثر من مرة لو انه يستطيع رجوعا الى شبابه الاول فيطير الى المرأة التي يرتقب معادها !

ولمحت عيناه في تلك الفينة حنظلة أليف الدغل ، وكان في طليعة الابل والمعز وقد بدا مترنحاً طروباً فناداه قائلا :

« من هنا ايها الفتى حنظلة ؟ من هنا ؟ . .

واستفاض صوته في الافق ، حتى خرق اذني أليف الدغل فما انكره فحدا الابل والمعز وانحى بهـا ناحية الصوت فمضت يزحم بعضها بعضا وركضت حليمة وراء

هذا السرب الجافل ، واخذ الطفلان يعدوان عدواً شديدا .

ورأى ابو طالب بعد المسافة بينه وبين حليمة فوافاها الى مدخل الوادي وكانت قد لحقت بالابل وضمت الطفلين اليها . فخالط ابو طالب الجمال والمعزوجاء الى حليمة مفراحاً ناعما .

وكان حنظلة أليف الدغل قد اعلمها بهبوط السيد القرشي الوادي ، فاقبلت حليمة الى السيد فتدرجا في المعرفة بعد ذلك الغياب الطويل ، ثم أنشآ يتكلمان ملياً بين السانحة والسانحة ، وحليمة تنظر الى جبين الشيخ حيناً والى عينيه احيانا .

لقد قالت له : كان لقاؤك احب الاماني إلي وكان اسمك يتردد على فمي ابداً ويجول في اعماق نفسي رويدا ، وكان خيالك يفعم صدري طيباً كطيب هذا الوادي

فقال لها : بارك الله في بيانك الخالب ومتعك بحياة دائمة العبق ، اتدرين لماذا جفوت داري في مكة وجئت هذا الوادي المعطار ؟

قالت لا ، ارجو الله الا يكون الالم حافزك الى هذه الرحلة !

قال : لقد جفوت مكة رجاة ان استمع الى احاديثك عن يتيم امضيت في السهر عليه خمساً من السنين .

فالتمع وجهها بنور غريب واردفت قائلة :

— أجئت الى وادي القرى لتسمع مني بعض ما فاتك عن طفولة ابن اخيك ؟

قال نعم ، فهل في وسعك وقد اتصلت بالماضي البعيد ان تفتحي امام عيني ابواب ذلك العالم الذي بعدت عني خيالاته وطيوفه ؟

— أفي هذا الوادي ، وامام منابت الزنبق تريدني على حديث طويل مستفيض الا ترى انه من الافضل لنفسك الناصبة ان تفيء الى الراحة تحت سقف بيتي حتى اذا سكنت نفسك الى مرح تشتاقه حدثتك بالذي تحب من الاحاديث .

قال ولكني افضل ان نسمر هنا في هذه المراعي التي اصغت الى صوت ابن اخي ، فليس يسكن نفسي وينيم خواطرها الجائشة غير التفاتة حلوة وعذبة الى

الماضي الذي ينام في هذه الارض الثراء . أليس على هذا الاديم الذي كان مطاف تلك الطفولة الناعمة المورقة ؟

قالت : بلى .

قال : اذن فما يمنعك ان تجلسي على العشب الذي جلس اليتيم عليه ؟

قالت : لا شيء يمنعني من الجلوس الى هذه الاماكن الحبيبة الى نفسي ولكنني رأيتك ناصباً مكدوداً فاحببت ان يظلك بيت عليه من الماضي الذي تبحث عنه ما على هذه الارض من بهاء ورواء .

قال : ان اصحابي ينتظرون اوبتي اليهم واخشى ان يحتويني الليل وانا بعد في هذه الاماكن .

وكانت حليمة السعدية تنصت لأحاديثه محمومة الخاطر فجلست الى العشب الناضر ، وجلس هو حيالها في سكينة تامة وكان الجو رطباً صارداً وكانت عصارة الشجر تفتار من جذوعها وتسيل فمضت المرضع هامسة : أكاد اشعر بحرارة انفاسه ، بل أكاد ألمس خفق قلبه ، ولم يجد هو في نفسه الجرأة على مفاتحتها بالحديث فظل ساكناً وظلت عيناه تلذان النظر الى المشاهد البارعة .

ولما عاف التحديق الى هذه المشاهد الفاتنة عاد اليها فأمسك بيدها فاذا هي محمومة راجفة . ففطن الى الاثر العميق الذي خلفته احاديثه في روحها . فاحب ان يحملها على السكون فقال لها بصوت رقيق خافت .

— سكني روعك ! واستمعي الي !

فانتبهت حليمة الى الغرق الذي يحتويها ، فاستفاقت منه وراحت ترسل قدميها الى الينبوع الثر الذي جلست الى حافته على العشب ثم التفتت الى اخيها حنظلة قائلة

— ارع ابلك في المراعي المجاورة ودعنا هنا نسمر ونتحدث .

فتهافت حنظلة على الابل ، وطفق يحدو حداء مجاجلا عاصفاً ثم توارى وراء ظلال الوادي والشمس المدنفة تريق كثيراً من الوانها على اسراب حليمة !

قالت حليمة لابي طالب :

— في مقدورك الآن ان تسألني ماتريد ؟

فجعل ابو طالب يجيل نظراته في الوادي وفي الطريق التي تصاقبه ويده تلمس العشب والنوار ثم راح يلقي نظراته على التلال المجاورة. فاذا المناسك والصوامع تلوح له سابحة في احراج غاتمة من شجر السدر والنخيل فتنهد وقال لحليمة .

— الا ترين الى هذه المشاهد ؟ انها لاتزال رائعة وفتانة كعهدي بها في ايامي الاول

فابتسمت المرأة التي ارضعت سيد العالم وقالت :

— لقد خلع شعراء بني عذره على هذه الارض كل مافي نفوسهم من سحر وفتون ، الا ترى الى الشاعر ؟ انه لمخلوق عجيب لا ادري من اي عنصر صاغه خالقه ولا اعلم في اي صباغ ولدت احلامه وهواجسه ، انه ليقبس من حرارة الشمس مشاعره ثم هو يصب تأملاته في كل ما يتراءى له من المشاهد ثم يعود الى صحراء نفسه الجائشة بالم شديد فيودعها جمال هذه المشاهد فتورق وتزدهر وتعود شابة مرحة وتعود معها هذه المشاهد حالية بشباب ومرح .

وبينما كانت حليمة تتحدث عن شعراء بني عذره ، اخذ جبين ابي طالب يستعيد رونقه السالف وبهاءه القديم فجعل شيخ قريش يفكر في هذه الارض العاشبة التي لم تعرف الإمحال والجدب فظلت على الرغم من تعاقب الخريف والشتاء تمور بمنابت الزنبق ومغارس الورد ثم حملته تصوراته الى التحليق في الماضي فتمثل ابن اخيه الطفل وهو يظفر في هذه النواحي الناضره عن كثب من الينابيع الثرة وتراءى له طيفه الجميل وهو راكض وراء الاسراب الجافلة في عرض الوادي فلذ هذه الرؤى البعيدة والتفت الى حليمة قائلا :

— اي ذكريات الماضي احب الى نفسك ؟

فاطرقت اطراقة خفيفة كأنها تفكر في الماضي ثم رفعت عينيها الى ابي طالب وانبرت قائلة :

— اتسألني عن احب الذكريات الى نفسي ؟

قال : نعم . . .

قالت : احب ذكريات الى نفسي ذكرى خروجي الى مكة في ليلة مغدرة ، شديدة القيظ وكان البؤس قد طغا على منزلي في ارض بني سعد ، وانا لذلك العهد ام لا تستطيع ان تطعم اطفالها ، فجئت مكة مع تسع نسوة من بني سعد يطلبن الرضاع فاصبنه وعدن الى بيوتهن وبقيت هائمة على وجهي في انحاء مكة التمس رضيعاً فلا اقع على رضيع حتى الحف اليأس على نفسي فذكرت اطفالي وذلك الجوع الذي يعتصر نفوسهم وقلوبهم ، فايأسني الذكر واستجاش في خاطري فكرة الموت فصعدت في الجبل راعشة واجفة ،وجلست الى ذروة عالية في سفوحها البعيدة اعماق مظلمة مخوفة وفكرت في الالتجاء الى الموت ، لعل تلك المشاهد المؤلمة التي لاحت لي في بيتي لا تعرض لي ولعلني اجد في سكون الخفاء هناء لم اجده في حياتي الناصبة المكدودة

وكان زوجي ينتظر اوبتي في السفوح فلما يأس من رجوعي اليه خرج الى الجبال يبحث عني فوجدني ارعش من الالم والذعر فلم يفته هذا الهاجس الاسود الذي مر بخاطري فقال لي :

— ماذا اتموتين هذه الميتة البشعة وفي البيت صغار ينتظرون معادك اليهم ؟ !

وطفق يحدثني عن الاطفال وعن اليأس الأليم الذي سيحطم قلوبهم الصغيرة بعد موتي فاستثارني حديثه وهز في روحي احساسها الراكد الذاهل فاذا ذلك الليل المديد الذي احتوى نفسي يضمحل ويتوارى واذا صباح جديد يغرقني في بهائه وروائه فعدت الى مكة مع زوجي افتش عن طفل جديد ارضعه فيكون لي من ارضاعه غنم ربيح .

وفي المساء عرض علي يتيم ابي طالب فقلت يتيم ولا مال له ! وما عسى امه ان تفعل ؟

وخرج صواحبي من مكة وخلفنني فقلت لزوجي : خرج صواحبي وليس

بمكة غلام يسترضع الا هذا الغلام اليتيم ، فلو اما اخذناه فاني اكره ان نرجع الى بلادنا ولم نأخذ شيئاً .

فرق زوجي رقة غريبة وقال لي : خذيه عسى الله ان يجعل لنا فيه خيراً فجئت الى امه فأخذته منها ووضعته في حجري فأقبل عليه ثدياي حتى يقطراً لبناً فشرب حتى روي وشرب ابن لي صغير وكان لا ينـــام من الغرث (١) وقالت لي امه : يا ظئر سلي عن ابنك فانه سيكون له شأن عظيم واخبرتني ما رأت وما قيل لهـــا في ابنها حين ولدته (٢) فحملته على كتفي وعدت به الى اهلي فلبث عندي سنة فلم ادعه يذهب الى مكان بعيد .

ولما بلغ ربيعه الخامس كنت اخرج به الى الجنات واقعد بالقرب منه على حافة الينبوع فكان ينظر الى بواسق السحب مفراحاً ناعماً ويرى القرويات منحدرات الى السفوح لجمع العشب والزهر فيجري في اثرهن متطامناً وادعاً ثم لا يلبث ان يعود موقراً بالرياحين.وكنت ارى غمامة تظله فاذا وقف وقفت ، واذا سار سارت فافزعني ذلك من امره فقدمت به على امه واخبرتهـا خبره (٣) فخرجت به الى اخوالهبني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم فنزلت به في دار النابغة الذبياني الشاعر (٤)

وامضى الطفل في يثرب اياماً حاليات بالمفارح فكان يخرج في الصباح من بيت النابغة الى الضواحي فيلاعب اطفالا من اخواله ويصعد معهم الى اطم بني عدي بن النجار فيطير طائراً كان يقع على الاطم ثم يعود الى امه فتستقبله في ذراعيها وتسأله عن سمره ومرحه في النهار فلا يمنعها حديثه العذب .

وتتالت سنوات على هذا الحادث الرائع ، فاذا ذلك اليتيم يعود في الناس شاباً فخفوت مكاني في البادية وجئت اليه اشكو جدب البلاد وامحالها وهلاك المـــاشية وكان قد تزوج خديجة بنت خويلد فلما دخلت عليه ترقرقت في عينيه عبرة اليمة فمد

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) طبقات ابن سعد ص ٧١ و ٧٢

يده الي صائحاً : امي ! امي ! (١) ثم عمد الى ردائه فبسطه لي فقعدت عليه وانا ارعش من الالم . ثم رأيته يهمس في اذن خديجة همسة حفزتها الى الخروج من حجرتها ، وبعد قليل عادت الي ناعمة قريرة فقالت لي ان زوجها اعطاني من رزقه اربعين شاة وبعيرا (٢) فبكيت من فرط الفرح فأثر بكائي في نفس محمـــد فمسح عبرتي وخرج يودعني الى الباب فانصرفت الى اهلي وفي قلبي الذي ماتت فيه الانغام والاناشيد الف نغمة والف انشودة وجئت ارض بني عذرة ومعي غنمي فلما شهدني اهلي مضوا يسألونني عن هذا الغنم الذي اصبته ، فحدثتهم بحديث محمد وذكرت لهم كيف جاء الي فاتحاً ذراعيه فصاحوا ادخلي الى بيتك ايتها المرأة الراغدة .

فدخلت بيتي وجمعت اطفالي لأعلمهم هذه الفضيلة السامية التي تعلمتها من اليتيم العظيم .

وكانت حليمة تتكلم وابو طالب الشيخ يبكي ، فأثر نشيجه في نفسها فقالت له:

ــ ما يبكيك يا سيدي ؟

قال :

ان في قصتك هذه ما يشجي ، ناشدتك الله ان تدليني على تلك الاماكن التي تعرف ابن اخي اليها في طفولته المرحة .

فاومضت حليمة بيدها الى المراعي والجبال والسفوح وانبرت قائلة :

ــ ارأيت الى هذه المراتع التي يجتمع اليها الشعر والعطر ؟ في هذه الاماكن الخضلة كان مطاف تلك الطفولة البارعة يا سيدي ؟ لقد كان ابن اخيك يرتاد هذه المراعي بين باسقات النخيل وكنت اراه يطفر وراء الماشية (٣) فيتسلق الذروات والروابي غير ناصب ولا مكدود وكان صغار الرعاة يلحقون به فيرق لهم ويحنو

---

(١) و (٢) طبقات ابن سعد ص ٧٢ و ٧٣

(٣) قال رسول الله : بعث موسى وهو راعي غنم وبعث داود وهو راعي غنم وبعثت وانا ارعى غنم اهلي . طبقات ابن سعد ص ٨٠ .

عليهم فيحبونه ويأنسون بوجهه الصبيح ولا يملون التحديق الى شعره المرسل ، وفي المساء كان يعود معهم الى الضاحية فيمشي سربه الى جانب اسرابهم وعيناه الصافيتان الضحوكان تلحظان مطالع الشفق الذائب .

وكان على حداثة عمره كثير السبح والتأمل فلم يكن يفوته شيء من مفاتن الطبيعة ومحاسنها وبينما كان الرعاة الذين صحبوه في معادهم الى الضاحية يلحفون في الحداء ، طفق هو من ناحية اخرى يصب تأملاته في الينابيع الهادرة وفي الجبال الحالية بالالوان ، وكان يأنس بالوحدة ويحب ان يخلد اليها ، فكان اذا اوغل الرعاة في السير يعتزل سربه ويفيء الى الاماكن الخضلة المطارف رجاة ان يبصر هذا الشحوب الذي يغطي مطالع المساء ثم يظل على غرقه وتأملاته حتى ينتبه الى اغاني الحداة فيجفو عزلته ويلحق بسربه .

ولمحته في ذات عشية وقد اعتزل الناس في مكان ظليل ، والتمعت عيناه بقبس شديد فتأملته عن بعد فاذا هو ينتفض ، فادركت ان احتدام افكاره قد ارعش شعوره ، فدنوت منه حتى صاقبته فرأيته وهو في قعدته على الصخر كأنما هو قد اشبه تذكاراً او طيفاً ، ولما تكلم خيل الي ان صوته عاد مجلجلا كاللجج فتلفت رجاة ان ابصر انسياً تطمئن اليه روحي ، فما رأيت احداً فقعدت اتأمل في ذلك الجبين الشاحب وقد طبعته انوار القمر بطابع شديد الفتون فرأيته راكداً فغمني ركوده فجئت اسأله معنى هذا الاسى الذي يعتصره فما تكلم ورأيت كأنما عيناه راحتا غائبتين في صفاء روحه .

ومر بي في تلك الفينة ناس من اليهود فحاذيتهم وحدثتهم عن خبره فنظروا اليه وسألوني من اين مصدره ومورده فوصفت لهم مولده وقصصت عليهم شيئاً كثيراً من احاديث تأملاته فرعشوا وقال بعضهم لبعض اقتلوه (١) فمادت بي الارض

(١) طبقات ابن سعد ص ٧٠ و ٧١

ميداً وخيل الي ان اليهود لايبرحون هذه الحوالي حتى يقتلوه فما فاتهم قلقي وذعري فقال بعضهم : ايتيم هو ؟ فارعشني سؤالهم وادركت انهم لا يمتنعون عن قتله انكان بدا لهم يتيما فاردت نفسي على الكذب وقلت لهم :

— لا ! ليس يتيما هذا الفتى الذي ترون ، فسألني سائل : الست امه ؟ فقلت نعم فقال واين هو ابوه ؟ فقلت انه في المراعي المجاورة يرعى ابله ، فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه (١) فانطلقت به الى بيتي اسوانة ملتاعة وقد غشيني هذيان بليغ فكنت اقول : كدت أخرب اماني (٢)

وسكتت حليمة فوثب ابو طالب اليها وقال لها :

— مات صحبي واهلي يا حليمة وظللتهم الاعشاب وبقيت وحدي في هذه الحياة كسنبلة منفردة من القمح نسيها الحاصد وضل عنها وذلك الطفل الذي كفلته يتيما لم يلبث ان عاد رجلا اسرته هذا العالم الكبير الذي يعيش فيه .

قلت لي منذ لحظات انك كنت تلحظين عليه وهو طفل سبحاً شديداً وغرقاً أشد وانك رأيته يتأمل في مطالع الصباح ، وفي بهرة المساء ، كأنه يبحث عن عالم جديد ، غير هذا العالم الذي يحتوي قومه ، وقلت لي ان ناساً من اليهود رابهم امره ففكروا في قتله فثناهم عن القتل قولك لهم انه غير يتيم ، فأغمضت حليمة عينيها وهمست قائلة :

— نعم نعم ! لقد قلت لك هذا كله ولم اكتمك من طفولة اليتيم كثيراً او قليلا

فصاح شيخ قريش ويده تشد يدي راعية الابل :

— ولكن تلك التأملات التي ولدت في بطاح وطنك قد لقيت امراعها وازهارها في مكة فما عادت تأملات طفل وليد ، بل عادت تأملات نبي كبير ، ففي ذات صباح خرج اليتيم الى غار حراء فظللته اصلاده وشواهقه ، وفي المساء طفر اليتيم من الغار الى الكعبة وعلى راحتيه ذلك العالم الذي بناه وهو طفل .

(١) و (٢) طبقات ابن سعد ص ٧٠ و ٧١ .

لقد دعا قومه الى الاستشراق بنور السماء فجفوه ووقفوا في ناحية ، ووقفت انا واليتيم في ناحية اخرى ، فكان ثمة سجال بين باطلهم وحقه ، وكانوا كثرة ، وكان محمد وانصاره قلة فغلبت قلته كثرتهم ، وافتتح النبي الذي رعى ابلك ومعزك فتحاً بارعاً في جاهليتهم وظل ممعناً في الفتح حتى استرضت تعاليمه الغلاظ الجامحين من قريش ، انه لينتصر في كل ناحية من بادية العرب وقد هزم بيانه بيانهم وقوض قرآنه شعرهم ، وقامت آياته البينات في مكان اشعارهم ، أفليس عجيباً ان يقود ذلك الراعي الطفل الذي ساق ما شيتك وابلك الى الاغوار والانجاد شعباً جامحاً عجز غطارفة الرومان والفرس عن تذليل جماحه وترويض خلقه .

فصاحت حليمة :

لقد رأيت اليهود ينظرون الى جبينه المتورد وسمعتهم يتساءلون ويتصايحون « الا ترون على جبين هذا الطفل طلعة ذلك النبي الذي يرث كسرى وقيصر » .

فاردف ابو طالب قائلا :

وفي ذات صباح وقف سادة قريش وصناديدها تحت ابواب الكعبة وعليهم الديباج والبرفير والارجوان من لباس الفرس والرومان ، ووقف اليتيم في ناحية منعزلة وعليه رداء ابيض ، فنظروا اليه ونظر اليهم فقال بعضهم لبعض : ماذا يريد يتيم ابي طالب منا ؟ فناداهم قائلا ويداه تومضان الى ناحيتي الشام والعراق : اريدكم على الايمان ، فلم يسمعوا وانطلقوا وهم يتهامسون : اتراه يكون ملكا ؟

فقالت حليمة :

ـ انه ليرث كسرى وقيصر .

فهز يدها صائحاً : صدقت ! فقد قال قولك هذا ورقة بن نوفل .

ونهض من مكانه يريد مضياً وعيناه تلمعان فلمست الراعية في بريقهما شباباً وكبراً فقالت له :

ـــ الى أين ؟

فأومأ بيده الى السهول الفيحاء وقال لها بصوت مجلجل :

ـــ الى هذه النواحي .

ففطنت الى رغبة الشيخ في الحج الى المراتع الهادئة التي رعى فيهـــا ابن اخيه اسراب الابل والمعز فقالت له :

ـــ سأمضي معك لأدلك على منابت العرار والشيح ، انها لعلى جمال بارع وقد كان اليتيم يأنس اليها ويستروح الى العزلة تحت افيائها .

وانطلقا يعدوان في طريق الوادي واسراب حليمة البيضاء تلوح في الافق البعيد كأنها دفق الزبد الهائج ، وكانت حليمة دليله في هذا الطواف الشجي فاخذت تحدثه عن الطرق والمسارب والمعابر وتقص عليه شيئاً كثيراً من قصص بني عذرة في الحب والشعر فاوعى هذا الذي تقوله وظلت خواطره وافكاره تصعد في افق بعيد

ولم يكن يلذ شيئاً من شعر بني عذرة في الحب والهوى لأن الصورة البديعة التي افتتن بها لم تقبس الوانها من اغاني الشعراء ، بل ان هذه الصورة التي راح مفتوناً بها قد قبست صباغها ووشيها من الوان لا يتـــاح للشعراء ان يخلعوها على اغانيهم واحلامهم .

ولما بلغ في مطافه سفح الوادي هزته اعراف الغسق فتمهل في سيره ووقف يتأمل في منابت الزنبق فقالت له حليمة :

ـــ كأنك كنت تعرف هذه الاماكن من قبل ؟

فقال لها: لا ولكن اعراف الليل وقد خالطها شذا هذه الازاهر قد اشجت نفسي

فقالت : انظر الى شجر الرمان البـاسق ، لقد كان اليتيم ينقل ماشيته في الصباح والمساء الى صرب هذه الاشجار فكان يجلس الى ظلالها بينما اسراب المعز والابل ترعى عن كثب منه .

فشجي الشيخ لهذه الذكرى وانبرى يتأمل في شجر الرمان حتى احتواه سبح

شديد فخيل الى حليمة انه عاد لاغباً فحاولت ان تعود به الى بيتها فارادها على الصمت فما فغرت فماً وراح يتأمل في الشجر حتى تعالى الى سمعه صوت انشاد فاتن فتلفت شاجناً وقال لحليمة :

— الا تسمعين ؟

فقالت :

— انه انشاد لذ .

— فقال لها : ولكنه انشاد رائع وجديد لا يشبه اناشيد سكان الوادي .

واقبل الى ناحية الشجر فاذا هو حيال راعية حسناء من فتيات وادي القرى فافتتن بمشهدها الساذج وحاول ان يتحدث اليها فمنعه شجوه وحنينه ذلك . وكانت الفتاة تخفق على ربابة بيدها لحناً جديداً لم يكن لشعراء وادي القرى قديم عهد به ولكن هذا اللحن الذي هز الشيخ القرشي كان شائعاً في مكة وكان انشودة أولئك الذين استهوتهم تعاليم سيد قريش ، بل لقد كان هذا الانشاد البارع مقتبساً من شعر لحسان بن ثابت في النبي .

وطفقت الفتاة تغني بصوت مرتج ، ولكن عواطفها الصادقة ظلت تطفو على الربابة حتى راح اللحن يخرج صافيا حلوا ...

من اين توافى هذا النشيد الى وادي القرى ؟ لقد هم ابو طالب بأن يسأل الفتاة اللعوب عن منبع هذا النشيد ، ولكن اندفاع الفتاة في العزف على الربابة ثناه عن كل همس فظل صامتاً كالتمثال حتى كفت عن الغناء وحتى رفعت عينيها وابصرت حيالها هذا الظل الشاحب فالتفتت اليه وقالت له :

— اكنت تسمعني ايها السيد ؟

فقال لها متخلجا :

— نعم وكانت انغامك تطفر الى اعوامي الذاهبة فتعيرها كثيراً من الاجنحة . من اين لك هذا النشيد ؟

فقالت : سمعت صواحي ينشدنه فاستهوتني اعرافه وجئت هذا الوادي لأودعه جماله وفتونه .

ــ ولكن اشعار بني عذرة لا تشبه هذا الذي تنشدين ، انها اشعار قالهااصحابها في الحب وشجونه ومسراته .وليس في هذا الشعر الذي تقولين شيء من ولع المحبين

قالت :

ــ لقد غنى شعراؤنا في هذا الوادي اشعاراً تحدر الهامها الرفيع من اليأس والالم فتبددت مسراتنا في صحراء القهر كما تتبدد السيول واصبحت الحياة غيمة باردة يعافها الناس جميعاً فلما تعرفنا في هذا الشعر الجديد الى ذلك النور الاسمى الذي رمت به جبال مكة الى هذه النواحي ادركنا ان للحياة اغراضاً هي غير اغراض الحب وآلامه .

ووقفت الفتاة على قدميها صائحة :

ــ سيدي ! ان اغراض هذا الشعر الجديد لا تنتهي بنا الى هذا الوادي الضيق بل هي ستمشي بنا الى عالم كبير يجتمع اليه المجد والحرية والخلاص من الرومان والفرس

فقال ابو طالب :

ــ اتقولين هذا الشعر في ارض عليها ظل قيصر ؟

فضحكت الفتاة ضحكة حلوة وهزت الربابة بيدها قائلة :

ــ لقنني هذا الشعر اناس من الرعاة لا يخافون قيصر على الرغم من زهدهم في البرفير والارجوان .

ــ في اي مكان كنت تجدين هؤلاء الرعاة ؟

ــ كنت اجدهم في كل ناحية ، انهم بسلاء يا مولاي وقد كانوا قبل شهور هنا في هذا الوادي فرأيتهم يتسلقون الصخور والروابي ثم رأيتهم يدعون الناس الى استماع الرائق من الشعر حتى اجتمع من حولهم خلق كثير وكانت كلماتهم تستجيش الخيلاء وتحرك الكبرياء

— واين هم هؤلاء الرعاة ؟

— خرج بعضهم قبل ايام الى الشام وراح بعضهم الى العراق .

— وماذا يفعل هؤلاء في دمشق والحيرة ؟

— لعلهم يريدون ترجيع هذا النغم اللذ في مضارب الثائرين على الرومان والفرس

— ناشدتك الله الا ترفعي صوتك فاني اخاف عليك قيصر الرومان .

فنظرت اليه نظرة متفحصة ثم انثنت قائلة :

— اقرأ في عينيك ايها الشيخ شيئاً كثيراً من هذه الانشودة فأي الرجال انت ؟

فحدجها ابو طالب بعينين مضطرمتين مشبوبتين وانبرى قائلا :

— انا عم السيد الذي رحت ترددين اسمه في سفائح الوادي .

فصرخت الفتاة صرخة ممضة واغمي عليها ولما استفاقت كان ابو طالب قد تسلق الذروة وصافحت عيناه بيع الرومان ومناسكهم .

ولما استقر على الذروة الرفيعة انحسرت امامه المشاهد البارعة وتراءت له مغارس الورد والآس فلذ مفاتن الطبيعة وتحاسينها وخيل اليه ان في كل زهرة من هذه الزهرات الباسمة انشودة كتلك الانشودة التي اصغى اليها قبل هنيهة بل لقد خيل اليه وهو يصغي الى نوازع النفس ان صدره الخابي عاد يمور بالكواكب فوضع يده على قلبه فألفاه يرعش من فرط الخيلاء لا من فرط الاعياء فراح يتمثل نفسه وهو الشيخ المهيض الجناح ان في قدرته ان يحطم سلاسل جزيرة العرب وطنه القديم .

وكان خرير الماء في سفح الوادي لا يزال يخرق سمعه فشعر باعراف الوطن وهي تترقرق على جبينه فلم يفته اثر هذه الاعراف العذبة في نفسه فالتفت الى حليمة وسألها قائلا :

— أتسمعين خرير الماء ؟

فقالت : ان نور القمر قد حسر امامي جميع المشاهد البعيدة حتى بدا لي ذلك الينبوع الثر الذي كان اليتيم يرتاد ضفافه مع اسراب المعز .

— اذن فهذا الخرير الذي تسمعين ؟

— كان الانشودة الوحيدة التي سمعها سيد قريش في طفولته .

فغامت عينا ابي طالب واخذ يقلب نظره في الذروات العاشبة حتى وعاها ثم التفت الى حليمة قائلا :

— اكان اليتيم يصعد في هذه الروابي ؟

فقالت :

— نعم وكان يلذ التأمل في الافق وهو رابض في مكانه كالنسر .

فطفر الشيخ من الفرح ومسك بيد حليمة وقال لها :

— ضعي يدك على صدري فانك لتلمسين في وجيبه مناعمي الماضية .

— سيدي ان نشيجك لعظيم .

— الا ترين الى دموعي ، انها تزهر وتورق على جبيني ، واكاد اشعر انها اخرجت زهرة معطرة اسمها الرجاء ، ضعي يدك على صدري والمسي فيه عودة الربيع الضاحك ، باركتك السحب الوطفاء انها الجنات الحاليات من ارض الوطن فلقدحركت في نفسي عالماً كبيراً يموج بالاناشيد،واني ليخيل الي وانا اجوس ترابك المقدس، ان ظلال ايامي وقد تقاصرت ستمتد وتورق حتى تشتبك في عمر الابد .

— سيدي ان في صوتك عصفاً شديداً كعصف هذه الصحراء .

— لقد كان طوافي بهذه المراتع التي عرفها اليتيم في عمره الاول كافياً لا يراق ايامي،وكانت هذه النغمات التي حمل بها سمعي كافية لاثارة اعذب الاناشيد فيروحي

وجعلا يتبادلان الحديث وهما منحدران الى وادي القرى وقد اخذت نواقيس الصوامع والمحاريب تعصف في فضاء وادع ينيره قمر فاتن فلما امتدت امامهما المشاهد التفتت حليمة الى شيخ قريش وقالت له :

— ان بيتي غير بعيد من هنا ، افلا تلذ ان تستريح اليه ؟

فقال لها :

— دعيني انطلق الى صحبي فانهم ينتظرون معادي على رابية مجاورة .

— ولكني اخاف عليك قر هذه الليلة ، الا ترى الى الغيوم وقد امتدت الى سفح الوادي ؟

— ان اصحابي قد اوقدوا النار على الرابية فان لذعني البرد فلا اعدم قبساً صطلي به .

— ولكنك مريض ، وقد نم همسك الرقيق عن ألم حافز .

— صدقت ، ولكن في صدري حنيناً الى من احب ! فليس في وسعي ان سلخ الليلة هنا .

— أفي هذه الليلة تمضي الى مكة ؟

— نعم في هذه الليلة ! انظري الى الرابية المجاورة ! الا ترين عليها ناراً تتلظى ؟

— بلى !

— ان هذه النار لعلامة على ان صحبي يريدون رجوعي اليهم !

— كنت احب لو انك امضيت ليلتك في بيت حليمة .

— انها لأمنية ما كان اقربها لولا هذا الاعياء الذي بدأ يتحيفني .

— أتشعر بأعياء شديد ؟

— نعم ؟

— اذن ناشدتك الله الا تمضي الى صحبك فان تسلق الجبال في ليلة مطخية لليلتنا هذه قد يزيد في آلامك .

— ولكن صحبي يستعجلون اوبتي اليهم ، افلا ترين الى الناحية التي يقوم عليها نسك قديم لراهب ؟

— بلى !

— انظري اليها وحدقي فيها تحديقاً صحيحاً ، فانك لتلمحين عليها اشباحاً تروح تغدو تحت ذوائب الغسق ، انها اشباح الفرسان الذين ينتظرون معادي ، وداعاً

يا حليمة السعدية ، وداعاً يا سيدة نساء هذا الوادي .

— دعني على الاقل اصحبك الى منتصف الطريق .

— وداعاً يا حليمة وداعا .

— بل قل الى لقاء قريب ، اليس لنا رجعى بعد هذا اليوم الى مكة ؟

— لا أدري فلربما لفحني غيم الموت قبل ان تصافح عيناي افق مكة المصحي .

— اصرت تفكر في الموت ، وقلبك لا يزال يرعش لذكرى شبابك الاول ؟ ألم تقل لي منذ هنيهة ان في صدرك الف انشودة والف خيال من حب ومرح ولذاذة؟

— ما انكر انك رأيت على وجهي صحواً ولكنه يا حليمة صحو الموت ، وداعاً يا سيدة نساء هذا الوادي ، وداعا ..

وشعرت المرضع بالعجز عن استمالته الى البقاء في وادي القرى فهمست همساً ضعيفا

— وداعاً وداعا .

ولم تقل اكثر من ذلك فسحبت يدها من يد الشيخ وانحنت ناحية بيتها اسوانة ملتاعة . ومضى هو في طريق ماخل خلي من العطر والزهر فلم يلبث وقد جس هذه الارض العارية ان شعر بعري نفسه من كل زهر وعطر فشجي وابتأس وزهد في المشاهد التي تمثل الموت والعفاء ، وكان من حقه ان يروح متشاجيا ، لأن النفس الهادئة المطمئنة التي جاء يفتش عنها في هذه الضواحي ليستعيض بها عن نفسه القلقة الراعشة ظلت بعيدة عنه فلم يبصر خيالها ولا نعم بطيفها .

وكان متسدراً برداء شاحب اللون وقد قامت يده على عكاز من خشب السدر فأشبه شحوب ثوبه شحوب وجهه وماثلت كمدة نفسه كمدة الطريق العارية فانكدر في سيره وظل يضرب الارض بعكازه حتى سلخ مسافة بعيدة والمشاهد الغبراء لا تزال تتسع امامه وتمتد وهو عازف عنها عزوفه عن كل حلم وما زال يمشي والمشاهد الغائمة الراكدة تمتد امامه حتى لغبه السير فامتنع عنه وطفق يهمس همساً اليما

« انك لتحاولين يا نفسي ان تجدي في هذه الارض تلك الصور الفاتنة التي

عرضت لك في ماضيك الاول فتنأى عنك وتتقاصر .

وكان يلذ الاصغاء الى قلبه فيخيل اليه ان صوتاً بعيداً يناديه من اعماقه :

« لن تجد ايها الشيخ الجليل في هذه الارض تلك المنابت المتوردة التي تنشق طيبها قلبك الشاب فلقد اتى على هذه المنابت ريح صوحها واذواها ومرت العاصفه بها بعد تصويح فأمالتها ونكستها ، وصار الناس يمرون بها فلا يتورعون عن وطئها وذاك لعمر ابيك ايها الشيخ العالي المنار مصير الجمال البارع وما برحت الارض تمل الجمال وتعافه فهي لا تستسيغه الا الى اجل ثم تلفظه لفظا ، مثلها في ذلك مثل النحلة ترد منابت الورد فتنهلها نهلة ما اقصرها ثم هي بعد ذلك تعافها وتملها لتفتش عن زهر جديد فواح .

وما زال الشيخ يهبط غوراً ويرقى نجداً حتى ذابت امامه المشاهد العارية فاذا هو على الرابية واذا قومه يصطلون حيال النار فلما انكشف لهم صاحوا :

— أبيت اللعن ! أهذا انت ؟

فلم ينبس وظل يتدلف اليهم اسوان شاحباً حتى خالطهم وخالطوه فذعروا لمشهده الجاهم وصاحوا :

— هل احسست شيئا ؟

فألوى برأسه الواء شديداً وانبرى صائحا :

— بلى لقد احسست الموت ! الى مكة يا فتيان ابي !

وفي الصباح غادر الركب وادي القرى الى مكة .

* * *

ثار ناس من قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم وسجنوهم وفتنوهم عن دينهم (١) فدعا الرسول صحبه وقال لهم تفرقوا في الارض فقالوا اين نذهب ؟ فقال هاهنا واشار بيده الى ارض الحبشة وكانت احب البلاد الى نفسه فخرج

(١) طبقات ابن سعد ص ١٣٦

اصحابه منسلين سراً وكانوا احد عشر رجلا واربع نسوة فركبوا سفينتين للتجـار حملوهم فيها الى ارض النصرانية ليجدوا في كنف النجاشي ذلك السلام الذي حدثهم سيد قريش عنه .

ولم يشعر هؤلاء الذين املست الآمال من نفوسهم وهم يركبون البحر بما وراء هذه الهجرة من غايات سامية ، بل لم يكونوا يدرون ان آلام الاغتراب لازمة لتعويد الفكرة المقدسة التي اوذوا في سبيلها على التبسط والتوغل في انحاء جديدة من عالم لا تشبه آفاقه افق وطنهم المنعزل في صحراء غطشاء ولكن سيد قريش وحده كان يعلم اي حصاد شهي يحصده قومه من مرانهم على الالم والنفي والاذى .

ولما بدت للمغتربين وهم يخترقون العباب الطامي شطئان البحر الاحمر وتراءت لعيونهم الغائمة السفن المتنقلة الجوابة بين ارض النجاشي وارض الفراعنة لم يفكر واحد منهم في الغد القريب الذي سيحملهم الى عبور هذا البحر كرة اخرى لافتتاح ارض الآلهة التي ظلت خلال عصور عدة ميـداناً لخيول قامبيز وسزوستريس والاسكندر وقيصر بل لم يكن احدهم يدري وقد توامضت امامه شطئان مصر ان هذا الميدان الواسع الذي وسع خيول الرومان والفرس واليونان سيتسع يوماً لخيول عمرو بن العاص وان معابد اوزيرس وهياكل عمون وايزيس المنحوتة في قلب الاصلاد ستتوارى الى الابد ليقوم مقامها تحت سنى الشمس العارية معبد من الفسيفساء جميل يردد غزاة الصحراء تحت قبابه اسم سيد قريش .

وبينما كانت السفن تمخر بهم البحر من شواطيء بلاد العرب الى شواطيء النصرانية جعل سيد قريش يرسم في غار حراء حدود العالم الذي سيفتحه قومه بعد ان عجز الرومان واليونان والفرس عن فتحه واخذت يده تنقش على الحجر الصلد اسم القاهرة التي سترث اربعين عصراً من عصور الفراعنة الى جانب المدن الوارفة الظل في افريقية الشمالية والاندلس ؟

الفصل الثاني والثلاثون

الرسول

مات ابو طالب بعد شهور من رجعته الى مكة ، فشجن سيد قريش لموته شجناً مذيبا ، وماتت خديجة بنت خويلد زوجه بعد موت ابي طالب بثلاثة ايام، فرق النبي واستدمع ،وعاذ بمنزله لا يخرج منه، وامضى ايامه ولياليه في وحدة راعشة حملت اليه صوراً لا تروق ، فجفا منزله وخرج الى الجبال ، فتذرى بربواتها واصلادها لعله يرى في سكونها وصفائها ما ينيم ذلك الشجن الذي استفاق في صدره ، فلم تحمل الجبال اليه صبابته في السكون ، فلجأ الى الكهوف والصخور وجعل يرتادها حتى تبرم بمشاهدها فأزور عنها وعاد الى بيته والشمس تكاد تكون دنفا

ولما ادمس الليل خرجت قريش من حصونها حاسرة عن بغضها وخيلائها فلم يفته امرها ، وادرك ان صناديدها مقبلون على اذيته وقد خلا لهم الجو بعد موت عمه ، فقام الى حجرته فتغشى بردائه وحمل عصاه واراد زيد بن حارثة غلامه على الخروج معه فراراً من اذى قريش .

وكان لا ندحة له عن الطواف بالجبال كرة أخري حتى لاتلحق به خيل قريش ففعل وانطلق الى تلك الاماكن المقدسة التي اتصلت بهمس زوحه وخفق قلبه وعيناه تنظران الى سفوح الوطن التي احبها اشد الحب .

وكانت الجبال عالمه الفذ في هذه الهجرة التي ارادنفسها عليها ، فجلس الى صخرة عالية ، وطفق ينظر الى الكعبة والى بيوت المساكين الذين تذوقوا جنى روائعه وآمنوا بآياته وكلماته، فلم تفته روعة الظفر الذي ربحه من غير ان يضطر الى خوض الملحمة العابسة وادركت نفسه السامية صفاء ذلك الينبوع الذي لجره في نفوس المساكين والضعفاء حتى إستحال الى نهر دائم الترديد والتسجيع .

لقد رأت عيناه كيف تطاغى هذا النهر على عالم الخرافة والاسطورة حتى كادت امواجه تطوي في ثورتها الطامية ستة عصور قامت على تقاليد غامضة حائرة فآمن بقدرة هذه الامواج على ابتلاع عصور الخرافة وسلي هذا الحزن البليغ الذي ابتعثه في روحه موت عمه وانطفاء شمس زوجه ، ثم ذفرت نفسه بطيب شديد ، فحاد عن الصخرة والتفت الى زيد الذي يرافقه في طوافه الجاهد وقال له : الا تمضي معي ؟ فحدق الفتى في جبين الرسول الشاحب وقال : الى اين ؟ فقال : الى الطائف . الا تفعل ؟ فقال : بلى افعل .

وفي صباح اليوم التالي خرج سيد قريش الى جنات الطائف ويده على عصاه يخفق بها الارض خفقاً وزيد يمشي الى جانبه على رمال بلون العقيق .

لقد كان الصباح غائماً مضب النواحي فمشى الرسول في صحراء رمادية غابشة يرعش فيها قر شديد . بل لقد كانت هذه الصحراء القائمة بين مكة والطائف متقلقلة تخطف عليها الوان تبدو لرائيها صفراء كالورس ثم تلوح له فاحمة كالغسق فجاس الرسول خلالها واوغل فيها غير ناصب ولا مكدود .

وفي المساء استراح في واحة صغيرة تمور بالاعشاب والمياه ففيأته ظلالها وادواحها ثم اضجع على العشب ضجعة خفيفة وظل زيد فوق رأسه ينظر اليه في كثير من الرفق والبر .

وانفرط الليل المديد ، فاذا صباح قائظ يخرج من لحمته ، فاستفاق الرسول على قبلات الشمس الطاغية على جبينه ونهض من مكانه ينظر نظراً شديداً الى الابعاد التي ترعش من الحر ، وقد توامضت عليها بروق والوان .

وانه لكذلك اذا سرب من الغزلان يطفر من اعشاشه تحت لذع الحر وفوحه فمضى يحدق الى السرب ولكن الآفاق البعيدة الراعشة حجبتها عنه .

ثم لعلع السراب في الابعاد حتى اشبه بحيرة تظللها اشعة الشمس على انها ظلت سرابا .

يتأمل السائح هذا السراب من بعيد فيخـــاله جدولا او غدير مـــاء فيسوقه خياله الى محاذاته ومصاقبته حتى اذا اسرع اليه توارى امامه واختفى كحلم .

وهكذا لم تلبث هذه اللآلىء الزرقاء ان استحالت عند الظهيرة الى رؤياء فماعاد يبين لسيد قريش غير الرمال المتلظية وغير صحراء مرواء يغشاها الظمأ والعفاء .

وماذا عسى ان يجد المتأمل في هذه الصحراء ؟ ماذا عساه انـــ يرى في هذه المشاهد التي تتبدل وتتقلب ؟ انها لتلوح له كالبحر في امتدادها واتساع رقعتهـا ، ولـكنه بحر بلا شاطيء .

ظلت هذه المشاهد على تبدلها حتى طواها الليل في سدفته وحتى استقرت على لون جاهم كامد فبدت حقيقتها المفزعة المروعة .

وفي صباح اليوم التـالي بلغ سيد قريش في مطافه ناحية عكاظ فجلس الى ظل نخلة وجلس زيد الى جانبه ، وهنالك على حافة جدول صغير قامت عليه منـــابت العرار جلس رعاة الابل يتسامرون ويتناشدون واخذت الابل تتفرق في امكنة مكلئة مريعة .

وكانت الخيام والمضارب تملأ جميع النواحي فبدت للناظر في خطوطها الصفراء والحمراء كأنها اشرعة السفن ، ثم خرج منها فتيان حسان الوجوه فزرفوا الى النخيل يفرشون ارضه بالرمل الناعم الرقيق ، ثم عادوا ينظرون الى خيامهم كأنهم يتوقعون انـــ تنحسر هذه الخيام عن أناس يحبونهم،ولم يطل وقوفهم تحت بواسق النخيل فدلف اليهم من الخيام شيوخ جللتهم السنوات والايام بوقارين ، وقار الشيخوخة ، ووقار العلم ، فجلس هؤلاء على الرمل الرقيق الناعم وظل الفتيان وقوفاً حتى ارادهم الشيوخ على الجلوس ففعلوا وعيونهم الى الارض لايرفعونها تكريماً للشيوخ العافين وفي خفة البرق المومض استحال الشيوخ الى شعراء ورواة ، فأخذوا يقرأون على الفتيان اشعار امريء القيس والنابغة وعلقمة وعنترة .

وكانت رواية الشعر من تقاليد هؤلاء الاعراب فما كانوا يلذون البطالة ولا

يحبون الفراغ ولا يستمرؤن الكسل . وكان احب الاشياء الى نفوسهم ان تمضي الحياة متنقلة جوابة وان تحملهم حظوظهم واقدارهم اما الى معركة يعودون منها موقرين بالمجد ، وأما الى صيد ينعمون بمطايبه، واما الى تجارة رابحة في اسواق دمشق والحيرة واما الى شاعر يلذون شعره وقريضه فلا يمنع من عطاياهم وثنائهم واما الى خطيب يخطبهم عن القرون الاولى .

وكانوا لا يبالون بالمسافات والابعاد ولا يحفلون بآلام الاغتراب وشجون السياحة في سبيل المجد والشرف والالمعية ، فلو قيل لهم ان في نجد شاعراً حلو القريض لاستعاروا جناحي طائر في الطيران اليه ، او قيل لهم ان في الشام خطيباً عذب البيان لما منعتهم الصحاري من استماع هذا الخطيب .

وكان تكريم الذكاء ارثاً مجيداً تسلل اليهم من آباء صحاح الافهام ، صحاح الاجسام ، فحرصوا على هذا الارث حرص آبائهم عليه ، وابتكروا للحياة التي يحيونها نشيداً بارعاً قبسوا انغامه واوزانه من روح الوطن الذي زخرت ارضه بعبقريين نابهين من شعراء وخطباء امثال امريء القيس والنابغة وقس وسحبان .

وهذه الحياة التي حبسوها على الاشادة بالذكاء والفكر المهذب لم تفقد صفاءها حتى في ايام احزانهم ومآسيهم فظلت اللغة التي ارادوها في انتصاراتهم فخمة بارعة قادرة على التعبير عن آلامهم وشجونهم في انكساراتهم فلم تخسر اسلوبها البارع الفخم وبقيت في حالتي الانتصار والانكسار لغة الاحساس العالي والعاطفة المشبوبة بل كانت في جميع حالاتها لغة الفارس الغطريف والشاعر المهذب والخطيب النبيغ .

جعل الشيوخ يقرأون على الفتيان شيئاً كثيراً من قصائد الشعراء الفرسان ، ثم تجاوزوا افق الشعر الى افق الحروب القديمة فوصفوا حرب مرة وتغلب، واتوا على ذكر الملاحم التي قامت بين عبس وذبيان فتغالوا في وصف الاثر العميق الذي احدثته قصائد الشعراء في الفريقين المتحاربين فراحا يتباريان في التماس النصر حتى اتسق النصر لعبس فعادت الى خيامها ومضاربها نشوى من سلافته ورحيقه .

ولما تكلم الشيوخ على المعارك الناشبة في صحراء ذي قار بين العرب والفرس ، لاحت على وجوه الفتيان غبرة حزن عميق ، فنظروا الى شيوخهم متسائلين « لماذا تأخر النصر عن ان يوافي فرساننا في العراق ؟ » فصاح اكبر الشيوخ سناً : ذلك بأن الشعر لم يجد افقه في ذي قار ، فالجيش الذي يحارب الفرس لا يزال في حاجة الى من يعلمه انشودة النصر ، فقال الفتيان : واين هم الشعراء ؟

فقال الشيخ : « اتسألون عن الموتى ؟ لقد مات شعراؤنا الفحول واصبحت هذه الارض الحافلة بضجيج اصواتهم لا تنبت العقول الصحيحة والافهام اللامعة

وكانت الحقيقة التي اعترف بها هذا الشيخ شجية وعميقة الاثر في نفوس هؤلاء الفتيان فعادوا يتساءلون عن الانشودة البارعة التي تقود حماة ذي قار الى النصر فصمت الشيوخ صمتة القبر وجاراهم الشبان في الانكماش والحزن .

وفي تلك الفينة كان سيد قريش شديد الاصغاء الى حوارهم ، وعيناه تنظران الى منابت العرار فأمالته احاديثهم وهزته شجونهم فنهض من مكانه كأنه يريد ان يمس قلوب هؤلاء الفتيان الذين احتوتهم ارض الشعر .

وراحت نفسه مفعمة بذكريات حافزة فتمثل قومه في العراق وقد راحوا يقاتلون كسرى من اجل حرية الوطن وفي سبيل مستقبله فشجيت روحه لهذه الذكرى فأحب ان يعلم هؤلاء الفتيان ذلك النشيد السامي الذي تعلمه في غار حراء .

ثلاثة قرون تتالت على العرب في العراق وهم ينافحون في سبيل الحرية ، لقد ولدتهم امهاتهم احراراً كضوء الصبح فانتزع سابور منهم حرية مقدسة ، هي منحة السماء ، ثم جاء يزدجرد فارادهم على العبودية ، فقاتلوه وصمدوا له ، فتمزقت صفوفهم وعادوا متفرقين في الاودية والصحاري يبحثون عن كوكب الحرية ، وهذا الكوكب الذي يستشرق به الفرس والروم لا يزال يمنعهم نوره ، وفي عصر بهرام جور اعادوا الكرة فهزمتهم الفرس ، فارتد بعضهم الى الصحراء ورضي ملوكهم بالعبودية ثم جاء عصر انو شروان فاصطنعهم طاغية الملوك في حروبه مع الرومان فتغاضوا

عن حرية وطنهم ليدافعوا عن حرية الاجنبي ، وصارت ارضهم لا تخرج غير العبيد ، وكانت تخرج المساعير والمغاوير .

وفي هذه المرة انبثق من ارض العراق جيل جديد من النـاس فلم ترقه هذه الاسداف التي تغطي ارض الوطن . فعاف ملاذ القصور واهواءها ليفتش عن حرية الوطن السليب في ظل البادية الكدراء ، وقام على قيادة هذا الجيل الناشيء ملك في روحه من الشمم والعنفوان اكثر مما في روح فارس الهرمة ، وقد شحذ هذا الملك سلاحه وجاء قومه صائحاً : « الا تنشدون حرية الوطن معي ؟ فصاحوا بلى.فقال:هلموا اذن الى بادية ذي قار فان بها لعطراً لا يلبث عرفه ان يقودنا الى النصر

ولكن تلك الرايات التي فيأت النعمان بن المنذر ظلت راكدة فلم تهتز في الافق الذي ارتفعت اليه ، ذلك بأنها كانت في حاجة الى انشودة تعير الرايات اجنحة تعينها على الخفق ، وانى لهذه الرايات ان تخفق وقد عذب عنها النشيد .

لقد طافت هذه الذكريات بنفس سيد قريش وهو في سوق عكاظ على مقربة من مسيل الماء فأدرك ما لهذه الجاهلية الطامية التي يسبح قومه في دجناتها الراعبة من اثر في انكماش النصر عن صفوفهم ورأى في التواء افهـامهم عن حذق دياناته المهذبة الصحيحة حادياً بهم الى ما هو ادهى من الانكسار ، وحيث لا عبادة سائغة ولا افهام مهذبة لا يكون نصر ، ولا تستقيم حرية ولا يتسق امر .

لقد وعت خواطره هذه المآسي فماذا يفعل ؟ ايمضي الى مكة ويفيء الى بيته ويعتزل الناس والعالم ينتظر معاده اليه ؟ ام يمضي في رسالته حتى تستكمل نضجها وحتى تقوم على بنيان شامخ ؟

انه ان عاد الى مكة واحتواه بيته وترك هؤلاء الغرقى تتخطفهم لجج الاحزان لا تلبث تلك الزهرة الفواحة التي تنشق عطرها الصافي في غار حراء ان تذوي وتذبل ثم تموت في صحراء صاردة شديدة القر .

وكان يعلم ان عالمه الذي بناه في الغار ليس في مكة ولا في يثرب ولا في

شواطيء اليمن وجبال حضرموت ، بل كان يعلم ان عالمه اكثر اتساعاً من الصحاري واوفر امتداداً من البحار ، اذن فقد كان لزاماً عليه ان ينتهي برسالته الى قلب عالمه الكبير في الامصار النائية حتى يستبقي لتلك الزهرة التي ضحك لها غار حراء عطرها المقدس وحتى يفوح هذا العطر في شتى الآفاق .

ولما انسجمت صورة عالمه الواسع في خاطره مشى الى خيـــام الاعراب وقد ازمع ان يتحدث اليهم عن وحي السماء لعلهم يعدلون عن وحي الشعراء .

ولم يتسرب الخوف الى قلبه فظل رابط الجـــأش وظل ذلك الصوت الجلجل الذي اصغى اليه وهو على جبل ابي قبيس يرتفع الى صدره فاقبل الى ناحية الخيام رقيقاً حادباً رحيما ، فشهده الفتيان العاكفون على الشعر فبهرهم فتون في عينيه وفتون في وجهه فهدوا اليه يسألونه عن مأتاه ومصدره .

وكانت احاديثهم حلوة عذبة فأنسته رقتها مناكر القرشيين في مكة وفصلت بينه وبين ذكريات الالم والعذاب ، فوقر في عزمه وهو ينظر الى هذه الوجوه النضرة الباسمة ان يتكلم وان يعمل في سبيل وطنه الذي احب وفي سبيل الشعب الذي اولع به وفي سبيل الله الذي افاء عليه النبوة والشرف والمجد .

لقد قال احدهم : « الا ترون الى طلعة هذا الرجل ؟ ان عليها لروعة من جمال وجلال . وقال شيخ من شيوخهم يا له كريما ، الا تبصرون في عينيه ومضات الحنو والحب والرحمة ، انه لينظر الينا وعيناه تسحان دمعا .

وخرج من الخيمة رجل على وجهه بقية من رواء قديم فاقترب من الرسول وحدق اليه ثم لم يلبث ان اخرج صيحة من صدره .

ــ لعله اخو قريش ؟ (١)

وكان زيد بن حارثة عن كثب من سيد العـــالم فلما خرقت سمعه هذه الصيحة الشديدة انبرى للفتيان صائحا :

---

(١) السيرة النبوية .

ــ انه رسول الله .

فالتفت سيد القوم الى الرسول وقال له : بلغنـــا انك تذكر ذلك فالأم تدعو يا اخا قريش .

فتقدم الرسول فقال : ادعو الى شهـادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واني رسول الله والى ان تؤوني وتنصروني فانـ قريشاً قد تظاهرت على امر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد . فقال سيد القوم والأم تدعو ايضاً يا اخا قريش . فقال : تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم انـ لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون (١)

فنظر سيد القوم الى جماعته وتفحص وجوههم فاذا عليها شجن بليغ فقال لهم : اتسمعون مايقوله هذا الرجل ، قالوا لقد سمعنا فقال ما هذا من كلام اهل الارض ولو كان من كلامهم عرفناه ، ثم التفت الى الرسول وسأله قائلا : والأم تدعو ايضا يا اخا قريش ، فتلا الرسول « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتـاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون .

فشجي سيد القوم واطرق اطراقة عميقة ، واخذ الفتيانـ يجارونه في صمته وسكوته والرسول يقرأ عليهم بعض آيات القرآن ، ولما سكت سيد العـــالم قال له الرجل دعوت والله الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ولقد افك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، فقال له سيد قريش: ممن انت ؟ فقال : من شيبان بن ثعلبة فالتفت زيد وقال بابي انت وامي هؤلاء غرر في قومهم فقال الرسول من الرجل ؟ فقـال هانيء بن قبيصة ثم اردف قائلا :

لقد سمعنا مقالتك يا اخا قريش واني ارى ان تركنا ديننا واتباعنـــا اياك على

(١) السيرة النبوية .

دينك بمجلس جلسته الينا ليس له اول ولا آخر لزلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة وانما تكون الزلة مع العجلة ومن ورائنا قوم نكره ان نعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر ، ثم انحى ناحية رجل قد وخطه الشيب وقال : هذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا فلك ان تسأله رأيه في الامر الذي جئت به فقال المثنى بن حارثة قد سمعنا مقالتك يا اخا قريش والجواب هو جواب هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته الينا ليس له اول ولا آخر وان احببت ان نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب دون ما يلي انهار كسرى فعلنا فانا انما نزلنا على عهد اخذه علينا كسرى ان لا نحدث حدثاً وان لا نؤوي محدثاً واني ارى هذا الامر الذي تدعونا اليه انت هو مما تكرهه الملوك (١)

فقال الرسول : ما اسأتم في الرد اذ افصحتم بالصدق وان دين الله عز وجل لن ينصره الا من احاط به من جميع جوانبه ، ارأيتم ان لم تلبثوا قليلا حتى يورثكم الله ارضهم واموالهم ويغرسكم نساءهم تسبحون الله وتقدسونه ، فقال احد فتيانهم واسمه النعمان بن شريك « اللهم لك ذا » فتلا الرسول « يا ايها النبي انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا » .

ولم يطل الرسول مكثه بينهم ، فعزف عنهم متوغلا في الخيام القائمة تحت بواسق النخيل فجعلوا ينظرون اليه عن بعد حتى توارى طيفه وحتى احتجبت طلعته فقال سيدهم : « ارأيتم اليه ؟ لقد خيل الي وانا مستمع الى جرسه انه اشد إشراقاً وابهر لألاء من جميع قياصرة الرومان ؟ فصاحوا لقد تكلمت بالحق وبعدت عن مواطن الكذب .

وبعد لحظات اشرف الرسول على جماعة من الفتيان فاختلط بهم واسمعهم بيانه فقالوا ان بيننا وبينك من القرس حرباً فاذا فرغنا عما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما

---

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٦

تقول ثم سالوه عن اسمه فقال محمد وهو شعـــاركم في حربكم (١) مع الفرس فان تقولوه كانت لكم الغلبة .

فصاحوا : يا لمحمد ! يا لمحمد !

وحملت ريح المساء صياحهم الى جميع نواحي عكاظ بلد الشعر والشعراء فهزتهـا فخرج الناس من بيوتهم وخيامهم يستمعون الى سيد قريش يلذون بيانه وقرآنه .

واقام الرسول في عكاظ خلال موسم هذا السوق وهو يدعو الناس الى رسالته فتستميلهم حلاوته ورقته اليها ثم يفارقه هؤلاء وقد عاهدوه على ان ينشروا آياته في الشام حيال قصور الغساسنة وفي العراق عن كثب من مضارب الثائرين على الفرس

وفي ذات عشية خرج الرسول الى الطائف بلد الشـــاعر امية بن ابي الصلت فتوغل في سفوحها وخالط جناتها ثم صعد في جبالها وربواتها فبانت له مدينة ثقيف غارقة في بحر من الخضرة والاعناب وتراءت المياه رقراقة هدارة في السهول الفيحاء

وكانت الطائف في جمال مشاهدها الطبيعية على مثال هذه القرى الفينانة القائمة على ذرى لبنان وهضابه ، ففي اعالي الطائف قصور الاشراف من ثقيف ومناسكهم وبيعهم تحيط بها التماثيل والاصنام والدمى وفي السفوح سهول حالية بالرمان والتفاح والاعناب .

ولم تكن الطبيعة في الطائف كريمة مثلها في غوطة دمشق وجنـات الاردن وسهول اورشليم بل كانت ضنينة شحيحة فلم تخلع على الطـائف بسطة في الافق وبسطة في المشاهد . ومع ان الطبيعة اودعت فتونهـا كله بلاد الشام فان ابن الصحاري ظل ينظر الى الطائف نظرته الى جنة عدن .

لقد كان غرض سيد قريش من طوافه بهذا البلد الجميل ان يبث دعوته في النبلاء والغطاريف الذين اعتادوا افناء فصل الصيف عن كثب من الظلال والاعنـاب فصعد في الروابي ومر بالقصور البيضاء والخلوات الريفية المستحبة وطرق الابواب

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٦

فأطل الناس من نوافذ بيوتهم ليروه فطفق يتحدث اليهم عن نبوته بلهجة بارعة نخمة فما وعت قلوبهم شيئاً من جمال احاديثه فاغلقوا النوافذ وعاذوا بالمقاصير يستمعون الى الشعر الجاهلي تحت عزيف جميل فتان .

وارتد الرسول الى السفوح ومعه زيد بن حارثة فآوى الى كوخ منعزل لأحد الرعاة وامضى ثلاثة ايام في ضيافة الراعي الذي سقاه من لبن ماشيته ، ثم مضى الى بيوت النبلاء والاشراف رابط الجأش هادىء النفس وكان يقول في طوافه بالقصور « من يؤويني وينصرني حتى ابلغ رسالة ربي فله الجنة » .

وكانت الحياة في قصور الطائف لجة تزخر بالملاذ والاهواء فضاعت نبرات صوته الحنون في وسوسة الكؤوس وعزيف الحسان وظل شبح الرذيلة الذي يعيش في ارتعاشات الحب والشهوة يطفو ويمتد حتى اوشك ان يحجب طيف الفضيلة وحتى حمل اعراف اليأس الى تلك النفس العظيمة فكادت تحس الضعف لولا ذلك الصوت الالهي الذي ظل يتفجر في نواحيها كما تتفجر الينابيع في الارض الماحلة

وفي ذات مساء عاد الرسول الى عمله في الذرى الكاسية العاشبة والناس يسمرون تحت ذوائب القمر وعليهم الديباج والحرير فحاذاهم وخطبهم خطبة بليغة فلم يجيبوه واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ورموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء فحاول ان يملس منهم فأحاطوا به واشتدوا في الاغلاظ له وكان اذا ازلقته الحجارة قعد الى الارض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فاذا مشى رجموه (١) وهم يضحكون ويهزجون وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه فانطلق مهموماً على وجهه يطوي الجبال والسفوح والاودية وقد حجبت السماء عنه فما عاد يبصر ضياءها البديع .

وكان دمه المقدس لا يزال يتفجر من قدميه فترسل في مشيته وجاء الى جدار منزل منفرد تحيط به الدوالي فجاس اليه وطفق ينشج حتى لقد بح صوته ، ثم رفع

---

(١) كتاب الانوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٤٩

عينيه الى السماء وانبرى هامسا : «اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على النـــاس يا ارحم الراحمين ، انت ارحم الراحمين وانت رب المستضعفين . الى من تكلني أالى عدو بعيد يتهجمني امالى صديق قريب ملكته امري ، ان لم تكن غضباناً علي فلا ابالي غير ان عاقبتك اوسع لي ، اعوذ بنور وجهك الذي اضاءت له السموات واشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة . ان ينزل بي غضبك او يحل بي سخطك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك (١)

وكان على جدار البيت الذي آوى اليه شيخـــان من شيوخ قريش هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة فلما رأيا ما لقي واستمعا الى دعائه رقا له رقة شديدة وتحركت رحمهما فتركا مكانهما على الحائط وخفا الى روضة المنزل بجنيان الثمار ثم بعثا اليه مع عداس النصراني غلامهما قطف عنب وجلسا عن كثب يلحظانه ويستمعان الى همسه فوضع عداس العنب بين يدي سيد قريش ووقف حياله لا يريد فراقه فوضع السيد يده في القطف وقال : بسم الله فرعش عداس وارتد نظره الى الرسول فابصره يأكل العنب رابط الجأش فقال له : « لقد سمعتك تذكر كلاماً ما يقوله اهل هذه البلدة ؟ » فنظر الرسول اليه وقد استأنس الى رقة في حديثه فقال له : من اي البلاد انت وما دينك ؟ فقال : نصراني من نينوى فقـــال سيد قريش : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال وما يدريك ؟ قال ذاك اخي وهو نبي مثلي .

وكانت فرحة عداس عظيمة بهذه اللقاءة فأكب على يديه ورأسه وقدميه يقبلهما (٢) وابنا ربيعة يبصرانه ويسمعانه ولمـا مضى عداس في سبيله برح السيد مكانه فقعد على صخرة عاشبة حيـال ينبوع صغير وطفق يستعرض هذه الشجون التي تتالت عليه في مكة والطائف .

لقد كان طفلا في المهد حينما تهافتت امه على جبينه الوردي تنظر الى ابتسامة راغدة على شفتيه ، وكان حديث مولده قد ملأ بطاح الوادي فراح النـــاس

(١) و (٢) السيرة النبوية ص ٥٠ و ٥١

يزدحمون حول ذلك المهد الساذج الوادع . واخذت امه تحدق تارة في وجهه الصبيح وتارة في وجوه النبلاء الذين توافوا الى بيت عبد المطلب يزجون اليه التهاني بمولد اليتيم الكبير .

وفي تلك اللحظة الروعاء اكب شيوخ قريش على المهد واخذ كبيرهم الطفل في يديه ثم جاء به جده عبد المطلب وقال له : اتدري اي طفل ولد لك في هذه الليلة ؟ فقال لا. فقال يا بشراك انه النبي الذي يرتقب الناس رجعاه ! فبهت الشيخ ومضت ام اليتيم جافلة مذعورة واخذت تتساءل ما النبي ايها الناس ؟

فنظر بعضهم الى بعض وقد تملكتهم الحيرة فعجزوا عن الافصاح فأخاف ذهولهم تلك الأم الشفيقة الحادبة فكررت سؤالها قائلة : ما النبي ايها الناس ؟ فقالوا : « هو كلمة الله في الارض ، يزحف الى الغابات والاحراج فيزيل ادغالها وآجامها ويطرد انسانها المستوحش حتى اذا عادت ارضاً اترعها بالمدن الوارفة الظل وملأ نواحيها بقصور من المرمر واجرى فيها العيون والانهار واوطأها للانسان العاقل المهذب. فقالت الام : اهذا هو النبي ؟ يابشراي اذن ! الا تحسرون لي عن نصيبه من كل هذه المفاتن ، فقالوا يخرجه قومه من دياره ويرجمونه رجماً ، فصاحت صيحة اليمة وراحت الى الطفل فاحتبسته في ذراعين مشبوبين مضطرمين ، ثم خبأته في صدرها كأنما هي تريد ان ترده الى احشائها فلا ينشر في الناس كرة أخرى

لقد رجم النبي مرة في مكة ، ورجم في الطائف ولكن هذه الحجارة التي ضرجت يديه وقدميه بالدم لم تمنعه ذلك السنى المقدس الذي تعرف اليه في غار حراء فظل مستروحاً الى وميضه وبرقه .

وجعل وهو في قعدته على الصخر يستعرض الماضي فمرت بخاطره اعوام الطفولة البريئة فاذكرته سياحته في الشام مع عمه ابي طالب وتمثل دمشق وسبحها في ليل شديد الغسق ورأي النسر البيزنطي محلقاً في جوها الافيح وقد حجب جناحاه عنها النور ومنعها ان تتنشق الهواء رطباً سائغا ، وكان خيال عمه الرفيق الشفيق

يلوح له في مراحل هذه السياحة ، فرق لهذا الخيال وانثنى يذكر احاديث عمه عن الرومان والفرس وهو يطوف به السهول والجنات والينابيع والقصور فمضى قلبه راعشاً لهذه الذكرى .

ثم طرقته اشباح الاعوام التي امضاها في مكة فذكر قريشاً وكبرياءها ، ثم ذكر عمه وقد حماه و منعه واظله بجناحيه والناس يومئذ يتحامون ان يختلطوا به حتى لا يصيبهم اذى قريش وعنتها .

وقامت في ذهنه الى جانب صورة العم الشفيق الحادب صورة الزوج الحنون فشجي لها وهمس باسم خديجة بنت خويلد تلك المرأة التي بنت له بيتاً رفيع الصوى حينما امعنت، قريش في تقويض بيته .

يا للمرأة الفاضلة النابهة !

في ليلة مغدرة من ليالي الشتاء خرج الرسول من منزله الى غار حراء يتعبد الى الله في صخوره واصلاده ، وكانت قريش من ناحية تغلو في مطاردة اتباعه من الفقراء والبائسين فابطأ الرسول في رجعته الى البيت ووقفت زوجه على وصيد الباب تنتظر اوبته ساهدة ارقة يلطم وجهها مطر دافق هادر ، وكانت تسأل عنه عابري السبل وتستجدي اخباره من الرعاة وقد انساها الحزن واليأس اطفالها النائمين في حجرتها فما عادت تفكر في غير الرجل الذي ارادته السماء على عمل كبير جسيم .

ولما شاهدته دالفاً اليها في الهزيع الاخير من الليل وابصرت شحوب وجهه مضت اليه تواسيه وتشجعه فأنسته كلماتها احزانه وشجونه فانطلق الى الكعبة يقرأ على الناس آيات ربه وقريش تسمع ولكنها لا تعي شيئاً مما تسمع .

وفي ذات صباح خرج الرسول من منزله فطاف على الناس في منازلهم بمنى واخذ يقول : « يا ايها الناس ان الله يأمركم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وخلفه رجل له غديرتان يرجمه بالحجارة حتى ادمى كتفه » يقول يا ايها الناس لا تسمعوا

منه فانه يدعوكم الى ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم (١)

فسأل الرسول من هذا الرجل الذي يتبعني ويرد علي ؟ فقيل له : « هذا عمك ابو لهب (٢) ولما عاد الى بيته ورأت خديجة دمه المراق وعبراته الواكفة حملت اليه من روحها زهرة فواحة اسمها الرجاء فتطامن اليها وخرج من شذاها الى صباح يمور بالعطر والضياء .

وكانت خديجه — وقد هذبها الله وصقلها الألم — تشاركه في رأفته بالمستضعفين والمستضعفات فما بقي في مكة بائس يعتصره الجوع ويقرض نفسه الالم الا حبته عطفها وفجرت عليه بعض احسانها وشاطرته ابتسامتها .

يا للذكريات المضنيات !

ظلت صورة خديجة بنت خويلد تطفو على صدره وهو قاعد على الصخر حتى توارى عن عينيه حاضره الماثل فذكر مكة وغار حراء والكعبة وقريشاً واصنامها ولم ينس ليلا دغدغ القمر في غسقه جبينه المضيء ولا نهاراً لثمت في صباحه اشعة الشمس شعوره المرسلة على كتفيه ولا وحدة انقطع لها في الشواهق البعيدة حيث الطبيعة وحدها تعيش معه في روحه وفي شعوره وحيث المـــاضي الجاهم يضمحل ويذوب تحت قدميه وحيث المستقبل اللامع ينبثق من زفراته وتنهداته .

ذكر هذا كله فشجي واستدمع واستأنس الى رقدة حلوة تنسيه هذه اليقظة المؤلمة فعاذ بخيمةذلك الراعي الذي سقاه من لبن المعز فأمضى ليله عنده وفي الصباح خرج الى الحقول فرأى الجبال والسفوح تمور بالضياء فعاد الى نفسه فرآها تزخر بذلك العطر الذي فتح له صدره وهو في وحدته في غار حراء .

وفي الحق لقد كان صدره يطفح بزهر جني لا تهزه عواصف الخريف ولا تذبله زوابع الشتاء ، وكان هذا الزهر الذي تفوح في نفسه هو ما يسميه الشعراء جمالا والفنانون فتوناً والانبياء فضيلة .

---

(١) و (٢) السيرة النبوية ج ٢ ص ٣

خفق الرسول الارض بعصاه ، والتفت الى الطائف الغارقة في بهاء الصباح فلم يلعنها ولم يسخط على أولئك الذين رجموه بالحجارة، ولم يستنزل غضب السماء على نبلائها واشرافهـــا ، بل لقد دعا لقومه الجاهلين دعاء طيباً وبارك الفقراء والمكدودين والمستضعفين والرعاة وسأل الله نصراً عزيزاً لأولئك الذين يقـــاتلون الفرس في ذي قار دفاعاً عن حرية الارض التي انبتتهم نباتاً طيبا .

وهكذا ظلت فكرة الله التي تعرف اليها في الغار على صفائها وطهارتهـــا فلم تغمرها امواج الشك العابسة بحياة القرشيين ولم تهرمهـــا المآسي والاحداث ولا اطفأ شعلتها موت العم الشفيق الحادب وهلاك الزوجة الوفية واغتراب الاصفياء الى ارض الحبشة .

ولما عزف عن الطائف وازمع مضياً عنها كان الصباح قد ملأ نفسه نوراً فوضع يده على صدره فاذا العالم الذي بناه في الغار لا يزال جديداً في كل جارحة من جوارحه فتخافت بصوته واخذ همسه النـــاعم الرقيق يتسرب الى الاودية والسفوح والجبال فأنعشها وحباها الحياة والاشراق فاستوثق من قدرة رسالته على بناء المدن والصروح والمعاهد هنا في الوطن الاول . وهنـــالك في الشام والعراق وما وراء البحار .

وكان في الهه وشجنه اعظم من الطبيعة التي اودعها همس قلبه ، فنذر ان يهب حياته لقومه وان يمنح المدن الحاليات بالمرمر والبرفير اسمه وبهاءه .

وبعد ثلاث ليال من طواف بليغ اشرف الرسول على خيام منصوبة في جوار الطائف ، وكان الجوع قد برح به فآوى الى خيمة لامرأة من خزاعة فطلب لبناً او لحماً ليشتريه منها فما وجد عندها شيئا ، فنظر الى شاة في كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم فسأل المرأة هل بها من لبن ؟ فقالت : هي اجهد من ذلك فقال تأذنين لي ان احلبها ؟ فقالت : نعم بأبي انت وامي ان رأيت بها حلباً فاحلبهـــا فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرت ودعا باناء فحلب فيه وسقى زيداً وشرب هو ثم حلب

فيه مرة اخرى ثم غادر الخيمة وواصل سيره في الطريق المفضي الى يثرب .

وجاء زوج المرأة بعد قليل يسوق اعنزاً عجافاً فلما رأى اللبن عجب وقال ما هذا يا أم معبد ؟ قالت انه مر بنا رجل مبارك فقال صفيه فوصفته بأحسن الاوصاف فقال هذا والله سيد قريش لو رأيته لاتبعته (١)

ومر الرسول هو وزيد بعبد يرعي غنماً في واحة ظليلة على ابواب يثرب فاستسقيا اللبن فارتمض الراعي وجزع وقال ما عندي شاة تحلب غير ان ههنا عناقاً حملت عام اول وما بقي بلا لبن فقال ادع بها فأتى بها فحلبها السيد ثلاث مرات فشربوا منها وآمن الراعي (٢)

وبلغ المؤمنين من اهل يثرب نبأ خروجه من مكة والطائف فعافوا بيوتهم ومنازلهم شيباً وشباباً ونزلوا في الحرة ينتظرون ان يوافيهم فيها ، فلما امتاحهم الحر ارتدوا الى بيوتهم وعاذوا بأكنافها .

وفي ذات صباح اوفى رجل من اليهود على حصن من حصونهم فبصر سيد قريش وصاحبه يمشيان في السهل وقد ظللهما سراب لامع فلم يملك اليهودي نفسه فصاح بأعلى صوته :

يا بني قيلة — يريد الاوس والخزرج من اهل يثرب — هذا حظكم ومطلوبكم قد اقبل ، فخرجوا اليه سراعاً بسلاحهم فتلقوه فنزل بقباء على بني عمرو بن عدي واقام عندهم اثنتين وعشرين ليلة .

فلما كان صباح يوم الجمعة حشد المؤمنون وتلبسوا السلاح فركب الرسول ناقته والناس معه عن يمينه وشماله فاعترضته الانصار لا يمر بدار من دورهم الا قالوا له هلم يا نبي الله الى القوة والمنعة والثروة فيقول لهم خيراً ويدعو لهم ويسألهم ان يخلوا سبيل ناقته فانها مأمورة .

وكان الرسول قد ارخى زمامها وما يحركها وهي تنظر يميناً وشمالا حتى اذا

---

(١) و (٢) السيرة النبوية ص ٥٨

اتت دار مالك بن النجار بركت على باب المسجد . ثم سارت وسيد قريش عليها حتى بركت على باب ابي ايوب الانصاري ، ثم سارت وبركت كرة اخرى حيال دار مالك بن النجار. فنزل الرسول عنها وقال هذا المنزل انشاء الله .

وخرج الناس شيوخاً وشباباً الى لقائه وصعدت ذوات الخدور على السطوح يقلن وينشدن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعي
ايها المبعوث فينا ... جئت بالامر المطاع

وخرجت جوار من بني النجار بالدفوف يقلن :

نحن جوار من بني النجار ... يا حبذا محمد من جار

فأطل الرسول عليهن فقال لهن : اتحببنني ؟ (١) قلن نعم يا رسول الله فاشجته اصواتهن فغامت عيناه ورق رقة غريبة واثارت هجرته الى المدينة في نفسه ذكريات الماضي يوم خرجت به امه الى اخواله بني عدي بن النجار في ست سنين من عمره نذكر لياذه ببيت النابغة الذبياني الشاعر فلذ هذه الذكرى وقام الى النافذة ينظر الى أطم بني عدي بن النجار فعرفه فتخلج وتلفت الى صحبه ويداه تومضان الى الأطم ومضى هامسا .

«كنت ألاعب انيسة جارية من الانصار على هذا الأطم وكنت مع غلمان من اخوالي نطير طائراً كان يقع عليه ، ثم حدق الى دار النابغة فقال : ها هنا نزلت بي أمي وفي هذه الدار قبر ابي عبد الله بن عبد المطلب (٢)

وكان باراً بذكرى ابويه فذرف الدمع تذرافاً اليما .»

---

(١) السيرة النبوية

(٢) طبقات ابن سعد ص ٧٣

الفصل الثالث والثلاثون

احزان هند

قصر الاحزان او قصر مارية العفراء(١) ، هو اجمل روائع العصر الغساني في ضاحية منين ، بنته مارية العفراء زوج الملك الحارث الثاني في أواخر القرن الرابع للسيد المسيح على سفائح جبل سنير واتخذته معاذاً هادئاً تقضي تحت ظلاله وافيائه ما تبقى من عمرها المليء بأوجاع الحياة وآلامها .

وكانت مارية الغسانية كما يقول مؤرخو الرومان مثل تيودروت وسوزمين وسقراط وامنيوس اجمل نساء عصرها ، وكانت معاصرة للامبراطور فالانس وكان زوجها الحارث الثاني جميلا فتاناً فأحبته بلتيزا ابنة البطريق جوليان امير انطاكية وشغفت به شغفاً شديداً وارادته على فراق مارية فأبى واعرض عنها فأمضها هجره وجفاؤه واستجاشتها كبرياؤه فسقته السم فمات بعد نزع أليم بين ذراعي مارية (٢) زوجه .

ولما دفنت مارية زوجها في تلال وادي منين في دير قديم من ادبرة هذه الضاحية الساحرة الغنية بالاحراج والغابات والمياه ، راحت تفكر في الثأر به من الرومان فاجتاحت جيوشها فينيقية وفلسطين واستمرت في زحفها حتى بلغت تخوم مصر فاضطر الامبراطور فالانس الى مصالحتها على شروط حفظت لغسان شرفها وكبرياءها وقد اعترف الامبراطور فالانس في معاهدة الصلح باللغة العربية كلغة وطنية لكنيسة غسان (٣) واقام الراهب موسى اسقفاً على بلاد الشام وكان هذا الراهب المعروف بصلاحه وزهده وتقواه قد اجبر على الانزواء في صومعة بين صحراء سورية وفلسطين بأمر من الامبراطور فالانس (٤)

---

(١) وقيل ماوية و (٢) و (٣) (٤) تيوفان وامينوس .

وعكفت مارية بعد ان وضعت الحرب اوزارها على استصفاء بادية العرب من الوثنية ، وفي سنة ٣٣٧ زوجت ابنتها ماوية الكونت فيكتور امير تراقية وشقيق الامبراطور فالانس . وفي هذا العــام ثار البرابرة على الامبراطورية الرومانية واجتاحوا تراقية وملأوا الامصار القــائمة على نهر الدانوب ذعراً وهولاً . ثم توغلوا في اقليم بروبونتيد ونشبت بينهم وبين الكونت فيكتور معركة حامية الوطيس قتل فيها الكونت زوج ماوية وتراجع الرومان في كل ناحية ولحق بهم البرابرة فاضطر الامبراطور فالانس الى استنفار مارية الغسانية فأغاثته بجيش لجب من فرسان غسان فعبر هذا الجيش القسطنطينية واشترك في الدفاع عنها وانقذها من حصار البرابرة (١)

عادت مارية الى الشام فعاذت بقصرها في ضاحية منين مع ابنتهــا ماوية التي قضت نحبها بعد سنة من موت زوجها الكونت فيكتور فدفنتها امها في حديقة القصر وظل قصر مارية العفراء مثوى للصور الالهية الى أواخر القرن السادس ففي سنة ثلاث وستين وخمسمائة نزل ملك العراق المعروف بالاسود بعساكره الى الشام مطالباً بثأر ابيه المنذر بن ماء السماء الذي قتل في معركة عين اباغ فبعث الى ملك غسان الحارث الاعرج بكتاب قال له فيه «لقد اعددت لك الكهول على الفحول» فأجابه الحارث «قد اعددت لك المرد على الجرد» فسار المنــذر حتى نزل بمرج حليمة ، وسار الحارث فنزل بالمرج ايضاً فأمر اهل القرى التي في المرج ان يصنعوا الطعام لعسكره ففعلوا ذلك وحملوه في الجفان وتركوه في المعسكر فكان الرجل يقاتل فاذا اراد الطعام جاء الى تلك الجفان فأكل منها فقامت الحرب بين ملك العراق وملك الشام اياماً لا ينتصف بعضهم من بعض فلما رأى الحارث ذلك قعد في قصره ودعا ابنته هنداً فضرجها بالطيب ثم نادى يا فتيان غسان من قتل منكم ملك الحيرة زوجته ابنتي هندا ، فقال لبيد بن عمرو الغساني لأبيه يا ابت انا قاتل ملك العراق

---

(١) تيوفان وامينوس .

او مقتول دونه لا محالة ولست ارضى فرسي فاعطني فرسك فأعطاه فرسه فلما زحف الناس واقتتلوا شد لبيد على خصمه ملك العراق فقتله ، وانهزم اصحابه في كل وجه ، ونزل لبيد فاحتز رأسه ، واقبل به الى الحارث وهو على قصره ينظر اليهم فألقى الرأس بين يديه فقال له الحارث شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها فقال بل انصرف فأواسي اصحابي فاذا انصرف الناس انصرفت فرجع فصادف اخا ملك العراق قد رجع اليه الناس وهو يقاتل وقد اشتدت نكايته فتقدم لبيد فقاتل حتى قتل ولم يقتل في هذه الحروب بعد تلك الهزيمة غيره وانهزمت جيوش العراق هزيمة ثانية وقتلوا في كل وجه وانصرفت غسان بأحسن ظفر وذكر ان الغبار في هذا النهار اشتد وكثر حتى ستر الشمس وحتى ظهرت الكواكب المتباعدة عن مطالع الشمس لكثرة العساكر لأن ملك الحيرة سار بعرب العراق اجمع وسار الحارث بعرب الشام اجمع وهذا اليوم من اشهر ايام العرب وقد فخر به بعض شعراء غسان فقال :

يوم وادي حليمة وازدلفنا ... بالعناجيج والرماح الظماء
اذ شحنا اكفنا من رقاق ... رق من وقعها سنا السحناء
وأتت هند بالخلوق الى من ... كان ذا نجدة وفضل غناء
ونصبنا الجفان في ساحة المر ... ج فملنا الى جفان ملاء (١)

ورجعت ابنة الملك الحارث الى الشام فاعتزلت الناس في قصر مارية العفراء حزناً على لبيد ، ثم ماتت من فرط الغم ودفنت في حديقة القصر ونحت لها راماس المثال البيزنطي تمثالا من المرمر على شاكلة تمثال السيدة العذراء .

ولما اجتاح الفرس الشام في سنة اربع عشرة وستمائة وحملوا معهم الصليب الكبير من بيت المقدس وقتلوا ملك غسان وهو يومئذ زوج هند بنت امريء القيس بن حجر عاذت هذه المرأة التعسة التي عرف القراء اخبارها في الجزء الاول والجزء الثاني من هذه الرواية بقصر مارية العفراء وحملت معها جثة زوجها وجثة جبلة بن

(١) ابن الاثير ج ١

الايهم فدفنتهما في حديقة القصر عن كثب من قبر مارية العفراء وابنتها ماوية وغير بعيد من قبر هند بنت الحارث الاعرج عروس لبيد بن عمرو قاتل ملك الحيرة ، وشهد حفلة الدفن خمسة من اصدقاء غسان . احدهم الاعشى الشاعر والثاني راهب الضاحية سرجيس ورجلان من غسان وحنظلة الكندي ولم تشهد ليلى الكندية هذه المأساة الشجية لخروجها من دمشق الى الحجاز في الليلة التي دخل فيها كسرى ابن هرمز فاتحاً الى دمشق .

وكان قيصر الرومان قد ارتد الى القسطنطينية بجيوشه فحمل معه اولاد هند واسكنهم في قصر تيودوس واقام على تربيتهم وتثقيفهم اسقفاً عربياً فانقطعت صلة هند بهم ولم تستطع ان تسترق اخبارهم مخافة ان يعلم الفرس بأمرها فيقتلوها وظل الاعشى معها في القصر سنة كاملة ثم برح ارض الشام الى ارض الحجاز ولكنه لم ينسها ولم ينس شجونها وآلامها فظل يزورها مستخفياً مرة في العام ، وكان يحمل اليها في زياراته شيئاً كثيراً من اخبار الحجاز والعراق فتطمئن التعسة الى هذه الاقاصيص التي يرويها عن رسالة سيد قريش وعن استبسال عرب العراق في قتال الفرس .

كان قصر مارية العفراء في جمال هندسته ووشيه والوانه من اجمل القصور التي بناها ملوك غسان في ضواحي الشام ، وكان قائماً في قلب حرجة فيحاء تمتد من سفوح منين الى ابواب دمشق ، وكان لا يزال مستبقياً روعته وطرفه وآثاره فلم يعبث به الفرس عبثهم بجنات الغوطة وقصورها ولم يمدوا الى محاسنه ومفاتنه يدا ، ذلك بأنهم لم يفكروا بعد اجتياحهم الشام وتدميرهم كنائسها في العبث بهذه الارض المقدسة التي احتضنت الاحبة والاصفياء والتي لا تزال تنشر عبق الاجداد والآباء في جو شديد الصحو شديد الضياء .

وكان عليها ان تتجلد لهذه الآلام التي تهدها هدا ، ففتحت صدرها لشجون العزلة ، وحباها الله شجاعة نادرة انستها بعض تباريح حياتها فانقطعت للصلاة في

دير قديم ، وكان الدير على ضخامته واتساع رقعته خلاء الا من راهب هرم كانت له صلة قديمة بآل جفنة ، وكان هذا الراهب المبجل روح العالم الصغير الذي تشتمل عليه ضاحية منين والقرى المجاورة ، وكان عمله ان يصعد برج الدير في الصباح فيقرع اجراسه ايذاناً بالصلاة فيتهافت فلاحو القرى المجاورة على المنسك المنفرد لاستماع الراهب الذي كان يقرأ صلاته بلغة العرب بينما دمشق التي تلوح للمسافر من تلال منين وربواتها لا تستطيع زحفاً الى كنيسة يوحنا مخافة ان تثير صلاتها كبرياء كسرى بن هرمز ، وفي المساء يمضي الراهب الى عمله فيصعد برج الكنيسة ويقرع اجراسها فيتهافت الفلاحون على الدير تهافتهم عليه في الصباح وهند بنت امرىء القيس في طليعة المستمعين ، وكانت هند تجلس الى مقعد قريب من المذبح ثم تروح ناظرة الى تمثال السيد المسيح كأنها تريد ان تغرق نفسها في ملاحة وجهه وفتون عينيه ثم ترفع عينيها الذابلتين الغائمتين الى تمثال السيدة العذراء ففي تصوراتها وخواطرها في بهاء هذا التمثال حتى تغيب عن العالم الذي تعيش فيه فلا تعود تعي على نفسها وتنسى انها في المعبد المقدس تصلي وتتعبد بل تنسى انها جاءت الى هذا المعبد المقدس للصلاة على ارواح القتلى الذين احتضنتهم ارض الشام بعد دفاع مجيد .

ويخرج الناس من المعبد وتصمت الاجراس ويمتنع الراهب عن صلاته فتظل هند حيال تمثال المسيح الابن وتمثال العذراء الام حتى ترد اليها خواطرها فتلتفت يمنة ويساراً فلا ترى حولها احداً من الناس ، فلا تلبث ان تدرك غرقها فتنهض وتتحفز للخروج من المعبد ، ولكنها لا تريد فراق التمثالين قبل ان تقبلهما وقبل ان تتمسح بهما ثم تخرج من المعبد فيستقبلها على بابه ذانك الشيخان الغسانيان ، وذلك الشيخ الكندي حنظلة صاحب ليلى الكندية .

وتعود الى قصر مارية العفراء او قصر الاحزان فتطوف بحديقته حيث قبور الاحبة والاصدقاء فلا تتردد في حمل الازهار الى هذه المضاجع الخرساء حتى اذا

اكملت حجها واتمت فرضها عادت الى حجرتها تقرأ في مجموعة من الشعر كتبها حسان بن ثابت والاعشى الشاعر في مدح آل جفنة ، وكانت هذه الاشعار عالمها المسلي المعزي في وحدتها البائسة،وفي بعض الليالي كانت هند تقف على قارعةالطريق بين معربا ومنين تنتظر وفود القوافل العائدة من العراق ، وكان الشيوخ الثلاثة يرافقونها في هذا الطواف فاذا جاءت قافلة وحطت رحالها في الضاحية خفت هند الى رجالها تسألهم عما اذا كانوا يحملون اليها خبراً ولو بسيطاً عن العراق فاذا حدثها هؤلاء الاعراب بحديث سار عن غطاريف كندة صفقت بيديها ومسحت عبراتها ومضت تهتف بحياة الذادة والكماة الذين يحاربون في ذي قار .

وكانت تشعر بيأس شديد حينما يقول لها رجال القافلة انهم لا يعلمون شيئا ، ثم تعود الى حديقة القصر ناشجة شاجنة فتلقي بنفسها على قبر زوجها صارخة « متى يكون لي متسع فيك ايها الرمس الغالي ؟

وتستفيق في الصباح وتخرج مع الندى الباكر الى اعلى ذروة في الضاحية فتقف عليها والهواء يعصف من حولها عصفاً شديدا ، فتظل مصغية لعصف الهواء راعشة راعدة حتى تطلع الشمس وحتى تنحسر امامها المشاهد التي حجبها ضباب الفجر فتنظر الى دمشق نظرة مستطيلة وترى عن بعد قصر البريص قائماً على ضفاف بردى ثم تقلب بصرها في انحاء المدينة الخالدة حتى يلوح لها عمود تيودورا الرخامي وقوس النصر بجانب محاريب كنيسة يوحنا فتتخلج وتروح باكية، ثم يمر بذاكرتها شبح العدو الفارسي الذي يهيمن على دمشق فتهز رأسها من فرط الالم وتلتفت الى ناحية الصحراء صارخة :

« متى يخرج جنود سيد قريش من البادية الغطشاء الى هذه الارض الزهراء »

وترتمي الرياح على وجهها صاردة مقرورة فتستفيق وتدرك انها كانت تحلم على الذروة ولا يفوتها قليل او كثير من الحقيقة المخوفة فترى الصحراء مقفلة وترى دمشق لا تزال تسبح في غسق آلامها .

ثم تنحدر عن الذروة الى الضاحية فتغيب دمشق عن ناظريها في بحر خضم من الظلال والجنات .

وفي قصر مارية تعاودها احلامها وهواجسها فيخيل اليها وهي مطلة من الشرفة على الاحراج والمياه انها تنصت لأغاني الفرس الفاتحين فتحزن وتبتأس وتضع يدها على صدرها صائحة :

« أليس لسيد قريش نشيد تردده دمشق؟ وحينما تهمس شفتاها باسم سيد قريش تغيب في صدرها تلك الصورة البديعة التي رأتها في كنيسة الضاحية فينسيها النبي العربي ولو الى حين اسم المسيح عيسى بن مريم وتحملها ذكرى الرسول الجديدة على نسيان ذكرى المسيح القديمة فلا تعود تفكر في زيارة البيعة .

ولم يكن عزوفها عن السيد المسيح حصاد كره جديد احسته نفسها حيال النصرانية التي تحبها حباً شديداً بل لقد كان ظلم الرومان الذي استطال قروناً مديدة يمنع عينيها ان تبصر هذا الفتون الذي يلوح على جبين ابن العذراء البتول فظلت صورته البديعة تلوح لها جاهمة مغدرة بينما كان طيف الرسول الذي كشفت عنه جزيرة العرب يطفو في كل ناحية من نواحي جسمها .

وفي ذات عشية وقفت هند على الشرفة تنظر الى جرس البيعة كأنها تتوقع ان يروح مجلجلا في الافق فلما ابصرته راكداً صامتاً شعرت بحزن اليم وطفقت تسأل نفسها عن معنى هذا الصمت العميق الذي لم تألفه في سابقات ايامها وسالفات اعوامها وعزيف الهواء لا يبرح مالئاً نواحي الافق والبرد الشديد يرعش في الفضاء والضاحية تسبح في غسق مريع وليس في السماء كوكب يضيء ويلمع ، ولما قيل لها ان الراهب سرجيوس قد عاف هذه الدنيا الفانية زلفى للدنيا الباقية لم يفتها معنى سكوت الاجراس في البيعة فشجيت لذلك شجاً اليما وامضت ليلها ساهدة ارقة وفي صباح اليوم الثاني خرجت مبكرة الى المعبد وطافت بنواحيه فلم تبصر احداً من أولئك المصلين الذين كانوا يختلفون اليه كلما هزتهم اصوات النواقيس واماالتهم.

اعراف الديانة .

لقد رأت في هذه الوحدة الشاملة ما يثير احزانها ويجدد شجونها وهي المرأة البائسة المحتاجة الى فرحة وأنسة فلما خطت الى ناحية الباب هزتها قشعريرة خفية وتحيفها شيء من الذعر فالتفتت الى ورائها فاذا تمثال السيد المسيح غير بعيد منها فحدقت اليه حتى خيل اليها انه ينظر اليها، وحتى تمثلته قد جفا مكانه في المذبح ليسألها معنى جفائها وسر ازورارها ، فاستحيت من فرارها وعادت الى التمثال تريد ان تصلي له وتتمسح به ، وكانت الازهار والرياحين تغطي المذبح فظلت تهمس همساً ضعيفاً تتخلله زفراتها المشبوبة ، ولكن شيئاً من صلواتها القديمة لم يخرج من شفتيها وكلما ارادت ان تستعرض في ذاكرتها صورة المسيح الفاتنة طرقتها صورة سيد قريش وحلت في قلبها وخاطرها محل صورة السيد المسيح فحاولت اكثر من مرة ان تستبقي في عينيها احدى الصورتين فما استطاعت الى ذلك سبيلا وظلت صورة سيد قريش تترقرق على عينيها وقلبها حتى توارت صورة ابن العذراء البتول .

لقد كان يشجيها كثيراً ان تغرب في صدرها الغاتم شمس المسيح الرحيم الشفيق فودت لهذه الشمس التي اضاءت بيوت الفقراء واكواخ التعساء سطوعاً في قلبها بجانب هذا السطوع الجديد الذي بهر عينيها وتمنت لو يستطيع هذا المعبد الذي املس منه رواده وزواره ان يضم اليه ماضي الآباء الذين ماتوا على النصرانية ومستقبل الابناء الذين سيموتون على الاسلامية حتى لا تحرم لذاذة النظر الى حياة المسيح الطافحة بالجمال والفتون وحتى تفعم روحها بجمال حياة سيد قريش وفتونها .

ولما استوثقت من عجزها عن ترديد الصلاة التي تعلمتها في طفولتها جفت المعبد وانطلقت الى الحرج فتوغلت فيه وظللتها اشجاره وهامت على وجهها في مداه الواسع وهي لا تدري مستقراً تستقر عنده وتنتهي اليه .

وكانت اشباح الشجر تلوح لعينيها كلما امعنت في الركض وفي بعض الاحايين كانت هذه التعسة تصطدم بالادواح والاغصان فتشعر بألم شديد وتضع يدها على

جبينها ثم تردها الى عينيها مضرجة بدم .

وظلت تركض في الحرجة حتى طوت سهل برزة وسهل القابون وحتى بدت دمشق لها فوقفت تنظر عن بعد الى المدينة الخالدة التي ظلت مثاراً لعبقرية الشعراء في عصور الجاهلية وعصور الاسلام .

في هذه الفينة عادت الى نفسها فانفتح ذهنها واخذ يعي المشاهد البارعة فأدركت التعسة انها جد قريبة من المدينة المروعة المضطهدة فرعشت وهمت برجوع الى منين مخافة ان يدهمها الفرس .

ولكن التعب الذي غشيها في خلال طوافها الجاهد كان قد هد قواها هدا ، فشعرت بالاعياء واستخذت للراحة وصبت نفسها الى الدعة والسكون فجعلت تنظر الى الافق نظرات استطال فيها الالم ، وبغتة لاح لها طلل روماني قديم فهزها مشهده فاسرعت الى الاحتماء به وجاست خلاله فامضت نهارها في خرائبه .

ولما اطفلت الشمس وقعت التعسة في ذهلة عميقة فتجددت مخاوفها وهواجسها وكثرت احلامها فجفت الطلل ومضت تركض في طريق يدفع الى المدينة التي اخافتها قبل لحظات وكانت الطريق الى دمشق غنية بالروابي والتلال فتسلقت الذرى وغيبت نظراتها في عالم كبير يموج بالخضرة والظلال .

وفي خفة البرق الموءض راحت مفتونة بهذه المشاهد البارعة فسافت الذروة وانحدرت في طريق دمشق وقد جذبتها اضواء الطفل السارحة في الجنات والينابيع الى مدينة الشعر والعطر .

وجعلت تجوس خلال الجنات ساهية لاهية حتى عرضت لها دمشق وانكشفت اماما البيع والمحاريب والصروح والاعمدة واقواس النصر فضحكت ضحكة متشنجة والتفتت الى المدينة التي احبتها وصاحت :

« ما ابهى خمائلك يا دمشق ، ويا لشذاها في هذا المساء .

وفي صباح اليوم التالي استفاقت التعسة على دغدغة الشمس فجعلت تنظر الى

الشجر والنهر والقصر وهي تكاد لا تصدق هذا الذي تبصر بل لقد كادت تفقد وعيها حينما بدت لها الاشياء والمشاهد في هذا القصر كأنها قريبة من حياتها الماضية ولما طافت بالخميلة وافعم الورد صدرها بأريجه واستثارها ترديد المـــاء وتسجيعه، وقفت تتأمل في شبابها الاول فاذا حياتها تخرج من ضباب المـاضي جديدة غضة يخيل اليها وهي تستعرض صور الامس انها تعرف القصر وتعرف عزلاته وينابيعه وازهاره فراحت ترى في كل زهرة من ازهار القصر وفي كل غرفة من غرفه وتحت كل قنطرة من قناطره اثراً من ذلك الماضي الذي احبته . فلذت التحديق الى هذا الطيف الحبيب الذي حسرت عنه دوارس الماضي والذي اخذ يمر بعينيها وقلبها واحساسها فما عادت تطيق فراقه وودت لو انه يظل طائفاً بنواحي نفسها فلا تبدده حقيقة هذا الحاضر المرهوب الذي تسبح في زواخره .

وانها لفي غرق وذهلة اذا عيناها الساجيتان تلحظان تمثالا من المرمر يمثل انسية فتانة كانت لها بها سابق عهد فزرفت الى ناحيته وانثنت تتأمل في صورة الفتـــاة اللعوب حتى اضناها التأمل واذا بها التفكير فصاحت :

ويلاه! أمن الممكن ان يكون هذا التمثال خيال تلك الصغيرة التي احتوتها ارض بيزنطية؟

ولم تكن تحلم فقد كان التمثال الذي رأته في جنة القصر على حافة الينبوع الدافق الهادر صورة صحيحة لمارية بنت امريء القيس بن حجر فوضعت يدها على قلبهـا كأنها تريد ان تحبس نشيجه ولحامه وطفقت تهمس :

« اعاد الله ايامك حاليات بالمغابط والمفارح ايها القصر الذي رد الي ذكرى شبابي الاول .

وانكشف لها الماضي كله في لحظات فلم يعد قصر البريص غريباً عنهـا واصبح ماضيه منسجماً في حاضرها فذكرت خروجها في سن خمس عشرة سنة من بصرى الى دمشق في ليلة غدراء وطوافها بقصر البريص واحداق هيباس قائد الرومان بها يريدها على هون وصغار ، وهي تريده على احترام عفافها فلا يسمع حتى استفزها

صلفه وعناده الى ياس شديد ، فجعلت تصيح صياحاً اليما ، وسكان القصر في سنة ونوم لا يسمعون حساً ولا ركزاً ثم انثنت تصرخ وتولول حتى اهتزت الغابات المجاورة لصياحها فاخرجت اليها تحت ذوائب الليل ثلاثة من فرسان العرب فألقت بنفسها اليهم فحموا شرفها وصانوا عفافها .

وجاءت هذه الذكرى القديمة شديدة الاثر في نفسها فطافت بنواحي المـــاضي واستعرضت صور الفرسان الثلاثة وعليهم الدمقس والديبـــاج فهمست بأسمائهم همساً شديدا : « نعم امام ابواب هذا القصر تعرفت الى ابي سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت وحسان بن ثابت ، وتحت شرفات هذا القصر رد الي شرفي صحيحاً غير مثلوم .

واقبلت على ثرى القصر تقبله وتلثمه في كثير من الورع والخشوع ثم مرت بها لحظات وهي جاثمة في هذا المجثم المقدس ، ثم استفـــاقت واخذت تمر بمنابت الزهر والورد والآس .

لقد كان القصر خالياً من سكانه وزائريه ، وكان العفاء وحده يهيمن على جوانبه ونواحيه فضاعف نضوبه من سكانه الاكرمين في شجونها وآلامها فطفقت تعبث بالازهار والورد وهي تهمس همساً ضعيفا :

« ان على ازهارك واورادك ايها المثوى المنعزل الحزين لغضارة لم ارها عليهـا في ايام انسك ومراحك ، ولكن هذا البشر الذي يحرك ادواحك ومياهك لن يحمل الى نفسي التي يعتصرها الالم شيئاً من العزاء ولا يبعث الى قلبي الصارد قليلا من الدفء ، وقد اصبحت ايها المثوى الحبيب الى نفسي ارعش واترعدد وانظر الى عطورك ومطايبك في كثير من السأم والملل . ذلك بأن عطورك الحبيبة ما زالت تضيع في الفضاء الافيح فلا يتطيب بها أولئك الذين لذنهم النعماء تحت وارف ظلالك .

لقد وسعتني عزلاتك وافياؤك في الماضي فكنت اخرج اليك يا مثوى الدعة والرجاء العذب نقية طاهرة كعرف ازهارك وكنت انقش على لحاء الشجر اسمي

الفقير المتواضع بجانب اسم عمرو الشريف النبيل ، وكانت اغاني السعيدة تجد في افقك المعطر مدى واسعاً تطير في نواحيه وها انا اعود اليك في غير موعد محجبة النفس بقناع الموت ، اعود اليك مطرودة منبوذة غريبة عن الاهل والدار ، بل اعود اليك بائسة ذاهلة جمدت الاناشيد على شفتيها وماتت الآمال في صدرها وقرض الحزن جناحيها فما عادت تستطيع الطيران في افقك البديع .

ناشدتك الله ايها المثوى القديم الا تصدق كلي فان الالم قد انطق لساني بالهذيان فصرت نزاعة الى تسمية الاشياء بغير اسمائها والحقيقة ايها المثوى المضيء هي انني اعود اليك راجية هانئة ، راغدة باسمة ، انظر الى ما حولي فلا ابصر غير الحياة ، ثم تلمس يدي الزهر فاراه ندياً بالحياة ، وتأخذ عيني المشاهد نتراها حالية بالحياة ، واشم الورد فلا يفوتني في بياضه واحمراره معنى الحياة .

لقد رد الي طيف من اهوى ، طيف عمرو فيالفتونك ايها الحب ! ان حبيبي يعود الي مفراحاً ناعماً يريدني على لقاآت حب وهوى بين منابت الورد ومغارس الآس

وكانت هند تتكلم ويدها تنزع الورد من منابته ، ثم اخذت تنثر الورد على تمثال مارية وهي لا تدري انها انتزعت ورداً وزينت به تمثالا حتى استفاقت من ذهلتها على صدى انشاد لا تحبه فامتنعت عن قطف الزهر واختبأت وراء التمثال الذي تظلله الاشجار ووقفت تنصت للغناء فما فاتها في اصوات المغنين روح الفاتح الاجنبي وفطنت الى ان الفرس الذين رأتهم يخرجون من كنيسة يوحنا بالصلبان والنواقيس يمرون في هذه اللحظة المرهوبة بقصر البريص ضاحكين وادعين .

وكانت تخشى ان يدخل الفرس القصر فيروها وقد رأوها الامس تطوف حيال كنيسة يوحنا فظلت في مخبئها حتى غابت اناشيد الغزاة في المفازات البعيدة فخرجت من مكمنها ودخلت القصر وطافت بكنيسته الصغيرة فانتزعت دمية تمثل السيدة العذراء وتهافتت على لثمها وتقبيلها باكية مسفوعة مقرورة ثم غادرت القصر بطريق الجنات والحدائق فحجبتها الظلال عن الغزاة وفي المساء احتواها حرج منين العبوس المكفهر وتمثال العذراء على صدرها الملتاع . ؟

الفصل الرابع والثلاثون
ابواق غسان

ذهبت عشيات الصيف الساجية الوادعة ، وجاءت عشيات الشتاء الصاردة المقرورة وانتشر في الافق المصحي غيم مديد فحالت مشاهد الطبيعة الى صور ربداء لا تروق ولا تبهج ، وتتالى المطر على الزروع فطواها في دفقه وتهطاله وتعاقب الثلج ملحاحاً شديداً حتى غمر الحقول والكروم وحتى استفاض على التلال والروابي فكساها لؤلؤاً شديد الفتون .

وكانت هند بنت امريء القيس بن حجر قد عاذت بحجرتها في قصر مارية العفراء فلم تخرج الى المعبد مخافة ان يلذعها البرد المنتشر في نواحي الافق وفضلت ان تمضي الساعات في قراءة اشعار كتبها شعراء من العرب في البكاء على غسان حتى توامضت على حياتها في القصر بين قبور الاحبة ورموس الاصدقاء الوان كامدة شبيهة بهذه الالوان التي خلعها الشتاء على ضاحية منين .

وكانت تنقطع عن القراءة في فترات قصيرة فتنهض الى النافذة وتطل على الضاحية فترى السماء منحنية الى ناحية الافق الذي تغشاه غيوم جاهمة مغدرة وهي تكاد من فرط انحنائها تشتبك في خطوط الحرج الدكناء ، ثم تطيل تأملاتها في الاشياء والمشاهد فلا تلذ مفاتنها وتملها وتعود الى التحديق في الغاب المجاور وتنصت لخرير الماء فيروعها عواء الذئب في الغسق الداجي ، فترتد الى حجرتها شاحبة ملتاعة وترجع الى الشعر لعلها تجد في اغانيه والحانه ما يذهب عنها هذا الخوف فلا تأنس به وتمله ثم تفكر في الخروج الى الحديقة رجاة ان تحج الى قبور الاحبة فلا تكاد تخطو بضع خطوات حتى ترى الثلج الهامر قد نكس الصلبان القائمة على القبور ، وحتى ترى العاصفة قد عصفت بالتماثيل الصغيرة فزحزحتها عن قواعدها ،

ولم تكن هند لتحب هذا العيش الذي تعيشه في ضاحية احالها الشتاء الى صحراء باردة يغشاها الزمهرير فطفقت تفكر في الرجوع الى دمشق لعلها تجد في المدينة الخالدة ذلك الدفء الذي تشتاقه وتحبه ، ولكن الفرس لم يبرحوا دمشق ولا تزال جنودهم تسرف في ترويع اهلها وتدنيس بيعها ومحاريبها ومقدساتها فاذا جفت هذه الضاحية الآمنة المطمئنة واعتزلت الناس في قصر البريص الموحش المقفر فلا يلبث الفرس ان يعلموا بأمرها فيقتلوها شر قتلة .

ولما استوثقت من قدرة الفرس على التنكيل بها وضعت يدها على عينيها حتى لا ترى طيف البلد الذي احبته وفضلت ان تعيش في منين على ثلوج جبل سنير عن كثب من الفلاحين والحطابين الذين يحبونها ويحترمون صمتها وحزنها .

وكان حطابو الضاحية يفدون الى قصر مارية العفراء في كل مساء حاملين الحطب والاعواد ، فتخرج هند الى لقائهم وتنصت الى خطبهم الساذجة المتواضعة ، ثم تسألهم دخول القصر فيدخل هؤلاء السذج الى حجرتها ليضعوا الحطب في المواقد

وفي الصباح تستقبل هند على عتبة القصر فلاحي الضاحية وقد حملوا اليها الخبز واللبن واللحم وبعض الازهار فتخطبهم خطبة موجزة ولكنها خطبة خصبة بصورة احساسها الرقيق العذب وحينما يبتعد عنها هؤلاء السذج وتغيب صورهم المستبشرة عن صورتها الكامدة تعود الى حجرتها لتصلي امام تمثال العذراء الذي انتزعته من قصر البريص فاذا فرغت من صلاتها عادت الى نفسها تخاطبها بلهجة بائسة حزينة « اما وقد جاء الشتاء بمطره وزوابعه وثلجه فلست اجد محيداً عن الموت » ولكن هذا الموت الذي استساغته وهماً واحبته خيالا كان يخيفها في حقائقه الجاهمة ، وكانت ترى فيه عالماً بعيداً يفصلها عن العالم الذي يعيش فيه ابناؤها وهي التي تعلقت بعالم ابنائها واحبته فوق كل حب .

ولم تكن حياتها على رغم سبحها في الالم واليأس وقفاً عليها فحسب بل كانت هذه الحياة الزاخرة بشتى التباريح وقفاً على تلك المرأة المنكودة التي تعيش في

صفوف الذادة والكماة في ذي قار ، وكانت كذلك وقفاً على ابنائها الذين يعيشون في القسطنطينية تحت حمى هرقل وفي ظله الظليل وفوق هذا كله فان هذه الحيـــاة التي تألمت وتعذبت لم تبلغ خاتمة المطاف بعد فمن حق هذه الحياة على هند ان تنتزع صورة اليأس من صدرها لترى خاتمة المطاف فلعل ذلك السنى الذي التمع عاليـــاً فوق روابي مكة يحمل الى نفسها عزاء جديدا .

وعاد خيال سيد قريش يطفو على جبينها وفي نفسها حتى انمحت خيالات البؤس واضمحلت طيوف اليأس فضحكت هند للحياة من اجل سيد قريش ومن اجل ابنائها ومن اجل ليلى عمتها .

وكان الشتاء قد اكمل عمله في الطبيعة فحصدت عواصفه الحقول وانتزعت امطاره الاوراق وعرت المشاهد من اطارها الزمردي فاصبحت الاحراج عارية كأنها الصحراء واخذ البرد الشديد يرعش في نواحي السماء الشاحبة وفي الادواح. ثم تراكضت الثلوج عـــلى اصلاد جبل سنير وتتالت على الاديم تغطيه وتحجبه وثارت في الحرج ثورة العواصف فكان لها في كل ناحية من نواحيه عصف وهدير

لقد قامت قيامة الطبيعة في اعالي جبل سنير وفي سفوحه وهند على الشرفة تنظر بعينين ذابلتين الى مأتم في قلبها ثم الى مأتم في المشاهد وانها لكذلك اذا هي تبصر ناراً تندفع بقسوة وعنف من ناحية دمشق وقد حجب لظاها السماء بقناع وردي فطارت نفسها شعاعاً وراحت تحدق الى الخطوط التي ترسمها النيران في حواشي الافق فرأت خطاً مستطيلا يندفع من ناحية كنيسة يوحنـــا ثم امتد هذا الخط الناري على مدى واسع بحيث انضم الى خط جديد من اللهب قذفته ابراج قصر البريص فجحظت عيناها ورعش صدرها وانقبضت شفتاها وعقل الرعب لسانها فما عادت تقوى على النطق .

وظلت النيران على امتدادها السريع حتى اتصلت خطوطهـــا الحمراء بالجنات والافياء واخذ بريقها يحسر عن المشاهد فرأت التاعسة منارة كنيسة يوحنا تحترق ،

ثم رأت منارة تيودورا تنهار وتتداعى . وابصرت ابراج قصر البريص تتساقط كالورق الذابل ، وكان الرعب قد اخرسها فأنطقها الالم واليأس فصاحت : « لقد احرق الفرس المدينة ! احرق الفرس بيعة يوحنا الكبرى !.. احرق الفرس عمود تيودورا ، بلى لقد احرق الفرس قصر البريص ، فوارحمتـــاه لك يــا دمشق يا مدينة الاحلام المتوردة ، وجعلت تنظر الى الحريق والسحب المثلجة تتسايل على الاديم المقفر في ضاحية منين والودق المنهمر يتساقط على الشرفات والنوافذ ، ثم اغمضت التعسة عينيها حتى لا ترى هذا الحزن الذي يشمل الطبيعة والناس معا .

وتتالت على هند سبع ليال وهي على النافذة تنظر الى حصاد النار في القصور والبيع والجنات وفي الليلة الثامنة من هذه المـــأساة الراعبة وقفت هند على الشرفة جرياً على عادتها فأبصرت خطوط النار قد امتدت الى احراج معربا ومنين فهمعت عيناها تهماعاً اليما ، وقامت الى حجرة تصاقب حجرتهـــا ونادت ذينك الشيخين الغسانيين اللذين لا يفارقانها فتهافتا عليها مروعين جافلين فأرتهما خطوط النـــار المندفعة كالاتي المنبجس الى قلب الحرج .

وفي تلك الثمينة لاحت لهند مواكب القرويين وهي تصعد في ذرى جبل سنير وهضابه فالتفتت الى الشيخين الغسانيين وقالت لهما « ارأيتما الى النـاس كيف رمت بهم النار الى الجبال والازقة ؟ » فخرج الشيخان الى الضاحية واختلطـــا بالجموع الجافلة المروعة وبعد قليل عادا الى هند ناشجين شاجنين فقصا عليهـــا كيف احرق الفرس دمشق والقرى المجاورة وزادا على ذلك ان الفرس خرجوا من دمشق الى الضواحي الآمنة يريدون احراقها وتدميرها !

وسمعت هند صليل الشجر وهي تنحني وتتكسر تحت وهج الحريق وبريقه ، ثم اصغت ملياً الى صدى بعيد في الغابة فاذا عواء الذئاب يختلط بصليل الشجر وتكسر الادواح فارعدت وجفت مكانها على النافذة تريد نفسها على صلاة حارة في حجرتها ولما اخذت يدها تلك الدمية الصغيرة التي تمثل السيدة العذراء لم تجد في شفتيهـــا

كلمات تنتظم بها صلاتها فعدلت عن الدعاء للسيدة العذراء الى الدعاء لسيد قريش فانطلق لسانها بالذي سمعته في الماضي من رجال القوافل عن سيد العالم وكانت النيران قد امتدت الى بيعة القرية الصغيرة فغمرتها واجتاحت منارتهـا واذابت نواقيسها واجراسها واكلت تماثيلها وهياكلها وانصابهـا فقامت هند الى النافذة وطوفت عينيها بالبيعة فروعها ان تقطع نار الفرس صلاتها بهذا المنسك القديم الذي بنته غسان تكريما للسيدة العذراء فجعلت تنشج حتى غاض صوتها في صدرها !

وفي المساء سكنت العاصفة وتوارت السحب المثلجة فوقف الحريق عند ابواب قصر ماريه العفراء .

وفي صباح اليوم التالي انسلت هند من حجرتهـا الى حديقة القصر حيث قبور الغطاريف من آل جفنة وحيث مرقد ماوية الصغيرة ابنة مارية العفراء يقوم على مسيل الماء وكان من امتع امانيها في هذا الصباح ان تنعم باشعة الشمس وان تنظر الى بريقها وهو يخطف على ثلوج الجبال فيذيبها فتستحيل الى ماء رقراق !

ولما تغلغلت في صميم الغابة الصغيرة التي تظل الارماس فتحت صدرها للظلال والاضواء وقعدت على حافة تمثال مارية بينما ظلت عيناها تنظران الى الضاحية الغارقة في الثلج وبينما كانت مشاهد الشتاء الكامدة تلوح لها في كل ناحية من نواحي الأفق

وكانت تتأمل في الصلبان الرخامية التي زحزحتهـا العاصفة عن القبور في ذلك اليوم المضب المطير فلا يفوتها فعل الرياح المعصرات في الآثار والقصور والقبور والمدن فاشجاها ان ينزع الزمن عن الموتى هذا الرواء العاري الذي ظلل مضاجعهم وودت لو انها كانت قادرة على اتراع هذه القبور برواء جديد

ولما وقفت بها تأملاتها عند حد التوجع لمصائر الموتى قامت الى سرادق منعزل من المرمر تعلوه قبة ملونة بفسيفساء بزنطية فدخلته فاذا هي حيال مشهد رائع هز مشاعرها الراكدة فكادت لا تصدق هذا الذي رأت وجعلت تطيـل التحديق الى جوانب السرادق كأنها تريد ان تستوثق من حقيقة المشهد فرأت ذينك الشيخـين

الغسانيين اللذين يلازمانها كظلها في حياتها البائسة راكعين حيال قبر مارية العفراء فتحركت عواطفها لهما وحاذتهما حتى كاد همسها يتصل بهمس فؤاديهما وكان الشيخان الغسانيان يصليان صلاة حارة وقد انارا الشموع حيال الرمس فلاح لهند تحت اضواء الشموع الشاحبة ذلك التمثال الذي نحته المثال راماس لمارية العفراء على رمسها الظليل وكان التمثال يصور سيدة غسان الهالكة نائمة نوما وديعاً هادئا وقد تهدل ثوبها الملكي على جوانب القبر ولم تفارق وجهها ابتسامته الزاهية كأن الحياة قد فارقتها عشية الأمس .

ولما رأت هند هذا النعش الرخامي وهذه الازهار الندية التي تفاوح عطرها في افق المقبرة بجانب الشموع المحترقة ادركت وفاء الشيخين لهؤلاء الموتى الذين قادوا كتائب غسان الى النصر في الملاحم العابسة ولم يفتها ما يجول في نفسي هذين الجنديين الباسلين في هذه اللحظة من رغبات سامية وطمحات نبيلة فالتفتت اليهما وقالت لهما بلهجة مستحبة وادعة :

الم تفرغا بعد من صلاتكما ؟

فرفعا نظراتهما اليها ولكنهما لم ينبسا فركعت بالقرب منهما حيال القبر وجارتهما في خشوعهما واطراقهما وجعل الشيخان في خلال ذلك يهمسان همساً مجلجلا اخاف هندا وارعشها فوضعت يدها على رأس احد الشيخين وهزت يده صائحة « علمني هذا الذي تقوله ياشيخ الحروب ! فنظر الشيخ اليها نظرة عميقة وانبرى صائحاً :

« ما اجدرك ياسيدتي باحترام هذا الرمس فان اعلام غسان التي فيأت الجيوش والجحافل قد عادت ترعش بجانب هذا الجسد الهامد ! ؟

— ولكني لا افهم هذا الذي تقوله !

— سيدتي ! لقد احرق الفرس دمشق فجئنا الى هذا القبر نحرك راياته ، ونهز اعلامه ثم نخرج الى الحومة لنموت كما ماتت مارية العفراء وكما مات المنذر ، وكما مات عمرو بن الحارث وكما يموت جميع آل جفنة !

ـــ ماذا ؟ انذرتما الموت ؟ وفي هذه اللحظة ؟

فصاح الشيخان معاً :

ـــ نعم لقد نذرنا الموت

ـــ ولكن الملاحم قد ابادت جيوش غسان ومزقت اعلامها ، واسكتت ابواقها وهزمت كتائبها .

فلم ينبسا فاشتد بها اليأس والحزن فقالت لهما :

ـــ لماذا لا تتكلمان ؟ بل لماذا تخفيان عني هذا الاحساس الذي حفزكما الى استمراء الموت ؟

فسكتا سكوتا طويلا فانبرت قائلة :

ـــ يالليأس ! ان تلك الابواق الصداحة قد غشيها الصدأ فما عادت تعصف في سماء الشام ، وتلك الرايات الخفاقة لم تعد لها قدرة على الطواف بالآفاق فحالت الى غشاء يغطي توابيت الموتى وارماس القتلى !

وفي تلك الفينة لعلع في الابعاد الشاسعة عزيف بوق حربي فتمايدت هند من فرط الذهول وراح الشيخان يرعشان من الحماسة ، ثم تطاغى عزيف البوق حتى عاد مجلجلا في الأفق المصحي .

فصاحت هند :

ـــ اتسمعان صوت البوق ؟

فصاحا :

ـــ بلى ! انه بوق غسان !

ـــ لقد خدعكما الأمل فليس هذا البوق الذي تسمعان عصفه لغسان .

ووقف الثلاثة على باب الضريح يستمعون الى صليل البوق وقد اقترب كثيراً من منين ، ثم تعالى صوت بوق آخر من ناحية معربا فصاحت هند :

ـــ انها ابواق غسان ورب الكعبة ! كلا كلا يخيل الي انني احلم فليست هذه

الاصوات التي نسمع سوى تسجيع الرياح ، ان غسان قد دفنت ملوكها وامراءها وقوادها في بطاح الغوطة وقد ابى هؤلاء الغطاريف ان يدنس العدو الذليل رايات الوطن وابواقه فحملوها معهم الى مضاجعهم الاخيرة . .

— الا تسمعين ياسيدتي ؟ لقد غصت الاحراج بعصف الابواق ؟

فظلت هند تنظر الى الافق البعيد ، وقد توامضت على شفتيها ابتسامة حلوة وظهرت على وجهها النبيل الذي صوحه الحزن واذبله اليأس بروق فرح اكيد فطفق الشيخان ينظران اليها وهما لا يدريان باعث هذه النشوة الجديدة التي احالتها الى البشر وقد كانت قبل لحظات يائسة ملتاعة .

لقد سألها احد الشيخين :

— من عساه ان يكون هذا الرجل السعيد الحظ الذي تضحكين لصورته البعيدة ياسيدتي ؟

فصاحت متحمسة !

— انه سيد قريش ! هذه هي ابواقه تعصف في الفضاء . .

فقال الشيخان :

— نخشى أن تذهب احلامك بنفسك ورشدك !

— لست في حلم وانما انا في يقظة ، انني اشعر بخفق راية سيد قريش على جبيني في هذا الصباح الجميل الرائق ، وفوق هذا كله افلم يتنبأ سطيح لابي امريء القيس ابن حجر عن خروج سيد قريش الى دمشق ؟ الم يقل سطيح ورهبان بصرى ان نبياً من العرب يرث كسرى وقيصر ؟

وتهافتت على قبر مارية العفراء صائحة :

نهوضاً الى لقاء سيد قريش ايتها الملكة التي هزمت الرومان الى اسوار القسطنطينية ! نهوضاً الى لقاء سيد الزمن وامير العصور ! نهوضاً الى لقاء رجل الرحمة والعطف الذي يحمل المجد والنصر الى الاعلام الدفينة والجيوش النائمة ! . .

وانت ايتها الاعلام الراقدة بجانب صمت القبور الابدي خروجا من افقك الجامد الصارد الى افق تنيره شمس لا تمل الصعود في كل سماء ولا تعاف ان تشرق على البحار والجبال والخلجان والسهول . .

ونظرت نظرة تائهة الى قبور الاحبة ، الى قبر عمرو بن الحارث زوجها ، والى قبر جبلة بن الايهم واستتلت قائلة « وانت ايها المكان القاتم الذي اصطفيته ليكون خاتمة مطافي الأليم الجاهد والذي اظلني بالنحوس والبؤوس وداعا وداعا ، بلى وداعا ايها المثوى الكريم الذي اودعته كنوز حياتي وجميع ذكريات سعادتي وداعا وداعا فاني احب الخروج الى عالم جديد لا يعلوه الصدأ ! الى عالم سيد قريش الذي احب واكرم ، وهنا رق صوتها فالتفتت الى قبر زوجها عمرو بن الحارث وخاطبته بنغمة شجية !

مازلت اذكر ليلتنا الاخيرة في مغاني قصر الشعراء بداريا ! لقد قلت لي ويدك على الربابة ان اوتاري لم تعد تهتز ايتهـــا التاعسة فهي في حاجة الى نغم جديد . . وكانت يدك تفتش في صدري وفي جبيني عن ذلك النغم والمعركة تضطرم على ابواب القصر والفرس يحرقون الزروع والافياء فقلت لك في ذلك المساء الذي اوطف بهاءه واستفاض فتونه ولكن عمتي علمتني نشيد سيد قريش فهلا وعيت هذا النشيد فقلت لي بلى ، بلى ، فلقنتك تلك الانشودة البارعة ، فرحت الى المعركة لتسمع غسان عزيف اوتارك ثم غشيك الموت المرهوب وانت تنافح وتهتف باسم سيد قريش ! فياله نشيداً لذاً انار امامك طريق الخلود ، سيدي البطل نهوضاً من هذه الوحدة التي طال عليها الامد فان الافق الذي احببته قد عاد موارأً بذلك النشيد الذي انطق ربابتك الصامتة ! . .

وكانت تتكلم وابواق الحرب تعصف بالاودية والاحراج والجبـــال فخفت مقبرة القصر الى الغابة ولحق بها الشيخان الغسانيان .

ولما اشتمل عليها صمت الطبيعة اخذت تتأمل في كتيبة من الفرسان كانت توغل

في زحفها الى ناحية الغابة وقد فيأتها اعلامها وراياتها وكان الشيخان يصغيان الى همس بعيد غصت به نواحي الافق فقالت هند :

ـــ اتسمعان هذا الهمس ؟ الا تلمسان فيه روح جزيرة العرب وكبرياءها !

فصاح الشيخان :

ـــ بلى . .

وسكت الشيخان فسكتت هند معهما وراح الثلاثة ينظرون الى الفرسان وقد عبرت خيولهم اماكن الثلج واخذت الشمس تظلل اعلامهم واسلحتهم !

ثم تطاغى عزيف الابواق ، واختلطت به نغمات اثارت في الشيخين مشاعرهما الراكدة واحساساتهما النائمة فاذا قلباهما يجيشان بالذكريات والآمال والالآم واذا وجهاهما يحسران عن اشياء جميلة فتانة حتى ليستطيع من يراهما ان يقرأ في هذين الوجهين اللذين سودتهما الاحداث والسنوات والملاحم العابسة في البلاد الاجنبية تاريخ شعب عريق في دفاعه عن حرية وطنه ومستقبل ابنائه !

وكانا يرعشان من الفرح فلم تعد نفساهما مقرورتين بل عادتا مملوءتين بدفء الحياة ونشاطها حتى لقد استهوى هذا المرح الجديد الذي خالطهما هنداً واستجاشها فقالت لهما

ـــ يخيل الي ان اعراف سيد قريش قد ارتدت بكما الى الماضي .

فصاح الغسانيان ؟

ـــ هذا صحيح ياسيدتي ، ولكن هذا الانشاد الذي نسمع قد نظمه شعراء غسانيون عاشوا في هذه الارض المباركة ، ولما حسرت الغابة عن الاعلام والرايات صاح الشيخان :

ـــ انظري ياسيدتي ! انها اعلام غسان وليست اعلام سيد قريش ، فحدقت هند في الرايات البيضاء وقد استفاضت في الأفق وانثنت قائلة :

ـــ بلى انها رايات غسان وقد اخذت تمايل وتهتز لأن سيد قريش قد اعارها جناحيه ولأن هذا العصر الذي نعيش فيه لم يعد ملكا لقيصر وكسرى بل هو عصر

سيد قريش وقد عاد ملكا لهذه الشعوب التي تعيش في الشام والعراق ..

وكان الفرسان قد بلغوا في زحفهم اطراف الغابة فلحقت هند بهم حتى خالطتهم وعزيف الابواق يستفيض في الافق واناشيد الحرب تطفر من صدور هزتها نشوة الكبر والنصر وكان على رأس الكتيبة فارس صبيح الوجه عرفته هند من انضوائه تحت الراية البيضاء انه الزعيم الغطريف ، فزرفت اليه ومدت يدهـــا الراعشة الى الراية الى تظلله وحيته بتحية غسان ؟

ــ عم صباحا ياخير الفتيان (١) فاجابها الفتى المليح الوجه :

ــ عمي صباحا ايتها المرأة !

ــ ايستطيع سيدي الفارس ان يقول لي لمن هذه الراية ؟ فقال لها :

ــ هي راية غسان ، حملتها مارية العفراء الي برج قسطنطين الاكبر في معركة ادنتها من النصر ووثقت بينها وبين المجد فتغلبت على جيوش فالانس وقهرت جيوش غاليان وانستاس ! ثم حملها الحارث البطريق فطاف بها ارض انو شروان حتى ذلل من جماحها ، ولما فاتنا النصر وغابت عنا صوره ، خرجنـــا بهذه الراية الى المعركة فانتصرنا على جيوش كسرى بن هرمز .

فجعلت هند تنصت لحديثه وهي ترعش وتنشج فقال لها :

ــ اتبكين ياسيدتي ، فقالت له :

ــ ما اسمك ياسيدي ؟ ما اسمك ؟ فقال لها متواضعاً :

ــ شرحبيل بن عمرو بن يزيد الغساني من ولد مارية ذات القرطين .

فصاحت صيحة اليمة ضج لها فضاء منين !

ــ هلما الي ايها الغسانيان فان غسان القديمة قد قذفت الينا بالمساعير والغطاريف

ورددت الغابة صياحها الشديد العنيف فاذا ذانك الشيخـــان اللذان وارتهما الظلال الممتدة يطلعان عليها فاومضت بيدها الى الفارس ذي الراية البيضاء وقالت لهما

(١) كانت هذه التحية مقصورة على عرب الشام في عصور الجاهلية

ابن عمي شرحبيل بن عمرو بن يزيد !

ولم تستطع مضيا في حديثها فقد تحيفها شجن بليغ فسقطت على الارض تحت جواد الفارس فخف رجاله الى مواساتها وترجل شرحبيل عن جواده وتهافت عليها وقد غشيته ذهلة شديدة وراح الشيخان الغسانيان يجمعان الثلج ويضعانه على وجهها بدل الماء فاستفاقت التعسة فاذا هي بين ذراعي شرحبيل فنظرت اليه نظرة راجية وهمست قائلة :

ــ ألم تهزك شجوني الى الاتصال بحياتي ؟

ــ ما اسمك يا سيدتي ؟

ــ هند بنت امريء القيس بن حجر الملك الضليل .

فصاح الفارس :

ــ زوج الملك القتيل الشهيد عمرو بن الحارث ؟

وطفرت الدموع من عينيه فأنسته هذه اللقاءة المؤثرة الشجية كبرياء الموكب وبهاء النصر فتهافت على المرأة الشهيدة يهدهد آلامها ويلطف شجنها ويتحدث اليها بالحديث الرقيق العذب عن الماضي والحاضر والمستقبل وهي ابداً بين ذراعيه تنظر الى غدائره والى عينيه وتلمس ثوبه المذهب وتعبث بصليب يلمع على صدره ناسية هذا الحاضر المرهوب الذي تعيش فيه ، وكانت تلقي عليه الاسئلة الكثيرة فيجيبها على كل سؤال بلغة انيسة حلوة ولما سألته عن الفرس انبرى يصف لها خروجهم من الشام قبل ليال بعد احراقهم دمشق وقصورها ومحاريبها وذكر ارتدادهم الشنيع ولم ينس ان يذكر لها خروج غسان الى مطاردتهم من البلقاء ثم وصف لها خروج هرقل من حمص الى لقائهم في ضواحي تدمر بجيوش الرومان فلذت هذه الاقاصيص ولكنها لم تبتسم وظلت تشعر بالانكماش لأن النصر الذي ارادته عربياً صراحاً لم يكن حصاد وطنها وحده ، بل كان حصاد غسان والرومان معا .

ولم يفطن شرحبيل الى هذه الغيمة التي غشيت جبينها ولكن الشيخين الغسانيين

ادركا مغزاها فلبثا صامتين وبعد قليل دخل الفرسان الى ضاحية منين تحت عزيف الابواق وهند في الطليعة على جواد ابيض وشرحبيل يسير الى جانبها على جوادبلون الغسق وبينما كان الفرسان يغنون اغاني غسان ، بينما كانت هذه الاغاني ترعش روابي جبل سنير في هذا الصباح المصحي كما ترعش اغاني البلابل والعنادل ظلال المساء ، طفقت هند من ناحية اخرى تنصت الى قلبها الجائش الخافق كأنهـا تلذ في نواحيه نغمة خفية هي غير هذه الانغام التي تبعثها ابواق غسان ، وكانت في غرقها وسبحها تنتقل من عالم الى آخر كما تنتقل الفراشة من زهرة الى زهرة ، وكانت تبتسم وتضحك لتلك النغمة الخفية التي ما تزال تحمل الى نفسها عرف جزيرة العرب .

لقد قال شرحبيل وهو ينظر الى بيعة منين المهدمة : الا تصلين معنـا صلاة الفصح القابل في ظلال هذه البيعة ؟

فقالت له : بلى ولـكن الفصح في هذا العام ينقصه رواء الاعياد الماضية ، فان الشعراء الذين اعتادوا ان يوافوا الشام في الفصح قد حبسوا اشعارهم واغانيهم ليوم جديد

فنظر شرحبيل اليها مشدوهاً وسألها قائلا :

— واي يوم تعنين يا سيدتي ؟ قالت في كثير من الرفق والعطف:

— اعني يوم انقاذ الشام والعراق من الرومان والفرس فمتى اظلنا هذا اليوم استطاع شعراؤنا ان يخلعوا على الفصح بهاء قرائحهم واستطاع الوطن الذي نحبه ان يقبس من هذه القرائح حياته ومرحه .

وبغتة مرت بصدرها ذكرى اليمة فقطعت حديثها وتمثلت بادية ذي قار وهي تجيش بفرسان كندة وتغلب وبكر بن وائل وربيعة ، ثم عرضت لها صورة الملك الشجاع النعمان بن المنذر الذي فزع الى الحصون للدفاع عن حرية العراق فأشجتها هذه الذكرى المرة فراحت باكية فالتفت شرحبيل اليها وقال لها :

— ما يبكيك يا سيدتي ؟ فقالت له :

— يبكيني خطب الفحول في ذي قار ، فقال لها متحمسا :

اطمئني وقري عيناً فان دعاء الرجل الذي ظهر في مكة قد رد غسان الى الشام وسيرد المناذرة الى العراق .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

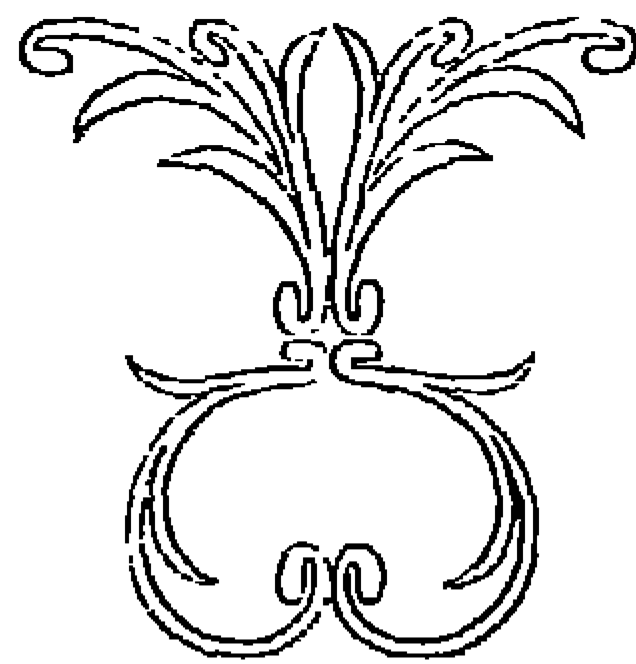
— سيد قريش ؟ اذن فقد كان هذا النصر الذي رحتموه في دمشق حصاد دعاء النبي ؟ فقال لها :

— نعم يا سيدتي .

فابتسمت هند مرة اخرى لطيف سيد قريش ولكنها لم تنبس :

ولما احتوت روعة الشفق ضاحية منين وتوامضت خيوطه الحمراء على ذرى جبل سنير ولاحت دمشق للجميع غارقة في السنى والسناء صاحت هند :

— لك الله يا دمشق يا حصن سيد قريش .؟



الفصل الخامس والثلاثون

صلاة الفصح

في ليلة من ليـالي الصيف الساجية انحسرت ابواب دير صيدنايا الرفيع الذرى عن ثلاثة من فرســـان العرب كانوا قد امضوا ليلتهم في الدير بعد طواف جاهد ، وكان لا ندحة لهؤلاء الفرسان عن ان يمروا بضاحية منين ليستريحوا في منسك من مناسكها قبل ان يمضوا في سيرهم الى دمشق .

وكان نورالقمر في هذه العشية يضيء حواشي الافق وقد غشيت الارض كدرة مرهوبة من تكاثف الاحراج والغابات وارتفاع الادواح والافنان ولكن المشاهد ظلت تتبدل وتتغير في هذه الاماكن الفيحاء فكانت الجبال تسبح في بهـــاء تماثله روعة هذه الالوان التي تترقرق في السهول والسفوح ، وكان للينابيع الموارة الثرثارة صورة لا ترى في غير العزلات المنفردة حيث يجتمع السحر والعطر وحيث يجد الشاعر فنه الخالد في سبح الطبيعة وتأملاتها ، في ضحكها وبكائها .

لم يخطيء شعراء الجاهلية في بحثهم عن الجمال والفتون في نواحي الغوطة فقد كانوا ينظرون الى جناتها من صحرائهم المشبوبة ، فكانت قلوبهم ترسم محاسنهـــا وبدائعها قبل ان تتعرف عيونهم الى صور هذه المحاسن والبدائع وقبل ان تبهرهم ومضات الطفل ونسمات الفجر .

وقد كان من حقهم ان يفتتنوا بمواسمها وفصولها وان تباينت هذه المواسم واختلفت تلك الفصول، ففي فصل الربيع يبحث هؤلاء الشعراء عن الارض العاشبة فيرون في الغوطة ظلا وعطراً وضياء ، فاذا ذهب الربيع وازفت خاتمة الصيف امتلأت عيونهم بالجمال والفتون وتراكض الى نفوسهم شذا الزنبق والآس والورد وخالط صدورهم عبير لذ من شجر النارنج والجوز واللوز فيخيل اليهم انهم

يعيشون في عدن ويجيء الخريف فتطالعهم في الافق الوان زاهية ترقرقت عليها رطوبة حلوة ناعمة فتستريح نفوسهم اليها وتلذ افناء هواجسها واحلامها في سحرها ثم يجيء الشتاء بسيله وثلجه وقره فتأنس عيونهم بشجر السرو وقد ظل فتياً ناعماً على الرغم من امواج الثلج التي تنشر الموت في كل ناحية من نواحي الطبيعة .

وهكذا يستروح ذكاء الشاعر العربي الى ابتسامة دائمة في الافق وفي الارض والجبل والسفح سواء اكان الفصل ربيعاً ام كان صيفاً وسواء اكان خريفاً ام كان شتاء

انحدر الفرسان الثلاثة الى طريق منين بعد ان خلفوا وراءهم القرى والدساكر والبيع فاستقبلتهم على مدخل الضاحية قرية صغيرة تنشقوا فيها عطراً طيباً ورأوا في سفوحها بيعة متواضعة وجواسق بيضاء .

ثم واصلوا سيرهم الى منين فأظلتهم طريق غضراء قامت على جنباتها بواسق الصفصاف فعبروها وصعدوا في طريق جبل سنير ايروا تحت ذوائب الغسق الساجي خيال دمشق الذي يرسناه اجدادهم القدماء في عصور الوثنية وعصور النصرانية

وكان احد الثلاثة في الخمسين من عمره صبيح الوجه لا يفارق جبينه الناصع البياض بهاء الرجل المترف المغضر ، وكان لباسه المذهب دليل السيادة في قومه ، وكانت هذه الاحاديث الطروبة السارة التي جعل يقصها على رفيقيه خلال هذا الطواف الباكر تنم عن ظرفه وكياسته وأدبه ولم يكن الفارس الثاني وقد سار الى جانب الفارس الاول اقل ايغالا من صاحبه في بوادي الحياة بل كانت بين الفارسين وحدة في العمر ووحدة في الملامح والصورة حتى ليخيل الى من يراهما انهما حصاد ليلة واحدة وان كان الفارس الثاني يلوح للمتأمل شديد الحزن كثير التفكير جم الآلام والهواجس .

اما الفارس الثالث فقد كان مفراحاً ناعما ، وكان الضحك الشديد لا يفارق شفتيه بل كان اكثر فهماً للحياة من رفيقيه وربما كان صدره يتسع لمباهج العالم وملاذه اكثر مما يتسع له صدر اي انسان ولدته حواء ، وكان لباسه المحلي بالزخارف

علامة على انه نشأ نشأة بارعة في الاوساط الحالية بالبذخ والنعيم وعلى انه يحب افناء ايامه في الضحك والحب والعطر .

صعد الثلاثة في روابي جبل سنير وخلفوا خيولهم في سفائح الوادي ترعى العشب في ارض مكلئة فلما بدت لهم دمشق من اعالي جبل سنير ولاح لهم نطاق الخضرة الذي يلتف بقصورها وكرماتها ومعابدها تنفسوا الصعداء وغشيت وجوههم فرحة شديدة فصفقت ايديهم للمدينة الغارقة في حرج بعيد النواحي تضيع الافهام في روائه وبهجته وصبت نفوسهم للشمس الغاربة وقد اخذت تنحدر الى ماوراء الصحراء الراعشة كأنها تصب انفاسها الاخيرة في الالوان التي يخلعها المساء على الرمال والجبال وكان لمشهد السواقي والانهار والينابيع المتفرقة هنا وهناك بين الجنات والحقول اثر بليغ في صدور الفرسان فصاح الفارس الاول :

— ارأيت ايها الشاعر الى هذه المياه الجائشة وهي تجتاز منابت الطحلب والآس مسرعة الخطى الى غابات دمشق واحراجها ؟ فهز الشاعر المخاطب رأسه وانبرى قائلا

— نعم وستحمل هذه المياه اعراف دمشق وعطورها الى الاماكن التي تستهوي الشعراء ! ثم التفت الى الفارس الثاني وقال له :

— الا تشاركني في رأيي ياسيدي ، فصمت الفارس ولم يتكلم ولكنه اخذ ينظر الى منسك مقفر قائم على هضبة جبل سنير ففطن الشاعر الى الهواجس التي تتجاذبه فقال له :

— كأن عالم الشعر لايعنيك ياسيدي حتى اجتذبتك الهواجس الى المناسك ؟

فضحك الفارس الاول ضحكة مرة وقال :

— دع امية يبحث عن الدعة في ظل المناسك والبيع فان عالم الشعر وهو عالم كثير الصخب لا يروقه ولا يحمل الى نفسه المتبرمة بالعيش شيئاً من العزاء فقال الشاعر للفارس الاول .

ولكن جو هذا المنسك المقفر شديد القر وما اظن النفوس التي تعاف الحياة

وتكره عجيجها وضجيجها تستسيغ العزلة في امكنة لا تتسرب اليها اشعة الشمس !

فقال الفارس الصامت الشديد التأمل لرفيقيه ان مطافي الجاهد قد انتهى بي في هذا المساء عند ابواب هذا المنسك فاصبح من حقكما ان تبحثا عن الشمس والحب والعطر في جنات دمشق ، وداعا ايها الرفيقان وداعا !

فقال الفارس الشاعر واسمه حسان بن ثابت :

— ماذا أتريد ان تمضي الى المنسك الخالي فتدخله ولا تخرج منه وانت سيد ثقيف وشاعرها الفحل ؟ اتدري مايقوله الناس اذا ما احتواك صمت المنسك وسكونه سيقولون ان اميه بن ابي الصلت عاذ بالصوامع لأنه استحيا ان ينظر الى ضياء الشمس

فقال اميه : ولكن احزاني كثيرة ياسيدي الشاعر وليس في مقدوري ان اطل بها على عالم يموج بالحياة الراغدة الرافهة ! لقد حسرت لابي سفيان عن ارادتي في الوحدة فليس لاحد ان يردني عنها :

فقال ابو سفيان آسيا : ناشدتك الله ان ترجع عن عزمك فلا تدفن ايامك واعوامك بين جدر هذه المنسك الدكناء ، وانه لخير لك وانت الشاعر النابه ان تفتش عن الحب والعزاء في الغابات والاحراج والجبال حيث الشعراء امثالك يجدون في الطبيعة الحب والعزاء .

فقال امية : ولكني في حاجة الى البكاء على قتلى بدر (١)

فزفر ابو سفيان زفرة حارة واخذ ينظر الى امية نظرة راثية متوجعة . ولم يشأ حسان ان يتكلم احتراماً لهذا الجوى الشديد الذي هد امية هداً ولكن الشاعر الذي اخرست الحانه وتغاريده الحان القرشيين وتغاريدهم ظل ينظر الى دمشق الغارقة في بهاء المساء كأن هذا الفتون الذي يترقرق على المدينة القديمة قد عاد يبهره

---

(١) وقعت معركة بدر بين قريش واصحاب الرسول بعد عودته صلى الله عليه وسلم من المدينة وقد قتل في هذه المعركة شيوخ قريش وصناديدها ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وامية بن خلف وابو جهل بن هشام وغيرهم من شيوخ قريش

بهراً وكأن هـــذا الربيع الذي لم يتبدل ويتغير على السنين والايام قد ايقظ فيه احساساً جديداً فاثارت وقفته على ذرى سنير وقفة ذلك الفـــاتح الاغريقي الذي حسرت عنه ارض وطنه فجاء الشـــام ليبحث عن الكنوز والطرف والعجـائب فلما خرج طيف دمشق من غيوم الصبـــاح اخذه سحر شديد فنسي روعة الفتح وازرى بنشوة النصر ولكنه لم ينس افق دمشق الضحيـان ذلك الافق الذي علق بروحه شيء كثير من سحره وسكره .

ولم يكن حسان غريباً عن دمشق ولا بعيداً عن كرماتها وجناتها وانهارها بل كانت له في البلد الساحر ذكريات حب وهوى ولقاءات صبابة وجوى ، وكان له في كل روضة من رياضها الفيحاء وتحت ظل كل شجرة من اشجارها الفنواء همس لذيذ وترجيع شهي ، وكان يرتادها في فصول الصيف ويسبح في آفاقهـا الى جانب اطيارها فتختلط اغانيه بأغاني عرائس الفضاء وتمتزج زفراته بزفرات الهواء ، ثم يعزف عنها في فصل الشتاء الغائم فتحتويه ارض الحجاز ، ثم يعود اليهـا في الربيع فيرى الى زهرها مونقاً جديداً ، ويستمتع بشبابهـــا حلواً طريفاً ويضحك للاماني المعسولة على اطراف انهارها ويفتح عينيه للاحلام يثيرها في صدره عناق لذيذ بين ذراعي حسناء لعوب .

لقد مرت بزياراته وذكرياته ايام واعوام ، وتتالت على دمشق بؤوس ونحوس فلم تنسه الايام زياراته وذكرياته ولم تلهه الاعوام عن التفكير في بؤوس دمشق ونحوسها وظل صدره الذي ردد في الماضي اغنية دمشق في الهناء يردداغنيتها في العزاء

ومنذ ثلاثين عاماً هبط حسان ارض الشام وساح في اطرافها وجناتهـا فاكرم ملوكها وفادته واحسنوا ثوابه فانطلق الى دمشق يطوف بجناتهـا وبيعها وقصورهـا ويستعذي عزلاتها وخلواتها ومنذ ثلاثين عاماً لقي الشاعر على ابواب كنيسة يوحنا الكبرى ابا سفيان بن حرب الاموي ، وامية بن ابي الصلت الشاعر وكانا قد خرجا في تجارة الى الشام فلحق بهما وزار معهما منسك بحيرا الراهب وانصت الى حديثه

عن نبي يخرج في العرب ويمشي بهم الى عبادة صافية وحرية مثلى ومجد اكيد فاستجاشه الحديث ورجا ان تدرك ايامه هذا النبي ، ثم عاد الى وطنه في الحجاز ليشهد فجر النبوة في مكة .

ومرت به الاعوام ، فاذا هو يخرج من مكة الى الشام وقد افعم صدره وروحه بشذا النبوة واطمأن الى مستقبل قومه اللامع في بلاد الانهار والظلال بعد انكسار قريش في وادي بدر وفي مكة وبعد ان شهدت عيناه سيد قريش وهو يطوف بالكعبة محطماً اصنامها وتماثيلها .

وفي هذا المساء بعد ثلاثين سنة يقف حسان على ذرى جبل سنير عن كثب من رفيقيه القديمين ليستمتع بخيال المدينة التي احبها بينما ذكرى بدر الاليمة تقرض نفس امية بن ابي الصلت ، وبينما بعض هذه الذكرى يوقظ في روح ابي سفيان شيئاً كثيراً من الارتماض .

لقد أمل أمية في النبوة ، فأخفق في هذا الذي أمل ، فعاذ بأرض الشام بعد جلاء الفرس عنها يريد نفسه على عزلة مديدة في منسك بعيد رجاة ان يغيب في سكونه وصمته هواجسه ونزواته فلما عرضت له المناسك المنعزلة في جبل سنير استهوته اعراف المساء الى الوحدة فطفق يتلمسها في المعبد الدارس وابو سفيان يريده على الرجوع الى الوطن فلا يسمع وحسان يلهو بالنظر الى المشاهد البارعة من غير ان يهزه بعض هذا الشجن الذي يعتصر نفس امية التعس . ولما احتوى الغسق جبل سنير وغيب في لحمته ضاحية منين وامتد الى دمشق التفت ابو سفيان الى امية وقال له :

— لعلك قد ازمعت البقاء هنا في هذا المنسك الدارس ؟ فحنى أمية رأسه وقال بلهجة حزينة :

— نعم !

فقال حسان :

يا لتعاستك اذ ستدفن ما تبقى من ايامك واعوامك في هذه الجبال الصاردة

البعيدة عن سنى الشمس بينما يخرج وطنك الذي ظل حبيساً في الصحراء الى العالم ليسمعه صوته ، فغامت عينا امية ومضى يحدق في وجه حسان تحديقــاً شديداً ثم همس قائلا :

ولـكني سأنصت لصوت وطني وانا في هذا المعبد المنفرد وسأفعم قلبي بهذه الارتعاشات التي تحرك راياته واعلامه فلا تفوتني وانا احس هذه الارتعاشات التي تفعم قلبي ومضات الفجر وهي تخطف على جبــال جزيرة العرب وصحراواتها .

ــ ودعاؤك ؟ لمن سيكون دعاؤك ؟

فرعش امية رعشة عنيفة ودنا من باب المنسك وقد تهيأ لدخوله ثم اردف قائلا:

ــ سادعو في وحدتي هذه للجيش الذي يحمل الحرية الى الشام والعراق، والآن وداعاً ايها الرفيقان وداعاً لا لقاء بعده . ولم يكن في مقدوره وسحب الاحزان تغطي جبينه ان يمضي في احاديثه ، فعبر المنسك راجفاً واجفاً ووقف حسان وابو سفيان على باب المعبد الذي تغطيه الحشائش والاعشاب يستمعان الى نشيجه .

وكان النشيج شجياً فأعرض ابو سفيان عن المعبد ومال الى ناحية الطريق التي تدفع الى السفوح واردف :

ــ يا للتعس !

وبعد لحظات وقف حسان ورفيقه حيال قصر مارية العفراء فلاحت لهما انواره ومصابيحه فالتفت الشاعر الى سيد بني امية قائلا :

ــ غداً عيد الفصح ايها السيد افلا تحب ان تبارك لغسان فيه ؟

فقال ابو سفيان هامسا :

ــ بلى !..

وفي خطفة البرق اخترق الرفيقان غابة القصر الصغيرة تحت ذوائب الغسق .؟.

الفصل السادس والثلاثون

رايات ذي قار

تعالى صخب الاجراس في فضاء الضاحية قبل ان تحسر غيوم الصباح عن الشمس واخذ القرويون يفدون على البيعة من جميع النواحي وقد نذروا في هذا البكور الضحيان ان يعيدوا الفصح لأول مرة بعد ان منعهم النرس هذا العيد في خلال اعوام عدة ، وكان مشهد القرويين وهم يردون منابت الزهر والورد من اروع المشاهد ، فلقد توامض على وجوه هؤلاء السذج الذين حبتهم الطبيعة صفاءها وطهارتها بريق لم يعرفوه في غابر امضوه ملتاعين ماحلين مروعين ، وكانوا في طريقهم الى البيعة ينحنون على المنابت المتأرجة فتقطف ايديهم الراعشة ورداً ذكياً ونسريناً شهياً وريحاناً نديا ، ثم يجمعون هذه الازهار الى ازهار تنوعت اسماؤها ، واختلفت الوانها فاذا هي في ايديهم طوائف من الالوان والاصبغة ،ثم يمضي هؤلاء الى البيعة وادعين ناعمين حتى اذا احتواهم سكونها وغشيهم صمتها زخرت نفوسهم بصلاة هامسة حلوة عذبة وراحوا ينثرون هذه الاوراد الفواحة على المذبح ، ثم يخرجون من البيعة الى جنات منين فينتشرون بين مغارس الزنبق ومنابت الورد وخمائل الآس ويختلطون بعذارى غسان وفتيات تغلب وبكر بن وائل وربيعة ، ثم يمدون الموائد تحت افياء النارنج وظلال الجوز والرمان .

وكانت وفود معربا وبرزة وضواحي الغوطة تتدفق على هذه الجنات حتى اشبهت في تكاثفها وتكاثرها بحراً ثائراً مغتلماً وحتى خيل الى رائيها ان الارض قذفت بأبنائها الى هذه الضاحية العاشبة .

لقد كانت اغاني هذه الجموع المستبشرة الناعمةسائغة كنفوسهم ،حلوة كنظراتهم وكانت من صنع شعراء معروفين في الشام والعراق وجزيرة العرب ، وكان اسم

النابغة الذبياني يخرج من افواه الحسان حلواً عذباً فتردده افواه الفتيان حلواً عذباً ولا يأنف الشيوخ من ترديده حلواً عذبا ، ثم يتهافت المغنون على الغناء فيمزجون اسماء الشعراء بأغانيهم وأناشيدهم ويشم الناس في الشعر الخالب عبق امرىء القيس وطرفة وعنترة وحسان بن ثابت شاعر غسان في الجاهلية وشاعر النبي في الاسلام

جنت منين في الصباح جنوناً مخوفاً وابى شيبها وشبانهـــا ان يظل رواء العيد مقصوراً على عرف الزهر فأضافوا اليه عرف الشعر وقامت الطبيعة بنصيبهـــا في الفصح فنشرت اعراف الجبال والسهول حلوة سارة طروبة كأحلام الاطفال .

بلى لقد كانت بطاح الشام كلها في مثل هذا الجنون اللذ ، وكان العالم الذي يعيش في دمشق منزوفاً مغتمراً كهذا العالم الذي يعيش في القرى والضواحي .

يخفق صوت الناقوس في دمشق فيروح مجلجلا في الافق البعيد فتجيبه اصوات النواقيس في برزة والقابون ومعربا ومنين والناس في الازقة والشوارع والجنات يسمرون ويضحكون ويرقصون .

في هذا الصباح الناعش اشرف على منين من الضواحي المجاورة شبح أناف على السبعين عاما ، وكان يخترق الازقة والاحيـــاء متوكئاً على عصا غليظة من خشب البلوط وقد تأبط خريطة لم يبن ما تحتويه ، وكان يخفق الارض بعصاه خفقاً عنيفاً ويلقي نظرات تائهة الى منارة البيعة المهدمة فيحدق اليهـــا تحديقاً شديدا ، ثم يعود فيتأمل في الغابة الفيحاء التي تحدق بقصر مارية العفراء ويظل غارقاً في سبحه وتأملاته حتى يعي مشاهد القصر وحتى تنطبع صور الابراج والقناطر والحنـــايا في صدره فيحني رأسه راعشاً ثم يعود كرة اخرى الى التحديق في منـــارة البيعة فيهزه صوت الناقوس فتميد روحه ميداً ويروح هاتفا :

« لقد تأخرت في الطريق وكان علي ان ابلغ منين قبل بزوغ الشمس لأشترك في مفارح غسان » . ثم يسكت ويحب التأمل في المشاهد المـــاثلة فيهزه صوت الناقوس فيستفيق راعشاً وينثني هامساً :

« يخيل الي ان جرجرة المـــاء في بردى الهادر عادت تفعم روحي باحساسات متغايرة ، يا للذة ! يا للروعة ! بل يا لهذا الصباح المـــاتع الذي حمل الى جبيني الناحل اعراف الوطن حتى صرت اشعر برطوبتها .

هذه هي البيعة القديمة ! وهذه هي الغابة ! وهذا هو القصر وتلك هي طريق دمشق ! ليخيل إلي ان عيوناً كثيرة خرجت تنظر إلي من البيعة والقصر والغـابة ! وكأني بها تريد ان تطالعني بأشباح ذلك الماضي السعيد الذي تصرم ! اي جبل سنير المتوج بالثلج والضريب ، دعني ادفن هذا الميت الذي احمله في صدري في ذرواتك! نعم دعني الحد هذا اليأس الذي جمد في نفسي هنا في صعيدك البارد .

وعاد الشبح يخفق الارض بعصاه وقد شق طريقاً الى الغابة ، وكان يتدفق في سيره ولـكن صوت الناقوس ظل يرعد في افق الضاحية فتمهل في سيره واصغى الى الصوت وهو يهمس :

« اربعون يوماً مرت بي وأنا اجوب الصحراء كظل هائم ! اربعون يوماً مرت بي وهذه النفس التي في جنبي تحمل ميتاً اسمه اليأس ! اربعون يوما ! هذا كثير نعم اربعون يوما ! واربعون ليلة وصدري لا يشم غير رائحة هذه الجثة التي اودعتهـا اياه اربعون يوماً واربعون ليلة ! يا للعبث ! يا للهزء ! وأخيراً أفلم يحن للميت ان يخرج الى الشمس ليتطهر ؟

واخذ الشبح يضحك ضحكا مجلجلا وعيناه تنظران تارة الى البيعة وتارة الى قصر مارية العفراء ، ثم ألوى برأسه الواء شديداً وصاح :

اربعون يوماً ! واربعون ليلة ! أبعد هذا كله زيادة لمستزيد ؟ أربعون يوماً واربعون ليلة .. هذا كثير يا رباه .. نعم هذا كثير ..

ورمى الشبح بعصاه الى الارض وراح يضع خريطته بالقرب منه ، ثم جثـــا جثواً أليماً وانحى ناحية الـكعبة وطفق يصلي ولـكن صلاته كانت على غير ما ألفه الناس في منين وفي الضواحي الاخرى .

لقد كانت صلاته بسيطة متواضعة ، بدأها باسم الله واختتمها باسم سيد قريش ، ولما فرغ من هذه الصلاة البسيطة المتواضعة وثب الى خريطته فتأبطهـــا وعاد الى عصاه فلوح بها في الهواء ثم انحدر الى الغابة يريد قصر مارية العفراء .

وكان الناس يمرون به وهو يطوف المنابت المتأرجة فينظرون الى سحنته المتغضنة ويتفرسون في عينيه الهامدتين ولا يفوتهم ان ينظروا الى خريطته وهو يتأبطهـــا وحرص على ان لا تمس منه حرص الناسك على كتاب صلاته ! بل لقد كان الناس يتساءلون عن هذا الشبح الاسوان الذي هبط القرية في صباح الفصح فكان ظهوره في سماء العيد المصحية غيمة باردة ! ..

من اين جاء هذا الطيف الاخرس ؟ ولماذا ينظر هذا الرجل المحزان الى وجوه اصحاب العيد هذه النظرات المبللة بالدمع ؟ بل لماذا تسترعي اصغر الاشياء في الغابة تأملات هذا الشبح وتمنعه ان يمضي في طريقه ؟

لقد تعددت اسئلة السائلين ولكن جميع من اظلتهم هذه الضـــاحية النشوى لم يكونوا يتوجعون للطيف ماخلا نساء الضاحية فقد كن شفيقات رحيمات فاثر مشهد الطيف البائس في نفوسهن فجئن اليه ، ورحن حائمات حوله يسألنه عن شجوه ويأسه وهو ينظر اليهن مسفوعا مقروراً ..

لقد قالت امرأة من غسان لاترابها ويحكن الا تبصرن على هذا الوجه الذابل خيال امرأة ؟ وقالت اخرى : ان في سحنة من تحدثنه عرف حواء ، وقالت ثالثة ! بلى ورب الكعبة ان من تحدثنه لامرأة ..

وكان الطيف ينظر الى وجوههن وهو يضحك ضحكة اليمـــة ، ثم لم يلبث ان لوح بعصاه في الافق وانثنى قائلا :

— من قال لكن انني امرأة يابنات حواء ؟

فقالت واحدة منهن لاترابها !

— الا ترين الى وجهها وقد غشيته كدرة مخوفة .. وقالت امرأة ؟

— توارين عن هذا الطيف الاخرس فليس النظر اليه مما يروق ويبهج !

وصاحت اخرى :

— يالمشهدها القبيح ، يالمشهدهـا القبيح ،

وفي خفة البرق انتشر الهمس في الفتيات المرحات فغامت نفوسهن ورحن جافلات مروعات وايديهن على عيونهن مخافة ان يطرقهن هذا الخيـال الراعب ولكن الطيف الذي التاع لهذه البادرة السيئة في صباح الفصح ظل يضحك وكان ضحكه مخوفا ثم جعل يبكي ويهمس :

واويلتاه ! في بزنطية ارعشت صورتي الناس فراحوا يقولون « ليس بشراً هذا الذي نرى وانما هو شيطان رجيم ! وكنت احمل في نفسي جميع هذه السلائق الطيبة التي تزخر بها نفوس الناس وكان ضحكي على مثال ضحكهم وان كانت الآمهم ليست لها صورة آلامي الهادمة ! واويلتاه وواحزناه ! في بزنطية اتهمني ضعاف النفوس بالسحر والعرافة ، فاصبحت حياتي كاللجة الطـاغية لا تعرف دعة وصفوا ، وفي مكة احاطتني قريش بالريب ونشرت على حاضري المرهوب غمـامة شبيهة بتلك التي اظلت مـاضي الاليم لجفوت البـلد الاقدس ولكن الى اين يانفسي رمت بك لجج الاحزان ! ؟ الى ذي قار بلى الى ذي قار ! ولكني في ذي قار تعرفت الى العدل فنظر الناس الي كما ينظرون الى نفوسهم ، ورأوا في المي الهادم شريكا لآلامهم وقد كان طبيعياً ان يشعر الناس في ذي قار بهذا الذي احسسته لأن للالم قوة بارعة على فهم الالم وقد كان عذر الذين اضطهدوني في مكة انهم لم يعرفوا الالم . ثم عدت الى البلد الذي احب بعد سنوات امضيتهـا في الاغتراب والعذاب ، فاذا هؤلاء الذين احببتهم فوق كل حب ينفرون من سحنتي كأن الآمي الماضية لم تتفجر من نفوسهم المعذبة ، نعم انني امرأة ! وفي وجهي الذي الاعته الصحراء قروح ترعش المتأمل ، ولكن في نفسي من جمال الفضيلة ما ليس في نفوس اكثر الناس ، ويلكن يا بنات غسان ألى هذا الحد قد أخافكن مشهدي انا التي حملت احزان

غسان الى كل صدر وقلب ؟

وكانت تتكلم بصوت عاصف فسمعت كلماتها الاخيرة امرأة في الاربعين من عمرها كانت على مقربة من مسيل الماء في الغابة فنهدت اليها وجعلت تتفرس في جبينها الفاحم فأرعشها هذا الحزن الذي عليه وصارت تشعر برقة غريبة فدنت منها حتى حاذتها ، وفي يدها حزمة من زهر فواح فقالت لها بلهجة حلوة ناعمة :

— سيدتي ! لماذا لا تحملين شيئاً من الزهر في هذا الصباح ؟

فأثرت لهجتها في نفس المرأة الاسيانة فقالت لها :

— لقد وصلت الى منين في العشية الماضية ولم اكن ادري ان الناس يعيدون الفصح .

— هل انت غريبة عن البلد ؟

فلم تنبس فأردفت صاحبة الزهر قائلة :

— من اي البلاد انت ؟

— من جميع بلاد العالم .

— سيدتي ! ان احزانك قد اثارت في نفسي احساسها الراكد فهل لك ان تصارحيني باسمك واسم اهلك الاقربين فلا اتردد في مشاطرتك بعض هذا الاسى الذي تشعرين به .

— لخير لك ايتها المرأة الفاضلة ان لا تكلفيني امراً لا اطيقه فان اسمي الذي ترغبين في معرفته ليس لي بل هو ملك اناس لا تعرفينهم .

— احرصي على اسمك ان كنت تريدين اخفاءه ، ولكنك امرأة وقد امضك التعب فمن حقي ان اشاطرك بعضه .

— وكيف ؟

— ان بيتي قريب من هنا وفي وسعي ان اقودك اليه فتستريحي في ظله .

— شكراً لك يا سيدتي ، ولكني كما قلت لك امرأة لا تملك شيئاً من امرها .

ورأت المرأة التي تحمل زهراً انها لا تستطيع الانة هذا القلب المعذب فزهدت في طرح الاسئلة ولـكنها احبت ان تهدي بعض ازهارها الى هذا الشبح الضاوي فقـالت :

ــ ربما كنت في حاجة الى الورد ؟

فتأوهت المرأة واخذت تنظر الى الازهار نظرات مفعمة بالالم فقـــالت لها صاحبة الزهر :

ــ ألم تشتركي في صلاة الفصح في هذا الصباح؟

ــ صلاة الفصح تقولين ؟ بلى لقد صليت .

ــ اكانت صلاتك في البيعة ؟

ــ كلا !

ــ اين ؟

ــ صليت هنا على هذا الاديم ، في معبد ليس له سقف ولا جدار .

ــ تحت غيوم الصباح ؟

ــ نعم !

ــ لمن كان دعاؤك يا سيدتي ؟

فصاحت المرأة صياحاً شديدا :

ــ لسيد قريش يا سيدتي . .

فامتقع وجه صاحبة الزهر وانطلقت تعدو في الغابة والطيف ينظر اليها مبهوتاً واجما

ترى لماذا ارعشها اسم سيد العالم ؟

طرحت المرأة على نفسها هذا السؤال فاستعصى عليها ان تجد له جواباً فهزت رأسها من فرط الالم وتابعت سيرها في طريق قصر مارية العفراء .

ولما جن الليل وقفل الناس الى بيوتهم ودورهم وخلت الغـــابة الصغيرة من روادها جلست المرأة الاسوانة على صخر يشرف على القصر فانحسرت امامهـــا

الابراج والحنايا والقناطر ورأت على ضياء الكواكب تماثيل الملوك والقواد من غسان فأثار هذا المشهد الغاسق في نفسها كثيراً من الاحلام فخيل اليها ان روابي جبل سنير المتوجة بالثلج بدأت تقذفها بالاشباح والصور فأرعدت واخذت تلتفت ذات اليمين وذات اليسار فأرعشها حفيف الورق في الغاب وخيل اليها ان اشباح الموتى ماثلة في الجذوع وفي الاغصان وفي الارض . وتضاعف الحفيف فتضاعف خوفها ولكنها تماسكت واظهرت صلابة عنيفة في مطاردة الهواجس المرة التي زحمت صدرها ولما تطامنت عادت تنظر الى سلالم القصر وقد امتدت عليها الدمى والتماثيل ففكرت في ابتكار كلمات تقولها فما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وكان مثلها مثل ذلك الشاعر الذي فاتته القوافي فعاد يبحث عنها في كل ناحية من نواحي ذكائه .

ثم تطاغى الغسق عليها وامتدت ظلاله امتداداً مخوفاً فجفت الصخر وراحت الى ناحية القصر فوقفت تحت افياء النارنج وجعلت تهمس همساً شديدا :

« ما اجدرك بفهم اسراري ايها الليل الغاسق ؟

ولما الفت باب القصر مفتوحاً عادت الى همسها الموجع :

« سأمضي في هذه اللحظة الى القبر الذي اظلك يا عمرو بن الحارث ، يا احب ذكرى الى نفسي ، وسأقعد على الرخام لأسمعك اغنية الابطال الغطاريف في ذي قار وسيرى الذين يمرون بي في هذه اللحظة انني لم احمل الى دمشق بقايا العالم المنهدم بل سيرون انني جئت اليهم بالعالم الجديد ، عالم سيد قريش .

وظلت على باب القصر حتى نصف الليل وحتى انطفأت الانوار في الاروقة والمقاصير . وكان الصمت العميق يغشي الجبال والسفوح والغابة فوطئت ارض الحديقة ونظرت كرة اخرى الى الافق وهي تهمس :

ـــ الآن يحق لك ايتها المرأة المنكودة الحظ ان تنفضي عنك ذلك الرداء الغاتم الذي لبسته ليلى الساحرة لتلبسي رداء ليلى الكندية ابنة عمرو آكل المرار اذ لاينبغي لك وقد حملت اسم سيد قريش الى ذي قار ان تجوسي ارض غسان المقدسة ذليلة

خانعة مهيضة الجناح .

ولم تقل اكثر من ذلك ، بل ظلت تتوغل في حديقة القصر تحت ذوائب الشجر حتى عرضت لها القبور المرمرية فراحت يدها تجس القبور ، وأخذت تقرأ الكتابات المنقوشة عليها بصوت ضعيف .

« هذا القبر المنفرد ، هو قبر يزيد بن عمرو ، وهذا القبر الذي تظلله اشجار البلوط هو قبر الحارث الاكبر ، وهذا القبر الذي تغطيه الرايات هو قبر مارية العفراء

وكان نصب مارية يمثل ملكة غسان وهي نائمة في لباسها الحربي فمضت ليلى تلثمه في كثير من الخشوع ، ثم جفته وجاءت الى قبر عليه قبة من الفسيفساء الملونة فقرأت نقوشه بصوت ضعيف « هنا يستريح عمرو بن الحارث ملك غسـان الشهيد » ثم همت بصياح فثناها عن ذلك خوفها من ايقاظ النيـام في القصر ، فعلقت بالصمت وراحت الى خريطتها فوضعتها على الرخام وانحنت عليها والقمر ينير وجهها المسفوع المقرور وانتزعت منها رايات حمراء وبيضاء وسوداء ، وكان اكثر هذه الرايات ممزقاً باليا . فنشرتها على القبور واستبقت راية واحدة فنشرتها على عصاها وراحت تقبض عليها بيدها اليمنى ، ثم جلست على قبر عمرو بن الحارث وطفقت تتحدث اليه :

« الآن اصبح في مقدورك يا سيدي البطل ان ترى الى هذا الالم الذي يخطف على وجهي . انه في غير شك الم لا تقاس به آلام الدنيا .

« في ليلة طخياء من ليالي المنفى خرجت الى صحراء ذي قار فاذا انا عن كثب من ماء دافق هادر . فجلست اليه انصت الى خريره واصب تأملاتي في صفحته الرائقة فخيل إلي ان نفسي ماثلة في زواخره فنظرت الى لججه فاذا نفسي تريني من خلال الماء جراحاتها فأرعدت وجفوت مكاني على الماء وانحيت ناحية ذي قار فاذا صحراؤها المرهوبة تحمل الي صورة غسان وقد مضت تستبسل في سبيل حريتها .

وعلى اضواء الكواكب ذكرت خروجك من قصر الشعراء الى الحومة فتمثلت وقفتك بجانب تلك التعسة هند ، وكانت قد حملت اليك انضر ازهـار الغوطة ،

فوضعت رأسها على كتفك وقالت لك هذه اورادي فانطلق بها الى الحومة ولكن حذار ان تذبل الحياة في نفسك قبل ان تذبل هذه الاوراد على صدرك .

ومضيت الى الحومة ، فكنت غسانياً في حسن بلائك وجميل نضالك ولكن ورد نفسك ذبل قبل ان تذبل اوراد هند .

يا للبؤس ! لقد فكرت في زهرتيك ، زهرة شبابك ، وزهرة الحقل ، فأمضتني هذه الذكرى لجفوت ارض ذي قار لأرى مساء حياتك في ارض الشام وجئت اليك بالاعلام المنتشية من فرط النصر فلعلها تهز رفاتك الى الحياة .

والآن في مقدورك ان تشم في هذه الرايات النائمة عبق النصر الذي ربحه قومنا على الفرس في ذي قار .

أي سيدي البطل لقد كان اسم سيد قريش انشودة المحاربين في ذي قار فلم يفتهم النصر فأدركوه غضاً جنياً وآب العدو القديم مخضوب الظهر بحناء .

صفحاً يا سيدي ! فليس في طاقة امرأة اعتصرها الالم وهدها النوى وصوحها الكبر ان تصف لك روعة النصر فاذا اردت بياناً اعذب من بياني فدونك هذه الرايات التي تغطي رمسك فاسألها فان في هذه الحروق البادية عليها بياناً حلو المذاق .

وبغتة خفت صوتها فأخذت تنصت لوسوسة الماء في الينبوع الدافق الهادر ، وكانت اشعة القمر تضيء حواشي الليل ثم تنحدر الى الينبوع فتصبغ ماءه بألوان شديدة الفتون فاستعذبت التعسة خرير الماء ولمست فيه لذاذة الاناشيد التي اثارت حماستها في ذي قار .

وانها لفي غرق اذا هذا الليل المديد ينقل الى اذنها صوت بوق يعصف في ذرى جبل سنير فأنساها ترديده جرس المياه العذب فاستوت في قعدتها على القبر ونظرت الى ناحية الجبل فلمحت من خلال الشجر خطاً مستطيلا من ضياء احمر ورأت اشباحاً وطيوفاً تتمايل وتتحرك في الارجاء البعيدة فجفت مقعدها على القبر وتسلقت جدار الحديقة رجاة ان لا يفوتها جمال هذه المشاهد .

وتطاغى صوت البوق ، ثم تلا ذلك عزيف حربي جميل فحدقت في الجبل وفي الافق وطفقت تسأل نفسها عن معنى هذا العزيف الحربي الذي سمعته للمرة الاولى بعد سنوات امضتها في المنفى والاغتراب .

ثم تخافتت بصوتها « رباه امن الممكن ان يكون هذا الذي ارى حلماً اثارته احزاني المرة ؟ »

ولكن التعسة لم تكن تحلم بل كانت تنظر بعينين ذاهلتين سادرتين الى ذلك الضياء الاحمر وهو يرتمي على قنن جبل سنير فيصبغها بالالوان كما تصبغ اشعة الطفل امواج البحر البعيدة .

واخذ صوت البوق يترع الافق والغابة والبيعة الصغيرة والمناسك المنفردة القائمة على الذرى والسفوح فالتمعت عينا ليلى بوميض غريب ووضعت يدها على صدرها الخافق فاذا هذه اليد تلمس في ذلك الصدر المقرور الف انشودة والف نغم فتمايدت من الحماسة وفتحت فمها تحت ذوائب الغسق وانشدت ذلك النشيد الذي تعالى في سماء ذي قار ، وصوت البوق لا يزال عصافاً بالجبل والغابة والقصر والبيعة والمناسك ، وذلك الضياء الاحمر الذي ابصرته على الذرى ينحدر سائغاً عذباً الى سفوح الاودية ، ثم أخذت تهز الراية التي استبقتها في يدها كأنها لا تزال في الحومة وكأنها تلوح بها للحماة والذادة ، وفمها يقذف في سمع الليل ذلك النشيد الحربي الذي قاله الاعشى الشاعر في ابطال ذي قار .

لقد استجاشت اغانيها الفضاء ، فحمل الصدى صوتها الى الارجاء البعيدة فخيل اليها ان الارض التي ابصرتها في الصباح خلاء من الفرسان عادت تطفح بالجيوش والجحافل ، فأوغلت في الغناء واوغل الصدى في الترديد وجعلت تتحدث الى خيالات بعيدة واشباح متوارية في الظل وهي لا تدري انها تهذي ولا تعلم انها توشك ان تجن .

وكان الضياء الاحمر الذي ابصرته ممتداً على الجبال خيال المشاعل يطوف بها

حرس الضاحية على البيوت والدارات ايذاناً للناس بالفصح ، وكان صوت البوق علامة على ان الليل قد نصف .

ولما غشي الصمت الغابة والجبل والقصر وتوارى الضياء الاحمر خلف ظلال الشجر الشاحبة هدأت هذه الثورة التي قامت في نفس التعسة فتراءت لها الاشياء في لباسها الحقيقي فاستحيت من خواطر نفسها وعلمت انها في ضاحية منين على ابواب دمشق وليست في بادية ذي قار تحت رايات شباب قومها المنتصرين على الفرس في اكثر من عشرين معركة .

ثم بدا لها انها كانت تهذي وانها كانت تخطيء في تفسير الاشياء التي كانت تلوح لها فليس من شك ان ذلك الضياء الاحمر الذي ابصرته يترقرق في كل ناحية من نواحي جبل سنير لم يكن غير خيال الكواكب وان ذلك الصوت العذب الذي استجاشها وحرك لسانها بالنشيد كان ذلك الغناء الخفي الذي تحدث الشعراء عنه في احلامهم وهواجسهم .

وجفت مكانهـــا على الجدار وجاءت الى المقبرة فقعدت على رمس عمرو بن الحارث والراية لا تفارق يدها .

وفي تلك الفينة عصفت ريح حنون في فضـــاء منين ، فأمارت التراب وهزت الرايات النائمة على القبور ، ثم عصفت بالشجر والمغارس فأرعشتها وأمالتها فخيل الى ليلى وهي تنظر الى الرايات الراعشة ان الذي حسبته حلماً منذ لحظات لم يكن حلما ، بل كان حقيقة مخوفة وكذلك خيل اليها انها لا تزال في ارض ذي قار تحت ذلك الافق المصحي الذي حجبته رايات تغلب وبكر بن وائل واعلام شيبان وطي وذهل وكندة وقضاعة وربيعة فعادت الى نفسها وهمست قائلة :

ـــ يا لي من حمقاء ! لقد رأيتني كأنني احلم ، على حين لم يكن هذا الذي ابصرته العينان ولمسته اليدان حلما ! وعلى حين كان صوت هذا البوق نذيراً للكماة والذادة بقرب الشروع في الزحف الى العدو الغاصب .

ثم رفعت يدها فاذا الراية التي استبقتها تمايد تحت عصف الهواء واذا الرايات النائمة على القبور ترعش ، واذا هدير السواقي والينابيع يترع الفضاء وحفيف الشجر يتعالى كأنه الهمس وقد اختلطت هذه الاصوات كلها بعصف الهواء وتسجيعه فما شكت التعسة في صدق احلامها وصفاء هواجسها فتمثلت بادية ذي قار من جديد ومضت تستعرض القبائل تحت الرايات والاعلام واسم سيد قريش اغنيتها الطروبة السارة

لقد توقعت التعسة ان ينحسر غبار المعركة عن فرسان الشام وغطاريف العراق واملت ان ترى النعمان بن المنذر ذلك الملك الجليـــل القدر وهو يزجي الصفوف ولكنها لم تر شيئاً من هذه الصور التي تمثلتها ولم تبصر جنداً ولا راية ولا عدواً فاستيقنت من قلق نفسها واضطراب روحها وادركت انها تهذي فاضحكها هذيانها فرمت بالراية على قبر عمرو بن الحارث وجعلت تتفرس في المشاهد والصور والتماثيل والاشجار والسواقي والقبور ؟

« يالي من غبية ! كنت احلم ! يا للحـــلم الممض الموجع ؟ اين انا ؟ أفي ذي قار من ارض العراق ام في منين من ارض الشام ؟ رباه ! أليست هذه الغـابة القديمة غابة قصر مارية العفراء ! بلى ! في هذه الغابة تنشق عمري الذاهب شذا الجوز والنارنج وفي هذه الغابة وتحت وارف ظلها غمرت اشعة القمر روحي بلذاذات لا استطيع لها وصفاً وليس في مقدوري ان اسميها .

بلى ! وفي هذه الغابة اختلط همس الهواء بهمس البلبل ، لقد كان البلبل يغني اغنية الحب ، وكان المحبون يصفقون لهذه الاغنية .

ترى اى مأساة تنتظرني اذا انا مشيت الى القصر ؟ انـــ حياتي تزخر بالمآسي ، فليس يضيرها خطب جديد ، اذن فما ينبغي لي ان اتردد ، قالت هذا ومشت الى القصر ، فلاحت لها وهي على السلم ابراج القصر وقناطره وحناياه فقالت : « بلى هذا هو قصر مارية العفراء ، لقد جفوته ونوافذه مغلقة والحزن ينشر اعلامه تحت قبابه وفي اروقته وبمراته وعدت اليه ونوافذه مغلقة والحزن لا يزال منتشراً في جميع نواحيه »

بلى هذا هو قصر مارية ! لقد عرفته ، ان على بابه تمثالا يثير في النفس الحساسة شيئاً كثيراً من الالم والالتياع ، الف تحية ايها التمثال الذي يصف لنا حياة التعسة ماوية،تلك الفتاة التي ضاق بها فضاءالعالم فوسعها فضاء القبر وهي بعد في موعة الصبا

اواه ، لم تفارق الابتسامة شفتيها المشبوبتين برغم قطوب الموت ، انها لا تزال تضحك وقد احالها المثال راماس الى مرمر خالب .

واخذت تقترب من تمثال الغسانية الحسناء حتى حاذته فراحت تضع فمها الراعش وهو من لحم ودم على ذلك الفم المرمري المقرور فلثمته اكثر من مرة وهي تعلم انها تلثم فماً من المرمر جمدت عليه الحياة ، وكانت تشعر بلذة عميقة من هذه القبلات وتجد هناء مديداً في عكوفها على لمس الحياة الراكدة ، بل لقد كان يخيل اليها وفمها يصب زفرات صدرها في ذلك الرخام المقرور ان الحياة عادت الى الحجارة ، وان ذلك الوجه الذي صاغته يد المثال عاد يمور بالضياء ، و ان قبلاتها قد تجسدت فتمثلت بشراً سويا .

ولكن الحقيقة لم تغب عنها طويلا فقد تنفس الصبح وهدأت العاصفة وسكنت الرايات على مضاجع الموتى وانكشف القصر وابراجه فتحولت ليلى عن التمثال وطفقت تجيل بصرها في الغابة والبيعة فتعرفت الى الحقيقة وادركت انها تحلم وان احلامها كانت حصاد هذه الرموس .

لقد قالت التعسة وهي جالسة حيال التمثال :

« كان في حياتي الماضية كثير من الاظلام والتعتيم فما باليت بهذا كله لأن ارادتي كانت قوية وعنيفة ، ولكن احزان هذه اللحظات التي امضيها هنا قد طغت على ارادتي فاماتتها .

يستولي الخوف على صغار الاطفال حينما يحتويهم الليل فيتلهون بالانشاد وترتفع اصواتهم الى حواشي الليل فتطرد هذه المخاوف التي علقت بنفوسهم ، وقد كنت انا في وسط هذه الليلة العاصفة طفلة فلهوت بالنشيد ، هذا هو كل امري في هذه المقبرة

كان الهواء رطباً ناعشاً ففتحت ليلى صدرها رجاة الابتراد بالظلال والافياء ، وجعلت تتأمل في الصباح الذي اغرق في بهائه روابي جبل سنير ، وكان ناقوس البيعة يعصف ايذاناً للناس بالصلاة فنهد القرويون من جميع النواحي الى البيعة الصغيرة على صوت الناقوس يعيدون اليوم الثاني من الفصح ولكن جميع الذين احتواهم قصر مارية العفراء لم يخرجوا الى البيعة بل ظلوا في القصر عن كثب من ضيفيه الكبيرين ابي سفيان بن حرب وحسان بن ثابت .

وكان الضيفان الجليلان قد دخلا القصر في عشية الفصح كما يذكر القرّاء فاستقبلهما شرحبيل وهند والشيخان الغسانيان وحنظلة الكندي ، ولما تعرفت هند الى الرجلين اللذين خلصاها قبل اعوام عديدة من شرك طاغية الرومان هيباس غامت عيناها ومضت تشكر لهما حميتهما وحماستهما ، ثم طفقت تسألهما عن الحجاز وعن بعث النبي العربي فقص عليها ابو سفيان شيئاً كثيراً عن روائع هذا البعث ، وذكر لها رجوع المهاجرين من الحبشة الى الوطن وانضمامهم صفاً واحداً تحت راية سيد قريش ، ثم وصف لها معركة بدر وصفاً شجياً وذكر لها انتصار الرسول في هذه المعركة واتى على ذكر فتح مكة ودخول الرسول اليها ظافراً وزحفه الى الكعبة وتحطيمه اصنامها وتماثيلها وصفحه عن صناديد قريش جميعاً وفي جملتهم ابو سفيان نفسه فأثرت هذه الاحاديث كلها في نفسها وحملتها على نسيان ماضيها الاليم ولكن سحابة حزن عميق ظلت تطفو على جبينها ذلك بأنها سألت ابا سفيان عن الاعشى الشاعر الذي رافقها في محنتها الاخيرة يوم اجتاحت جيوش كسرى الشام ثم خرج منها ولم تعد تسمع له خبراً فقص عليها ابو سفيان قصة هذا الشاعر وخلاصة هذه القصة أن الاعشى وفد الى النبي وقد مدحه بقصيدته التي اولها :

الم تغتمض عيناك ليلة ارمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

وفيها يقول لناقته :

فآليت لا ارثي لها من كلالة ولا من جفا حتى تزور محمدا

فبلغ خبره قريشاً فرصدوه على طريقه وقالوا هذا صناجة العرب ما مدح احداً قط الا رفع من قدره فلما ورد عليهم قالوا له اين اردت يا ابا نصر قال اردت صاحبكم هذا لأسلم قالوا انه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك وكلها بك ارفق ولك موافق قال وما هن فقال ابو سفيان بن حرب : الزنا قال الاعشى لقد تركني الزنا وما تركته ثم ماذا قال القمار قال لعلي ان لقيته اصيب منه عوضاً من القمار ثم ماذا قالوا الربا قال ما دنت ولا ادنت ثم ماذا قالوا الخمر وكان مغرماً بها فقال اوه ارجع الى صبابة قد بقيت لي في المهراس فأشربها فقال له ابو سفيان هل لك في خير مما هممت به قال وما هو قال نحن الآن وهو في هدنة فتأخذ مائة من الابل وترجع الى بلدك سنتك هذه وتنتظر ما يصير اليه امرنا فان ظهرنا عليه كنت قد اخذت حلفاً وان ظهر علينا اتيته فقال ما اكره ذلك فقال ابو سفيان يا معشر قريش هذا الاعشى والله لو اتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الابل ففعلوا (١) وانطلق في غده الى ذي قار ليلتحق بفرسان ربيعة .

فأطرقت هند اطراقة عميقة ، ثم رفعت رأسها وسألت ابا سفيان اذا كان يعلم شيئاً عن عمتها ليلى بنت عمرو آكل المرار فقال لها انه لا يعلم شيئاً من امرها ولم يسمع بخبرها ، فتأوهت هند وهمست قائلة « لقد كتبت عمتي الي من مكة فقالت لي انها اعتزمت المضي الى العراق لتقاتل في صفوف النعمان بن المنذر الذي استصرخ جميع العرب لاخراج الفرس من بلاده ومنذ ذلك اليوم البعيد لم اعد اسمع خبراً عنها ولا يزال امرها مجهولا مني ومن جميع الذين عرفوها في الشام .

وبينما كانت هند تتحدث الى ضيفها عن خروج الفرس من الشام بلهجة بارعة حلوة كانت ليلى الكندية ابنة عمرو آكل المرار تخترق اسواق منين بين الجماهير التي برحت منازلها للاشتراك في مفارح الفصح ومغابطه من غير ان يعلم الناس بأمرها ومن غير ان يدلهم شجنها على حقيقتها .

---

(١) الاغاني ج ٨ ص ٨٢

وفي اليوم الاول من الفصح خرجت هند الى البيعة للصلاة ثم عادت الى القصر فلم تخرج منه احتراماً لضيفيها الكبيرين .

* * *

ظلت ليلى الكندية حيال التمثال بضع لحظات فلما تبرمت بقعدتها دخلت برج القصر من باب سري كان مفتاحه لا يفارقها واخذت تنظر من شرفته الى دمشق السابحة في بحر من الخضرة فرأت بردى يجري متطامناً وادعاً هادئاً ثم حولت نظراتها الى ضفته الثانية فبدت لها الكرمات والجنات والقصور والقباب والبيع والمناسك والجواسق وشهدت القرويين في خروجهم بأبقارهم وحيواناتهم الى معربا وبرزةوالقابون فلذت هذه المشاهد الساذجة المتواضعة وتمنتها خلوداً في نفسها حتى تستريح اليها وحتى تغيب في مفاتنها احزان عمرها الذاهب .

وكان الهواء يحمل اليها عصف النواقيس في محاريب دمشق فينقله الصدى الى برزة والقابون ومعربا ومنين فتقابله محاريب هذه القرى بعصف اجراسها ولكن ليلى التي حيت فجر الخلاص في سماء الشام لم تشترك مع الناس في صلواتهم وادعيتهم ذلك بأن صلاتها وادعيتها كانت على غير ما الفه الناس في ربوع الشام وبينما كان القرويون في منين يتغنون باسم سيد المسيح ، طفقت ليلى من ناحية اخرى تردد اسم سيدقريش ، فجاءت صلاتها صورة واضحة لصلاة جزيرة العرب .

ولما اتمت صلاتها فكرت في الرجوع الى القصر واعتزمت في هذه المرة ان تطرق بابه لتسأل سكانه اذا كانوا يعلمون شيئاً عن بقايا أسرتها وانها لتنحدر اذا شبح غريب يصطدم بها فارعدت وصاحت :

— من انت ؟

وخيل اليها ان الشبح الذي طرق البرج في هذه الساعة الروعاء ميت حسرت عنه هذه القبور ولكن الشبح الذي آلمته الصدمة لم يلبث ان نظر اليها نظرة متفحصة ثم صرخ صرخة اهتز لها البرج :

ــ سيدتي ! اهذا انت ؟

وكان من السهل عليها ان تعرف صاحب هذا الصوت فصاحت :

ــ حنظلة التعس ؟

ــ نعم انا من تسمينه تعساً يا سيدتي ! فلقد ولدت في ليلة ضريرة النجم في مهد ازدحمت من حوله اخيلة الشقاء وطيوف النحوس ، ثم ربيت في كندة فلما اينع شبابي واينع البؤس معه رمتني حظوظ كندة الفاحمة الى اودية الحزن السحيقة ، نعم انا من تسمينه تعساً ياسيدتي ! وخنقته عبراته فلم يتجلد وكاد يهوي على سلالم البرج فتهافتت عليه حانية حادبة فنهض والدمع يضيء في عينيه فقالت له :

ــ نهوضاً يارفيق بؤسي ولا يحزنك هذا الذي انت فيه فان الفجر الذي انتظرنا بزوغه قد اخذ يغمر الجبال والمراعي والاودية .

فقال لها يائسا :

ــ لقد امضيت في الاغتراب ثلاثين عاما ، وكان قدري الغاشم يدفع بي من كارثة الى كارثة ويقذف بجسمي هذا الذي انحله الالم واضواه الارق الى جبال بيزنطية الصاردة فارتمي عليها جازعاً من مشهد الثلج ثم يعود قدري فيزجيني الى الصحراء المشبوبة حتى افنيت شبابي كله في ثلج الجبل وواريت آمالي في رمال الصحراء .

ــ ولكنك انتهيت في هذا الصباح الى ما تحب وترضى ، واخذ ذلك النور الذي اضاء وطنك يدغدغ شعورك التي بيضها الملك الحافز ، اي حنظلة العبوس المكفهر انك لن تعدحقائبك لرحلة جديدة ولن تفكر بعد هذا اليوم في ضنى جديد وقد اصبح في وسعك وقد بلغت خاتمة المطاف ان تضحك للحياة المرحة الوادعة وان تنظر الى بهاء الشمس نظراً يطفح املا .

ــ سيدتي الاميرة ! . .

ــ ناشدتك الله ان لا تناديني بالاميرة بل نادني ان شئت بليلي لأن تلك

الساحرة الكندية لم تبلغ مناها بعد ، فقال زعيم العشرة :

ولكنك اردت حنظلة التعس على نسيان شجونه وقلت له ان رحلاته في العوالم النائية قد انتهت .

ــ نعم قلت لك ذلك ولكن ليلى الكندية لم تخلع لباس الساحرة بعد لتلبس لباس الاميرة !

ــ متى تلبسين يا سيدتي لباس اميرات كندة ؟

ــ في هذا المساء .

ــ افي هذا المساء تطلين على الناس بوجهك الحقيقي ؟

ــ نعم ! وفي هذا المساء التي بآلامي الى لجج الماضي واغيب صورتي القديمة في اطلال النسيان .

ــ يا لشجونك يا سيدتي ! لقد كانت زفراتك تتصاعد في جوف الليل الى نفسي فتوقظ فيها آلامها وشجونها . فرعشت ليلى ووضعت يدها على كتف حنظلة وقالت له :

ــ اكنت سامعي ايها التعس ؟

فهز رأسه وقال لها رائياً !

ــ وكنت اراك تطوفين بالقبور كخيال املس من حضيض القبر !

ــ اذن فقد سمعت اذناك همسي وبكائي !

ــ نعم ورأت عيناي ثورتك الطامية ، ولم يفتني ان اصغي الى اناشيدك وانت تهزين الاعلام والرايات !

ــ اذن فقد كنت عن كثب مني !

ــ نعم كنت عن كثب منك ! وكانت ظلال هذه الغابة تحجبني عنك وتواريني عن عيون جميع الناس !

ــ اكنت تدري انني في الطريق الى القصر ؟

— نعم وكنت اسأل رجال القوافل عن حصادك في ذي قار فيرد علي هؤلاء رداً يثلج نفسي ! ولما قيل لي ان فرساننا في ذي قار قد انتصروا لم امنع نفسي ضحكها ومراحها واخذت ابارك عن بعد لاولئك الفرسان المغاوير في النصر الذي ادركوه غضاً جنياً ثم عدت الى القصر اترقب بعثك ونشورك !

— قل لي الا يزال عقد الاحبة منتظما في القصر ؟

— لقد وثقت الاحزان بينهم والف الجزع بين قلوبهم فما فارقوا هذه المغاني .

— وهند ؟

ولفظت اسم هند في كثير من الحب والرفق فقال لها :

— لم تترك هند لباسها القاتم حداداً على بعلها الشريف النبيل !

— واولادها ؟

— لايزال اولادها في بزنطية .

فاجهم وجه ليلى واردفت .

— ولكني اخاف على هؤلاء الفتيان من جو هذا البلد الذي لا احبه ؟ قل لي اتعلم هند اني هبطت الضاحية !

— كلا فانها لاتزال تجهل شيئاً كثيراً من امرك ، وقد خرجت صباح اليوم الماضي الى البيعة لتصلي وتسأل الله ان يردك الى الشام على انها لم تشأ مضياً الى البيعة قبل ان تحصد يدها شيئاً كثيراً من الزهر وكانت تأمل ان تراك مقبلة على الضاحية لتنثر حصادها على رأسك !

وكان حنظلة يتكلم وليلى الكندية تفكر في المرأة ذات الملابس السوداء التي عرضت لها في الطريق وفي يدها كثير من الزهر فذكرت تلك الكلمات الحلوة العذبة التي سمعتها من فمها بل لقد ذكرت مارأته على وجهها من شحوب وذبول وما لمسته في نبراتها من رحمة وحب فخيل اليها انها رأت في جبين المرأة شيئاً كثيراً من صورة هند فجزعت وتخاجت وراحت هامسة :

« اليس في ملامح تلك المرأة التي عرضت لي في الطريق صورة هند ؟ »

ولم يفطن حنظلة الى هذه الهواجس التي تجاذبتها على حين غرة ، ولم يقدر له ان يعلم اي صورة عرضت لها وهي في شجنها الشديد ، وبغتة التفتت ليلى اليه وقالت :

ــ اشعر ببرد الهواء في هذا البرج افلا تشاركني في الدخول الى القصر ؟

ــ ماذا اتدخلين يا سيدتي القصر وانت في مثل هذا القلق ؟ اني اخاف ان يبعث مشهدك هذا حزناً شديداً في نفس هند فتموت من الاسى .

ــ من قال لك انني اريد دخول القصر بصورتي وحقيقتي ؟

ــ سيدتي !

ــ اسمع ! ان هنداً ما تزال تستعجل اوبتي الى الشام وقد قلت لي انها كانت تسأل عني من رجال القوافل وانها لا تزال تنتظر ان ابعث اليها برسول يحمل اليها أخباري ، فانطلق اليها وقل لها ان على البــاب رجلا قذفت به بادية ذي قار وهو يحمل اليك اشياء كثيرة من اخبار الملاحم ، فاذا حفز هنداً شوق شديد الى معرفة امري فانها لا تمنعني من دخول القصر فالجه وتسألني هند عن الملاحم وعمـا اذا كنت اعرف امرأة من كندة اسمها ليلى فلا امتنع عن موافاتهـا بالاقاصيص وسأحرص على ان يكون اسلوبي في رواية الاخبار هادئاً وادعاً يزيل ما علق بنفسها المحطمة من غيوم وسحب حتى اذا رأيتها اطمأنت وسكنت نزعت اطمار الساحرة البالية لألبس لباس الاميرة ليلى ابنة عمرو آكل المرار عمة ذلك الملك الشــاعر امرىء القيس بن حجر ، ماذا الا ترى اني احسن الحيلة ؟

فقال لها باسما :

ــ افعلي ما تشائين يا سيدتي ! ولكن ألديك لباس تلك الاميرة الكنديه ؟

ــ انه لم يفارقني كما تعلم وقد صحبني في سياحاتي واسفاري وطـاف معي فوق لجج البوسفور الكامدة وجبال جزيرة العرب حتى استقر في ذي قار من ارض العراق

ــ لا استطيع يا سيدتي منذ الآن ان اتصور تلك الدهشة التي ستستولي على

ضيوف القصر !

فحدقت ليلى في عيني حنظلة وقالت له :

— أفي القصر ضيوف ؟ لعلهم من الرومان ...

— نعم في القصر ضيوف ولكنهم ليسوا من الرومان الذين تكرهينهم .

— اذن من هؤلاء ؟ — من مكة يا سيدتي .

— من مكة ؟ اتعرفهم ؟

— ان احدهما هو ابو سفيان بن حرب ، اما الثاني فاسمه ... اسمه ... لقد تذكرت ... ان اسمه حسان بن ثابت يا سيدتي .

— الاول سيد قومه ، والآخر سيد شعراء جيله ، يالروعة هذا اليوم ! يالروعة هذا اليوم ! ..

قالت هذا وخرجت من البرج ، ثم جاءت الى قبر عمرو بن الحارث حيث الاعلام التي غطت بها القبر لا تزال مخضلة بندى الصباح وفي خفة البرق المومض نزعت الى خريطتها فأخرجت منها لباساً من الحرير الازرق وقالت لحنظلة :

— اليس هذا ثوب الاميرة الكندية ؟

فقال لها : بلى يا سيدتي !

فنزعت ليلى رداء الساحرة وتجملت بلباس الاميرة ، ثم عادت فافرغت رداء الساحرة على جسمها لحجب لباس الاميرة والتفتت الى حنظلة قائلة :

— في وسعك الآن ان تنطلق الى القصر فتفعل ما امرتك به .

فشعر حنظلة الملاح بسحر تلك الارادة القوية التي كانت تزجيه يوم كان في القسطنطينية الى اماكن العراك ، فحنى رأسه وانطلق يصعد في سلم القصر وليلى الكندية تنتظره عن كثب من تمثال ماوية الصغيرة .

الفصل السابع والثلاثون

رسول الفرسان



قالت هند لحسان بن ثابت وهو يقص عليها روائع سيد قريش في قاعة القصر الكبرى امام شرحبيل الغساني وابي سفيان بن حرب وذينك الشيخين الغسانيين :

ــ لقد اثارت احاديثك عن النبي جوانب نفسي واثلج صدري ما ذكرته عن امتداد دعوته في انحاء بلاد العرب ، فمضى الشاعر في حديثه قائلا :

ــ لقد شرع الرسول بعد انتصاره على الوثنية في نشر دعوته في الشام والعراق فكتب عدة كتب الى ملوك الروم والفرس يدعوهم فيها الى الايمان برسالته ولما خرجت من مكة رأيت رجلا من اخلص رجاله ينزل على امير البلقاء ليبلغه كتاب الرسول اليه .

قالت هند : ان قلوبنا وافهامنا معه ياسيدي الشاعر ! ثم سكتت واطرقت اطراقة عميقة فلحظ حسان على وجهها كدرة مخوفة فسألها :

ــ هل خطر لك خاطر جديد كدر عليك صفوك ياسيدتي ؟ فتنهدت قائلة :

ــ ان جميع مفارح الدنيا لاتقاس بهذا الفرح الذي اشعر به في هذه اللحظة ولكني كما علمت امرأة خسرت اباها وزوجها وابناء عمها وضيعت ملك ابيها القديم وقد تحملت هذا كله راضية ناعمة رجاة ان تستبقي لها السماء لذة واحدة هي لذة الاجتماع باحب الناس اليها بعد اولادها . .

ــ أمات ذلك الشخص الذي تحبينه هذا الحب ياسيدتي ؟ . فتأوهت هند واستطردت قائلة :

ــ لا ادري !

ــ الا تعولين اين يعيش هذا الغالي الذي تذكرينه ارق ذكر ؟ فقالت هند :

ــ ان عمتي هي التي احب ياسيدي وقد برحت هذه المغـــاني يوم ذبح الفرس زوجي التعس .

ــ اتعرفين تلك الدار التي نزحت اليها ؟

ــ لقد التحقت بمكة رجاة ان تستضيء بنور سيد قريش ثم عزفت عنها لتلحق في ذي قار بفرسان بكر بن وائل ! ومنذ ذلك اليوم البعيد لم اعد اسمع اخبارها ولا ادري اذا كانت لا تزال تتمتع بحياة ام ان الموت غيبها في لحمته .

ــ ولـكن نور سيد قريش قد اظل المحاربين في ذي قار فـكسروا عدوهم القديم شر كسرة ! افلم يأتك حديث عن هذا النصر ؟

ــ لقد علمت بهذا النصر من رجال القوافل ولـكني مازلت اجهل مصير عمتي

وفي تلك الفينة دخل حنظلة الـكندي فشخصت الابصار الى هذا الجندي القديم الذي اغمضت يده عيني امريء القيس بن حجر فوق جبال انقرة المثلجة وكان مشرق الاسارير فلحظت هند هذه النعماء الماثلة في جبينه الشاحب فقالت له :

ــ لعلك جئتنا بخبر عن عمتي ؟ فقال لها رابط الجأش :

ــ كنت في الضاحية فلقيت في طريقي الى القصر شيخاً جليلا رمت به بادية ذي قار الى هذه الارض ، ولمـــا سألته عن الملاحم نظر الي نظرة عميقة وقال لي ايعنيك امر هذه الملاحم ؟ فقلت له : نعم وذلك لان بعض ذوي رحمي قذفوا باقاربهم الى الحومة ليدركوا شرف النصر ، فهل في وسعك ان تحدثني بما تعلمه من امر المحاربين، فقال لي نعم في مقدوري ان اتكلم طويلا ولـكن ليس هنا على قارعة الطريق بل في مكان استطيع ان استريح الى فيئه وظله لانني شيخ هرم وقد نهكني قيظ الصحراء وانا على بعيري . .

فصاحت هند !

ــ اي حنظلة الـكندي يارفيق ابي التعس في مطافه الاخير اين هو هذا الشيخ الذي تتحدث عنه ؟ قل لي في اي مكان هو حتى اخف اليه واهدهد آلامه واوصابه

ونهضت التعسة كأنها تتحفز للخروج من القصر فاومض حنظلةبيده الى الباب وقال هامساً :

ــ مكانك ياسيدتي فان من تحبين لقاءه ينتظر رجعتي على باب القصر فصاحت هند صيحة شديدة وقالت :

ــ اهو هنا في قصر مارية العفراء ؟

ــ نعم وقد ابى الا ان ينتظرني بالقرب من تمثال ماوية !

ــ ما اسمه ؟ هل قال لك اسمه ؟ لعله ايها السادة ذلك الشاعر الذي جرحه الفرس في داريا ثم اقام بيننا طويلا فلما اطمأن الى هجرتنا الى‌منين نزح عن الغوطة ليموت ميتة البطل في ذي قار ؟

فقال حنظلة :

ــ انك لتريدين في حديثك الاعشى الشاعر ولكن هذا الزائر الذي كشفت عنه بادية ذي قار ليس من الشعراء بل هو محارب قديم ابى علي اسمه .

ــ اذهب اليه وقل له على الرحب والسعة نزولك ياشيخ الحروب في قصر مارية العفراء ! وددت لو اني استطيع ان اكافيء بطولته في هذا المثوى الذي اعتاد ان يكرم البطولة ، ووثبت الى الباب ففتحته صائحة :

ــ الى حضن غسان ايها البطل ...

فطفرت ليلى من مكانها حيال التمثال ودخلت القصر فتلقتها هند بين ذراعيها ورأى جميع من اظلتهم الغرفة على جبين ليلى الملآ باديا وحزنا ماثلا ولكنهم ظلوا يجهلون حقيقتها ! وكانت ليلى على الرغم من شجوها والمها رابطة الجأش فارادتها هند على الجلوس عن كثب منها وهي تحسبها كمياً من كماة الحومة ثم تهافتت عليها قائلة :

ــ يلوح لي انك تعب ياسيدي !

فهزت ليلى رأسها واردفت : نعم ياسيدتي ، فالتفتت هند الى الشيخين الغسانيين وقالت لهما :

— الي بماء الورد ايها الصديقان . .

وراحت ليلى تنظر الى الشيخين الغسانيين نظرة الم وحسرة فرأت على وجهيهما صورة ذلك الاخلاص القديم فباركتهما في سرها ولكنها لم تستطع ان تخفي دمعة ترقرقت على وجهها فلحظت هند بكاءها فقالت لها وهي لاتزال تحسبها ذلك الكمي الغطريف :

— اتبكي ياسيدي ؟ فرعشت ليلى رعشة شديدة فاردفت هند :

— مايبكيك ياسيدي ؟ فقالت ليلى وقد تكلفت الجد :

— ابكاني حنوك ياسيدتي ، فمسحت هند دموع ليلى وقالت لها :

— لتجدن ياسيدي في كنف غسان ما ينسيك جوى هذه السياحة العنيفة ، فقد قال لي حنظلة انك تعرف شيئاً كثيراً من اخبار ذي قار ، قل لي اكنت تعرف امرأة . .

وخشي حنظلة ان يحدث مالا يروقه فقطع حديث هند قائلا :

— لقد سألني الشيخ الا نلحف عليه كثيراً في الاسئلة فقالت هند لليلى :

— اصحيح هذا الذي يقوله حنظلة ؟ فهزت ليلى رأسها كرة اخرى واردفت :

— صحيح !

— اذن ؟

— دعيني اتكلم ياسيدتي كما احب .

— تكلم ! تكلم .

فحدقت ليلى في الرجلين الجالسين الى يمين شرحبيل وقالت :

— من الرجلان ؟

فقالت هند :

— هما من عيون العرب ياسيدي ، ابو سفيان بن حرب سيد آل عبد شمس وحسان بن ثابت الشاعر .

فاومأت ليلي بيدها الى شرحبيل وقالت :

— وهذا الفتى ؟

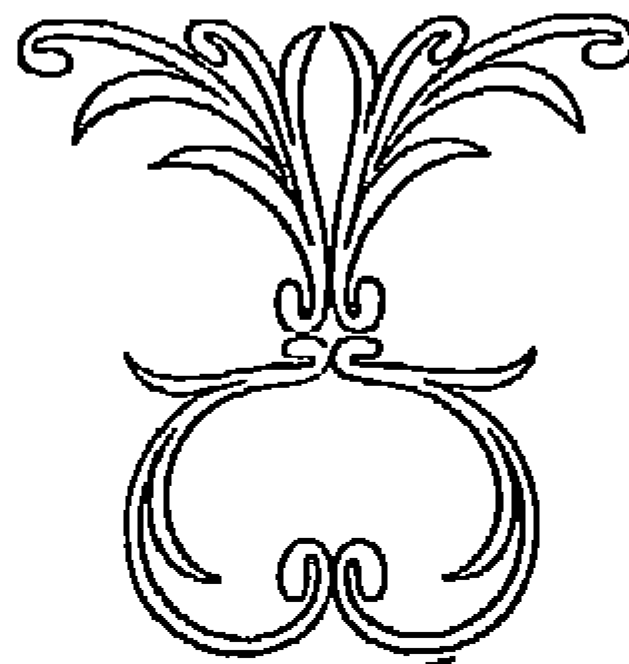
— هو ابن عمي شرحبيل بن عمرو بن يزيد . لقد كان غسانياً باسلا فاستطاع ان يطارد الفرس الى الصحراء . .

فقالت ليلى :

— اذن في وسعي الآن ان اتكلم لانني محاطة باصدقاء غسان !

ولما عاد الشيخان الغسانيان بماء الورد في آنية من الذهب تهافتت هند على الساحرة واخذت تغسل جبينها والساحرة تنشج ثم رجعت هند الى مكانها ووقف حنظلة وراء مقعد ليلى وقلبه يرعش وعيناه تدمعان .

لقد غشي الصمت العميق نواحي القصر ، ولكن قلوب الجميع ظلت تخفق . ثم بدأت ليلى حديثها عن ذي قار في وسط هذا الصمت البليغ !



الفصل الثامن والثلاثون

الاعشى

قالت ليلى :

لما اوغل قواد الفرس في بلاد الشام وامتدوا بجيوشهم الى ايلياء من ارض فلسطين طمح كسرى بن هرمز الى توسيع ملكه في العراق وكان ملك الحيرة المنذر بن امريء القيس بن عمرو بن عدي رجلا ضعيفاً يؤثر اللهو والصيد واللعب على الملك (١) فلم يمنع كسرى ان يمضي في عمله فامتدت جيوش الفرس الى العراق ونزلت بنواحي الحيرة ولكنها لم تشأ دخولها احتراماً للمنذر الذي كان في النزع .

ومات المنذر بعد ان اوصى باولاده الى اياس بن قبيصة الطائي وملكه على الحيرة الى ان يرى كسرى رأيه فمكث اياس اشهراً وكسرى يبحث عن رجل ليملكه على العراق فلم يجد احداً يرضاه فضجر وقال لابعثن الى الحيرة اثني عشر الفاً من الاساورة ولاملكن عليهم رجلا من الفرس ولآمرنهم ان ينزلوا على العرب في دورهم ويملكوا عليهم اموالهم ونساءهم (٢)

وكان عدي بن زيد (٣) سفير كسرى الى هرقل وترجمانه في قصر ملك العراق قد عاد حديثاً من بزنطية موقراً بالهدايا والتحف فسمع حديث كسرى فاحزنه ان يسلب الفرس حرية اقوامه وقد بذل هؤلاء في سبيل هذه الحرية اعلاقهم النفيسة

---

(١) و (٢) الاغاني ج ٢ ص ٢٠ و ٢١

(٣) هو عدي بن زيد بن حماد بن ايوب بن عامر بن امريء القيس بن زيد مناة بن تميم كان شاعراً فصيحاً من شعراء الجاهلية وكان نصرانياً ارسله كسرى ابن هرمز سفيراً الى قيصر في القسطنطينية فاكبر عليه وحمله الى عماله على البريد ليريه سعة ارضه وملكه — الاغاني .

واراقوا كثيراً من دماء بنيهم فانطلق في الحال الى عدي بن مرينـــا واخبره خبر كسرى فشجي بن مرينا وابتأس وقال لعدي بن زيد « عد الى كسرى وقل له ان في اولاد المنذر بقية صالحة للملك فان قبل ان يولي احدهم كان لنا مارجوناه من حفظ حرية البلاد وان ابى الا ان يجعل اميراً فارسياً على العراق كان لنا معه شأن اخر !

فمضى عدي بن زيد الى كسرى وقال له ايها الملك السعيد ان في ولد المنذر لبقية وفيهم كلهم خير فقال كسرى ولكني اريد ملكا يكفيني العرب كلهـا فقال له عدي « لك هذا الذي اردت وانطلق عدي بن زيد الى النعمان بن المنذر وكان اصغر اخوته فقص عليه حديث كسرى وقال اذا سألك هل تكفيني العرب فقل له نعم فاذا قال لك فمن لي باخوتك فقل له ان عجزت عنهم فاني عن غيرهم اعجز وكان عدي بن مرينا يريد الاسود بن المنذر ملكا على العراق ، فاحنقه عمل عدي بن زيد فاعتزم ان يحبط سعيه عند كسرى .

وفي اليوم التالي طاف زيد بن عدي على اولاد المنذر وجعل يخلو بهم رجلا رجلا فيقول اذا ادخلتكم على الملك فالبسوا افخر ثيابكم واجملها فاذا قال لكم كسرى اتكفونني العرب فقولوا نعم فاذا قال لكم فان شذ احدكم عن الطاعة وافسد اتكفونيه فقولوا لا ان بعضنا لايقدر على بعض ليهابكم ولا يطمع في نفرتكم ويعلم ان للعرب منعة وبأساً فقبلوا منه وخلا بالنعمان فقال له البس ثيـــاب السفر وادخل متقلداً سيفك ، وخلا بن مرينا بالاسود بن المنذر فسأله عما اوصاه به عدي فاخبره فقال غشك والصليب وما نصحك ولئن اطعتني لتخالفن كل ما آمرك به ولتملكن وان عصيتني ليملكن النعمان ولا يغرنك ما اراكه من الاكرام والتفضيل على النعمان فان ذلك دهاء فيه ومكر فقـال له ان عديا لم يألني نصحاً وهو اعلم بكسرى منك ، فلما يأس ابن مرينا من قبوله قال ستعلم .

ودعا كسرى بهم فلما دخلوا عليه اعجبه جمالهم وكمالهم ورأى رجالا قلمـا رأى مثلهم ثم قال لعدي بن زيد بالفارسية ان يكن في احد خير منهم ففي هذا واشار الى

النعمان ثم جعل يدعو بهم رجلا رجلا فيقول اتكفيني العرب فيقول نعم اكفيكها الا اخوتي حتى انتهى الى النعمان آخرهم فقال اتكفيني العرب قال نعم قال كلها ؟ قال نعم قال فكيف لي باخوتك قال ان عجزت عنهم فانا عن غيرهم اعجز فملكه وخلع عليه والبسه تاجا فيه اللؤلؤ والذهب فلما خرج قال ابن مرينا للاسود دونك عقبى خلافك لي ثم ان عديا صنع طعاماً في بيعة وارسل الى ابن مرينا ان أتني بمن احببت فان لي حاجة فأتى في ناس فتغذوا في البيعة فقال عدي بن زيد لابن مرينا ان احق من عرف الحق ثم لم يلم عليه من كان مثلك واني قد عرفت ان صاحبك الاسود بن المنذر كان احب اليك ان يملك من صاحبي النعمان فلا تلمني على شيء كنت على مثله وانا احب ان لاتحقد علي شيئاً لو قدرت ركبته وانا احب ان تعطيني من نفسك ما اعطيك من نفسي فان نصيبي من هذا الامر ليس باوفر من نصيبك وقام الى البيعة فحلف ان لايهجوه ولا يبغيه غائلة ابداً فلما فرغ عدي ابن زيد قام عدي بن مرينا فحلف مثل يمينه وخرج النعمان على فرسه حتى نزل منزل ابيه في الحيرة (١)

وتتالت ايام على هذه الحادثة ففي ذات عشية قدم عدي بن زيد على النعمان فصادفه لامال عنده ولا اثاث ولا ما يصلح للملك فقال له عدي كيف اصنع بك ولا مال عندك فقال له النعمان ما اعرف لك حيلة الا ما تعرفه انت فقال هلم معي، فاتيا جابر بن شمعون اسقف الحيرة احد بني الاوس بن قلام من بني الحارث بن كعب فانزلهما عنده ثلاثة ايام يذبح لهما ويسقيهما الخمر فلما كان اليوم الرابع قال لهما ما تريدان فقال له عدي تقرضنا اربعين الف درهم يستعين بها النعمان على امره فقال لكما عندي ثمانون الفاً اعطاهما اياها (٢) فمضى النعمان بالمال .

ومكث النعمان على الامر الذي كان عليه ابوه سنوات فبنى الكنائس والبيع

---

(١) الاغاني ج ٢ ص ٢٢

(٢) الاغاني ج ٢ ص ٢٤

والقصور واحسن تدريب الجيش ونافس الرومان والفرس في البذخ والترف وقرب اليه شعراء العرب فمدحوه وزوج ابنته عديا وكانت من اجمل نساء اهلها وامها مارية الكنديه وكانت قد خرجت في خميس الفصح لتتقرب من البيعة وقد دخلها عدي ليتقرب فرآها وهي غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ثم تزوج بها بعد الفصح بثلاثة ايام (١)

ولما رأى العرب امتداد سلطان ملك الحيرة زهدوا في الفرس وخلعوا طاعتهم ولحقوا بالملك النعمان فاحتواهم ظله ومنعهم من الفرس فاحفظ عمله كسرى فبعث اليه بالجيوش فكسرها فسكت كسرى على ذلك اشهراً وجعل النعمان يستعد ويتوقع وبلغ كسرى استعداده فاعد لقتاله جيشاً ضخماً من الاساورة فحمل النعمان سلاحه واهله وولده وما قوي عليه حتى وفد على هانيء بن مسعود فاستودعه اهله وابنته وسلاحه ثم هرب واتى طيئاً فابوا ان يدخلوه جبلهم واتته بنو رواحة بن ربيعة بن عبس فقالوا له ابيت اللعن اقم عندنا فانا مانعوك مما نمنع منه انفسنا فقال ما احب ان تهلكوا بسببي وجزاهم خيراً وقفل عائداً الى هانيء بن مسعود فاستجاره فاجاره فقال له : لقد لزمني زمامك وانا مانعك مما امنع نفسي واهلي وولدي منه مابقي من عشيرتي الادنين رجل وان كان ذلك غير نافعك لانه مهلكي ومهلكك وعندي رأي لست اشير به عليك لادفعك عما تريده من مجاورتي ولكنه الصواب فقال له النعمان هاته فقال ان كل امر يجمل بالرجل ان يكون عليه الا ان يكون بعد الملك سوقة والموت نازل بكل احد ولئن تمت كريماً خير من ان تتجرع الذل او تبقى سوقة بعد الملك هذا ان بقيت فامض الى صاحبك — يريد كسرى — واحمل اليه هدايا ومالا والق نفسك بين يديه فاما ان صفح عنك فعدت ملكا عزيزاً واما ان اصابك فالموت خير من ان يعبث بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً او تقتل مقهوراً ، فقال فكيف بحرمي قال هن في ذمتي لايخلص اليهن حتى يخلص الى بناتي فقال هذا وابيك الرأي الصحيح فلن اجاوزه ثم اختار خيلا

(١) الاغاني ج ٢ ص ٣١

وحللا من عصب اليمن وطرفا كانت عنده ووجه بها الي كسرى وكتب اليه يعتذر ويعلمه انه سائر اليه ووجه بها مع رسوله فقبلها كسرى وامره بالقدوم فعاد اليه الرسول فاخبره بذلك وانه لم ير له عند كسرى سوأ فمضى اليه حتى اذا وصل الى المدائن لقيه ناس من اصدقائه فقالوا له انج اذا استطعت النجاة فلما بلغ كسرى انه بالباب بعث اليه فقيده والقاه تحت الفيلة فوطئته حتى مات (١)

ولما وضح لكسرى ان مال النعمان وحلقته وولده عند ابن مسعود بعث اليه رجلا يقول له « ان النعمان انما كان عاملي وقد استودعك ماله واهله والحلقة فابعث بها الي ولا تكلفني ان ابعث اليك ولا الى قومك بالجنود تقتل المقاتلة وتسبي الذرية» فبعث اليه هانيء ان الذي بلغك باطل وما عندي قليل ولا كثير وان يكن الامر كما قيل فانما انا احد رجلين اما رجل استودع امانة فهو حقيق ان يردها على من استودعه اياها ولن يسلم الحر امانته او رجل مكذوب عليه فليس ينبغي ان تأخذه بقول عدو او حاسد ، فلما ورد عليه كتاب هانيء دعا اياس بن قبيصة الطائي وكان عامله على العراق فاتاه في صنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل اصحاب هانيء فقال له اياس ان هذا الحي من بكر بن وائل اذا احاطوا بذي قار تهافتوا تهافت الجراد في النار فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على جميع العرب فكانت ثلاثة الآف وعقد لقائده الهامرز على ثلاثة الآف وسارت هذه الجيوش كلها حتى بلغت بطحاء ذي قار (٢) وفيها بكر بن وائل وراياتها معقودة على هانيء بن مسعود .

ولم يشأ كسرى ان يشرع في المعركة فبعث الى الذادة والحماة في ذي قار رسولا هو النعمان بن زرعة سيد بني تغلب فقال لهم « انكم اخوالي واحد طرفي وان الرائد لا يكذب اهله وقد اتاكم مالا قبل لكم به من احرار فارس وفرسان العرب وان في

---

(١) الاغاني ج ٢٠ ص ١٣٢

(٢) الاغاني ج ٢٠ ص ١٣٤

ترك الشر خيارا ولئن يفتدي بعضكم بعضاً خير من ان يصطلموا » فقال له القوم ننظر في امرنا وبعثوا الى من يليهم من بكر بن وائل فلا ترفع لهم جماعة الا قالوا سيدنا في هذه ثم رفعت لهم جماعة اخرى اكبر مما كان يجيء فقالوا لقد جاء سيدنا فاذا رجل أصلع الشعر عظيم البطن مشرب حمرة فحدقوا اليه فاذا هو حنظلة بن ثعلبة بن سيار فقالوا يا ابا معدان قد طال انتظارنا وقد كرهنا ان نقطع امراً دونك وهذا ابن اختك النعمان بن زرعة فقد جاءنا والرائد لا يكذب اهله ، قال فما الذي اجمع عليه رأيكم واتفق عليه ملؤكم ؟ فقصوا عليه ما قاله النعمان بن زرعة فقال حنظلة النار ولا العار ! المنية ولا الدنية ثم امر بقبته فضربت بوادي ذي قار حيال قبة هانيء بن مسعود فنزل ونزل الناس فاطافوا به وقال لهانيء بن مسعود « ياابا امامة ان ذمتكم ذمتنا عامة وانه لن يوصل اليك حتى تفنى ارواحنا » ثم التفت حنظلة الى النعمان بن زرعة وقال له لولا انك رسول ما ابت الى قومك سالماً فرجع النعمان الى اصحابه فاخبرهم بما رد عليه القوم فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال وباتت بكر بن وائل يتأهبون للحرب فلما اصبحوا اقبلت الاعاجم نحوهم وامر حنظلة بالظعنة جميعاً فوقفها خلف الناس ثم قال يا معشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم اودعوا فاقبلت الاعاجم يسيرون على تعبئة فصاح حنظلة يا معشر بكر بن وائل ان النشاب الذي مع الاعاجم بعرفكم فاذا ارسلوه لم يخطكم فعاجلوهم اللقاء وابدؤهم بالشدة ثم قام هانيء بن مسعود فقال ياقوم مهلك مقدور خير من نجاء معرور وان الحذر لا يدفع القدر وان الصبر من اسباب الظفر ، المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره والطعن في الثغر اكرم من الطعن في الدبر (١)

وطفق هانيء يتفرس في الوجوه ليرى اذا كانت قد غشيتها رعدة ، واخذ يقرأ ما تجنه القلوب ، لقد كان يخاف ان يجبن قومه في قتال العدو القديم ، وكان لا يحتقر سلاح كسري ولا يزدريه ، بل كان يعرف مضاء هذا السلاح الذي راح لامعاً براقا

(١) الاغاني ج ٢٠ ص ١٣٦ و ١٣٧

في سماء بزنطية وفي آفاق الشرق ! فلما اطمأن الى صفاء تلك الوجوه ، ولمس كبرياء تلك النفوس اقبل على فتيان ذي قار يشد ايديهم شداً ويحمد لهم جلدهم على لقاء العدو !

وقبل ان تبدأ المعركة التفت هانيء الى الارض العراقية وقال « حذار ايها الوطن ان تتداعى منك الجدران والاقواس والعمد والابراج من كل هذا الذي بناه اجدادنا الاولون فوق ترابك المقدس » !

ثم انحى ناحية ذي قار فلاح له الوادي والافق والجبل البعيد فانبرى صائحاً :

« اللهم استجب نذري وفجر من دمي ناراً تحرق قلوب هؤلاء الذين احتواهم الوادي فلعلهم يتعرفون الى النصر على ضوء اللهب » ؟ . .

لقد كان هذا السلاح الذي يحمله قومي وقفاً على اغراض الرومان والفرس وكان شيابنا يأنفون القتال في ارض الوطن ، ولكنهم لم يكونوا يأنفونه في الارض الاجنبية فاجعله اللهم وقفاً على اغراض هذه الارض واحجب عن عيوننا ظل الارض الاجنبية الى الابد ! ثم التفت الى شباب ذي قار واردف :

« لقد بدأت المعركة فليكن شعارنا فيها دم النعمان بن المنذر »

طغت سيول بكر بن وائل على الحومة طغياناً شديداً ، فنفرت الجحافل من الاعالي والمرتفعات وخرجت الخيول من الاودية ، وماجت الاعلام تحت زرقة السماء ونهدت افيال الفرس الى خيول العرب ، وخاض الفريقان لجج الدماء تحت وابل من النشاب ، وكانت طبول الفرس ترعد في الافق ارعاداً شديداً ولم يكن للعرب طبول ولكن نواقيس البيع والمحاريب ظلت تعصف فاحمس عصفها فتيان ذي قار فاغلظوا في المجالدة والمنافحة !

كان للفرس نشيد يغنونه وقد صاغوا معانيه من معارك ظافرة فيأتهم اعلامها في بطاح ارمينية وارض الرومان ولم يكن للعرب نشيد يغنونه لان الاجنبي منعهم النصر فعجزت افهامهم عن خلق المعاني المستحبة وركدت اذهانهم ركوداً اطفأ في

صدورهم ذلك الاحساس الجائش الذي يخلق الانشودة فتخرج زاخرة بروح الوطن
كان للفرس ابواق تعصف ، وقد طافت اصواتها الاجواء المترامية النواحي وحملت الرياح اصداءها الى الشواطيء البعيدة ولم يكن للعرب ابواق تعصف ولو في هذا الافق الضيق ، افق ذي قار !

حميت المعركة وصفوف بكر بن وائل خلاء من الطبول والاناشيد والابواق واخذ الفرس يقذفون بالفيلة الصارخة المهتاجة فتدفقت كالاتي حتى حصدت صفوف بكر بن وائل ولما اغسى الليل اذا ارض الوادي تجيش بجثث الفتيان المساميح !

ولما وقفت ليلى في حديثها عند هذا المدى صاحت هند ملتاعة !

ــ هل خسرت بكر بن وائل المعركة ياسيدي ؟ قل لي ناشدتك الله اين كان هانيء ساعة اختلطت افيال الفرس بخيول العرب ؟

فقالت ليلى هادئة !

ــ لم تخسر بكر بن وائل المعركة ! وكان هانيء على رابية بعيدة ينظر الى حصاد الفيلة في فتيان ذي قار !

ــ وماذا افعل هانيء ؟ هل طوى ليلته تلك على الهزيمة ؟

فاستأنفت ليلى حديثها قائلة :

ظلت ارض ذي قار تمور بلجج من الخيل والفيلة والرجال والدخان والغبار حتى نصف الليل وحتى شعر العدوان بالتعب فتهادنا وتوادعا وانقلب كل فريق الى موتاه يريد ان يواريهم في سدفة الارض قبل طلوع الشمس !

قالت هند وهي مصغية الى حديث ليلى :

ــ وحنظلة بن ثعلبة ياسيدي ؟ اين كان هذا البطل في تلك الليلة الروعاء !

قالت ليلى :

رأى حنظلة هذه الجروح الداميات في صدر ذي قار فترك مكانه على الرابية مع عشرة من الفرسان المساعير يريد بني تغلب اخواله لعله يستفزهم الى قتال العدو

الذي لم تنقطع حشوده وزحوفه وفي صباح اليوم التالي لحقت تغلب ببكر بن وائل ومعها راياتها واعلامها ولكنها كانت في حاجة الى الطبول والابواق والاناشيد فلم تستطع ان تحمل النصر الى تلك الصفوف المهشمة فهزمتهـــا افيال كسرى ولحق الهامرز قائد الفرس بفلولها الشاردة حتى سد عليها مسارب الوادي ومنعها ان تعوذ بالجبـال .

فوضعت هند يدها على عينيها كأنها تريد ان تبعد شبح المعركة وقد تمثلتهـــا واردفت هامسة !

ـــ وفرسان كندة ؟ لقد قيل لي ان هؤلاء الفرسان الذين قـادهم امرؤ القيس ابن حجر الى المعارك الظافرة قد عاذوا بارض الحيرة ليعيشوا تحت اكناف المناذرة ملوك العراق بعد موت سيدهم فاين كان هؤلاء ساعة احدقت جيوش كسرى بذي قار

فقـالت ليلى :

ـــ خبت نار الحرب خلال ثلاثة ايام ، انقطع فيهـــا الذادة والكماة الى جمع صفوفهم الممزقة في رؤوس الجبال وكان الفرس قد نصبوا خيامهم على السفـائح وقد اطمأنوا الى عجز عدوهم عن خوض المعركة كرة اخرى وفي ذات مساء بينما كانت نيران بكر بن وائل تتالظى على الربوات ، خرج الى ذي قار فارس متلفع برداء اسود وكان جواده بلون الفجر فصعد في الجبل تاركا وراءه خيام الفرس واخذ ينظر الى اشعة الطفل المترقرقة على الجبال نظرة سارة طروبة ثم جعـــل يتحدث الى العرار والدردار بحديث يفوح بعطر الحياة بينما اشباح الموت تغطي خيام العرب !

ولما حسرت النيران عن هذا الفارس وانكشف وجهه لفرسان بكر بن وائل وتغلب صاح هانيء بن مسعود دونكم هذا الرجل فاني ارى على وجهه نشوة الفرح الاكيد . . .

وابى حنظلة بن ثعلبة الا ان يخرج بنفسه الى لقاء الفارس فاقبل اليه حتى صاقبه وقال له : من الرجل ؟ فصاح الفارس ؟ شاعر انزعت الاحزان شعره سمبا ذعافا

فجاء الى ذي قار يبحث في اصلادها واوديتها عن معين رقراق يغسل به السم الذي يقرض ذكاءه . .

فحدق حنظلة الى الشاعر الذي لوح بربابته وانثنى يسأله:

— من قال لك ان نفوسنا في حاجة الى الشعر ؟

فصاح الفارس :

— الم يمت شعراء كندة وتغلب ايها السيد ؟ قال حنظلة بلى ، فقال الفارس !

— الستم في حاجة الى شاعر نابه يستجيش القبائل ويدفعها الى البحث عن الشهرة والمجد تحت غيوم النقع ؟

قال حنظلة بلى ولكن الشعراء النابهين قد ماتوا !

فقال الفارس : هذا صحيح ياسيدي الكمي ولكن موت الشعراء لا يعني موت الشعر في الحجاز ونجد ، انطلق بي الى قومك فاني محدثهم عن شاعر يحبونه اشد الحب ! فقال حنظلة :

— من انت ايها السيد ؟

فقال الفارس :

— ستعرف من انا ولكن ليس هنا على هذه الهضبة ، بل هنالك تحت الرايات واشار بيده الى خيام فتيان ذي قار فقال له حنظلة :

— افعل ماشئت ولكن احترس ان تكون مكروهاً منهؤلاء الفتيان

ومضى به الى خيام بكر بن وائل فخرج الى لقائه هانيء بن مسعود وجميع الغطاريف فاستقبلهم بتحية حلوة عذبة فسأله هانيء :

— من اين انت قادم ؟ فقال بلهجة وادعة :

— من الحجاز ارض النبوة ايها السيد .

فنظر هانيء الى الفارس نظرة راعشة وقال له :

— ما اسمك ؟

قال : قل لي السئم في حاجة الى شاعر يهزكم شعره ؟

قال بلى : فانا ذلك الشاعر ، انا الاعشى ايها الناس !

فصاح الفتيان :

ـــ صناجة العرب ؟ ! !

فقال بلى : انا من ترددون شعره في جبالكم واوديتكم وصحراواتكم . . .

فصاح حنظلة :

ـــ يااللشاعر النابه . . اين هي اشعارك ياسيدي ! ؟ اين هي اشعارك ؟

وطغت على وجه ليلى وهي تلفظ اسم الاعشى رعشة كبر وحماسة فاخذت تكثر من ترديد اسمه ـــ وهند تردد كلمات حنظلة .

ـــ يااللشاعر النابه ، يااللشاعر النابه . . ثم التفتت الى ليلى وسألتها قائلة :

ـــ وماذا حدث بعد ذلك ياسيدي البطل ؟ هل اسمع الاعشى شعره اولئك المحاربين فانتصروا ؟

فاستأنفت ليلى حديثها قائلة :

« ولما استوثق هانيء من امر الفارس اخذه بين ذراعيه وسأله :

« ـــ قلت لي منذ هنيهة انك قادم من ارض النبوة ؟ فهل في مقدورك ان تتحدث الينا عن ذلك النبي الذي اشرق نوره في بطحاء مكة ! ـــ »

فسكت الاعشى سكوتا طويلا ثم اردف :

ـــ جاء قوم النبي وهو حيال الكعبة فوصفوا له كارثة النعمان بن المنذر فشجي ورفع يديه الى السماء فدعا لبكر بن وائل بالنصر (١)

فطفر حنظلة الى ناحية الاعشى وقال له :

---

(١) روي ان النبي مثلث له الواقعة فرفع يديه وقال اللهم انصر بني ربيعة اللهم انصر بني ربيعة وقد وقعت معركة ذي قار والرسول في المدينة فلما بلغه ذلك قال هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا ـــ الاغاني ج ٢٠ ص ١٣٨



كسرى ابرويز في ذي قار مع قائديه

ـــ ما اسم هذا النبي الذي ذكرت ؟

قال هو سيد العالم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فالتفت حنظلة الى قومه صائحاً « ليكن شعاركم ايها الفتيان الغطاريف في ذي قار هذا الاسم العذب !

واقبل الفتيان على الاعشى يسألونه عن النبي وهو يتحدث اليهم عن روائعه حتى استجاش حميتهم وبعث في نفوسهم تلك الآمال التي انملست منها في الليالي الماضية

وعاد هانيء الى الاعشى وقال له :

ـــ انك ستقول الشعر اليس كذلك ؟

قال بلى !

قال : قله بارك الله فيك فان نفوسنا ظلت ماحلة منذ توارت عن افق العراق شموس شعرائه ! فقال الاعشى ولكنني لا اراكم في حاجة الى الشعر لان في بهاء النبوة ماهو ابهى من جميع اشعار العرب فقال هانيء : صدقت ياسيدي .

ثم همس باسم الرسول في سمع حنظلة فحمل حنظلة بدوره هذا الاسم الى فتيان ذي قار فخرج من افواههم حلواً عذبا وكان لاصواتهم في تلك الجبال جلجلة عظيمة رددت الاعراف صداها في سماء الحيرة !

ولما رأى الاعشى حصاد عمله في هذه الجموع التفت الى هانيء قائلا :

ـــ بقي علي ايها البطل ان امضي الى كندة لاسمعها شعري واستفزها الى النصر فحدجه هانيء بعينين براقتين واردف :

ـــ او فاعل انت ما ذكرت ؟ قال نعم فنادى هانيء عشرة من فرسان بكر بن وائل وارادهم على اللحاق بالاعشى ففعلوا .

وتتالت ايام على هذه الحادثة ، والهدنة بين الفرس والعرب لا تمس وفي ذات مساء اضطرب الافق باصوات الابواق فخيل الى هانيء ان الفرس خرجوا من مكامنهم على سفائح الوادي للمناخة فدعا شبان بكر بن وائل الى المعركة وفي تلك

الاثناء تطاغى صوت الابواق وتخلل هذا العزيف الحربي انشاد فاتن ساحر بلغة قريش فتمايد هانيء من الطرب واردف ؟

— الا تسمعون معي ما اسمع ؟

فصاحوا : مـــاذا ؟ قال هذه ابواق كندة ورب الكعبة قال حنظلة « من اين علمت انها ابواق كندة ؟ قال انكم تعلمون معي ان العرب ليس لهم نشيد يرددونه ولكن لكندة وقد كثرت فيها الملوك اكثر من نشيد ! قال حنظلة هذا صحيح .

واقترب الصوت ، ثم اقترب،واقترب كثيراً ، ثم اذا هو يطفو في كل ناحيةمن نواحي الجبل فقام الفتيان الى خيولهم وحنظلة وهانيء في الطليعة وفي تلك اللحظة امتدت اشباح الفرسان على الذرى والشمس تظل اعلامها وراياتها والابواقلاتزال على عصفها وتكبيرها وفي المقدمة فارس قد تسدر برداء ازرق ! نعم ياسيدتي برداء ازرق ! اراك ترعشين ياسيدتي فهل رابك شيء في حديثي ؟

فقالت هند قلقة واجمة ، كلا ياسيديولكنهذا اللونالازرققد ارعشنيكثيراً .

فقالت ليلى : ولماذا ياسيدتي ؟ فهل تكرهين هذا اللون ؟ قالت لا ولكن اللون الازرق شعار كندة وانا من كندة . .

فقالت ليلى :

— اتمتين بنسب الى كندة ياسيدتي ؟

قالت : نعم والوعتاه ؟

قالت ليلى — وفيم هذه اللوعة ؟ قالت هنـــد ، لقد كان ابي سيد كندة في سالف الزمن !

— سيدتي !.

— سيدي البطل ! تابع حديثك ولا تذكرني بالماضي ، من هو ذلك الفـــارس صاحب الرداء الازرق ؟ فقالت ليلى :

— لم يكن قائد الفرسان رجلا بل كان امرأة ! فصاحت هند صيحة أليمة :

ـــ ماذا تقول ياسيدي ؟ أكان قائد الفرسان امرأة ؟ اذن فتلك المرأة هي عمتي يا سيدي البطل ، قل أكنت عن كثب منها ؟ وهل سمعت حديثها ؟

فقالت ليلى :

ـــ من اين علمت انها عمتك يا سيدتي ؟

قالت :

ـــ ان لباس ملوك كندة هو اللون الازرق وليس في كندة من اسرة امريء القيس بن حجر غير عمتي ليلى ابنة عمرو آكل المرار وهي قد غادرت الحجاز للالتحاق بقومها رجاة ان تقاتل في ذي قار .

قالت ليلى : وشيء غريب يا سيدتي فان تحية هذه المرأة لغطاريف ذي قار كانت غاية في البساطة وقد بدأتها باسم سيد قريش .

فصرخت هند :

بورك في امرأة ارضعتك يا عمتي ، انها عمتي يا سيدي ، بلى ايها السادة انها عمتي ! عمتي التعسة التي افنت شبابها في ثلج بيزنطية ثم جاءت تدفن شيخوختها في ارض الوطن .

وغامت عيناها فلم تستطع ليلى صبراً فبكت بكاء شديداً حتى اذهل بكاؤها ضيوف القصر فقال لها ابو سفيان بن حرب :

ـــ لعلك من كندة يا سيدي ؟ فخنت ليلى رأسها واردفت :

ـــ هذا ما يقوله الناس .

فقالت هند: من انت يا سيدي البطل؟ فقالت ليلى : دعيني ياسيدتي أواصل حديثي

« لما تعارف الجميع على روابي ذي قار خطبت المرأة ذات الرداء الازرق في الذادة والكماة فقالت لهم ان كندة دفنت ثاراتها في بيزنطية فما عادت تشعر بغير الحب وحيث قد جاء سيد قريش بشريعة قائمة على الحب والموادعة فقد اصبح من واجب جميع العرب في الشام والعراق ان يمشوا تحت رايته الى انقاذ ارض الوطن

وللمرة الاولى وبعد قرون مديدة اضطربت صدور الكماة والغطاريف والقواد باسم سيد العالم وفي اليوم التالي خرجت الصفوف من عزلاتها على الجبال منحدرة الى الاودية حيث خيام الفرس واصوات الابواق تعصف مجلجلة في كل ناحية . يا للروعة منذ ايام لم يكن لهؤلاء المحاربين نشيد ينشدونه فأصبح أسم سيد قريش انشودتهم الصافية .

ولما رأى الفرس ان العرب قد انحدروا اليهم من اعالي الجبال فرقوا اشد الفرق فقاموا الى افيالهم يحركونها ، ثم حميت المعركة وقام حنظلة بن ثعلبة الى وضين امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن (١) ووقف بنو عجل في الميمنة بازاء القائد الفارسي خنابرين ، وكانت بنو شيبان في الميسرة بازاء كتيبة الهامرز ، وكانت افناء بني بكر بن وائل في القلل وفيها الاعشى الشاعر .

ظللت الشمس الحمراء هذه الكتائب فعبر هانيء بن مسعود الوادي بجموع بكر ابن وائل ووقفت السيدة الكندية على مفارق الطرق تمنع الفرس ان يخرجوا منها الى المسارب والمعابر وكان الفرسان جميعاً ينعمون بعافية وشباب ورجاء ، نعم لقد تحيفهم تعب جاهد وهم ينحدرون من الاعالي والمرتفعات ولكنهم وجدوا لذة في الالم لأنهم كانوا ينافحون عن حرية الارض التي رواها آباؤهم بدمائهم الغالية .

وأخذ الاعشى يغني أنشودته في وسط هذا الملأ المسلح والربابة لا تفارق يده وكلما أوغل في الغناء اوغلت يده في استثارة الربابة حتى حركت انغامه فرسان ذي قار فزحموا الفيلة بخيولهم وعرضوا صدورهم لرماح الفرس ونشابهم .

وكان هانيء بن مسعود ابسل من عرفتهم ارض ذي قار فلقد شهدته بعيني يركض بجواده الى صفوف الافيال فيتهافت عليها فلا يخاف ارعادها واغتلامها ، ثم رأيته لا يحجم عن ان يغمس خنجره في صدر احد الافيال فيخر هذا على الارض براكبه ثم ينزع الى فيل آخر فيسدد الى صدره النشاب فاذا عجز عن اماتته

---

(١) الوضين بطان الناقة وقد سمي حنظلة في ذلك اليوم مقطع الوضين «الأغاني»

عمد الى خنجره فأهوى به على صدر راكبه غير جازع ولا واهن ، ثم يعود الى صفوف الفرس فيمعن فيها قتلا وتدويخاً وشعر الاعشى اغنيته الصافية ، وغطاريف ذي قار يرددون هذا الشعر .

طغت المعركة على الليل كله وفي الصباح فتح حنظلة بن ثعلبة مقطع الوضين ثغرة في صفوف الجيش الذي يقوده خنابرين الفارسي فمشت ربيعة على جثث الفرس حتى بلغت خيمة خنابرين فحجزت القائد الفارسي وجاءت به مع سلاحه الى حنظلة فقطع رأسه وامر الناس ان يطوفوا به في عرض الوادي .

ولما اغسق الليل طلع القمر في سماء صحو وامتدت الكواكب كأنها جزر من الضياء نثرتها الطبيعة على الذرى والسفوح وتحت هذا الضياء الباهر عرض للناس مشهد القتلى من الفرس فأحصيهم فتباروا في المنافخة والمجالدة .

ثم غشي الصمت ارجاء ذي قار ، فما عاد المحاربون يسمعون غير حفيف الورق وغير هدير الماء في الوادي، ونامت الرياح فكفت الرايات عن الخفق ، وكان لا ندحة للفريقين عن الموادعة فتوادعوا الليلة كلها .

وهنا وقفت ليلى عن الحديث لتستريح وبعد قليل قالت هند :

— في اي الصفوف كنت يا سيدي البطل ؟

— كنت في صفوف كندة .

— هل كنت ترى تلك المرأة ذات الملابس الزرقاء ؟

— لقد كنت دائماً على مقربة منها حتى لأستطيع القول ان خيالها كان منقوشاً على قلبي .

— وماذا كانت تقول لك ؟ أما كانت تقول ان لها طائفة من الاحبة في ارض الشام ؟

— كنت انظر اليها خلسة في بعض الاحايين لأسترق همس فؤادها فكنت اسمعها تنشج وتبكي ولكني لم اسألها مرة واحدة عن ذلك الالم الذي يذري دمعها.

ـ وارحمتاه لها . . . ! قل لي يا سيدي هل شاخت عمتي كثيرا ؟

فقالت ليلى :

ـ لقد ردت اليها ارض ذي قار شبابها الماضي فكأنها وقد سلخت الستين من عمرها عادت الى ربيعها السابع عشر . فأشرق وجه هند وراحت تزهو ثم انثنت قائلة :

تابع حديثك يا سيدي البطل فقالت ليلى :

ولكن ذلك الصمت الذي شمل الكون جميعاً لم يلبث طويلا فقد قطعه صوت البوق في الصباح فهب الكماة من خيامهم وقاموا الى اسلحتهم ، ثم ارتفع صوت الاعشى بالانشاد فتسربت رناته العذاب الى جميع الصفوف ، وكان النصر الذي ادركه المحاربون في الليلة الماضية قد فتح امام الشاعر افقاً جديداً من المعاني فاستساغ الكماة والذادة هذا الشعر وجربوا ان ينتصروا كرة أخرى فانتصروا ، وكان هانيء ابن مسعود في هذه المرة سيد هذا النصر الجديد ، وقتل في المعركة الهامرز قائد الفرس الاعلى فانهزمت جنوده واتبعتهم بكر بن وائل وهم يصيحون يا آل محمد يا آل محمد ، وكان اول من انصرف الى كسرى بالهزيمة اياس بن قبيصة عامله على الحيرة ولم تستطع فلول الفرس النجاة فغرق بعضها في النهر وأبادت السيدة الكندية القائمة على حراسة الطرق والمسارب فلول الهاربين .

ولم تشأ بكر بن وائل ان تطوي راياتها في ذلك الصباح فاجتمعت تحت قيادة هانيء بن مسعود وحنظلة بن ثعلبة وانضمت اليها فرسان كندة واعتزم الجميع الزحف الى الحيرة ولكن السيدة الكندية ذات اللباس الازرق ابت ان تفارق ارض ذي قار قبل ان تتحدث الى قتلى الفرس فوقفت بين هانيء وحنظلة على شفير الوادي تحت ظلال الشمس وخاطبت الفرس بلهجة بارعة انست المحاربين بلاغة الاعشى الشاعر ، فقالت هند :

ـ اتحفظ يا سيدي البطل ما قالته عمتي ؟

فقالت ليلى :

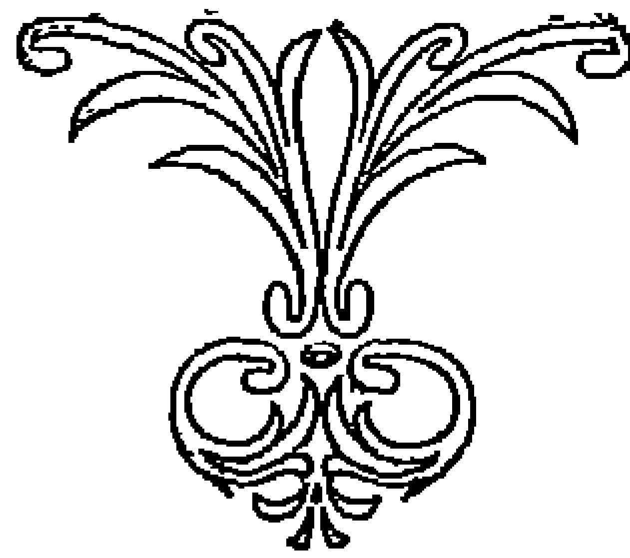
ـ حدجت السيدة الكندية الوادي بعينين نديتين واردفت :

خلد الله شرفك يا ارض ذي‌قار فلقد استطعت على خمول اسمك وركود صيتك ان تطوي في سفائحك واوديتك عالماً كبيراً من الفرس ، وقد كان هذا العالم الى العشية الماضية يطوي في لججه الزاخرة ارض الرومان وجبال ارمينية الشواهق ، ثم التفتت الى قتلى كندة وبكر بن وائل واردفت :

ان نجوم السماء لتنطفيء ثم تسقط الى العباب الازرق ولكن شهرتكم المجيدة ايها الابطال الذين احتوتهم ارض ذي قار لن تنطفيء وسيظل اسم سيد قريش عالمها الذي تعيش فيه .

قالت ذلك ومدت يدها الى الاعشى صائحة :

ـ بارك الله فيك ايها الشاعر الذي خلدت اغانيه واناشيده على الدهر شهرة ذي قار .؟



الفصل التاسع والثلاثون
تحية كندة

لما وقفت ليلى عند هذا الحد في حديثها الشجي غشيت القصر غاشية من ألم وارتماض فتنهدحسان وشحب وجه ابي سفيان شحوبة أليمة ورعش حنظلة الكندي وتمايد شرحبيل فتى غسان المنتصر وازدحمت الهواجس المرة دفعة واحدة في صدر هند فرزحت تحت وقرها واذرت دمعها ثم جمد على وجهها برد شديد وطفقت تهمس :

ـ ثم ماذا يا سيدي البطل ؟

فقالت ليلى :

ـ ما يبكيك يا سيدتي فهل رأيت في خطبة الاميرة الكندية صورة لا تروق؟

فقالت هند :

ـ لقد اذكرتني خطبتها في وادي ذي قار خطبها في بيزنطية والشام فلقد كانت عمتي التعسة تصبغ كلماتها بألوان هذه السحب القاتمة التي تغطي نفسها كأن الطبيعة قد ارادتها على الاستئناس بالالوان الكامدة .

تكلم يا سيدي ! تكلم ! قالت ليلى !

وفي ذات يوم خرجت بكر بن وائل الى الحيرة فلحقت بها فرسان كندة وحمل هانيء معه اسرة الملك المنكود الحظ النعمان بن المنذر وفي الطريق تعرفت سيدة كندة الى مارية وهند ابنتي النعمان .

وهنا غشيت ليلى ذهلة شديدة فأخذت تهمس « رباه دائماً هند ومارية ! دائماً هند ومارية ! يا للرعب ! يا للخوف ! »

فنظرت هند اليها نظرة راعشة وقالت لها :

ـــ دائماً هند ومارية ! هل كنت تعرف فتيات كثيرات بهذا الاسم ؟

فاستفاقت ليلى من ذهلتها ولم يفتهـــا ما ارادته هند في سؤالها فأحبت ان تزيل هذه الشكوك التي علقت بنفسها فقالت لها :

ـــ سيدتي ! كان لي بنتان بل زهرتان نديتان ، وكنت استروح الى عبقهما اللذ وكانتا تطيران في افق حياتي الجاهم لاهيتين باسمتين ، وكان لهما هذان الاسمان الرقيقان هند ومارية ، يا لصفاء هذين الاسمين يا سيدتي .

فقالت هند :

ـــ هل فقدت ابنتيك يا سيدي البطل حتىخطرت لك ذكراهما في هذهاللحظة ؟

فأطرقت ليلى اطراقة عميقة ثم رفعت رأسها قائلة :

ـــ ماتت مارية يا سيدتي فتوليت دفنهـــا بيدي في ذات مساء واحطت قبرها المنفرد بالآس والنوار ، يا للحزن ! ان على قبرها القائم على شاطيء البحر تحت قبة من المرمر روعة لا استطيع لها وصفا .

قالت هند بلهجة مؤثرة :

ـــ هل دفنت ابنتك التعسة على شاطيء البحر ؟

ـــ نعم ! وفي هذا ما يرمض نفسي .

فتأوهت هند ومضت هامسة :

ـــ وانا ايضاً دفنت « ماريتي » على شاطيء البحر تحت قبة من المرمر ، قل لي يا سيدي ! أكانت ابنتك مارية جميلة وفتانة ؟

فقالت ليلى :

ـــ نعم كانت ابنتي مارية جميلة وفتانة . وقد ماتت في ربيعها السابع عشر .

فصاحت هند :

ـــ لقد ماتت مارية اختي في ربيعها السابع عشر .

ـــ ماذا تقولين يا سيدتي ؟

ــ ان في حياتك هذه لصوراً تشبه صور حياتي ، قل ايها البطل مافعل الله بابنتك هند ! هل ماتت ؟

فنظرت ليلى نظرة عميقة الى وجه هند الراعش كأنها تريد ان تقرأ فيه خوالج نفسها ، ثم انثنت قائلة :

ــ لم تمت ابنتي هند يا سيدتي !.. ولكن ...

ــ ولكن ماذا ؟ قل بربك يا سيدي قل! تكلم ! الا تزال ابنتك هند في الاحياء؟

ــ انها تعيش في عالم بعيد ، ولكن ماذا يعنيك يا سيدتي من قصة حياتي ؟ انها قصة مؤلمة وما اظنك تستروحين الى حديث المآسي .

ــ ولكن في حياتي اكثر من مأساة وقد اسماني ابي التعس هنداً واسمى اختي الصغيرة مارية ، وكانت حظوظنا معاً شبيهة بحظوظ ابنتيك هند ومارية ، ماتت ماريتك وماتت ماريتي ، ولكن هندك لم تمت ولا ازال انا هند ابنة التعس امريء القيس بن حجر في هذه الحياة الدنيا تتجاذبني رياحها وتتخطفني لججها .

قالت ليلى :

ــ دعينا من هذه الذكريات فليس في صورها ما يروق .

ــ تابع حديثك يا سيدي !.. تابع حديثك ، فأردفت ليلى :

« وفي الطريق تعرفت سيدة كندة الى مارية وهند ابنتي النعمان ، وكانت هند مدنفة عليلة تحملها فرسان كندة على المناكب وظلت هند الى جانب ذات الرداء الازرق وبعد طواف جاهد لاحت لنا ارض الحيرة العاشبة ونهرها المائج وصافحت عيوننا ابراج قصري الخورنق والسدير .

لقد اثار مشهد الخورنق والسدير ثائرة فتيان ذي قار فصاح هانيء ايها الفتيان الغطاريف ان اياس بن قبيصة عامل كسرى النذل قد القى سلاحه في ذي قار لينعم بمطايب العيش في الخورنق تحت القبة التي اظلت في الماضي شعراء نجد والعراق والحجاز فأصبح من حق الحرية التي هامت على وجهها في الجبال الصاردة

والصحراء المشبوبة ان تطمئن الى الدعة والمراح تحت قبة الشعراء ، ولكن الحرية لا تطمئن الى هذه الدعة المرجوة والظالم اياس لا يزال في القصر الذي يطوف شبح النعمان بن المنذر بغرفه وخلواته ، ثم سكت سكوتاً طويلا وأخذ يتفرس في وجوه الفرسان فرأى عليها وميض حماسة ، وبصيص كبر فدعاهم الى مهاجمة القصر.

ولما سجا الليل بدأنا الزحف وانتشرت فرساننا على الروابي والذرى ، ووطئت خيولنا الحزون والنجود ، ومرت طلائعنا بالاودية ، ولكن هذا الجند الذي نهد للدفاع عن الحرية لم يشأ ان ينهي طوافه قبل ان يرقد من في القصر، وكان لا ندحة لنا عن التربص فاجتمعنا الى غابة وارفة الظل فاحتوتنا بواسقها ومنعت كثافتها ان يسترق الناس همس قلوبنا وفي تلك الاثناء التفت هانيء بن مسعود الى حلفائه من بكر بن وائل وربيعة وكندة وقال بصوت عاصف : « من منكم ايها المنتصرون في ذي قار يبيع نفسه في سبيل الثأر بالملك الشهيد القتيل ؟ فصاحت كندة جميعاً « نحن لهذا الامر ايها الهمام » وأخذت اميرة كندة ذات الرداء الازرق تتحدث الى هانيء بلهجة اذكرتني — واحر قلباه — لهجة ذلك الملك الشاعر امريء القيس بن حجر فبكيت وبكيت كثيرا ...

. ولما نطقت ليلى باسم امريء القيس رعش حنظلة الكندي وتمايد من الحزن وصاحت هند ابنة الشاعر التعس :

— اكنت تعرف ابي يا سيدي البطل ؟

فألقت ليلى نظراً رقيقاً حادباً على هند وسألتها قائلة :

— أهو ابوك يا سيدتي ؟

— نعم هو ابي فهل كنت تعرفه يا سيدي البطل ؟ اكنت تعرف هذا الملك الذي طارده المنذر بن ماء السماء في كل ناحية من نواحي الارض ؟ اكنت، تعرف هذا الملك الشهيد الذي قتله ذعاف تيودورا ؟ فصاحت ليلى :

— نعم يا سيدتي ! نعم يا سيدتي ! لقد عرفت ملك كندة في الماضي ، ولكن

اي جنون جنوني هذا ؟ لقد اثرت حزنك و ياسك ، وكان علي ان احمل الى نفسك الفرح والامل ، دعيني ناشدتك الله اتمم حديثي .

فتنهدت هند وانثنت قائلة :

— تكلم ! تكلم ! ماذا قالت سيدة كندة لهانيء بن مسعود ؟

— قالت له بتلك اللهجة السامية « من حق كندة ايها الهمام ان تضطلع بهذا الامر فلقد ابى امرؤ القيس ان يموت على ذرى جبل انقرة المثلجة قبل ان يواري في رمسه شبح البغض فصفح عن المنذر بن ماء السماء وتغاضى عن آله ونصح كندة ان تدفن ثاراتها واحقادها حتى يستطيع قومه الذائدون عن حرية ارضهم حماية هذه الحرية ، فأنت ترى من ذلك ان احب الاشياء الى كندة ان تثأر بدم النعمان بن المنذر من قاتليه حتي يعلم الناس الى اي مدى ذهبت كندة في نسيان ذلك الماضي ، فشجي هانيء وقال لذات اللباس الازرق :

— لك هذا الذي تريدين يا سيدتي .

وفي اقل من القليل أخذت ابواق كندة تنبعث من صميم الغاب لخروج الفرسان تحت عصفها الى قصر الخورنق تتقدمهم تلك المرأة الباسلة وابي الاعشى الشاعر الا ان يرافق هذه الجموع الثائرة على الظلم .

نصف الليل فاذا كندة تحدق بالخورنق من جميع اطرافه واذا عشرة من البواسل يتسلقون الجدران الغليظة والسيدة الكندية تباركهم عن كثب واخذ القمر في هذه اللحظة المرهوبة يريق انواره الشاحبة على وجوه الفرسان الذين تسلقوا اسوار القصر فلاحت حماسة هذه الوجوه تحت ضوء القمر للسيدة الكندية فتمثلت كبرياء كندة فصاحت صياحاً شديدا :

— يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك !

ولما توارى الفرسان عن العيون بعد انحدارهم الى القصر نثرت الاميرة فرسانها الابابسل علي الابواب رجاة ان تمنع طاغية العرب اياس بن قبيصة من الهرب

ومضت تحدق الى البرج تحديقاً غريباً لعلها تبصر فتى من فتيانها العشرة .

ومرت لحظات ، ثم تتالت لحظات بطاء ، والسكون يغشى نواحي القصر ، ثم مرت لحظات وذلك الخيال الذي املت ظهوره على البرج لا يزال بعيدا ، فأحست يأساً شديدا ، وخيل اليها ان فرسانها قد بادوا فتبرمت بوقفتها حيال القصر ورأت ان لا ندحة لها عن عبوره ولكنها احجمت عن ذلك وآثرت ان تنتظر طويلا .

وأخذ الهواء ينبعث من احشاء الليل رقيقاً حنوناً فأثارها ترديده وتسجيعه ، ثم رفعت عينيها الى البرج فاذا عليه ذلك الخيال الذي تنتظر رجعاه نخفق قلبها واقبلت الى البرج فعرض لها الخيال وهو يلوح براية كندة فنفس مشهد الراية من كربها فصاحت :

— قضي الامر .

دخل الفرسان الى الخورنق تحت تسجيع الهواء وعزيف الابواق ومضت الاميرة الكندية الى قاعة الشعراء التي اعتاد الملك النعمان بن المنذر ان يستقبل فيها النابغة الذبياني تحت القبة المذهبة فرأت الفرسان الذين ارادتهم على اختراق القصر يحيطون بالطاغية اياس بن قبيصة عامل كسرى فأحمسها هذا المشهد فمضت تبارك سيوف الفتيان ولكنها لم تقل كلمة لأياس الذي راح يرعش من الخجل .

وفي الصباح دخلت بكر بن وائل وربيعة الى قصر السدير فرفع هانيء راياته على ابراجه وشرفاته واصوات الابواق تفعم الفضاء الساكر من رحيق الحرية ، وتحت قبة الخورنق رد هانيء بن مسعود حلقة النعمان بن المنذر وسلاحه وامواله الى ابنتيه مارية وهند ، فأخذت هاتان التاعستان تلثمان هذه الودائع — وأحر قلباه — كما لثمت مارية وهند دروع ابيهما في القصر المنعزل على شواطيء البوسفور .

ولم تستطع ليلى ان تحبس دمعها حين ذكرت مارية وهنداً ابنتي امريء القيس ابن حجر فلحظت هند شجوها وألمها وحارت لهذا الحزن الشديد الذي أخذ يعتصرها كلما ذكرت اسرة ابيها وداخلتها الشكوك للمرة الاولى في حقيقة هذا البطل فالتفتت

الى ليلى وقالت لها :

ـــ اكنت تعلم قصة دروع امريء القيس يا سيدي ؟ قل لي ناشدتك الله اين رأيت ابنتيه ؟

فسكتت ليلى وراحت تفكر فانثنت هند قائلة :

ـــ من انت ايها الرجل الذي يعرف الكثير من ماضي ابي التعس ؟ ولماذا ترعش كلما وقعت عيناك على جبيني ؟ بل لماذا لاتستطيع التحديق طويلا الى وجهي ؟

فلم تنبس ليلى وظلت على اطراقها وتفكيرها فالتفتت هند الى حنظلة الكندي وسألته قائلة :

ـــ أكان هذا المحارب في صفوف ابي ؟

فرفعت ليلى عينيها الى حنظلة كأنها تريده على الصمت فلم يتكلم فواصلت هند حديثها قائلة :

ـــ قل لي اكنت ترى مع ابي فارساً له وجه هذا الفارس ؟

فقال حنظلة هامسا :

ـــ كلا يا سيدتي !

فتنهدت ليلى وعادت الى احاديثها ...

«ولم تستطع مارية ابنة النعمان بن المنذر ان تنظر الى هذا الحلم البديع الذي عرض لها وهي تلثم ودائع ابيها ، وكانت عليلة مدنفة فأغمضت عينيهــا ضاحكة باسمة كما اغمضت مارية الصغيرة ابنة امريء القيس عينيها ضاحكة باسمة ، ثم صعدت روحها الى السماء كما صعدت روح مارية ابنة امريء القيس الى السماء فأخذتهــا الاميرة الكندية بين ذراعيها كما اخذت الساحرة ليلى بين ذراعيها مارية ابنة امريء القيس .

وكان الاسى قد هد قوى ليلى هدا ، فواصلت حديثها وهي تصرخ :

«وفي اليوم الثاني ترهبت هند ابنة النعمان بن المنذر (١) وجفت ضجيج الحياة

---

(١) ترهبت هند وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة

لتبحث في سكون الدير عن الطمأنينة والراحة ولكن هنداً ابنة امريء القيس لم تحب العزلة لأن آلامها واحزانها لم تهدأ ولم تسكن ولأن هذه الآلام حملتهـــا الى الآفاق البعيدة فوارحمتاه لها .

* * *

سكتت ليلى عن الحديث فغشي الخوف والذهول والقلق جميع هؤلاء الذين احتواهم القصر ، وكانت هند ابنة امريء القيس أشد هؤلاء سبحاً وغرقاً واسرعهم الى نسيان ألمها وتذكر يومها وقد طفقت التعسة تنصت لحديث ليلى وعلى شفتيهـا ركدة عميقة ، وفي وجهها غيمة أشد عمقا ، وفي صدرها الذي كان منذ لحظة يخفق لكل نبرة من نبرات ليلى صمت بليغ ، واكثر من هذا كله كانت عيناها تلوحان سادرتين غائمتين كأن غيوم حياتها كلهـــا قد انبثقت من قرارة الماضي لتغطي هذا الحاضر الذي تعيش فيه وقد جربت التعسة ان تطرد هذه الغيوم ، وجربت ان ترى الاشياء في صورها الحقيقية فما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ومع ان عينيها ظلتا سادرتين غائمتين فقد كان احساسها الجائش يمور بالصور والاصوات ، والى هذا الاحساس الجائش الذي لم يكذبها في الماضي لجأت هذه التعسة رجاة ان يحسر لها عن حقيقة الاشياء التي تعرض لها .

لقد كان احساسها يقول لها ان صوت هذا المحارب الذي قذفت به وادي ذي

وكانت وفاتها بعد الاسلام بزمن طويل ومر المغيرة بن شعبة وقد ولاه معاوية الكوفة بدير هند فدخله ودخل على هند بنت النعمان بن المنذر بعد ان استأذن فأذنت له وبسطت له مسحاً فجلس عليه ، ثم قالت له ما جاء بك قال جئتك خاطباً ، قالت والصليب لو علمت ان في خصلة من جمال او شبـــاب رغبتك في لأجبتك ، ولكنك اردت ان تقول في المواسم ملكت ملك النعمان بن المنذر ونكحت ابنته فبحق معبودك أهذا اردت؟ فقال اي والله قالت فلا سبيل اليه فقام المغيرة وانصرف

الاغاني ج ٢ ص ٣١

قار لم يكن غريباً عنها ، ولكن في اي ناحية من هذه الارض سمعت هذا الجرس العذب ؟ أفي الشام ؟ كلا ! لقد كانت في بصرى ودمشق بين اناس تعرفهم ويعرفونها ولكنها لا تذكر ان صوتاً شبيهاً بهذا الصوت خرق سمعها ، إذن ففي اي ناحية لمست رنات هذا الصوت الشجي البليغ ؟

وكانت تعلم ان ليس في العالم الذي عرفته من يتكلم بمثل هذه اللغة السامية العالية ما خلا ذلك الشاعر التعس الذي اظلته سماء البلاد الاجنبية ، إذن فمن يكون هذا الطيف الذي جاء صوته منسجماً في روعته وصفائه في صوت ابيها ؟

وكانت تسأل احساسها عن منبع هذا الصوت فمثل لها هذا الاحساس الجائش ارض بيزنطية التي لا تحبها بل لقد مثل لها الماضي كله فرأت على ضوئه خيال ليلى الساحرة وهو يطفو حيال سرير اختها مارية في ضاحية كريسوبوليس عن كثب من مفاتن البوسفور وخيل اليها وهي تنظر الى شبح الساحرة البعيد انها تسمع صوتها وهي ترثي مارية وتبكيها ، ثم ماثلت بين صوت الساحرة وصوت هذا المحارب فروعها انسجام الصوتين ولمست في نبرات الاول نبرات الثاني فما شكت في ان صدى هذا ، كان صدى لذاك ، ولما طغت هذه الحقيقة على صدرها واحساسها اذا عيناها تريان الاشياء والمشاهد ، واذا هي تعي صورها وأشكالها فما عادت تقبل خرافة هذا البطل الذي ازجته وادي ذي قار ، فنبذتها وتعلقت بالحقيقة الماثلة ، ومضت تطرح على ليلى بعض الاسئلة ، وليلى في غشية ألمة .

تتالت لحظات وجميع من اظلهم القصر في ذهلة ألمة وبغتة نبذت ليلى مقعدها وقامت تطوف بأنحاء القصر فلحقت بها هند ولحق بها حنظلة ثم لحق بها ابو سفيان وحسان وشرحبيل وذانك الشيخان الغسانيان .

ولما وقفت في طوافها بالقصر عند باب حجرة منعزلة خفق قلب هند وأخذ العرق البارد ينحدر من جبينها فقالت لها ليلى :

— افتحي يا سيدتي هذه الحجرة .

فبهتت هند وأخذت تنظر الى حنظلة الكندي نظرات مفعمة باليأس والرجاء معاً ففطن الشيخ الى هذا القلق الذي يقرض نفسها فتخلج ولكنه بقي صامتاً ولم يرفع عينيه الى وجهها الذابل فنزعت هند الى الشيخين الغسانيين ونظرت اليهما نظرات راجية فراحا صامتين فاعتصرها اليأس وطغى الالم على نفسها فنظرت الى ابي سفيان وحسان وشرحبيل ولكن جميع هؤلاء كانوا في مثل حيرتها وكانوا لا يجدون حلا لتلك المعميات .

وبغتة صاحت ليلى :

— افتحي هذه الحجرة يا سيدتي .

وكان صوتها رهيباً وجليلا معاً فشعرت هند بأثره الشديد في روحها فألوت رأسها إلواء حزيناً ومشت الى ناحية الحجرة ولكن يدها ظلت ترعش فبقي الباب موصداً فقالت ليلى :

— افتحي هذه الحجرة يا سيدتي .

وخرج صوتها من صدرها في هذه المرة رقيقاً عذباً فاطمأنت هند الى جرسه الشجي الفاتن فقالت :

— ولكن في هذه الحجرة التي ظلت موصدة سبعة عشر عاماً ودائع ابي ياسيدي البطل وقد حملتها عمتي معها من القسطنطينية وأرادت لها عزلة مديدة في هذه الحجرة ومنعت الناس ان يقربوها قبل ان تنهي طوافها .

قالت ليلى بلهجة حلوة :

— هذا صحيح يا سيدتي ! ولكن كندة التي ناضلت في سبيل الحرية في ارض العراق قد أرادتني على حمل تحيتها الى ودائع ملكها البطل . افتحي الباب يا سيدتي ! افتحي الباب يا سيدتي !

واختنق صوتها من فرط الالم فشجيت هند واقبلت على الباب ففتحته في كثير من الرفق ، ولما انحسر افق الحجرة امـــام الجميع وتراءت اسلحة امريء القيس ،

ودروعه على الجدران وثبت ليلى الى تمثال صغير من المرمر كان في احدى زوايا الحجرة فاخذته في يدها صائحة :

— لقد طويت لجج البوسفور الكامدة ، وعبرت الجبال والاودية ، والصحراء والمدن الوارفة ، ثم عدت اليك في هذا الصباح حاملة الى روحك الكبيرة تحية كندة المنتصرة في ذي قار ، بل تحية بكر بن وائل وربيعة وتغلب وجميع العرب !

وادنت التمثال من فمها وراحت تقبله في كثير من الورع والخشوع ، ثم التفتت الى ابي سفيان وحسان والى الجميع ونزعت لباسها البالي فاذا ذلك الرداء الازرق يبين للناس فصرخت هند صرخة اليمة !

— عمتي ! عمتي .

ثم سقطت على الارض فأكبت ليلى عليها مسفوعة باكية ، وكان المشهد مؤثراً شجياً فجعل حنظلة يبكي وطفق الشيخان الغسانيان يرعدان من الخوف والحزن والطرب .

ولما فتحت هند عينيها قالت لها ليلى !

— نعم انا هي عمتك ايتها التعسة وقد كان ينبغي لي انقل تحية كندة الى سلاح ابيك ففعلت ، وراحت تلثم شعر هند في كثير من الحنو والرأفة والجزع والحب وهند تهمس :

« لم يكذبني احساسي حينما كذبتني عيناي فلقد كان احساسي يقول لي : ان هذه الكلمات البليغة لا يقولها غير شريف كندي او شريفة كندية !

وعانقت عمتها عناقاً شديداً ! ؟

الفصل الاربعون

الخـــاتمة

في صباح اليوم الثالث من النصح استأنفت اميرة كندة احاديثها عن ذي قار فوصفت نهاية الاعشى الشـاعر بلغة بارعة فخمة اذرت دموع الذين احتواهم قصر مارية العفراء ثم سكتت واخذت تنظر من الشرفة الى الطريق التي اعتادت القوافل ارتيادها في خلال رحلاتها الى العراق فحيت ارض ذي قار وحملت اليها في هــذا الصباح الندي المعطر تحية ارض الشام ثم ازورت عن الشرفة وجلست بين حنظلة الكندي وهند واردفت :

« برح الاعشى قصر الخورنق في ليلة قمراء وقد اعتزم ان يقضي ايامه الباقيات في ذي قار عن كثب من الارض المقدسة التي ضمت اليهـا نفوساً غالية كريمة ولم يشأ الشاعر ان يرافقه احد في هذه الرحلة الماجدة بل فضل ان تكون اشعاره واغانيه كل حاشيته المضيئة .

ولما لاحت له ارض ذي قار ، وصافحت عينـاه الذرى والسفوح والاودية لم ير اثراً لذلك العالم الجائش المتحمس الذي انتزع النصر من الفرس فاشجته هـذه الوحدة وكاد يشعر بيأس شديد لولا ان هزته اعراف الحرية والمجـــد الطائرة في افق ذي قار الى رجاء حلو عذب فنسي شجون الوحدة واطمأن الى الطواف بالاودية والسفوح الطافحة بقبور الحماة والغطاريف من ربيعة وبكر بن وائل وشيبان ثم اخذ يغني وهـــو يطوف بهذه المضاجع اغنية النصر والليل السـاكن الوادع يردد اشعاره في الفضاء النشوان .

اثارت الاناشيد كبرياءه فادرك وهو يقبض بيده على تراب ذي قار روعة ذلك النصر الذي وضع حداً لغزوات الفرس في بلاد العرب وآمن بقدرة الوطن على

التوغل في الامصار الاجنبية التي غزت في الماضي ربوع الشام والعراق فظل يغني حتى اخذته رعدة شديدة ، فجمدت اغانيه على شفتيه ، فرمى بربابته الى الارض ومضى الى شجرة منعزلة ففيأته ظلالها ثم اغمض عينيه الى الابد .

وفي اليوم التالي مرت بكر بن وائل بذي قار فحفرت للشاعر قبراً غالياً عن كثب من قبور الذادة والغطاريف !

ولما سكتت اميرة كندة صاحت هند :

وارحمتاه للشاعر النابه ! ثم بكت بكاء شديداً .

وعادت اميرة كندة الى حديثها فوصفت خروجها من العراق تحت ذوائب الغسق على بعير حملها الى ارض الشام مع القوافل ثم وصفت دخولها الى منين في اليوم الاول من عيد الفصح وذكرت طوافها بالازقة والاحياء ومرورها بجانب البيعة وتهافت الناس عليها من كل حدب وصوب ونفورهم من سحنتها ثم عرضت لذكر المرأة ذات الملابس السوداء التي لقيتها في الغابة فاطرت رأفتها بها وحنوها عليها ثم قالت :

« ولقد اخذت هذه المرأة تعرض علي بعض ازهارها ورياحينها وكانت تنظر الي في كثير من الحزن حتى لقد لمست في نظراتها الشاردة صور الامي واشجاني ولكني سألتها ان تحتفظ بزهرها فمضت في طريقها واجمة ملتاعة »

وكانت هند تصغي لهذه الاحاديث اصغاء شديداً فلما بلغت ليلى في قصتها هذا المدى قالت هند بلهجة رقيقة :

— انا هي تلك المرأة التي حملت اليك ازهارها ، لقد كنت ارى الناس يمضون في الاستهتار بالامك البادية ، فامضني حزنك وروعني الملك فطفرت اليك احاول تهدئة نفسك الزاخرة وانا لا ادري معنى تلك العاطفة التي حببت شجونك الى نفسي .

فقالت سيدة كندة :

— ولما احتوتني جنة القصر عرضت لي هذه الحادثة فتمثلت حزنك وجواك

وانت تنظرين الي فقلت في نفسي ان في صورة هذه المرأة شيئاً كثيراً من ملامح هند .

فقالت هند :

ـ اظن آلامنا قد انتهت يا عمتي ؟

فقالت ليلى :

« نعم ان آلام اسرة امريء القيس بن حجر ذلك الملك المنكود الحظ قد انتهت ولكن هنالك آلاماً كثيرة مازال الذين يقاسونها ويعانونها يرجون لها ختاماً !

ـ واي آلام تعنين يا عمتي ؟

ـ آلام الشام والعراق فان الرومان والفرس مازالوا يغطون آفاق هذه البلاد باشباحهم الراعبة على انني لا اظن فجر الخلاص يبطيء في بزوغه على الجبال والمراعي والسهول والانهار لأن الله قد وعد رسوله بالنصر .

فتهلل وجه هند واشرق والتفتت الى حسان قائلة :

ـ حدثني ايها الشاعر عن سيد قريش ! بل حدثني ياسيدي الشاعر عن سيد العالم

فجعل حسان يقص على الحاضرين شيئاً كثيراً من روائع الرسول وليلى اميرة كندة ترعش من الحماسة وهند في غشية لذيذة .

ولما اطفلت الشمس برح الجميع القصر وصعدوا في روابي جبل سنير فظللهم المساء وتراءت لهم المدينة الخالدة عن بعد وهي تسبح في بحر من الضياء وانحسرت امامهم البيع والصوامع والمحاريب والاعمدة والقصور والكرمات البيضاء فبهرتهم الوان الطفل وهي تخطف على الجنات والانهار والجبال واخذتهم هذه التحاسين التي غمرت السفوح والاودية فظلوا محدقين الى المدينة الخالدة مشفقين ان تماس صورتها من صدورهم وقلوبهم .

في تلك الاثناء وتحت اعراف المساء الساجية اومضت اميرة كندة بيدها الى المدينة الخالدة وطفقت تدل هنداً على القصور والمحاريب والجنات ثم قالت لها :

« في قلب هذه التحاسين سيبني سيد قريش مدينته الفاضلة فلا يفارقها نوره وبهاؤه

فتمايدت هند من فرط الحماســـة ومضت تهمس باسم سيد قريش همساً لذيذاً حملته اعراف المساء الى دمشق وجنانها وجبالها وانهارها ثم رمت نفسهـــا بين ذراعي عمتها صائحة :

ـــ ناشدتك الله ياعمتي ان تحدثيني دائماً عن سيد العالم

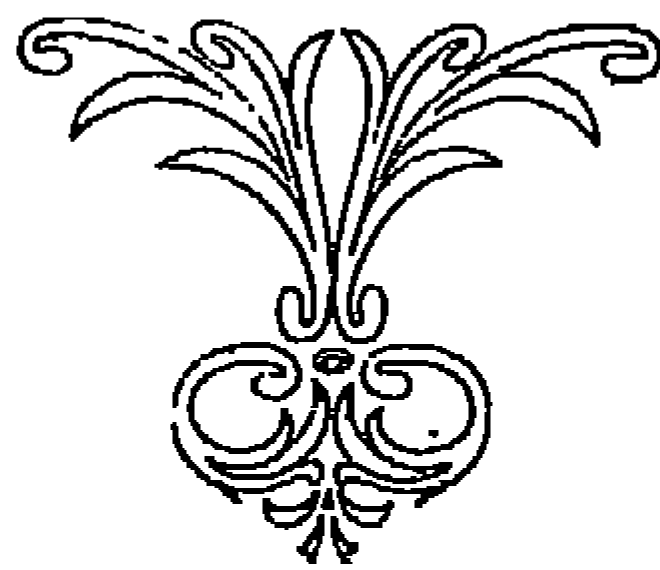
فقالت ليلى وعيناها تنظران الى ناحية الصحراء .

ـــ اترين الى هذه الرمال الوردية التي تتراءى في الافق البعيد ؟

قالت : نعم ، فقالت ليلى :

ـــ من هذه الرمال سيخرج الشعب العربي الى نواحي العـــالم ليبني المدن والصروح والمعابد تحت راية سيد قريش .

فلم تنبس هند ، بل ظلت تنظر تارة الى الصحراء وتارة الى دمشق حتى افنت تصوراتها واحلامها في عالم « سيد قريش » . ؟



مصادر سيد قريش

الكتب العربية

الاغاني ، العقد الفريد ، تاريخ ابن الاثير ، تاريخ ابن خلدون ، معجم البلدان ، السيرة النبوية ، سيرة ابن هشام ، كتاب الطبقات الكبيرة لأبن سعد ، السيرة الحلبية ، تاريخ ابن عساكر ، ديوان الحماسة ، ديوان النابغة الذبياني ، كتاب المعلقات السبع .

الكتب الاجنبية

تاريخ العرب لكليمان هيار ، تاريخ العرب قبل الاسلام لكوسين دي برسفال ، العرب في سورية قبل الاسلام لرينه دوسو ، تاريخ العرب لسديو ، بطرا والانباط لكامرر ، سيناء وبلاد الانباط للاستاذ ادمون كار ، جزيرة العرب قبل الاسلام للكونت دي ساسي ، كتاب امراء غسان لنولدكي الالماني ، تاريخ فارس القديمة لكليمان هيار ، ادب العرب لكليمان هيار ، جزيرة العرب قبل الاسلام لجويدي الايطالي ، بزنطية لشارل دوهل ، القسطنطينية لشارل دوهل ، الشرق البيزنطي لشارل دوهل ، الفن البيزنطي في الشرق لشارل دوهل ، موت استامبول للدكتور اورانشه ، التاريخ العام لارنست لافيس وارمان رامبو ، رافين لشارل دوهل

مصادر الصور

بطرا وبلاد الانباط لكامرر ، كتاب القسطنطينية لشارل دوهل ، رافين لشارل دوهل .%